

رسائل التزكية والترقية

(٤)

معارف النفس الراضية

أربعون رسالة في ثمرات السلوك التحققي

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب البحث عن المعارف الكبرى للنفس المطمئنة، والتي تجعلها موصوفة بالرضى، كما قال تعالى: {ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً [الفجر: 28]، وقد ركزنا فيه خصوصا على أمرين:

1ـ تطهير تلك المعارف مما علق بها من الدخن الذي أصاب كتب التزكية والسلوك، بحيث اختلطت معارفها المستنبطة من المصادر المقدسة بغيرها من المصادر الأجنبية: إما ذات التوجه العقلي، كالفلسفة بمدارسها المختلفة، أو ذات التوجه الإشراقي والغنوصي، والذي قد يظهر في صورة كشف أو شهود أو إلهام.

2 ـ بيان علاقة تلك المعارف بالرضا والسكينة والطمأنينة، وهو مما يدخل في أبواب المقاصد العقدية، والتي لا تكتفي فقط بتقرير الحقائق الإيمانية، ولا البرهنة عليها مثلما يفعل المتكلمون، وإنما تضيف إليها أبعادها وآثارها النفسية، وعلاقتها بالسلوك والتزكية والتربية.

ذلك أن المعارف الإيمانية لا يقتصر أثرها على تعريف المؤمن بحقائق الوجود، وإنما يتعداه إلى تأثيره في السلوك، ولذلك كان من علامات صدق الإيمان رقي السلوك.

رسائل التزكية والترقية

(4)

معارف النفس الراضية

أربعون رسالة في ثمرات السلوك التحققي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1441 ـ 2019

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يحـاول هـذا الكتـاب البحث عن المعـارف الكـبرى للنفس المطمئنة، والـتي تجعلهـا موصـوفة بالرضـى، كمـا قـال تعـالى: ﴿ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [الفجر: 28]

وبما أن الرضـا مرتبـط بالحقـائق والمعـارف، لا بالسـلوك والقيم، فقد اهتممنـا في هـذا الجـزء بتلـك المعـارف الـتي تملأ النفس بالرضا، كما اهتممنا في الأجزاء السابقة بالقيم والأخلاق التي تقوم عليها النفس المؤمنة الطيبة المطمئنة.

والمعـارف الـتي تحقـق الرضـا هي المعـارف المرتبطـة بحقائق الوجود الكبرى، والتي نصت عليها النصـوص المقدسـة، وتذوقها السالكون إلى الله خير تذوق بعـد تطهـير أنفسـهم من كل المثالب التي كانت تحول بينهم وبينها.

وقد ركزنا في هذا الجزء خصوصا على أمرين:

أولهما ـ تطهير تلك المعـارف ممـا علـق بهـا من الـدخن الـذي أصـاب كتب التزكيـة والسـلوك، بحيث اختلطت معارفهـا المستنبطة من المصادر المقدسة بغيرها من المصادر الأجنبيـة: إما ذات التوجه العقلي، كالفلسفة بمدارسها المختلفــة، أو ذات التوجه الإشراقي والغنوصي، والذي قد يظهر في صورة كشــف أو شهود أو إلهام.

وهـذا لا يعـني رفضـنا كـل مـا ذكـره الفلاسـفة والحكمـاء والإشـراقيون وأصـحاب الكشـف والشـهود، وإنمـا عرضـنا مـا ذكروه على النصوص المقدسة، فما قبل منها قبلناه، وما رأيناه دخيلا رفضناه.

وهذا لا يعني كذلك اتخاذنا موقفا سلبيا ممن ابتدع في تلك المعارف ما لم ترد بـه النصـوص المقدسـة؛ فنحن لا يهمنـا في هذه السلسلة وغيرها الحكم على أحد من الناس؛ فاللـه تعـالى أدرى بالسرائر وأعلم بخلقه.

ثانيهما ــ بيـان علاقـة تلـك المعـارف بالرضـا والسـكينة والطمأنينة، وهو مما يدخل في أبواب المقاصد العقديـة، والـتي لا تكتفي فقط بتقرير الحقائق الإيمانية، ولا البرهنة عليها مثلمــا يفعل المتكلمون، وإنمـا تضـيف إليهـا أبعادهـا وآثارهـا النفسـية، وعلاقتها بالسلوك والتزكية والتربية.

ذلك أن المعارف الإيمانية لا يقتصر أثرها على تعريف المؤمن بحقائق الوجود، وإنما يتعداه إلى تأثيره في السلوك، ولذلك كان من علامات صدق الإيمان رقي السلوك.

وإنما قصدنا هذا في هذا الكتاب وغيره، حتى نرد على تلك الطريقة الجدلية التي طُرحت بها العقائد الإسلامية، والتي حولتها إلى ساحة للصراع بين المتكلمين والطوائف، لا إلى ساحة لتعميق الإيمان، وتحبيب الله تعالى إلى خلقه.

ومثل ذلك تحولت كتب العرفان النظري إلى ساحة لكل الخرافات والأساطير والدجل، حتى أصبح علم السحر والأوفاق والطلاسم من علوم العرفان.. وأصبح أي شخص يدعي الكشف مخولا بأن يصف العالم الآخر، وكأن الوحي يوحى إليه، وكأن ما ورد في العقائد التي وردت بها النصوص المقدسة غير كافية؛ فلذلك احتاجت إلى ألسنة العارفين ليكملوها.

ولذلك فإن هذا الكتاب مع اشتماله على المباحث الأساسية التي تبحث عادة في كتب الفلسفة والكلام والعرفان إلا أنه خلا من كل التفاصيل التي يوردونها، والتي لا دليل عليها، لا من العقل المجرد، أو من الوحي المسدد.. بالإضافة إلى اختلافهم فيها، وهو ما يدل على أنها ليست من بديهيات العقول، ولا من بديهيات الكشف والشهود.

الحقائق والأوهام

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تشكرني على تلك الرسائل التي أجبتك فيها على منازل النفس المطمئنة، وأخبرتني أنك استطعت من خلالها أن تفهم الأصول الكبرى للتزكية والترقية، مع الكثير من تفاصيلها، وأن ذلك العلم لم يعد محصورا فقط في عقلك، وإنما تسلل إلى نفسك وجوارحك؛ فكساها بكل ألوان الفضائل.

وأخبرتني أنك بسبب رفع همتك عن الأكوان.. صرت تطمح إلى التعرف على حقائق الوجود والكون والإنسان والحياة.. وأنك لذلك لجأت إلى الكثير من كتب العرفان، لكنك لم تستطع فهم مضامينها، ولا فك ألغازها، ولا التعرف على الحقائق المنطوية في مفرداتها ومصطلحاتها الكثيرة.

وأخبرتني أن الأمر لم يتوقف على ذلك، وإنما شعرت بإنكار نفسك لبعض ما يذكرونه في تلك الكتب، التي ألفها من يعتبرون أنفسهم أو يعتبرهم أصحابهم من كبار العارفين والحكماء والقديسين والأولياء الذين لا يجوز مناقشتهم، ولا نقدهم، لأن علومهم من مشكاة الغيب، لا من مشكاة الشهادة.

وأخبرتني أن ذلك أزعجك كثيرا، لأنك صرت تشعر أنك لست أهلا لتلك المعارف العظيمة، وأن جهلك بمفرداتها ومصطلحاتها وألغازها سيجعلك في مرتبة العوام الذين لا يحلمون أبدا أن يصلوا إلى مرتبة الخواص، أو خواص الخواص.

وقد ذكرت لي أمثلة كثيرة عما ذكروه مما لم تستسغه نفسك، ولا عقلك، من أمثلة الحروف وأسرارها، والعلوم وأنواعها، والفتوح وأسبابها، وغير ذلك مما لم تجده في نفسك رغم مجاهداتك الكثيرة.

وذكرت لي من النماذج عنها قول بعضهم في المزج بين ما يسمونه أسرار الحروف وعلم الفلك: (الحروف لظاهر النفس الرحماني: هي منازل عددها عدد منازل القمر ويقال لها: التعينات، وهي: العقل الأول ثم النفس الكلية ثم الطبيعة الكلية ثم الهباء ثم الشكل الكلي ثم الجسم الكلي ثم العرش ثم الكرسي ثم الفلك الأطلس ثم المنازل ثم سماء كيوان ثم سماء المشتري ثم سماء المريخ ثم سماء الشمس ثم سماء

الزهـرة ثم سـماء عطـارد ثم سـماء القمـر ثم عنصـر النـار ثم عنصر الهواء ثم عنصـر المـاء ثم عنصـر الـتراب ثم المعـدن ثم النبات ثم الحيوان ثم الملـك ثم الجن ثم الإنسـان ثم المرتبـة.. وفي مقابلتهـا على الـترتيب حـروف بـاطن النفس الرحمـاني: وهي الاسم البديع ثم الباعث ثم الباطن ثم الآخر ثم الظـاهر ثم الحكيم ثم المحيط ثم الشكور ثم الغني ثم المقتدر ثم الرب ثم العليم ثم القاهر ثم النور ثم المصور ثم المحصي ثم المـبين ثم القابض ثم المحي ثم المميت ثم العزيز ثم الرزاق ثم المذل ثم القوي ثم اللطيف ثم الجامع ثم الرفيع)[1]

ومنها قـول آخـر في أنـواع الحـروف والفـروق بينهـا: (أمـا الحروف فـالمنقوط منهـا: عبـارة عن الأعيـان الثابتـة في العلم الإلهي.. والمهمل منهما على نوعين: النوع الأول، مهمل تتعلــق به الحروف ولا يتعلق هو بها، وهي خمسة: الألف والدال والـراء والواو واللام.. والنوع الثاني، مهمل تتعلق بـه الحـروف ويتعلـق هو بها، وهي تسعة: فالإشارة بهـا إلى الإنسـان الكامـل لجمعـه بين الخمسة الإلهيـة [الـذات والحيـاة والعلم والقـدرة والارادة] والأربعة الخلقية، وهي العناصر الأربعة وما تولد منها)[2]

ومنها قول آخر في عالم الحروف والتكـاليف المناطـة بـه: (إن الحروف أمة من الأمم مخـاطبون ومكلفـون، وفيهم رسـل من جنسهم، ولهم أسـماء من حيث هم ولا يعـرف هـذا إلا أهـل الكشـف من طريقنـا. وعـالم الحـروف أفصـح العـالم لسـاناً وأوضحه بياناً، وهم على أقسـام كأقسـام العـالم المعـروف في العـرف: فمنهم... عـالم العظمـة: وهـو (هــ، ء). ومنهم العـالم الأعلى وهـو عـالم الملكـوت: وهـو (ح، خ، ع، غ).ومنهم العـالم الوسط وهو عالم الجبروت عندنا وعند اكثر أصـحابنا: وهـو (ت، ث، ج، د، ذ، ر، ز، ظ، ك، ل، ن، ص، ض، ق، س، ش، ي) الصحيحة..)[3]

ومنهـــا قـــول بعضـــهم في العلم الـــذي يســـمونه [علم السيمياء]: (صـاحب علم السـيمياء هـو من لـه سـلطان وتحكم على خيالك بخواص الأسـماء أو الحـروف أو القلقطـيرات. فـإن السـيمياء لهـا ضـروب، أكثفهـا القلقطـيرات، وألطفهـا التلفـظ

1() تفسير روح البيان، ج 4 ص 16.
2() الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، ج 1 ص 66.
3() الفتوحات المكية، ج 1 ص 58 (بتصرف)

بالكلام الذي يخطف به بصر الناظر عن الحس ويصرفه إلى خياله، فيرى مثل ما يرى النائم وهو في يقظته)[1]

وغيرها من الأمثلة الكثيرة التي تتعلق بحقائق الوجود والكون والإنسان، وربما تفسر القرآن الكريم بطريقة غريبة لم تعهدها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن معارف النفس الراضية، هي المعارف التي تملؤها بالرضا والطمأنينة والسكينة، لا المعارف التي تملؤها بالقلق والانزعاج..

وذلك لأنها حقائق معصومة، مصدرها الوحي، الذي لم يختلط بالأهواء، ولم تتسلل إليه أوهام النفوس، ولا وساوس الشياطين.

ولذلك؛ فإن كل معرفة تتناقض أو تتصادم مع تلك الحقائق المعصومة، أو تدعي لنفسها معرفة ما لم تذكره؛ فهي حقائق مملوءة بالشبهات، ولا يمكن للشبهات أن تكون مصدرا لأولي الألباب الذي لم يخلطوا الحقائق المعصومة بأي شيء آخر.

لذلك لا عبرة ـ أيها المريد الصادق ــ بكثرة المعارف، ولا بكثرة المصطلحات والمفردات المرتبطة بها.. ما دامت لم ترد إليك من مصادر معصومة موثوقة لا يتطرق إليها الشك، ولا يتسلل إليها الشيطان.

وإلا فإن كل علم يتسلل إليه الوهم، أو يتطرق إليه الشيطان علم لا ثقة فيه، ولا يمكن أن تعتبر صاحبه عالما ولا عارفا، وكيف تعتبره، وهو لا يستطيع أن يثبت لك ما يقوله لا بالعقل المجرد، ولا بالوحي المسدد؟

وأنا لا أدعوك من خلال هذا لتكذيبه، أو لاعتباره ملفقا ومزورا وكاذبا، أو كافرا أو زنديقا كما يذكر المحجوبون.. فمن يفعل ذلك يكون كمن رد الخطأ بالخطيئة.. والوهم بالجريمة..

فأولئك الذين يذكرون تلك التي يسمونها معارف، متيقنون مما يقولونه، ويعتبرونه ثابتا عندهم.. لكنه لا يصح أن يصير ثابتا عند غيرهم ما لم يدل عليه الدليل المعصوم، وإلا ألّف كل من رزق الولاية والصلاح رسالة في العقائد يضاهي بها النبوة، ويدعي أن حقائقها غير كافية.

ولذلك أنصحك ـ أيها المريد الصادق ـ بأن تترك كل ذلك، وتفعل ما نصحك به نبيك ﷺ حين رأى بعض أصحابه يحمل كتابا

1() الفتوحات المكية، ج 3 ص 43.

أصــابه من بعض اليهــود، فغضــب رســول اللــه ﷺ، وقــال: (أمتهوكـون فيهـا يـا ابن الخطـاب؟! والـذي نفسـي بيـده، لقـد جئتكم بها بيضاء نقيـة، لا تسـألوهم عن شـيء فيخـبروكم بحـق فتكذبوا به أو بباطـل فتصـدقوا بـه، والـذي نفسـي بيـده لـو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا مـا وسـعه إلا أن يتبعـني) [1]

فهذا الحديث يخبر أن دين الله أبيض نقي صاف ليس فيــه أي دنس أو شبهة تمنع العقل السليم من التسليم لـه، لكن هـذا الأبيض يمكنه أن يتحـول إلى أسـود إذا مـا اختلـط بغـيره، فهـو لشدة بياضه وجماله أسـرع الأشـياء إلى التلـوث إذا لم يحافـظ عليه.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطــل وإمـا أن تكذبوا بحق، وإنه ـ والله ـ لو كان موسـى حيـا بين أظهـركم ما حل له إلا أن يتبعني)[2]

وهـذه النصـائح النبويـة الغاليـة ليسـت قاصـرة على ذلـك الـتراث الـذي تسـلل إلى المسـلمين عن طريـق أهـل الكتـاب، وإنما تشمل أيضا ذلك التراث العـريض الـذي ألفـه المسـلمون، وملأوه بالدخن الذي وقع فيه أهل الكتاب من قبلهم.

ولذلك.. أقول لك بأنه لا شك أن لكل شيء في هذا الكون أسراره الكثيرة الخاصة به.. حتى الحروف لها عالمها وأسرارها وحقائقها.. لكن فرق كبير بين أن تؤمن بعظمة اللــه تعـالى في خلقه وتدبيره لكونه، وبين أن تدعي معرفة الحقــائق المرتبطــة به من دون أن يكون لـك معلم معصـوم تُحفـظ بـه من أن تقـع في الأوهام.

لذلك كان البحث في تلـك العلـوم مثـل البحث في العلـوم التي لا تنفع، والجهل الذي لا يضـر.. بـل إن العلم بهـا قـد يضـر لأنها توهم صاحبها أنه يعلم حقائق الوجود، ولعلـه أجهـل النـاس بها.

لهذا.. فإن علوم النفس الراضـية ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ ليست من جنس هذه العلوم، بـل هي تقريـر للحقـائق القرآنيـة المرتبطـة بـالوجود والكـون والحيـاة والإنسـان وغيرهـا.. وفيهـا

1() رواه أحمد: 3/ 387 ح (15195)

2() غاية المقصد فى زوائد المسند، (1/ 92)

الكفاية لمن يريد أن يسلك إلى الله، ويمتلئ بتنزيهه وتعظيمه.. أما التفاصيل المرتبطة بالأشياء؛ فإن السالك الصادق لا يشتغل بها، لا احتقارا لها، وإنما لافتقاده للطريق إليها، والأستاذ المعصوم الذي يعلم علومها.

قد يقال لك ــ أيها المريد الصادق ــ بأن الخلوات هي الطريق إليها، وأن الملتزم بها تفتح له غرائب العلوم ويرى عجائبها.. وذلك مما لا أستطيع أن أنكره أو أكذبه.. لكنه يظل حالا محدودا بصاحبه، لأن الأخطاء قد تعتريه، والأوهام قد تتلبس به.. لذلك كان إدخاله إلى السلوك والتربية والتزكية نوعا من التنفير عنها، والحجاب بين السالك الصادق وبينها.

بناء على هذا كله، اعلم ــ أيها المريد الصادق ــ أنك لن تختلف عن قومك ـ عند سلوكك الصادق لله ـ في العلوم التي يعرفونها، بل قد يوجد فيهم من لديه من ظواهر العلوم ما ليس لك.. ولكن العبرة ليست بتلك العلوم، وإنما بتلك الطمأنينة لها، والرضا عنها، والذي يجعل قلبك مرآة تتجلى فيه الحقائق كما هي، وبصورتها الجميلة التي قد تعبر عنها بنفس تعبير الآخرين، ولكن تعبيرك ناشئ عن رؤية، لا عن حفظ.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ــ مثالا يقرب لك هذا.. فاعلم أن معارف السالكين بدرجاتهم المختلفة تشبه جمعا من الناس أصحاب قدرات بصرية مختلفة تبدأ بالبصير الذي يرى الأشياء كما هي، وبدقة عالية.. وتنتهي بالأعمى الذي لا يرى شيئا.. وقد كُلفوا جميعا بوصف شيء أمامهم.

أما البصير فراح يصف ما رآه.. وكما هو.. وأما غيره فراح يقلد ما قاله غيره، ويكرر ما ذكره.. حتى الأعمى، وبذاكرته القوية ردد كل ما وصفه غيره، وربما بدقة أكثر.

فهكذا حال العارفين.. فهم لا يضيفون شيئا جديدا للمعارف التي جاءت بها النبوة، وإنما يرون تلك المعارف بصورة أدق من تلك التي يراها أصحاب البصر الضعيف.

لذلك كان الطريق إلى الله هو التحقق بالمعارف التي جاءت بها النبوة، وتحويلها من معارف ذهنية قد تتلاعب بها تقلبات القلوب إلى حقائق مقررة في النفوس لا يمكن أن تقلع بأي حال من الأحوال، لأنها معارف ناشئة عن رؤية وبصيرة، لا عن تقليد واتباع.

وإن شئت دليلا على ذلك فتأمل فيما ورد في الحديث

الشريف الذي حدث به الحارث بن مالك الانصاري، قال: مررت بالنبي ﷺ فقال: كيف أصبحت يا حـارث؟ قلت: أصـبحت مؤمنـا حقا، فقال: انظر ما تقول! فان لكـل شـئ حقيقـة فمـا حقيقـة إيمانك؟ قلت: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظـر إلى أهـل الجنـة يـتزاورون فيهـا، وكـأني أنظـر إلى أهـل النـار يتضاغون فيها، فقال: (يا حارث! عرفت فـالزم)[1]، وفي روايـة أن رسول الله ﷺ قال له: (أصبت فالزم.. مؤمن نور الله قلبه)

فرسول الله ﷺ في هذا الحـديث لم يطلب من صـاحبه أن يصف له بدقة ما رآه، ولا أن يذكر له العلوم التي تعلمها، وإنمـا اكتفى منه بـذلك، وأخـبر أن قـد تنـور قلبـه بالإيمـان، وأن ذلـك النور هو الذي أتاح له أن يرى الحقائق التي كـان محجوبـا عنهـا بسبب افتقاده للنور.

وذلك الصحابي لم يخـرج للنـاس، ويـذكر لهم تفاصـيل مـا رآه، ولا العلوم التي تعلمها، وإنما بقي تلميذا وفيا للنبـوة، يـردد الوحي الذي يتنزل على رسول الله ﷺ، ويحفظ الأحـاديث الـتي يسمعها منه، ولا يكلف نفسـه بـأن يضـيف شـيئا جديـدا، لـوحي ربه، أو لسنة نبيه.

فلذلك ـ أيها المريد الصادق ـ لا تنتظر مـني أن أشـرح لـك تلك الكلمات الغريبة، ولا المعـاني المرتبطـة بهـا.. فهي ليسـت قرآنا معصوما، ولا أحاديث مروية عن معصومين حتى نجتهد في فهمها، أو البحث عن الحقائق المرتبطة بها.. وإنمـا هي كلمـات من بشر كسائر البشـر، قـد يقبـل منهم، وقـد يـرد عليهم، وقـد يكتفى بالإعراض عنهم.

أما ما يذكرونه من مشـاهدات ورؤى ومعـارف لا تصـطدم مع النصوص المقدسة.. فهي مما يمكنك الإعراض عنه من دون أن تنتقده، أو يمكنك قبوله من باب حسن الظن بقائلـه، أمـا إن اصطدم معها، أو كان إضافة مهمة لها؛ فإن دينك يدعوك لردها، ونقدها وتكذيبها.

وكيف لا تفعل ذلك، وقد ورد في الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ خطب النـاس بمـنى، فقـال: (أيّهـا النـاس، مـا جـاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جـاءكم عنّي يخـالف كتـاب اللـه

---

[1]() رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم.

فلم أقله)[1]

وسأل بعضهم الإمام الصادق عن: اختلاف الحديث يرويه من نثق به، ومنهم من لا نثق به؟ فقال: (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب الله، أو من قول رسول الله ﷺ، وإلا فالذي جاءكم به أولى به)، وفي رواية أخرى: (ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف)[2]

فإذا كان هذا هو الحال والموقف من أحاديث نبيك ﷺ، وأحاديث أئمة الهدى من بعده؛ فكيف بأحاديث غيرهم؟

فاحرص ــ أيها المريد الصادق ــ على المنابع الصافية، واكتف بها؛ فقطرة من المنابع المكدرة قد تفسد عليك كل شرابك..

واعلم أنه لن يشرب من حوض النبوة يوم القيامة إلا من صفوا مشاربهم، وابتعدوا عن كل حدث يبعدهم عن هدي النبوة والورثة الذين أوصى بهم، وقد ورد في الحديث عنه ﷺ: (ألا ليذادنّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضّالّ أناديهم: ألا هلمّ! فيقال: إنّهم قد بدّلوا بعدك. فأقول سحقا سحقا)[3]

فإياك أن تبدل أو تغير، أو تضيف من عندك إلى عقائد الدين أو شرائعه ما لم يدل عليه الدليل؛ فتكون كذلك التلميذ الذي امتحنه أستاذه ببعض الأسئلة؛ فظن أنه ان اكتفى بما درسه أو بما يجيب به زملاؤه يكون مقصرا، فراح يضيف من عنده ما لم يثبت، فصار مسخرة عند أستاذة وزملائه، وسبقه أولئك البسطاء الذين اكتفوا بترديد ما درسوه.

فلا يمكنك أن تصل إلى مراتب الخواص بترديدك لتلك المصطلحات التي تنسب إليهم، ولا بتلفيقك لتلك الجمل الغامضة التي تحفظ عنهم.. وإنما تصل إليها بترديدك للأذكار، وتلاوتك للقرآن.. وفتح بصيرتك لتشاهد الحقائق كما هي، لا كما يصفها لك من يزعم أنه شاهدها.

1() الكافي،1/ 69.

2() بحار الأنوار، ج 1/ 144 و145.

3() رواه مسلم.

الثبوت والإثبات

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تستغرب ما ذكرته لك في رسالتي السابقة، وتذكر لي أنه يخالف ما تعارف عليه أهل السلوك من الثقة في أولياء الله والعارفين به في كل ما يذكرونه من معارف وحقائق، والتسليم لهم، واعتبار ذلك نفسه ولاية لله تعالى، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (التصديق بعلمنا هذا ولاية، وإذا فاتتك المنّة في نفسك فلا تفتك أن تصدّق بها في غيرك) [1]

وقال آخر: (من آداب مجالسة الصديقين أن تفارق ما تعلم لتظفر بالسر المكنون)

وقال آخر: (إن أردت أن تظفر بما عند الصالحين من السر المكنون فأسقط عنهم الميزان في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وأما ما دمت تزن عليهم بميزان علمك فلا تشم رائحة من سرهم)[2]

وقال آخر: (طريقتنا لا ينال منها شيئا إلا من يصدق بالمحال؛ فإن أردت أن يهب عليك نسيم أسرارهم ونفحات مواهبهم فدع ما تعرف إلى ما لا تعرف، واغتسل من علمك وعملك حتى تبقى فقيرا إلى ما عندهم) [3]

وقال آخر: (الناس على أربعة أقسام: القسم الأول: حصل لهم التصديق بعلمهم، والعلم بطريقهم، والذوق لمشروبهم وأحوالهم، والقسم الثانى: حصل لهم التصديق والعلم المذكوران دون الذوق. والقسم الثالث: حصل لهم التصديق دونهما، والقسم الرابع: لم يحصل لهم من الثلاثة شىء، ونعوذ بالله من الحرمان، ونسأله التوفيق والغفران) [4]

وذكرت لي أنك خائف من أن تصير من أهل القسم الرابع أولئك المحرومين من التحلي بالحقائق بسبب إنكارهم على الأولياء والصالحين، وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تسلم لهم كل ما ذكروه.. ولذلك صرت في حيرة بين الأمرين.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن ما روي عن

1() الكواكب الدرية (1/ 573)
2() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 435.
3() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 435.
4() روض الرياحين فى حكايات الصالحين، ص: 10.

الصالحين من معان نوعان:

أولهما: ما لا يصح إنكاره، ولا رده، ولا التشنيع عليه مثلما يفعل الجهلة، وهو ذلك الميراث العظيم الذي تحدثوا فيه عن مراتب التزكية ومعانيها والحقائق المرتبطة بها، مما تؤيده المصادر المقدسة وتدعو إليه.

ومثل ذلك حديثهم عن الأذواق الإيمانية اللذيذة التي يجدها السالكون، مما يرغب في السير إلى الله، ويعطي النماذج الحسنة عنه.

ومثل ذلك حديثهم في المعارف الإلهية التي لا تتناقض مع المصادر المقدسة، بل قد تساهم في فهمها، وتعميق معانيها في النفس.

ومثل ذلك تعظيمهم للنبوة والإمامة والولاية وتبيين دورها في التزكية والترقية، مما يرغب السالكين في التعلق بالصالحين، وتعميق صلتهم بهم.

وغير ذلك من الحقائق والقيم الموروثة عنهم، والتي تعين السالك إلى الله على اجتياز عقبات نفسه والتخلص من مثالبه من خلال استفادته من تجارب السالكين قبله.

وأما النوع الثاني: فهو الذي يحتاج من السالك إلى التوقف فيه، أو رده، أو الإعراض عنه، وهو ذلك التراث الكثير الذي بثوه في كتبهم، والذي حاولوا من خلاله أن يضعوا الحقائق التي كشفت لهم من خلال ممارساتهم الروحية، ولا علاقة لها أصلا بالسلوك، ولا بالتزكية.

ذلك أن كتب السلوك والتزكية اختلطت في العصور المتأخرة بأمثال تلك المعاني التي لا تكتفي برسم الطريق للسالك، وإنما تصف له المعارف التي يمكن أن يصل إليها.. وأكثرها مما يحتاج إلى المصادر المعصومة، لأنها تدخل في أبواب العقائد والغيبيات، ولا يمكن لأحد أن يصف شيئا من عالم الغيب، ما لم يكن مؤيدا بالوحي الإلهي.

وقد أشار بعضهم إلى هذه الوجهة التي توجهها هؤلاء، فقال: (وربّما قصد بعض المصنّفين ذلك في كشف الموجودات وترتيب حقائقه على طريق أهل المظاهر فأتى بالأغمض فالأغمض بالنّسبة إلى أهل النّظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغانيّ شارح قصيدة ابن الفارض في الدّيباجة الّتي كتبها في صدر ذلك الشّرح، فإنّه ذكر في صدور الوجود عن

الفاعل وترتيبه أنّ الوجود كلّه صادر عن صفة الوحدانيّة الّتي هي مظهر الأحديّة وهما معا صادران عن الذّات الكريمة الّتي هي عين الوحدة لا غير. ويسمّون هذا الصّدور بالتّجلّي. وأوّل مراتب التّجليّات عندهم تجلّي الذّات على نفسه وهو يتضمّن الكمال بإفاضة الإيجاد والظّهور.. وهذا الكمال في الإيجاد المتنزّل في الوجود وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكماليّة والحقيقة المحمّديّة وفيها حقائق الصّفات واللّوح والقلم وحقائق الأنبياء والرّسل أجمعين والكمّل من أهل الملّة المحمّديّة. وهذا كلّه تفصيل الحقيقة المحمّديّة. ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهبائيّة وهي مرتبة المثال ثمّ عنها العرش ثمّ الكرسيّ ثمّ الأفلاك، ثمّ عالم العناصر، ثمّ عالم التّركيب. هذا في عالم الرّتق فإذا تجلّت فهي في عالم الفتق. ويسمّى هذا المذهب مذهب أهل التّجلّي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النّظر إلى تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه)[1]

وهذا لا يعني ـ أيها المريد الصادق ـ أن هؤلاء كاذبون في دعاواهم، ولا أنهم ملفقون لتلك الأحاديث، بل هم صادقون في الحديث عن أنفسهم، وما كشف لهم، ويجب حسن الظن بهم مثلما يحسن الظن بسائر الناس.

لكن هناك فرقا بين أن تحسن الظن بشخص، وأن تقبل كل ما يقوله.. فالثبوت يختلف عن الإثبات.. ذلك أن الثبوت أمر شخصي، ولا علاقة له بسائر الناس، وأما الإثبات فيحتاج إلى البراهين والأدلة، وهؤلاء لا براهين لهم سوى ذلك الكشف الذي حصل لهم، والذي قد يختلط فيه الحق بالباطل، والإلهام بالوسوسة.

ذلك لأن المتعرض للكشف أو الإلهام غير معصوم، وبالتالي يمكن أن تصبح للأهواء والمعارف السابقة تأثيرها فيما قد يعتقده كشفا صحيحا.

ولهذا اتفق المشايخ والحكماء سلفهم وخلفهم على عرض ما يكشف لهم على المصادر المعصومة، فإن وافقت فبها، وإلا رمي بها، كما عبر بعضهم عن ذلك بقوله: (إن النكتة لتقع في قلبي من جهة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل من الكتاب والسنة)

1() مقدمة ابن خلدون (1/ 617)

وقال آخر: (كل حقيقة لا تشـهد لهـا الشـريعة فهي زندقـة.. طِرْ إلى الحق عز وجـل بجنـاحي الكتـاب والسـنة، ادخـل عليـه ويدك في يد الرسول ﷺ)(1)

وقـال آخر: (إِذا عـارض كشـفُك الصـحيح الكتـابَ والسـنة فاعمل بالكتـاب والسـنة ودع الكشـف، وقـل لنفسـك: إِن اللـه تعالى ضمن لي العصـمة في الكتـاب والسـنة، ولم يضـمنها لي في جانب الكشف والإِلهام)(2)

ولهذا يخطئ بعضهم بعضـا في تلـك المعـارف الـتي وصـلوا إليها، ومن ذلك قول بعضهم في الكشف الذي لا يمكن اعتباره: (الكشف الذي يؤدي إلى فضل الإنسان على الملائكـة أو فضـل الملائكة على الإنسان مطلقاً من الجهتين لا يعول عليه) (3)

ويقول: (كل كشف يريك ذهاب الأشياء بعد وجودها لا يعـول عليه) (4)

ويقـول: (كـل كشـف لا يكـون صـرفاً لا يخالطـه شـيء من المزاج لا يعول عليه، إلا أن يكون صاحب علم بالمصور) (5)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فإياك أن تسلم دينك لغير المعصوم، وقل لكل شخص يريد أن يدعوك إلى أي عقيدة من العقائـد أو معرفـة من المعـارف: ﴿هَـاتُوا بُرْهَـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]

فـإن قـال لـك: برهـاني هـو الكشـف الـذي كشـف لي، أو كشف لغيري.. وأن السالك لا يحتاج إلى البرهان، بل يحتاج إلى التسليم.. فقل له حينهـا: هـل هـذه المعـارف ضـرورية للتزكيـة والترقية أم أنها ليست كذلك؟.. فإن ذكر لك ضرورتها، فـأخبره أن هذا اتهام للنبوة بالتقصير في عرض المعارف الـتي يحتاجهـا المؤمنون لتزكية أنفسهم وترقيتها.. فإن ذكر لك عدم ضرورتها، فأخبره بأن العاقل هو الذي يترك مـا لا ضـرورة لـه، خاصـة إن اشتبه أمره، ولم يميز صدقه من كذبه، وخطؤه من صوابه.

وكمثال يقرب لك هذا تلك المعارف الكثـيرة الـتي تتحـدث عن عما يسمونه [علم الأفلاك العلويـة]، والـذي عرفـه بعضـهم بأنه (من علوم القوم الكشـفية، ومنـه يعلم أهـل السـماء أكـرة

1() الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص29.
2() انظر: إِيقاظ الهمم، (2/302)
3() ابن عربي، رسالة لا يعول عليه، ص 3.
4() رسالة لا يعول عليه، ص 14
5() رسالة لا يعول عليه، ص 18.

في خيمة، أو خيمة في كـرة أو بشـبه ذلـك؟ وهـل تـدور الأرض بدورانها أم لا؟ وهل النجوم سائرة تسري في السماء أم ساكنة والسماوات دائرة بما فيها؟ وقليل من يكاشف بمـا الأمـر عليـه في نفسه)(1)

فهـذا العلم اكتفى القـرآن الكـريم بالإشـارة إلى بعض الحقائق المرتبطة بـه، كقولـه تعـالى: ﴿ وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبيـاء: 33]، ثم ترك الأمر بعد ذلك للعلماء باستعمال وسائلهم للبحث فيـه.. مـع العلم أن تفاصـيله لا علاقـه لهـا بالتزكيـة ولا بالترقيـة، ولا بالمعرفة الإلهية، ذلك أنها كلها تنبع من قدرة الله المطلقة التي لا حدود لها.

ولكن مع ذلك نجـد للأسـف من ذكـر الكثـير من المعـارف المرتبطـة بهـذا الجـانب، والـتي يـذكر أنـه تلقاهـا عن طريـق الكشف، وكان في إمكانه أن يكتفي بالاحتفاظ بها لنفسه لعـدم قدرته على إثباتهـا لغـيره، لكنـه لم يفعـل، وراح يشـغل أوقـات السالكين بعلوم لا دليل عليهـا من النقـل ولا من العقـل ولا من العلم.

ومن الأمثلـة على ذلـك خـوض بعضـهم في تـاريخ الأفلاك ونشأتها، مع أن الله تعالى قال: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: 51]

لكن هـؤلاء أبـوا إلا أن يفصـلوا في تلـك التـواريخ، وكـأنهم رأوها رأي العين، وقد قال بعضهم في ذلك: (لما كمل الكرسـي واستقر فيه الملأ الأمري، أحال أنوار السبعة الأعلام فكان عنهـا السبع الطرائق متماسـة الأجـرام جعلهـا سـقفاً مرفوعـاً لمهـاد سيكون إذا توجه عليه الأمر بقوله تعـالى: ﴿كُنْ فَيَكُـونُ﴾ [يس: 82] وكواكبها منتهى الأشعة في الخلا على الاستيفاء فسـقطت الأنوار، وتجارت وانتشأت الأفلاك)(2)

وقـال في حركـات الأفلاك الروحانيـة: (لهـذه الأفلاك الروحانية حركات.. حركة معرفة عيـوب النفس المسـارعة إلى الخـيرات.. وحركـة فلـك اتقـاء الآفـات المسـابقة إلى مجـالس العلماء.. وحركة فلـك تـرتيب المعـاملات المبـادرة إلى معرفـة

1() عبـد الوهـاب الشـعراني، الأجوبـة المرضـية عن الفقهـاء والصـوفية، ص 14 (بتصرف)

2() ابن عربي، عنقاء مغرب، ص 43.

الأوقات.. وحركة فلك محافظة الحدود المجاراة إلى الوفاء بالعهود.. وحركة فلك موازين الأعمال الإنهاض إلى محاسبة النفس.. وحركة فلك التدبير الاستعداد إلى التلاوة بتفريغ الخواطر.. وحركة فلك المعرفة دوام الإخلاص)(1)

وقال في الفلك الذي يسمونه [الفلك الأطلس]: (الفلك الأطلس: وهو فلك البروج.. ولا كوكب فيه متماثل الأجزاء مستدير الشكل لا تعرف لحركته بداية ولا نهاية وماله طرف بوجوده حدثت الأيام السبعة والشهور والسنون ولكن ما تعينت هذه الأزمنة فيه إلا بعد ما خلق الله في جوفه من العلامات التي ميزت هذه الأزمنة وما عين منها هذا الفلك سوى يوم واحد وهي دورة واحدة عينها مكان القدم من الكرسي فتعينت من أعلى فذلك القدر يسمى يوماً)(2)

وقال آخر في الفلك الذي يسمونه [فلك الثوابت]: (هو آخر الأفلاك التي خلقها الله تعالى للبقاء، فلا تفنى ولا تهلك صورها، سطحه أرض الجنة، ومقعره سقف النار جهنم، وفيه الكواكب الثابتة، وهو بما احتوى عليه من السماوات والأرضين في الفلك الأطلس، كحلقة ملقاة في أرض فيحاء، وفيه قوة ما فوقه الأطلس والكرسي والعرش، لأنه مولد عنهم.. وهكذا كل مولد فإنه يجمع حقائق ما فوقه، حتى ينتهي إلى الإنسان، فيجتمع فيه قوة جميع العالم. فإن كان إنساناً كاملاً جمع مع ذلك الأسماء الإلهية، بكمالها، ويسمى هذا الفلك بالمكوكِب وبفلك المنازل)(3)

وهكذا تجد أحاديث مفصلة عن العقائد التي وردت في المصادر المقدسة مما لم يرد فيها أمثال تلك التفاصيل، مثل قول بعضهم في جهنم: (وأوجدها الله [أي جهنم] بطالع الثور، ولذلك كان خلقها، في الصورة، صورة الجاموس سواء. هذا الذي يعول عليه عندنا. وبهذه الصورة رآها أبو الحكم بين برجان في كشفه. وقد تمثل لبعض الناس، من أهل الكشف، في صورة حية. فيتخيل أن تلك الصورة هي التي خلقها الله عليها، كأبي القاسم بن قسى وأمثاله، ولما خلقها الله تعالى، كان زحل في الثور، وكانت الشمس والأحمر في القوس، وكان

1() ابن عربي، مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم، ص 40.

2() الفتوحات المكية، ج 2 ص 437.

3() الفتوحات المكية، ج 2 ص 669.

سائر الدراري في الجدي. وخلقها الله تعالى من تجلى قوله، في حديث مسلم: (جعت فلم تطعمني! وظمئت فلم تسقني! ومرضت فلم تعدني! وهذا أعظم نزول نزله الحق إلى عباده في اللطف بهم، فمن هذه الحقيقة خلقت جهنم. أعاذنا الله، وإياكم، منها! فلذلك تجبرت على الجبابرة، وقصمت المتكبرين)[1]

ويتحدث عن المأدبة المعدة لأهل الجنة، والمندبة المعدة لأهل النار، فيقول: (في ذلك الوقت يجتمع أهل النار في مندبة. فأهل الجنة في المآدب. وأهل النار في المنادب. وطعامهم في تلك المأدبة زيادة كبد النون. وأرض الميدان درمكة بيضاء، مثل القرصة. ويخرج من الثور الطحال لأهل النار. فيأكل أهل الجنة من زيادة كبد النون. وهو حيوان بحرى مائي. فهو عنصر الحياة المناسبة للجنة. والكبد بيت الدم. وهو بيت الحياة. والحياة حارة رطبة. وبخار ذلك الدم هو النفس، المعبر عنه بالروح الحيواني، الذي به حياة البدن. فهو بشارة لأهل الجنة ببقاء الحياة عليهم. وأما الطحال في جسم الحيوان، فهو بيت الأوساخ، فان فيه تجتمع أوساخ البدن، وهو ما يعطيه الكبد من الدم الفاسد. فيعطى لأهل النار يأكلونه. وهو من الثور. والثور حيوان ترابي، طبعه البرد واليبس. وجهنم على صورة الجاموس. والطحال من الثور، لغذاء أهل النار، أشد مناسبة: فبما في الطحال من الدمية، لا يموت أهل النار، وبما فيه من أوساخ البدن ومن الدم الفاسد المؤلم، لا يحيون ولا ينعمون. فيورثهم أكله سقما ومرضا)[2]

ويتحدث عن عدد درجات الجنة، فيقول: (فتحوى درجات الجنة من الدرج فيها على خمسة آلاف درج ومائة درج وخمسة أدراج لا غير. وقد تزيد على هذا العدد بلا شك. ولكن ذكرنا منها ما اتفق عليه أهل الكشف، مما يجرى مجرى الأنواع من الأجناس. والذي اختصت به هذه الأمة المحمدية على سائر الأمم، من هذه الأدراج، اثنا عشر درجا لا غير، لا يشاركها فيها أحد من الأمم. كما فضل ﷺ غيره من الرسل، في الآخرة، بالوسيلة وفتح باب الشفاعة، وفي الدنيا بست لم يعطها نبي قبله كما ورد في الحديث الصحيح، من حديث مسلم بن

1() الفتوحات المكية، ج4، ص: 370

2() الفتوحات المكية، ج4، ص: 479.

الحجاج. فـذكر منهـا: عمـوم رسـالته، وتحليـل الغنـائم، والنصـر بـالرعب، وجعلت لـه الأرض كلهـا مسـجدا، وجعلت تربتهـا لـه طهورا، وأعطى مفاتيح خزائن الأرض)[1]

وكل هذه المعارف ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ ليس لهـا من دليل سوى الكشف الذي يذكرون أن الله تعـالى منّ بـه عليهم، وكان في إمكانهم أن يقتصروا بـه على أنفسـهم، لكونـه حصـل لهم، ولم يحصل لغيرهم، ولكونهم لا يطيقون إثباته، ولكونه قــد يكـون من الوسـاوس أو أحـاديث النفـوس الـتي لا علاقـة لهـا بالواقع.

لكن الأمـر للأسـف خـرج إلى الكتب والمصـنفات، وألفت الشروح حول ذلك، وصار كـل من هب ودب يضـيف ممـا يـزعم أنه كشف له.. وأصبح بذلك علم التزكية علما مختلطـا بمعـارف لا دليل يدل عليها، لا من العقل، ولا من النقل..

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بـل دب التنـافس في هـذا بين أصحاب هذه العلوم، فصار كل شخص يزعم أن معارفه بالعـالم العلوي والسفلي أدق، وأنه بـذلك الجـدير بالولايـة أو بختمهـا أو بمراتبها الرفيعة.. وكل ذلك ما حول علم السلوك إلى اللــه إلى علوم كثيرة قد ترتبط بكل شيء، لكنها لا علاقة لها لا بالسـلوك إلى الله، ولا بالتزكية والترقية.

1() الفتوحات المكية، ج5، ص: 73.

العجز والانبهار

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تخبرني عن أشواقك العظيمة لمعرفة الله، حتى تصيرمن أولئك الذين يُطلق عليهم لقب [العارف بالله]، أولئك الذين فتح الله على مرائي قلوبهم أنوار معرفته؛ فتحولوا إلى هداة يدلون عليه، ويعرفون به.

وأنا أشكر لك ـ أيها المريد الصادق ــ هذه الهمة العلية التي حول الله قلبك إليها؛ فليس مثل معرفة الله معرفة، فهي الغاية العظمى التي هفت إليها قلوب المؤمنين، وقد قال الإمام الصادق: (لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عز وجل ما مدوا أعينهم إلى ما متع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقلَّ عندهم مما يطوونه بأرجلهم، ولنَعِمُوا بمعرفة الله عز وجل وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله) (1)

ثم فصل بعض آثار ذلك بقوله: (إن معرفة الله عز وجل أنْسٌ من كل وحشة، وصاحبٌ من كل وحدة، ونورٌ من كل ظلمة، وقوةٌ من كل ضعف، وشفاءٌ من كل سقم)(2)

لكني ـ أيها المريد الصادق ـ أريد أن أنبهك إلى أن معرفة الله ليست كمعرفة غيره.. فمعرفة الغير تبدأ بإدراكه وتحديده، بحيث يمكن أن يوصف وصفا شاملا تاما لا مزيد عليه.. أما الله، فيستحيل أن يُعرف بهذا النوع من المعرفة.. ذلك أنه غير محدود، ولا محاط به، ولا يمكن أن يُدرك أبدا..

ولهذا كان لقب [العارف بالله] الذي حننت إليه، لا يحمل معناه بدقة.. بل فيه الكثير من المجاز.. وهو يشبه من يحمل دلوا صغيرا، وهو يريد أن ينقل به البحر المحيط من محل إلى محل.. فلا يمكن أن يقال لمثل هذا بأن وظيفته حمل المحيط.

بل إن أمر معرفة الله تعالى أعظم بكثير، ذلك أن أساس معرفته هي العلم بإطلاقه وعدم محدوديته، وذلك مما يدل على استحالة معرفته، كما عبر الإمام علي عن ذلك بقوله: (ليس له [سبحانه وتعالى] حدّ ينتهي إلى حدّه) (3)، وقال: (من زعم أنّ

______

1() الكافي:8/247.
2() الكافي:8/247.
3() التوحيد، الصدوق: باب 2، ح 1، ص 35.

إله الخلق محدود فقد جهل الخالق المعبود) (1)، وقال: (من حدّه [تعالى] فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله)(2)

وروي أن بعض الناس طلب من الإمام علي بن موسى الرضا أن يحدّ الله تعالى له، فقال له الإمام: لا حدّ له. قال الرجل: ولم؟ قال الإمام: (لأنّ كلّ محدود متناه إلى حدّ. وإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة. وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان. فهو غير محدود ولا متزايد ولا متناقص ولا متجزّئ) (3)

ولهذا كان سيد العارفين رسول الله ﷺ يقول في دعائه: (اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي)(4)

وفي دعاء آخر يقول: (اللهم اعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)(5)

وقد حكى بعض الحكماء من باب الإشارة ما فهمه بعض العارفين من هذا الدعاء، فقال: (ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده: (أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)، أنه قيل له ﷺ اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض فإن الرضا والسخط وصفان، ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقي إلى الذات، فقال أعوذ بك منك، ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب، فالتجأ إلى الثناء، فأثنى بقوله لا أحصي ثناء عليك، ثم علم أن ذلك قصور فقال أنت كما أثنيت على نفسك)(6)

وقد عبر الشاعر عن هذه المعاني، فقال:

ومع تفنن واصفيه يفنى الزمان وفيه ما
يحسنه لم يوصف

1() المصدر السابق، ح 34، ص 77.
2() نهج البلاغة، الشريف الرضي: قسم الخطب، خطبة 152، ص 278 ـ 279
3() التوحيد، الصدوق: باب 36، ح 3، ص 246
4() رواه أحمد (1/391) (3712) (1/452) (4318)
5() رواه أحمد (1/ 96 و18 أو 150) وأبو داود (1427) والنسائي (3/ 248ـ 249) وابن ماجه (1179)
6() إحياء علوم الدين (1/ 293)

وهذه المعرفة ـ أيها المريد الصادق ـ تجعل صـاحبها يعيش في انبهار عظيم، ذلك أن المعرفة التامة التي تحيط بأي شيء، قد تثمر نوعا من الإلف به، والذي يـزول أثـره مـع الأيـام.. لكن معرفـة اللامحـدود، واللامتنـاهي تجعـل القلب دائمـا مشـتاقا.. يشعر بالعجز.. وفي نفس الوقت يشعر بالانبهار..

فهو ليس عجزا ناشئا عن جهل.. ولا عن ضعف.. وإنما عن عظمـة ذلـك الـذي يريـد أن يعرفـه، وليس لـه من الأدوات مـا يمكنه أن يعرفه به؛ فيظل قلبه مشتاقا إلى تلك المعرفة.

ولهذا كان أجهل الناس بالله أولئك الذين راحـوا يخضـعونه لخيـالاتهم وأوهـامهم وتصـوراتهم؛ فـأنزلوه عن قدوسـيته وسبوحيته وجلاله إلى قياسه بخلقه، وتحويله إلى شبيه لهم.

ويستوي في هذا كل من تحدث في معرفة الله، وتوهم أنه قد أحاط بالحقائق، وراح يصورها بدقة، وكأنه شاهدها، من غـير أن يكون له بذلك سلطان من وحي إلهي، أو من برهان عقلي.

فلذلك لا تطلب ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تتحقـق بتلـك المعرفة التي يذكرونها.. فهي الجهل عينه.. فالعـارف باللـه هـو الذي لا يستند في معرفته بربه إلا لربه.. ويتواضع، وينتظر فتوح الله عليه في هذا العالم، أو في العوالم التي أعد اللـه لـه فيهـا من القـدرات مـا يمكنـه أن ينهـل من المعرفـة الصـحيحة مـا يحفظه من المعرفة المدسوسة.

وأنا أذكر لك هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ حـتى لا تكـون ضـحية لبعض من يـدعي المعرفـة باللـه، ثم يرسـم لـك صـورة لحقـائق جميـع الأشـياء، ويطالبـك بـأن تعتقـد مـا فيهـا لتتحقـق بالمعرفة.. فكما أن الله منزه مقدس.. فكذلك معرفتـه منزهـة مقدسة.. ويستحيل أن تُتلقى بتلك الطرق التي يذكرونها، والتي يختلـط فيهـا الحـق بالباطـل، والـوحي بـالهوى، والإلهـام الإلهي بالإلهام الشيطاني.

وهذا ليس قولي ـ أيها المريد الصادق ــ بـل هـو قـول كـل الهداة الذين كلفنا بالرجوع إليهم، وقد قـال الإمـام الإمـام علي يصف الله تعالى: (لا تحيـط بـه الأفكـار، ولا تقـدّره العقـول، ولا تقع عليه الأوهام، فكلّ مـا قـدّره عقـل أو عـرف لـه مثـل فهـو محدود) [1]

وقال الإمام الحسن: (لا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكـر

1() التوحيد، الشيخ الصدوق: باب 2، ص 76 ـ 77.

وخطراتها، ولا الألباب وأذهانها صفته) [1]

وسئل الإمام السجاد عن التوحيد فقال: (إن الله تعالى علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى: (قل هو الله أحد الله الصمد) والآيات من سورة الحديد إلى قوله: (وهو عليم بذات الصدور) فمن رام ما وراء ذلك فقد هلك)[2]

وقال الإمام الباقر: (دعوا التفكير في الله، فإنّ التفكير في الله لا يزيد إلاّ تيهاً)[3]

وقال الإمام الصادق: (من نظر في الله كيف هو هلك) [4]

وقال: (إن الله يقول: (وأن إلى ربك المنتهى) فإذا انتهى الكلام إلى الله فامسكوا) [5]

وقال: (إن الناس لايزال لهم المنطق حتى يتكلموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا: لا إله إلا الله الواحد الذي ليس كمثله الشئ) [6]

وقال الإمام الكاظم: (إنّ الله تبارك وتعالى أجلّ وأعظم من أن تحيط بصفته العقول)[7]

وقال الإمام الرضا: (أخطأ من اكتنهه) [8]

وهكذا ورد عنهم التحذير الشديد من الحديث في ذات الله عزّ وجلّ، فعن الإمام الباقر أنه قال: (اذكروا من عظمة الله ما شئتم ولا تذكروا ذاته)[9]

وقال الإمام الباقر: (تكلّموا في خلق الله، ولا تكلّموا في الله، فإنّ الكلام في الله لا يزيد صاحبه إلاّ تحيّراً) [10]

وهو قول أكثر الحكماء، وقد قال بعضهم معبرا عن ذلك: (كمال العبودية: هو العجز والقصور عن تدارك معرفة علل الأشياء بالكلية)[11]

1() التوحيد، الشيخ الصدوق: باب 2، ص 46.
2() بحار الأنوار (3/ 264)
3() التوحيد، الشيخ الصدوق: ص 443.
4() بحار الأنوار (3/ 264)
5() بحار الأنوار (3/ 264)
6() بحار الأنوار (3/ 264)
7() التوحيد، الشيخ الصدوق: باب 2، ص 38.
8() التوحيد، الشيخ الصدوق: باب 2، ص 38.
9() الكافي: ج 1، ص92.
10() الكافي: ج 1، ص92.
11() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 363.

وقال آخر: (لا يوصل إلى معرفته تعالى إلا بالعجز عن معرفته، لأن كل إشارة يشير بها إلى الحق فهي مردودة عليهم، لأنها من جنسهم مخلوقة مثلهم حتى يشيروا إلى الحق بالحق ولا سبيل لهم إلى ذلك)[1]

وذكر آخر سر ذلك وأسبابه، فقال: (لمعرفة الله سبحانه وتعالى سبيلان: أحدهما قاصر، والآخر مسدود، أما القاصر فهو ذكر الأسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفناه من أنفسنا، فإنا لما عرفنا أنفسنا قادرين عالمين أحياء متكلمين، ثم سمعنا ذلك في أوصاف الله عز وجل أو عرفناه بالدليل فهمناه فهما قاصرا.. لأن حياتنا وقدرتنا وعلمنا أبعد من حياة الله عز وجل وقدرته وعلمه، بل لا مناسبة بين البعيدين، وفائدة تعريف الله عز وجل بهذه الأوصاف أيضا إيهام وتشبيه ومشاركة في الاسم لكن يقطع التشبيه بأن يقال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11]، فهو حي لا كالأحياء، وقادر لا كالقادرين.. وكأنا إذا عرفنا أن الله تعالى حي قادر عالم فلم نعرف إلا أنفسنا ولم نعرفه إلا بأنفسنا إذ الأصم لا يتصور أن يفهم معنى قولنا ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ ولا الأكمه يفهم معنى قولنا إنه بصير، ولذلك إذا قال القائل كيف يكون الله عز وجل عالما بالأشياء؟ فنقول: كما تعلم أنت الأشياء، فإذا قال: فكيف يكون قادرا؟ فنقول: كما تقدر أنت، فلا يمكنه أن يفهم شيئا إلا إذا كان فيه ما يناسبه، فيعلم أولا ما هو متصف به، ثم يعلم غيره بالمقايسة إليه، فإن كان لله عز وجل وصف وخاصية ليس فينا ما يناسبه ويشاركه في الاسم لم يتصور فهمه البتة، فما عرف أحد إلا نفسه، ثم قايس بين صفات الله تعالى وصفات نفسه، وتتعالى صفاته عن أن تشبه صفاتنا، فتكون هذه معرفة قاصرة يغلب عليها الإيهام والتشبيه، فينبغي أن تقترن بها المعرفة بنفي المشابهة وينفي أصل المناسبة مع المشاركة في الاسم)[2]

هذا هو السبيل الأول، وهو السبيل الوحيد المتاح.. والذي يرتبط بمدى قابلية العبد لتلقي المعارف الإلهية.. وأما (السبيل الثاني المسدود)، فقد عبر عنه بقوله: (هو أن ينتظر العبد أن تحصل له الصفات الربوبية كلها حتى يصير ربا كما ينتظر الصبي أن يبلغ فيدرك تلك اللذة، وهذا السبيل مسدود ممتنع إذ

1() يحيى بن علي البريفكي، مصطلحات الصوفية، ص6.
2() المقصد الأسنى (ص: 53)

يستحيل أن تحصل تلك الحقيقة لغير الله تعالى، وهذا هو سبيل المعرفة المحققة لا غير وهو مسدود قطعا إلا على الله تعـالى)[1]

وبناء على هذا الكلام المنطقي ذكر استحالة معرفـة اللـه، فقال: (فإذا يستحيل أن يعرف الله تعالى بالحقيقة غير الله، بل أقول يستحيل أن يعرف النبي غير النبي، وأما من لا نبوة له فلا يعرف من النبوة إلا اسمها، وأنهـا خاصـية موجـودة لإنسـان بهـا يفـارق من ليس نبيـا، ولكن لا يعـرف ماهيـة تلـك الخاصـية إلا بالتشبيه بصفات نفسه.. بل أزيـد وأقـول لا يعـرف أحـد حقيقـة الموت وحقيقة الجنة والنار إلا بعد الموت ودخول الجنة أو النـار لأن الجنة عبارة عن أسباب ملذة ولو فرضـنا شخصـا لم يـدرك قط لذة لم يمكننا أصلا أن نفهمه الجنة تفهيما يرغبه في طلبها، والنار عبارة عن أسباب مؤلمة ولو فرضنا شخصا لم يقاس قط ألمـا لم يمكننـا قـط أن نفهمـه النـار فـإذا قاسـاه فهمنـاه إيـاه بالتشبيه بأشد ما قاسـاه وهـو ألم النـار، وكـذلك إذا أدرك شـيئا من اللذات فغايتنا أن نفهمه الجنة بالتشبيه بأعظم مـا نالـه من اللذات وهي المطعم والمنكح والمنظر فإن كان في الجنـة لـذة مخالفة لهـذه اللـذات فلا سـبيل إلى تفهيمـه أصـلا إلا بالتشـبيه بهـذه اللـذات.. ولـذات الجنـة أبعـد من كـل لـذة أدركناهـا في الدنيا.. بل العبـارة الصـحيحة عنهـا أنهـا مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. فكيف يتعجب المتعجبون من قولنا: لم يحصل أهل الأرض والسماء معرفة من الله تعـالى إلا على الصـفات والأسـماء ونحن نقـول لم يحصـلوا من الجنـة إلا على الصفات والأسماء وكذلك في كل ما سمع الإنسـان اسـمه وصفته وما ذاقه وما أدركه ولا انتهى إليه ولا اتصف به)[2]

وبناء على هذا كانت نهاية المعرفة هو العجز عن المعرفة، يقول في ذلك: (فـإن قلت فمـاذا نهايـة معرفـة العـارفين باللـه تعالى؟ فنقـول: نهايـة معرفـة العـارفين عجـزهم عن المعرفـة، ومعـــرفتهم بالحقيقـــة أنهم لا يعرفونـــه، وأنـــه لا يمكنهم البتـــة معرفتـــه، وأنـــه يســـتحيل أن يعـــرف اللـــه المعرفـــة الحقيقيـــة المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا اللـه عـز وجـل، فـإذا انكشـف لهم ذلـك انكشـافا برهانيـا كمـا ذكرنـاه فقـد عرفـوه أي بلغـوا

1() المقصد الأسنى (ص: 53)
2() المقصد الأسنى (ص: 54)

المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته)[1]

وبذلك فإن المعرفة الإلهية ـ أيها المريد الصادق ـ تقوم على التعظيم والتنزيه.. أو التسبيح والثناء.. فهي دائما في ارتقاء وسفر بهذين الجناحين في العوالم التي لا تنتهي.. كما أشار إلى ذلك بعضهم عند الحديث عما ورد في القرآن الكريم من الحديث عن الذات الإلهية فقد قال: (كما أن أنفس اليواقيت أجل وأعز وجودا، ولا تظفر منه الملوك لعزته إلا باليسير، وقد تظفر مما دونه بالكثير، فكذلك معرفة الذات أضيقها مجالا وأعسرها منالا وأعصاها على الفكر، وأبعدها عن قبول الذكر؛ ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا على تلويحات وإشارات، ويرجع ذكرها إلى ذكر التقديس المطلق كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11] وسورة الإخلاص، وإلى التعظيم المطلق كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: 100] وأما الصفات: فالمجال فيها أفسح، ونطاقَ النطق فيها أوسع، ولذلك كثرت الآيات المشتملة على ذكر العلم والقدرة والحياة، والكلام والحكمة، والسمع والبصر وغيرها.. وأما الأفعال: فبحر متسعة أكنافه، ولا تنال بالاستقصاء أطرافه، بل ليس في الوجود إلا الله وأفعاله، وكل ما سواه فعله، لكن القرآن يشتمل على الجلي منها الواقع في عالم الشهادة، كذكر السماوات والكواكب، والأرض والجبال، والشجر والحيوان، والبحار والنبات، وإنزال الماء الفرات، وسائر أسباب النبات والحياة، وهي التي ظهرت للحس. وأشرف أفعاله وأعجبها وأدلها على جلالة صانعها)[2]

هذه هي المعرفة القرآنية التي دلت عليها الآيات الكثيرة.. والتي لا يرى العقل فيها أي تناقض مع ما تقتضيه الفطرة السليمة.. فاحذر ــ أيها المريد الصادق ــ من أن تقع ضحية لأصحاب المعرفة البشرية، والذين لم يكتفوا بقبول ما ورد في النصوص المقدسة من حقائق المعرفة وأصولها، وإنما راحوا إلى الأوهام والخيالات والتصورات والرؤى يستندون إليها بدل الاكتفاء بما ورد في النصوص المقدسة، وتعقل ما فيها بعيدا عن التجسيم والتحديد والتقييد والتكييف.

1() المقصد الأسنى (ص: 54)

2() جواهر القرآن (ص: 26)

وأول نتائج هذه المعرفة ـ أيها المريـد الصـادق ــ هي تلـك اللذة التي تعيشها، وأنت تنبهر كل حين بعظمـة خالقـك وجلالـه وجماله وكماله الذي لا حدود لـه؛ فالعقـل السـليم هـو من يجـد نفسه أمام المعارف الإلهية يردد كل حين وبانبهار شـديد: (اللـه أكبر)

فاللــه أكــبر من تصــوراتنا وتعقلاتنــا وتوهماتنــا وأفكارنــا وتأملاتنا..

والله أكبر من أن ينحصر في حيز محـدود، أو أمـد معـدود، أو مكان أو زمان.

والله أكبر من أن تجري عليه القوانين التي تجري علينا، أو تحكمه السنن التي تقيدنا.

والله أكبر في ذاته وصفاته وكل ما يرتبط به.

وهكذا فإن الغايـة من الخلـق هي الرحلـة إلى اللـه.. وهي رحلة لا تنتهي.. والحادي لهـا أشـواق لا تنتهي، وحـيرة لا تنتهي، كما عبر عن ذلك الشاعر العاشق، فقال:

زدني بفرط الحب فيك تحيُّرا ... وارحم حشى بلظى هواك تسعَّرا

وقد عبر العـارفون على هـذه الحقيقـة الذوقيـة العظيمـة، واعتبروها النهاية التي لا تنتهي، وقـد قـال بعضـهم معـبرا عنهـا: (الحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم، وحضورهم، وتفكرهم، تحجبهم عن التأمل والفكرة)[1]

وسئل بعضهم عن المعرفة: مـا هي؟ فأجـاب: (التَحَـير، ثم الاتصال، ثم الافتقار، ثم الحَيَرةُ)

وقال آخر:

قد تحيَّرتُ فيك خذ بيدي ... يا دليلاً لِمَنْ تحيَّر فيك

وقال آخر: (أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه)[2]

وقال آخر: (الحـيرة في معرفتـه تعـالى: هي عين الهدايـة، وليست كالحيرة التي هي عدم الاهتداء)[3]

وقـال آخـر: (التحـير على ضـربين: تحـير وحشـة، وتحـير دهشة، فتحير الوحشـة للمطـرودين، وتحـير الدهشـة للعـارفين

1() اللمع، ص 421.

2 () أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 380.

3() عبد الله اليافعي، نشر المحاسن الغالية، ص 272

المشتاقين)[1]

وقد اعتبروا الحيرة منزلا من منازل النفس المطمئنة التي لا تتناقض مع طمأنينتها، ذلك أنها حيرة مبنية على التعظيم والانبهار لا على الشك والريب، وقد قال بعضهم في ذلك: (التحير: منازلة تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع في الوصول إلى مطلوبه ومقصوده، لا تطمعهم في الوصول فيرتجوا، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا، فعند ذلك يتحيرون)[2]

وقال آخر: (الحيرة: هي بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم، تحجبهم عن التأمل والفكرة)[3]

وقال آخر: (الحيرة حيرتان: حيرة الجاهل وحيرة العالم.. أما حيرة الجاهل: فهي تخبطه في معميات هذا الوجود، ومحاولته الجادة أو غير الجادة لفهم أسرارها.. أما حيرة العالم: فهي خاصة بالراسخين في العلم.. أبحر العارفون في بحر العلم، ثم عادوا فعاينوا فشاهدوا فعلموا، لكنهم ظلوا أسرى معاينة الظواهر دون كشف المطلق أو الجوهر، وهذه هي حيرة العالم)[4]

وقال آخر: (الحيرة قبل الوصول، والحيرة في الوصول، والحيرة في الرجوع، كيف لا تحار العقول والأسرار فيمن لا تقيده البصائر والأبصار)[5]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تلحق بركب العارفين بالله، لا من تلك الأبواب التي يختلط فيها الدعاة باللصوص، ولكن من تلك الأبواب التي فتحها الله لك من خلال هداته الذين أذن لك باتباعهم، والانصياع لهم، ولم يأذن لك باتباع غيرهم، ولا أن تسلم لهم كلما ذكروه حتى لا تختلط معرفتك بالأوهام.. فالمعرفة القليلة الصافية خير من المعارف الكثيرة المختلطة.

1() أحمد أبو كف، أعلام التصوف الإسلامي، ص 24.
2 () اللمع في التصوف، ص 345.
3() اللمع في التصوف، ص 345.
4() محمد غازي عرابي، النصوص في مصطلحات التصوف، ص 106.
5() ابن عربي، التراجم، ص 59.

الغيب والشهادة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تشكو لي بعض ما حصل بينك وبين بعض رفاقك في السلوك بسبب ما ذكرتُ لك من مصادر المعرفة ومجالاتها.. وأنه أخبرك أن هذا يخالف ما توافق عليه السائرون إلى الله من أنواع الفتوح التي تُفتح لهم، والمعارف التي يلقنهم الله تعالى إياها، كما أشار إلى ذلك بعضهم بقوله: (ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها النطق)[1]

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن المعارف التي يهبها الله تعالى للسالك الصادق في الطريق إليه هي من النوع الذي أشار إليه قوله ﷺ: (أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2]

فرسول الله ﷺ لم يقصد رؤية الله تعالى التي يتوهمها المجسمة والمشبهة؛ فهي مستحيلة.. وإنما أخبر أن اليقين الذي يحصل للمؤمن بالله يشبه المبصر له.. ذلك أن الرؤية هي أقوى أنواع البراهين.. فلا يحتاج بعد الرؤية إلى برهان يدله على ربه.. أو يدله على كمالات ربه.. فهو يبصر رحمة الله ولطفه وقدرته وكرمه.. حتى أنه لا يقلب بصره في شيء إلا ويرى آثار الله فيه.

وهكذا بالنسبة لسائر العقائد.. فهو في إيمانه بالملائكة تنعقد بينه وبينهم الصحبة؛ فيعيش معهم، ومع المعاني العظيمة التي يلهمها الله له عن طريقهم.. وهذا لا يعني رؤية الملائكة بصورهم الذاتية، فذلك مستحيل لا يطيقه.. ذلك أنهم من عالم مختلف تماما.

وهكذا يتحول إيمانه بالأنبياء عليهم السلام من إيمان مسجون في سجون عقله إلى إيمان يعيش معانيه، فيصبح لكل نبي في نفسه وعقله وخياله وقلبه وكل لطائفه صورة ومذاقا

1() المنقذ من الضلال (ص: 178)

2() رواه مسلم.

خاصا، وربما يفتح عليه من خلال تلك الصحبة من المعارف والأذواق ما لم يكن يعرفه لولاها.

وهذا المعنى يدل على تحول الغيب بالنسبة للسالك ـ نتيجة ذكره الكثير لربه ـ نوعا من الشهادة، فهو يعيش الحقائق الإيمانية، وكأنه يراها رأي العين.

ولذلك لا يمكن أن ينقل تجربته لغيره.. أو يخبر غيره بما حصل له.. كما أنه لا يمكن لأحد أن يصف لذة العسل لغيره.. فأحسن طريق لتوضيح تلك اللذة هو أن يقدمها له، ليذوقها بنفسه.

ولو أن ذلك الرفيق الذي ذكرت لي تنبه إلى تلك الكلمة التي أوردها الحكيم، لعرف أن تلك المعاني لا تتلقى من الغير، وإنما يصل إليها صاحبها بحسب المرتبة والقابلية التي توفرت له.. ولذلك لم يكن إنكاري على التجربة الذاتية، وإنما إنكاري على تحويل ذلك إلى عقائد يكلف بها الناس، ويتوهمون أنهم بترديدها قد فتحت لهم أبواب الحقائق، مع أن أبواب الحقائق المعصومة لا تفتح إلا بالوحي.

وهذا المعنى الذي ذكرته لك ـ أيها المريد الصادق ـ هو نفس الذي يردده الحكماء الذين لم يهتموا بتلك التفاصيل التي يذكرها غيرهم، وإنما اهتموا بتطهير أنفسهم لتصبح أهلا لصحبة خالقها، والتواصل معه.. أما تلك الحقائق؛ فسرعان ما ينكشف الغيب عنها، وفي الأوان الذي يريد الله، كما أخبر الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 21، 22]

وقد قال بعض الحكماء يذكر هذا: (تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)

وقال آخر يذكر أنواع الغيب، وما يفتح منها للسالك: (الغيب قسمان: غيب مطلق لا يصير شهادة أبداً، وهو ذات الله تعالى، وحقائق صفاته، وهذا ما لم يعرف.. وغيب يمكن أن يصير شهادة، وهو عالم الملكوت، والجبروت يصير شهادة بالموت الاختياري أو الاضطرار، ولكن انكشافه بالثاني أتم منه بالأول لبقاء التكليف مع الأول دون الثاني، فلا تنقطع العلاقة بالكلية، ولكن ترق بخلاف الموت الاضطراري فإن علاقة الروح

عن الجسم تنقطع فيه بالكلية.. فبالموت الاختياري ينكشـف لـه ذلك العالم، وهو لم يزل في هـذا العـالم، وبالاضـطراري يصـير في ذلك العالم حقيقة)[1]

وهـذا يشـير إلى مـا ذكـرت لـك من أن اليقين العقلي قـد يغلب إلى الدرجة التي يصبح فيها ذلك المعلـوم، وكأنـه مشـاهد بالبصر، كما روي ذلك عن ذلك الصحابي الذي أخبر رسول اللـه ﷺ أن إيمانه جعله يشعر بما في الجنـة والنـار، كمـا فسـر سـر ذلك بعضهم، فقال: (الله غيب وهو مغيب الغيب، والقلب غيب، فـإذا آمن الغيب بـالغيب رُفـع الحجـاب عن الغيب، فوجـد في الغيب الغيبُ صاحبَ الغيب)[2]

وقال آخر عمن يسـميهم [أهـل الغيب]: (هم الغـائبون عن وجودهم بمشاهدة عظمة الله تعالى) [3]

وهذا ينطبق على كل مسلم؛ فلكل مسلم صادق من هـذا، كما يشير إليه قوله تعالى في وصف المتقين ﴿ ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: 2، 3]

وأخبر أن هذا الإيمـان هـو الـذي يـؤثر في سـلوك المتقين والتزامهم بحدود ربهم، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: 12]، وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنْـذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَمَنْ تَـزَكَّى فَإِنَّمَـا يَتَـزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: 18]، وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: 11]

والفرق بين المؤمنين في هذا هو الفرق الـذي ذكـرت لـك بين المبصرين الذي تختلف درجات إبصارهم، فأصحاب النفوس المطمئنة الراضية أصحاب بصائر قوية، فلذلك تتحـول الحقـائق عنـــدهم من عـــالم الحـــروف والأصـــوات إلى عـــالم الأعيـــان والمشاهدات..

وهذا مع مراعاة التنزيه والتقديس.. فعالم المعاني يختلـف عن عالم الحس.. ولذلك لم يكن للشخص أن يصف ما رآه بغير ما وصفه به غيره.. والفرق بينهما ليس سـوى في درجـة إدراك

1() عبد الغـني النابلسـي، أسـرار الشـريعة أو الفتح الربـاني والفيض الرحمـاني، ص 242.

2() زيادات حقائق التفسير، ص 8.

3() شرح مكتوبات عبد القادر الكيلاني، ص 107 (بتصرف)

ما يتحدث عنه.

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن الغيب الذي يشير إليه رفيقك، أو الشيوخ الذين يعتمد عليهم نوعان: غيب مرتبط بالدنيا.. وغيب مرتبط بالدين.

الغيب.. والدنيا:

أما الغيب الأول، وهو المرتبط بشؤون الدينا المختلفة؛ فإنه إن حصل لبعض الناس التحقق ببعض معانيه، فإنه يكون نوعا من الفراسة والكرامة الإلهية، إذا كان الناطق به من الصالحين.. أما إذا لم تتوفر فيه شروط التقوى والصلاح، فقد يكون كاهلا أو دجالا أو منجما.. ولا علاقة لذلك بالتقوى، ولا بالولاية.

ولهذا، فإن الأنبياء عليهم السلام الذي فتح لهم بعض الغيب المرتبط بهذا، يذكرون أنه من الله تعالى، والغرض منه هو تثبيت قلوب أتباعهم، أو ليكون ذلك حجة على المنكرين.. كما قال تعالى عن المسيح عليه السلام:﴿ وَرَسُولاً إلى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ الله وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ الله وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران:49)، فقد أخبر المسيح عليه السلام أن من دلائل نبوته إخبارهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم.

وقبل ذلك ذكر الله تعالى هذا النوع من الإعجاز عن يوسف عليه السلام، فقد ذكر على لسانه قوله:﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ (يوسف: 37)

ومن ذلك ما ورد في الأحاديث الكثيرة من إخباره ﷺ بما يحصل في عصره مما غاب عنه شهوده، ومن الأمثلة على ذلك ما روي من إخباره ﷺ وابصة بن معبد بأنه جاء يسأل عن البر والاثم، فعن وابصة بن معبد قال: جئت رسول الله ﷺ وأنا لا أريد أن أدع من البر والاثم شيئا الا سألته عنه، فأتيته، وهو في عصابة من المسلمين حوله، فجعلت أتخطاهم لأدنو منه، فانتهرني بعضهم، فقال: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ؟ فقلت: إني أحب أن أدنو منه، فقال رسول الله ﷺ: (دعوا وابصة، ادن مني وابصة)، فأدناني حتى كنت بين يديه، فقال:

(أتسألني أم أخبرك؟) فقلت: لا، بل تخبرني، قال: (جئت تسأل عن البر والاثم؟) قلت: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري وقال: (البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في نفسك، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك)[1]

ومن ذلك إخباره ﷺ الثقفي والأنصاري بما جاءا يسألان عنه، فعن أنس قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ في مسجد الخيف، فأتاه رجل من الأنصار، ورجل من ثقيف فلما سلما، قالا: جئناك، يا رسول الله، لنسألك، قال: (إن شئتما أخبرتكما بما تسألاني عنه فعلت، وان شئتما أن أسكت وتسألاني فعلت)، قالا: لا، أخبرنا يا رسول الله، نزدد ايمانا أو نزدد يقينا، فقال الأنصاري للثقفي: سل رسول الله ﷺ قال: بل أنت فسله، فاني أعرف حقك، فسأله، فقال: أخبرنا يا رسول الله، قال: (جئت تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه، وعن طوافك بالبيت، ومالك فيه، وركعتيك بعد الطواف، ومالك فيهما، وعن طوافك بالصفا والمروة، وعن وقوفك بعرفة، ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، وعن حلاقك رأسك، ومالك فيه، وعن طوافك، ومالك فيه)، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق عن هذا جئت أسألك!.. إلى آخر الحديث[2]

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي لا يخبر فيها ﷺ بالغيوب التي كانت في عصره فقط، وإنما في العصور التالية، والتي حصلت بكل دقة، وكما ذكرها، وهذا كله من امتداد نبوته ﷺ لكل العصور.

وهذا لا يتنافى مع تلك الآيات الكريمة التي تخبر عن عدم علم رسول الله ﷺ بالغيب، كقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 188]

وقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا

1() رواه أحمد وأبو يعلى.
2() رواه مسدد والبزار والاصبهاني البيهقي.

لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا [الجن: 26 - 28].

وقوله: قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إلى قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ [الأنعام: 50]

وهذا ما ردده جميع الأنبياء عليهم السلام، كما قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ [هود: 31]

ولذلك؛ فإن الذي يدعي معرفة هذا النوع من الغيب، ويحرص عليه، ويعتبره من علامات الكمال، لا يعرف حقيقة السير إلى الله.. ذلك أن الله تعالى ما أعطى أنبياءه أو أولياءه هذا النوع من العلم إلا للضرورات التي تستدعيه؛ فإذا ما أصبح نوعا من اللهو الفارغ، كان ذلك حجابا بين المدعي وبين الحق.

ذلك أن أول ما يصل إليه السالك هو تجرده من نفسه وأهوائه ودعاواه.. ليصبح عبدا لله تعالى، لا يدعي شيئا ليس له، أو لا حاجة إليه.

أما من يمارس من الأسباب ما يحاول به أن يصل إلى ذلك الغيب الذي حفظه الله عنه، فهو لا يختلف عن المشعوذين والدجالين..

ولذلك كان من العلوم التي أقحمت في السلوك إلى الله ذلك العلم الذي يسمونه [علم السيمياء]، ويذكرون أنه (يتفرع إلى سبعة فروع، هي: علم الكواكب والأفلاك والبروج والمنازل.. علم التنجيم.. علم الطبائع.. علم الحروف.. علم الأعداد.. علم الأوفاق.. علم الأسماء والرقي)[1]

والتي جعلت عوام الناس لا يفرقون بين السحرة والسالكين إلى الله حتى أن بعض المشايخ راح يدافع عن السالكين بهذه الحجة التي قد لا يقبلها أحد من الناس، فقد قال: (فإن قيل: إن هذه الكرامات تشبه السحر، فإن سماع الإنسان الهواتف في الهواء، وسماع النداء في بطنه، وطي الأرض له، وقلب الأعيان، ونحو ذلك غير معهود في الحس أنه صحيح، إنما يظهر ذلك من أهل السيمياء والنارنجات؟ فالجواب

1() د. عبد الحميد صالح حمدان، علم الحروف وأقطابه، ص 15.

ما أجاب به المشايخ العارفون والعلماء المحققون في الفرق بين الكرامة والسحر، أن السحر يظهر على أيدي الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير شريعة، وأما الأولياء رضي الله عنهم فإنهم وصلوا إلى ذلك بكثرة اجتهادهم واتباعهم للسنة)([1])

ونحن ـ أيها المريد الصادق ـ لا ننكر الكرامات، ولكن ننكر تلك الرياضات والمجاهدات التي لا تهدف إلى تزكية النفس وترقيتها، وإنما تهدف إلى كشف الغيوب، والاستفادة منها في الحياة، كما عبر عن ذلك بعضهم بقوله متحدثا عن فضائل الذكر: (وفضيلته: أنه ينفع في سبع خواص من السيمياء، ويفسد تسع خواص من السحر، ومن أراد استعمال قوى الكواكب بحسب صناعة أهل العلم الرياضي لا بد له من الذكر، وذلك بعد الدستورية أعني: أن يكون الكوكب في بيته أو شرفه في الوتد، وينظر الكوكب إليه من بيته أو شرفه من الوتد كالزهرة في الميزان في الطالع، وزحل في الجدي أو في الميزان، والمريخ في الجدي، واعلم أن الكوكب إذا كان في الحيز أو البرج أو الدستورية؛ كان أظهر فعلا، وأقوى تأثيرا، ثم يعمد إلى اتخاذ الصورة والاسم والبخور والأفعال.. ومثال ذلك برج الثور تستعمل صورة إذا كان في الوجه الثاني، ويريد الحكيم أن يخدم أمره، يتخذ صورة ثور مضروب الوسط ويناديه: (لهرلرل)، ويبخر بذنب الفأرة ويفعل الأمور المهلكة بإذن الله، ويقول في جميع خدمته: يا حمر لايل، يا دبر لايل، يا جبر لايل، مفهوم ذلك، يا مالك القوى السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية والذوات العارفة بك والتي فوقها، يا نور النور)([2])

هذا مجرد مثال عن تلك الرسائل والكتب التي حشيت بأمثال هذه المعاني، والتي تحول فيها ذكر الله وأسماءه الحسنى إلى وسيلة من الوسائل التي لا تختلف عن الوسائل التي تستعمل في السحر والطلاسم وغيرها.

بل إنهم قد يثنون على بعض الناس، ويعتبرونه وليا وصالحا، لاستعماله لأمثال هذه الوسائل التي ما أنزل الله بها من سلطان.

1() طبقات الشعراني: (1/14)

2() رسائل ابن سبعين، ص: 222.

الغيب.. والدين:

أما الغيب والدين؛ فالأمر فيه أخطر.. ذلك أن مصدر الدين هو الوحي المعصوم، فإذا ما أتيح لأي شخص يدعي الولاية أن يضيف لعقائد الدين ما يتوهم أنه كُشف له، يتحول الدين، وتتحول عقائده وقيمه إلى أمر مختلف تماما.

لذلك يرد في القرآن الكريم التحذير من الاستماع إلى غير المصادر المعصومة، واعتباره نوعا من الكفر، كما قال تعالى: يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [المائدة: 41]

واعتبر الشك والريب في المصادر المعصومة، أو التحاكم إلى غيرها حولها فتنة وطبعا على القلوب، قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ [محمد: 16]

وللأسف فقد فتح هذا الباب على مصراعيه لهذه الأمة، كما فتح في غيرها من الأمم؛ فلم تنحصر العقائد فيما ورد في النصوص المقدسة، وإنما أضيف إليها الكثير من العقائد التي لا مصدر لها سوى الرؤى والإلهام والكشف وغيرها، مما لم يدل الدليل على عصمته.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد من تصنيفات للصالحين وأعدادهم مما لم يرد الدليل عليه من الكتاب والسنة، والتي اقتصرت على ذكر أوصافهم، ثم تركت المجال مفتوحا للمؤمنين للتنافس فيما بينهم في التحقق بذلك.

لكن هؤلاء لم يرتضوا بذلك، وإنما راحوا يذكرون أوصافا غريبة لأصناف الصالحين؛ فمنهم كما يذكر بعضهم: (رجال الغيب: وهم عشرة لا يزيدون ولا ينقصون، هم أهل خشوع، فلا يتكلمون إلا همسا لغلبة تجلي الرحمن عليهم دائماً في أحوالهم.. وهؤلاء هم المستورون الذين لا يُعرفون، خبأهم الحق في أرضه وسمائه فلا يناجون سواه ولا يشهدون غيره، يمشون

على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، دأبهم الحياء، إذا سمعوا أحداً يرفع صوته في كلامه ترعد فرائصهم ويتعجبون، وذلك أنهم لغلبة الحال عليهم يتخيلون أن التجلي الذي أورث عندهم الخشوع والحياء يراه كل أحد.. واعلم أن رجال الغيب في اصطلاح أهل الله يطلقونه ويريدون به هؤلاء الذين ذكرناهم وهي هذه الطبقة، وقد يطلقونه ويريدون به، من يحتجب عن الأبصار من الإنس، وقد يطلقونه أيضاً ويريدون به رجالاً من الجن من صالحي مؤمنيهم، وقد يطلقونه، على القوم الذين لا يأخذون شيئاً من العلوم والرزق المحسوس من الحس ولكن يأخذونه من الغيب)[1]

وهو لا يذكر دليلا على وجود هؤلاء، ولا انحصارهم في العدد الذي ذكره، ولا أوصافهم، وإنما يكتفي بذكر هذه المعاني جميعا، باعتباره حقائق مقررة، نتيجة شهوده لها.

ونحن لا ننكر ـ أيها المريد الصادق ـ شهوده، ولا أنه قد يكون رآها، ولكن ليس كل ما يُرى يُصدق، ولا كل كشف بصحيح، ما لم يدل عليه الدليل المعصوم.

والمشكلة الأكبر ليس في ذكر ما رآه أو كشف له عنه، وإنما في استغلال البعض لذلك؛ فما أسهل أن يأتي أي شخص من الناس، ويزعم لنفسه أنه أحد هؤلاء.. وما أسرع أن يجد من يصدقه، مخافة الإنكار على أولياء الله.. وبذلك تصبح هذه المعاني، وإن صحت، وسيلة للتلاعب بالدين، وبالمتدينين البسطاء، والانحراف بهم عن دين الله إلى دين البشر.

والأمر لا يقتصر على رجال الغيب، بل هناك غيرهم كثير، ومنهم (الرجبيون)، الذين يذكرون أنهم (أربعون نفساً في كل زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله، وهم من الأفراد وهم أرباب القول الثقيل.. وسمو (رجبيون)؛ لأن حال هذا المقام لا يكون له إلا في شهر رجب من أول إستهلال هلاله إلى إنفصاله، ثم يفقدون ذلك الحال من أنفسهم، فلا يجدونه إلى دخول رجب من السنة الآتية. وقليل من يعرفهم من أهل هذا الطريق وهم متفرقون في البلاد ويعرف بعضهم بعضا)[2]

ومما يذكرونه من تفاصيل لم يرد الدليل عليها تلك

1() الفتوحات المكية، ج 2 ص 11، 12.
2() الفتوحات المكية، ج 2 ص 8.

التفاصيل المرتبطة بالأبدال[1]، والتي لم يدل عليها الدليل من الكتاب والسنة، ومن الأمثلة عنها قول بعضهم: (وترتيب الأبدال كترتيب السماوات السبع بحيث يكون ارتباط البدل الأول بالسماء السابعة على الوجه الآتي: البدل الأول: يحكم الإقليم الأول للسماء السابعة على قلب الخليل عليه السلام.. والبدل الثاني: يحكم الإقليم الثاني للسماء السادسة على قلب موسى عليه السلام.. والبدل الثالث: يحكم الإقليم الثالث للسماء الخامسة على قلب هارون عليه السلام.. والبدل الرابع: يحكم الإقليم الرابع للسماء الرابعة على قلب إدريس عليه السلام.. والبدل الخامس: يحكم الإقليم الخامس للسماء الثالثة على قلب يوسف عليه السلام.. والبدل السادس: يحكم الإقليم السادس للسماء الثانية على قلب عيسى عليه السلام.. والبدل السابع: يحكم الإقليم السابع للسماء الأولى على قلب آدم عليه السلام)[2]

وقال آخر يصفهم، ويذكر وجود غيرهم: (إنه تنزل عليهم العلوم لكل يوم علم من رقائق على قلب من هؤلاء، ويلي هؤلاء في المقام النجباء والرجباء والنقباء وأهل الغيب وأهل النجدة، وغيرهم، وكل منهم ينظم عملاً في الحكومة الباطنية ويستهدف رسالة فيها)[3]

وينقل آخر عن الخضر عليه السلام أنه قال: (ثلاثمائة من الأولياء، سبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، وواحد منهم هو القطب الغوث الفرد)[4]

وهكذا تجد الخلافات بينهم في أعداد هؤلاء، وأسرارهم، ووظائفهم، مما شكل عبئا كبيرا على السالك إلى الله، والذي قد ينشغل بكل ما ورد في النصوص المقدسة من قيم ليبحث عن هؤلاء، أو ليقع ضحية في أيدي من يزعم أنه منهم.

والأمر لا يقتصر على هذا الجانب، بل إن كل عقيدة وردت في النصوص المقدسة أضاف إليها هؤلاء أضعاف ما ورد فيها،

1() وهم ممن ورد ذكرهم في الحديث، لكن لم ترد تلك التفاصيل الكثيرة التي تتحدث عنهم، ومن الأحاديث الواردة فيهم قوله ﷺ: (لا تسبوا أهل الشام؛ فإن فيهم البدلاء، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلا آخر) رواه أحمد.

2() الفتوحات المكية، ص 370، 376.

3() اليواقيت والجواهر، ج 2 ص 82.

4() اليواقيت والجواهر، ج 2 ص 82.

بناء على مـا كشـف لهم.. حـتى أن الحقـائق القرآنيـة الناصـعة القوية تحولت إلى حقائق ممتلئة بالدخن، وشوهت الدين وملأته بأصناف الخرافات.

ولذلك أرجـو أن تنصـح رفيقـك بـأن يسـلك إلى ربـه، عـبر المصادر المعصومة، والطرق المشروعة، ويكتفي بهـا، فـالعبرة ليس بكـــثرة المعلومـــات عن عـــوالم الغيب، ولكن العـــبرة بالتواصل الصادق معه.. وما في الكتاب والسنة يكفي ويشفي.

الوحدة والكثرة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الوحدة والكثرة التي يتحدث عنها الحكماء، ويشيرون إلى أنها من المعارف الضرورية للنفس الراضية، وأنها لن تتحقق برضاها حتى تميز بين محال الوحدة، ومحال الكثرة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن النفس لن تنال طمأنينتها، ولا رضاها، ولا سعادتها إلا بتحققها بهذه المعرفة، لا في الذهن والعقل فحسب.. بل في كل الكيان واللطائف.. وفي كل السلوكات والمواقف.

ولا تكفيها تلك المعرفة، حتى تتوحد معها، بحيث تتوجه إلى الواحد الأحد، وبكل الوجوه، حتى لا يجعلها الشرك الخفي أسيرة للشتات والآلام.

ولتفهم هذا، وأثره في النفس والسلوك أذكر لك هذا المثال، لتطبقه على حقائق الوجود.. تصور أنك ذهبت إلى مدينة من المدن؛ فتعرض لك فيها بعض المجرمين، الذين استطعت التعرف عليهم، وأخذ صورهم، بل معرفة أسمائهم.. لكنك عندما سألت عن الشرطة الذين تشكو إليهم حالك، أخبروك أن للشرطة في المدينة مراكز مختلفة، لكل مركز جهته الخاصة به.. فسألتهم عن المحكمة.. فأخبروك أنها كذلك.. وأن بعض أولئك المجرمين الذين سطوا عليك لديهم علاقات ببعض تلك المحاكم.. وهكذا إلى أن سألتهم عن صاحب الأمر في المدينة.. فأخبروك أنها موزعة على عدد من الحكام، لكل منهم قوانينه الخاصة به.. أو أنها تحت إمرة حاكم واحد، لكنه فوض شؤون المملكة لوزراء ومستشارين مختلفين، بحيث يتصرف كل منهم بحسب ما تملي عليه رغبته، ويملي عليه مزاجه.

هذا مثال يدلك على الكثرة بكل معانيها.. وهي قد تنطبق على أولئك المشركين الذين امتلأت قلوبهم آلاما نتيجة توزعها على آلهة شتى، فكلما أرضوا إلها أسخطوا غيره.

وهو ينطبق كذلك على أولئك الموحدين بألسنتهم، لا بقلوبهم، ولذلك تتشتت نفوسهم بحسب عدد الآلهة التي يعبدونها، وإن لم يشعروا بعبوديتهم لها.

وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 29]

فهذا المثال القرآني يوضح قيمة الوحدة، وأن العبودية للواحد، تجعل صاحبها ممتلئا بالراحة والسكينة والسلام، لأنه يعلم ما الذي يرضيه، وما الذي يسخصه.. لكنه إن كان موزعا بين سادة مختلفين متشاكسين، إن أرضى أحدهم أسخط الآخر، عاش المعاناة والآلام، ولن تطمئن نفسه، ولن ترضى أبدا.

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الوحدة لا تنفي الكثرة، وإنما تحميها، وتحفظها، وتجعلها منظمة منسقة يؤدي كل منها دوره الخاص به.. ولا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا كانت لها الرقابة التامة على كل أفراد الكثرة حتى لا يخرج أحدهم عما وكل إليه من مهام.. فبقدر سيطرة الوحدة على الكثرة يكون النظام والعدالة، وتمتلئ الحياة بالسلام.

ولذلك كانت وحدانية الله تقتضي سريانها في كل شيء، وتناسقها مع كل شيء، حتى لا يطغى جانب على جانب.. ولذلك كان حضور الله تعالى الدائم، هو الحصن الحصين الذي يحتمي به كل من عرف هذه المعرفة، كما قال تعالى مخاطبا موسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]

وقال للملائكة عليهم السلام: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:12]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تملأ المؤمن بالسعادة لحضور الله تعالى، ومعيته لخلقه، وأنه الوحيد في ذلك.. فليس هناك من ينازعه في ملكه، أو يتصرف معه فيه.

وهكذا، فإن أسماء الله الحسنى جميعا، تتعلق بالوحدانية، فهي متناسقة معها، ومنطلقة منها، ولذلك كان للرحمة محلها الخاص بها، وكان للعذاب أهله الذين يتعلق بهم.. كما قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49، 50]

ولو أن الرحمة كانت مستقلة عن الوحدانية.. والعذاب كان مستقلا عنها.. لحصل الاختلال الذي يؤثر في كل شيء.

ولهذا، فإن كثرة أسماء الله الحسنى، والتي لا حدود لها، لا تتنافى مع الوحدة.. فهي كثرة تشبه الجوارح واللطائف التي

يتكون منها الإنسان، ولكنها جميعا تخضع له ولإرادته، فيحرك منها ما يشاء، ويسكن منها ما يشاء، وفي الوقت الذي يشاء.

ولذلك كان الفرار من الله إلى الله.. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: فَفِرُّوا إلى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [الذاريات: 50]، ثم قال بعدها: وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [الذاريات: 51]

فالمؤمن هو الذي يفر من غضب الله إلى رضاه.. ومن عدله إلى رحمته.. من انتقامه إلى لطفه.. ومن إضلاله إلى هدايته.. وإذا أراد عبادة الله أو شكره لم يفعل ذلك إلا مستعينا بربه، كما قال تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة: 5]

هذه هي المعارف التي تنفعك ـ أيها المريد الصادق ـ حول الكثرة والوحدة، وهي كافية لك، ولكل الخلق، وأعلم أن من أصحابك من لا يرضيه مثل هذا الجواب، فهو يريد أن أذكر له ما قاله الحكماء والعرفاء في كيفية صدور الكثرة عن الوحدة..

ولا يرضى عني إلا إذا رددت على مسامعه ما قاله الفلاسفة من أن هناك عقلاً أولاً، هو مبدأ الوجود الأول، عنه نتج عقل معلول هو المعلول الأول، ومن بعده المعلول الثاني، ثم الثالث فالرابع فالخامس... ثم نتج عن هذه العقول جملة من الأفلاك المتحركة.. بحسب ما يصفونه، ويختلفون فيه.

أو ما قاله من تأثر بهم ممن يدعون معرفة الله، والذين حاولوا تطبيق تلك المقولات على الحقائق العقدية، فيفسروها تفسيرا يتناسب مع ما يقوله الفلاسفة، مخبرين أن ذلك ما أداه إليهم الكشف والشهود.. ولكنهم بدل أن يسموه عقلا أولا يسمونه [حقيقة محمدية]، أو غيرها من التسميات.

وأنا لا أريد أن أرد على هؤلاء، ولا أن أوافقهم، ولكني أكتفي بأن أردد قوله تعالى: مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا [الكهف: 51]، والتي جاء بعدها قوله: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا [الكهف: 52]

وكلا الآيتين تشير إلى أن البشر ـ نتيجة انشغالهم بالعلوم التي لا يملكون أدواتهم ـ تصوروا أن هناك من آتاهم الله تعالى العلوم، فراحوا يثقون في كل ما يقولون، من غير أن يكون لهم أي برهان، لا من العقل والمنطق، ولا من الكشف والشهود.

ومما يدلك على ذلك اختلاف الفلاسفة فيما بينهم في مثل هـذه القضـايا، بـل إن كبـار المتكلمين والفلاسـفة(1) ينكـرون القاعـدة الـتي تنطلـق منهـا تلـك المقـولات، وهي أن الواحـد لا يصدر عنـه إلا واحـد.. فهي قاعـدة قـد تنطبـق على المكونـات، لكنهـا لا تنطبــق على ربهـا وخالقهـا وبارئهـا صـاحب الإرادة المطلقة، والمشيئة النافذة.

وقد أخبر الله تعالى عن كيفية صدور الخلق عنه، بعيدا عن كل تلك الترهات الفلسفية أو الكشفية، فقـال: ﴿إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ﴾ [يس: 82]، وقـال: ﴿بَـدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُـونُ ﴾ (البقرة:117)، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَـإِذَا قَضَـى أَمْـراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (غافر:68)

وأخـبر أنـه خـالق كـل شـيء من غـير حاجـة لأي وسـائط، فقال: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللـهِ قُـلْ أَفَاتَّخَـذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْـتَوِي الظُّلُمَـاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُـوا لِلَـهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْـقُ عَلَيْهِمْ قُـلِ اللـه خَـالِقُ كُـلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد:16)

1() ولعل أحسن مثال لذلك العلامة (نصـير الـدين الطوسـي) فهـو من الـذين أنكـروا هذه المقولة مع اطلاعه الواسع على ما يقوله الفلاسفة، وقد قـال عبـد اللـه نعمـة مبينـا دوره في نقضها: (ومن آثارهم البارزة أن بعض فلاسفتهم ومنهم (نصير الدين الطوسـي) قد أتى على نظرية الصدور والعقول العشرة يهدمها من أساسها. ونظرية العقول العشر لتعليـل كيفيـة صـدور الكثـير من الواحـد البسـيط وتفسـير صـدور المخلوقـات الكثـيرة المتضادة عن المبدأ الاول، كانت هي النظرية البارزة التي أخذ بها الفلاسـفة الإسـلاميون أمثـال الفـارابي وابن سـينا. وهي نظريـة إغريقيـة نمت في أحضـان الصـابئة الحرانـيين، وتلقفها عنهم الفلاسفة الإسلاميون باعجـاب وتقـدير. امـا فيلسـوفنا الطوسـي فقـد اثبت بالبرهان المنطقي انها غير صحيحة وخاصة في الفاعل المختـار) [فلاسـفة الشـيعة، عبـد الله نعمة، ص38 و39]

ومن أقواله في ردها: (قالت الفلاسفة: الواحد لا يصدر عنه الا واحد. وكـل شـبهة لهم على هـذه الـدعوى هي في غايـة الركاكـة ولـذلك قـالوا: لا يصـدر عن البـاريء تعـالى بلا واسطة الا عقل واحد والعقل فيه كـثرة، هي الوجـوب والامكـان وتعقّـل الـواجب وتعقّـل ذاتــه ونفس وفلــك مــركب من الهيــولي والصــورة ويلــزمهم أن أيّ موجــودين فرضــنا (وجودهما) في العـالم، كـان احـدهما (ضـرورة) علّـة للآخـر بواسـطة أو بغيرهـا. وأيضـاً: التكثرات التي في العقل، ان كانت موجودة صادرة عن الباريء لزم صدورها عن الواحــد وان صــدرت عن غــيره لــزم تعــدد الــواجب وإنْ لم تكن موجــودة لم يكن تأثيرهــا في الموجودات معقولاً) [جامع الاسرار ومنبع الانوار، سيد حيدر الآملي، ص482]

وهكـذا أنكرهـا ورد عليهـا الكثـير من المتكلمين وغـيرهم من أمثـال الفخـر الـرازي والعلامة الحلي في كتـاب [كشـف المـراد]، و[منـاهج اليقين في اصـول الـدين]، ومحمـد صالح المازندراني في شرحه للكـافي، والعلامـة المجلسـي، والبهـائي العـاملي. وغـيرهم كثير.

وغيرها من الآيات الكريمة التي يخبر الله تعالى فيها عن صدور الكثرة عنه، من دون حاجة لأي وسائط، فيكفي أن تتوجه إرادته ومشيئته لذلك؛ فيتحقق ما يريد.

لذلك كانت تلك المراتب التي يذكرونها في كيفية صدور الكون نوعا من التكلف الممقوت، الذي قد يحجب صاحبه عن السير في طريق المعرفة الحقيقية التي تمتلئ بالتعظيم والتسليم والتواضع.. لا تلك المعرفة التي تدعي أنها يمكنها أن تصل إلى حقائق كل الأشياء من غير امتلاك لأدواتها.

وما ذكرته لك من هذا المعنى هو نفس ما ذكره الكثير من الحكماء والعلماء، وقد قال بعضهم في ذلك رادا على الذين قاسوا الله تعالى على خلقه، ولذلك طبقوا قوانين العلل عليه: (إن ارتباط المعلول بالعلة الطبيعية يفترق عن ارتباط المعلول بالعلة الفاعلية في نقطة ويشترك معه في نقطة، أما نقطة الافتراق فهي: أن المعلول في العلل الطبيعية يرتبط بذات العلة وينبثق من صميم كيانها ووجودها، ومن هنا قلنا إن تأثير العلة في المعلول يقوم على ضوء قانون التناسب، وأما المعلول في الفواعل الإرادية فلا يرتبط بذات الفاعل والعلة ولا ينبثق من صميم وجودها، ومن هنا لا يقوم تأثيره فيه على أساس مسالة التناسب، نعم يرتبط المعلول فيها بمشية الفاعل وإعمال قدرته ارتباطاً ذاتياً يعني يستحيل انفكاكه عنها حدوثاً وبقاءاً، ومتى تحققت المشية تحقق الفعل ومتى انعدمت انعدم، وعلى ذلك فمرد ارتباط الأشياء الكونية بالمبدأ الازلي وتعلقها به ذاتاً إلى ارتباط تلك الأشياء بمشيته وإعمال قدرته، وأنها خاضعة لها خضوعاً ذاتياً، وتتعلق بها حدوثاً وبقاءاً فمتى تحققت المشية الإلهية بإيجاد شيء وجد، ومتى انعدمت انعدم، فلا يعقل بقاؤه مع انعدامها، ولا تتعلق بالذات الأزلية ولا تنبثق من صميم كيانها ووجودها كما عليه الفلاسفة)[1]

وقال آخر: (ولا يخفى أنّ القاعدة المشار اليها بأصلها وعكسها (أصل القاعدة: الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد)، وعكس القاعدة: (الواحدلا يصدر الا عن الواحد) أسسها أهل المعقول لإثبات وحدة الصادر الاول من المبدأ الأعلى، وهي على تقدير صحتها لا تجري في الفعل بالإرادة، بل موردها

1() انظر: وجود العالم بعد العدم عند الامامية، السيد قاسم علي الاحمدي، ص158، والكلام للسيد أبي القاسم الخوئي.

الفعل بالايجاب، لإمكان صدور فعلين عن فاعل بالارادة مع كونهما من مقولتين، وبما أن الصادر من المبدأ الأعلى يعدُّ من الفعل بالإرادة فلا شهادة لها بوحدة الصادر الاول)(1)

وقال آخر مبينا مدى البعد الذي وقع فيه من يقول بهذه المقولات عن الوحي الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام، والذي يتوافق مع كل العقول: (ولعمري من قال: بأن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد، وكل حادث مسبوق بمادة، وما ثبت قدمه امتنع عدمه، وبأن العقول والافلاك وهيولى العناصر قديمة، وأن الانواع المتوالدة كلها قديمة وأنه لا يجوز إعادة المعدوم، وأن الافلاك متطابقة، ولا تكون العنصريات فوق الافلاك، وأمثال ذلك كيف يؤمن بما أتت به الشرائع ونطقت به الآيات وتواترت به الروايات من اختيار الواجب وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وحدوث العالم، وحدوث آدم، والحشر الجسماني، وكون الجنة في السماء مشتملة على الحور والقصور والابنية والمساكن والاشجار والانهار، وأن السماوات تنشق وتطوى، والكواكب تنتثر وتتساقط بل تفنى، وأن الملائكة أجسام ملئت منهم السماوات ينزلون ويعرجون.. ومن أنصف ورجع إلى كلامهم علم أنهم لا يعاملون أصحاب الشرائع إلا كمعاملة المستهزئ بهم، أومن جعل الأنبياء: كأرباب الحيل والمعميات الذين لا يأتون بشئ يفهمه الناس، بل يلبسون عليهم في مدة بعثتهم، أعاذنا الله وسائر المؤمنين عن تسويلاتهم وشبههم)(2)

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاكتف بالمصادر المعصومة؛ فهي تغنيك عن كل تلك التلبيسات التي لا ينفعك علمها، ولا يضرك الجهل بها.. فالعبرة أن تعرف الله وتسير إليه، لا أن تسأل كيف خلق الخلق.

وإن اضطررت إلى ذلك السؤال، فافعل ما فعل إبراهيم عليه السلام عندما اشتاقت نفسه إلى معرفة كيفية إحياء الله للموتى، فهو لم يذهب للفلاسفة، ولا للكشف والشهود، وإنما سأل ربه أن يريه كيفية ذلك..

فافعل أنت مثل ذلك، وإن رأيت أن الله تعالى لم يجبك.. فاسكت عن البحث فيما لا يطيقه عقلك.. واعلم أنك والخلق جميعا مثل أولئك الذين لم يغادروا مدارسهم الابتدائية.. ولا

1() دروس في مسائل علم الأصول، الميرزا جواد التبريزي، ج1 ص5.

2() بحار الأنوار (8/ 328)

يصح للتلميذ في المدرسة الابتدائية أن يتجاوز قدره، ويبحث فيما لا يطيقه عقله.

نعم.. إنهم قد يرمونك بالجهل بالمعارف، وقد يحرمونك من لقب الحكمة والمعرفة.. فلا تعتب عليهم.. فالعبرة ليست بكثرة معارفك، وإنما بصوابها وصحتها وانطباقها مع الحقيقة والبرهان.. ولو كان لتلك المعارف التي يذكرونها أي دليل لدل عليها البرهان.. ولو كان فيها ضرورة للتزكية والترقية لدلت عليها النصوص المقدسة.

الوجود والشهود

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن تلك المسـألة التي وقع فيها الخلاف الشديد بين البشـر، بأديـانهم وفلسـفاتهم وتوجهـاتهم المختلفـة، وهي المسـألة الـتي يُطلـق عليهـا لقب [وحـدة الوجـود]، وهـل هي من معـارف النفس الراضـية، كمـا يـذكر ذلـك بعض الحكمـاء، أم أنهـا من معـارف الزنادقـة والملاحدة، ولا علاقة لها بالإسلام، ولا بالأديان؟

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن هـذه المسـألة بطروحاتها المختلفة تدخل ضمن الفضول المذموم، الذي حاول به العقل الإنساني، أن يقتحم لجـة عـالم الغيب، من خلال تلـك المناهج التي استعملها: إما مناهج الفكر والتأمل والتدبر، هو مـا استعمله الفلاسفة.. وإما منـاهج الكشـف والإشـراق والشـهود، وهو ما استعمله الصوفية.

ذلك أن الغرض من تلك المسألة هو تفسـير سـر الوجـود، وسر الكثرة فيه، وعلاقته بالوحـدة، وعلاقتـه بالألوهيـة.. ولـذلك التقى الطرفان النقيضان في هذا المعنى.. ذلك الذي يـزعم أن إلهه الواحد هو عين الوجود والموجـود، وأنـه لا مكـان للكائنـات فيه، وأنها عدم محض، ولم تشم رائحة الوجـود.. وذلـك الملحـد الذي لا يؤمن بإله يدير الكون، فلذلك راح يصـور أن الكـون هـو الإله، وأنه وحده، وأن وجوده واحد، وليس هناك اثنية فيه.. اثنية الخالق والمخلوق.

ولـذلك كـان لوحـدة الوجـود فرعـان: فـرع روحي وفـرع مادي.. وقد التقى الفرعان: إما على نفي الإله.. أو نفي الكون.

والعاقل الذي يحترم عقلـه، هـو الـذي يعـترف بعجـزه عن إدراك هـذه الحقـائق الكـبرى.. فيسـلم للـه تعـالى بـالوجود الحقيقي الكامل، لأنه لا يمكن أن يكون إلهـا من دون أن يكـون موجودا.. ويسـلم كـذلك للكـون بـالوجود، ويعتـبره وجـودا تابعـا لموجده، لا بكونه فيضـا فـاض عنـه، أو مولـودا ولـد منـه، ولكن بكونه مخلوقا نشأ عن إرادته ومشيئته وعلمه وقدرته.

ويـؤمن كـذلك بـأن هـذين الوجـودين لا يتزاحمـان، ولا يتناقضان، ولا يحتاج أحدهما لإلغـاء الآخـر.. لا بمعـنى المفاصـلة والبينونـة المكانيـة الـتي نراهـا بين الخلـق.. بحيث يكـون لكـل

منهمـا محلـه الخـاص بـه.. فاللـه يتعـالى عن المكـان والمحـل والزمان.. ويتعالى عن الحدود والجسمية والصورة.. ويتعالى أن يعبر عنه بما يعبر عن الأشياء من كونها داخل العالم أو خارجه..

فكـل تلـك التعـابير ناشـئة عن العرفـان الـذي يتـوهم في غروره أنه يمكن أن يحيط بالحقائق، مع أنه لم يُتح لـه ذلـك.. لا لعـدم وجودهـا، ولكن لعـدم قدرتـه.. ولـذلك كـان كلا العقلين مغرورا أثناء بحثه في مثل هذه المسائل:

سـواء كـان البـاحث فيهـا عقـل فيلسـوف يـدعي أن تلـك البـديهيات المحـدودة الـتي يملكهـا كفيلـة بحـل ألغـاز الكـون والوجود، مع أنه اكتسبها من الحس والقياس المرتبـط بـالخلق، لا بالخالق.

أو كان الباحث فيها عقل صوفي، يتوهم أن مـا فتح لـه من نوافذ المعرفة المحـدودة كفيـل بـأن يفسـر لـه حقـائق الوجـود الكبرى.

لـذلك كـان الأعقـل منهمـا هـو الـذي يسـلم عقلـه للـوحي الإلهي المقـدس، الـذي لم يتـدنس لا بالفلسـفة ولا بالإشـراق الذي يختلط فيه العقل بالهوى.

والوحي يخبرنا عن وجود الله كما يخبرنا عن وجود الخلـق، مع أن وجود الخلق من البديهيات التي تـدركها العقـول.. فـذلك لم يكن للعاقل أن يزعم عدمه لأجل وجود ربـه.. بـل هـو يـزعم ويتيقن بأن وجوده لم يكن ليتحقق لـولا وجـود ربـه.. أمـا كيفيـة ذلك.. فذلك ليس للعقـل.. ولا للكشـف.. ولا للشـهود.. بـل هـو للتسليم لله تعـالى، فالعاقـل هـو الـذي يـؤمن باللـه القـدوس.. وفي نفس الوقت يـؤمن باللـه الخـالق البـارئ المصـور.. وكـل أسمائه الحسنى التي تدل على وجـود من تتـوفر فيهم القابليـة لتلك الأسماء.

وأكبر دليل على ما ذكرت لك ـ أيها المريـد الصـادق ــ هـو ذلـك الاختلاف الشـديد بين الفلاسـفة حـول هـذه المسـألة.. فيمكنك فلسفيا إذا أردت إثباتها، أن تذكر أدلة من أثبتوها.. وإذا أردت نفيها أن تذكر أدلة من نفوهـا.. مـع أن كليهمـا يـزعم أنـه يعود لعقله.

ومثل ذلك المتصوفة.. فكمـا وجـد من يقـول بهـا، وينتصـر لهـا، ويؤلـف المؤلفـات الكثـيرة في ذلـك، وجـد من يـرد عليـه، ويعتـبره صـاحب حـال دني، وأن الكمـال في إثبـات الخـالق

والمخلوق، والحق والخلق.

ولذلك كان الأعقل من الجميع هو احترام المحل الـذي هـو فيه.. فالله تعالى لم يوفر لنا في هذا العالم الأدوات التي ندرك بها الحقائق الكبرى.. ولذلك كـان التسـليم والإسـلام هـو الحـل الأمثـل الـذي يحفـظ عقولنـا ومعارفنـا وحقائقنـا من أن تـدنس بالهوى، وبما يوحيه الشيطان من زخرف القول الذي قد نتـوهم أنه معارف إلهية، وهو ليس سوى زخارف شيطانية.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فأحسن الظن بأولياء الله الصالحين الذين لم يطرحوا هذه المسألة باعتبارهـا حقيقـة عقدية، وإنما طرحوها باعتبارها حالة شهودية.. ففـرق كبـير بين من يقول لك: لا يوجد في الكون إلا اللـه، وكـل من عـداه عـدم محض.. وبين من يقـول لـك: لم أشـهد في الكـون إلا اللـه.. ثم يسكت عن ذكر الأكوان وعدمها ووجودها.

والفرق في هذا مثل شخص كان يحمـل شـمعة في محـل مظلم، وكـان يراهـا، وكأنهـا كـل شـيء.. لكنـه يفاجـأ بالأضـواء تنطلق من كل مكان.. بحيث لم يعد لضوء الشمعة أي ظهور..

فهكـذا يحصـل للسـالك عنـدما يتخلى عن نفسـه وأهوائـه ويسير إلى ربه.. وتـبرق عليـه بـوارق فضـله.. حينهـا يصـل إلى الحالة الـتي لا يشـهد فيهـا إلا اللـه.. لا بمعـنى انعـدام الأكـوان، ولكن بمعنى عدم رؤيته لها.. وهل يمكن أن يُرى مع الله غيره.

وهذا المعنى هو الـذي يسـميه الحكمـاء [وحـدة الشـهود]، ويقصدون به ما ذكرته لـك من أن الانشـغال التـام باللـه تعـالى يجعل الكون كله ممحوا في ذهن وبصر وبصيرة السالك.

وقد يعبرون عنـه بــ [وحـدة الوجـود] من غـير أن يقصـدوا معناها الذي ذكره الفلاسفة.. وإنما يستعملون تعابيرهم فقط.

وقد أشار إلى هذا المعنى الكثير من الحكماء الذين صوروا الموقف الحقيقي للصالحين من تلك الطروحـات الفلسـفية.. أو بينوا أن أمثال تلك الأحاديث التي قد تشـبه مـا ذكـره الفلاسـفة ليس المقصـود منهـا مـا أرادوه، وإنمـا المقصـود هـو التوحيـد الشهودي.. لا الوجودي.

ومن الأمثلـة على ذلـك قـول بعضـهم عن مـراتب تنزيـه السالكين الله، بحسب المقامات التي تتحقق لهم: (والثالثة: أن يشاهد ذلـك بطريـق الكشـف بواسـطة نـور الحـق، وهـو مقـام المقربين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراهـا على كثرتهـا

صادرة عن الواحد القهار. والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسمِّيه الصوفية (الفناء في التوحيد).والثالث: موحد، بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه، ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لا أنه كلّف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين.. والرابع: موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير، بل من حيث إنه واحد. وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد)[1]

ثم يجيب عن سر ذلك، فيقول: (فإن قلت: كيف يتصوّر أن لا يشاهد إلا واحداً، وهو يشاهد السماء والأرض، وسائر الأجسام المحسوسة، وهي كثيرة؟ فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات.. وهو أن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدةٍ واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أن الإِنسان كثير إن التفتّ إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبارٍ آخر ومشاهدةٍ أخرى واحدٌ، إذ نقول: إنه إنسان واحد.. والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرقٌ بواحد ليس فيه تفريق، وكأنه في عين (الجمع)؛ والملتفتُ إلى الكثرة في (تفرقة) فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحدٍ من الاعتبارات واحدٌ، وباعتبارات أخر سواه كثيرٌ...وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق، تارة تدوم، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف، وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز)[2]

ثم يطبق هذا المثال على ما يحصل للسالك في سيره التحققي لله تعالى، فيقول: (فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإِلهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، ولا يُتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور، فإن الأشياء تُستبان

1() إحياء علوم الدين: (4/212)
2() إحياء علوم الدين: (4/213)

بأضدادها، وما عمّ وجوده حتى إنه لا ضدّ له، عسر إدراكه)[1]

وهكذا نراهم يذكرون أن معناها ليس ما يـذكره الفلاسـفة، أو بعض الديانات، وإنما معناها يعـود إلى تنزيـه اللـه تعـالى عن مشابهة مخلوقاته في أي شيء حتى في الوجـود نفسـه، فاللـه صاحب الوجود الحقيقي الواجب، وأما مخلوقاته، فوجودها تبعي لا ذاتي، وناقص لا كامل، كما عبر عن ذلك قولـه تعـالى: ﴿ذلِـكَ بِأَنَّ اللهَ هُـوَ الحَـقُّ﴾ [الحج: 22]. أي الثـابت الوجـود، المحَقَّق، أما غيره، فوجوده جائز عرضي ممكن، كمـا عـبر شـاعرهم عن ذلك بقوله:

الله قل وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله أن حققته	عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها	لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته	فوجوده لولاه عين محال
والعارفون بربهم لم يشهدوا	شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً	في الحال والماضي والاستقبال

وبنـاء على هـذه البديهيـة القرآنيـة والعقليـة يمـيزون بين معنى وحدة الوجود أو الشهود التي يقصـدونها، ووحـدة الوجـود الفلسفية، والتي تعني (اتحاد الحـق بـالخلق، وأنـه لا شـيء في هذا الوجود سوى الحق، وأن الكل هو، وأنه هو الكل، وأنــه عين الأشياء، وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه)[2]

وقد حكم هؤلاء الحكماء على هـذا النـوع من الوحـدة بأنـه (كفر وزندقة وأشد ضلالة من أباطيل اليهـود والنصـارى وعبـدة الأوثان، وقد شـدَّد الصـوفية النكـير على قائلـه، وأفتَـوْا بكفـره، وحذَّروا الناس من مجالسته) [3]

وقد قال بعضهم في ذلك: (فاحـذر يـا أخي كـلَّ الحـذر من الجلوس مع من يقول: ما ثَمَّ إلا الله، ويسترسل مع الهوى، فإِن ذلك هو الزندقة المحضة، إِذ العارف المحقق إِذا صح قدمـه في الشريعة، ورسخ في الحقيقة، وتَفَوَّهَ بقولـه: مـا ثَمَّ إِلا اللــه، لم

1() إحياء علوم الدين: (4/276)

2() حقائق عن التصوف، ص544.

3() حقائق عن التصوف، ص544.

يكن قصدهُ من هذه العبارة إِسقاطَ الشرائع وإِهمـال التكـاليف، حاش لله أن يكون هذا قصده)([1]

وهم يستشهدون لهذا المعـنى بـالمعني الإشـاري المبثـوث في ثنايا قوله تعـالى: ﴿كُـلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلَّا وَجْهَـهُ﴾ [القصـص: 88]، فيفهمون منها أن كل ممكن هو باعتبار ذاته هالـك، أو هـو عدم محض ونفي صرف، وإنما لـه الوجـود من جهـة ربـه، فهـو هالك باعتبار ذاته، موجود بوجه ربـه، أي أن وجـوده قاصـر على جهة ربه.

وهكذا يفهمون من كل النصوص الواردة في إثبات وحدانية الحق أو أحديته أو أحقيته:وقد كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصـلاة في جوف الليل قال من ضمن دعاء التهجد: (أنت الحق ووعدك الحـق وقولـك الحـق ولقـاؤك الحـق والجنـة حـق والنـار حـق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق)([2]

ففي قولـه ﷺ:(أنت الحـق) أي واجب الوجـود؛ فأصـله من حق الشيء أي ثبت ووجب، فوجود الله هو الوجــود الحقيقي إذ وجوده لنفسه، لم يسبقه عدم ولا يلحقه عـدم؛ ومـا عـداه ممـا يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم، ويجـوز عليـه لحـاق العـدم، ووجوده من موجده لا من نفسه، فهو معـدوم باعتبـار ذاتـه في كل الأحوال.

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمـة قالهـا الشـاعر، كمـا ورد في الحديث كلمة لبيد([3]): (ألا كل شيء ما خلا اللـه باطـل) ([4])

ومن هذا الباب وردت أسـماء اللـه تعـالى الـتي نص عليهـا قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: 3]

فالتأمل في المعـاني العميقـة الـتي تحملهـا هـذه الأسـماء يلبس الأشياء جميعـا ثـوب العـدم، ليبقى الحـق وحـده المتفـرد بالوجود الحقيقي.

وقد قال بعضهم مبينا عمق المعاني التي تـدل عليهـا هـذه

---

[1]() مدارج السلوك إلى ملك الملوك، محمد بناني المتوفى 1284هـ.

[2]() صحيح البخاري (2/ 61)

[3]() وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة منها أشـعر كلمـة تكلمت بهـا العـرب، وفي روايـة أصدق كلمة قالها شاعر، وفي أخرى أصـدق بيت قالـه الشـاعر، وفي أخـرى أصـدق بيت قالته الشعراء، وفي أخرى أصدق كلمة قالتها العرب.

[4]() صحيح البخاري (5/ 53) صحيح مسلم (7/ 49)

الأسـماء الحسـنى: (ومـا يكـاد يفيـق من تصـور هـذه الحقيقـة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعـه حقيقـة أخرى، لعلها أضخم وأقوى. حقيقة أن لا كينونة لشـيء في هـذا الوجود على الحقيقة. فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه؛ ومن ثم فهي محيطـة بكـل شـيء، عليمـة بكـل شـيء ﴿هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَـاطِنُ وَهُـوَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: 3]

ويقول عن المعاني التي يستشعرها، وهو يعيش في ظلال هـذه الأسـماء:(الأول فليس قبلـه شـيء. والآخـر فليس بعـده شيء. والظاهر فليس فوقه شيء. والباطن فليس دونه شيء.. الأول والآخر مستغرقا كـل حقيقـة الزمـان، والظـاهر والبـاطن مستغرقا كـل حقيقـة المكـان. وهمـا مطلقتـان. ويتلفت القلب البشـري فلا يجـد كينونـة لشـيء إلا للـه. وهـذه كـل مقومـات الكينونـة ثابتـة لـه دون سـواه. حـتى وجـود هـذا القلب ذاتـه لا يتحقــق إلا مسـتمدا من وجـود اللـه. فهـذا الوجـود الإلهي هـو الوجـود الحقيقي الـذي يسـتمد منـه كـل شـيء وجـوده. وهـذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته. وليس وراءهـا حقيقــة ذاتيــة ولا وجــود ذاتي لشــيء في هــذا الوجود)[1]

وأحب ـ أيها المريـد الصـادق ـ في آخـر هـذه الرسـالة أن أذكر لك ردا لبعض الشيوخ على من اتهمه واتهم أصحابه بــأنهم يقولـون بوحـدة الوجـود الفلسـفية، فقـد ذكـر في مقدمـة رده الفرق بين (وحدة الوجود)، و(وحدة الموجود)

وذكر أن الموجود متعـدد لاشـك فيـه.. (ولم يقـل أحـد من الصــوفية الحقيقــيين ــ ومنهم ابن العــربي والحلاج ـ بوحــدة الموجــود، وما كــان للصــوفية، وهم الــذروة من المؤمــنين أن يقولوا ـ وحاشاهم .بوحدة الموجود)[2]

وبعد أن ذكر الفرق بين معنى وحدة الوجود عنـد الصـوفية ومعناها عند الفلاسفة، كما ذكرت لـك سـابقا، أخـذ يتحـدث عن سبب إلصاق تهمة القـول بوحـدة الوجـود الفلسـفية بالصـوفية، فقــال: (وقد تتســاءل: من أين اذن أتت الفكــرة الخاطئة الــتي

1() في ظلال القرآن، (5/ 3161)

2() أبو العباس المرسي، ص 132.

يعتقــدها كثــير من النــاس من أن الصــوفية يقولــون بوحــدة الموجود؟! وتفسير ذلك لا عسـر فيـه: إن فريقـا من الفلاسـفة في الأزمنــة القديمــة، وفي الأزمنــة الحديثــة، يقولــون بوحــدة الموجــود، بمعــنى أن اللــه ـ ســبحانه وتعــالى عن إفكهم ـ هو والمخلوقــات شــيء واحد، قــال بــذلك هيراقليــط في العهــد اليوناني: والله عند نهار وليل صيف وشـتاء، وفـرة وقلـة، جامـد وسـائل ـ أنه على حد تعبـيره ـ كالنـار المعطـرة تسـمى بإسم العطر الذي يفوح منها تقدس سـبحانه وتـنزه عما يقـول، واللـه سبحانه وتعالى في رأي (شلي) في العصـور الحديثـة. هـو هـذه البسمة الجميلـة على شـفتي طفـل باسـم. وهـو هـذه النسـائم العليلة التي تنعشنا ساعة الأصيل. وهو هذه الإشـراقة المتألقـة بالنجم الهادي في ظلمات الليل، وهو هذه الوردة اليافعـة تنفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلـة. إنـه الجمـال أينمـا وجـد، ولكنـه أيضا ـ سبحانه وتعالى ـ القبح أينما كان. وكمـا يكـون طفلا فيـه نضرة، وفيه وسامة. يكـون جثـة ميت، ويكـون دودة تتغـذى من جسـد ميت. ويكـون قـبرا يضـم بين جدرانـه هـذه الجثـة، وهـذا الـدود. أسـتغفرك ربي وأتـوب اليـك. ولوحـدة الوجـود ـ بمعـنى وحـدة الموجـود ـ أنصـار في كل زمـان. ولمـا قـال الصـوفية بــالوجود الواحــد.. شــرح خصــومهم الوجــود الواحــد بــالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجـود وفـرق كبـير بينهما. ولكن الخصومة كثيرا ما ترضى عن التزييف وعن الكذب في سبيل الوصول إلى هدم الخصم. والغاية تبرر الوسـيلة كمـا يقولون)[1]

هذا هو السبب الأول، وهو مرتبـط بالاشـتراك اللفظي بين المصـطلحين: الفلسـفي والصـوفي مـع أن لكـل منهمـا دلالتـه الخاصة.

وأمــا الثــاني فمرتبــط باشــتراك لفظي آخــر.. ليس بين الصــوفية والفلاســفة.. وإنمــا بين الصــوفية والمتكلمين، وقــد وضحه الشيخ بقوله: (وشيء آخر في غاية الأهمية، كان لـه أثـر كبير في الخطأ في فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد، وهو أن الأشــعري رأى في فلســفته الكلاميــة أن الوجــود هــو عين الموجــود، ولم يوافقــه الكثــير من الصــوفية على هــذه الفكــرة الفلسـفية. ولم يوافقـه الكثـير من مفكـري الإسـلام وفلاسـفته

1() أبو العباس المرسي، ص 133.

على رأيه. وهو رأي فلسفي يخطئ فيه أبو الحسن الأشعري أو يصـيب، ومـا مثلـه في آرائـه الفلسـفية الا مثـل غـيره في هـذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخـرى، ورأى مخـالفوه أن الوجـود غـير الموجـود. وأنـه مـا بـه يكـون وجـود الموجـود. ولمـا قـال الصوفية بالوجود الواحد. شرح خصومهم فكرتهم في ضوء رأي الأشـعري، دون أن يراعـوا مـذهبهم ولا رأيهم. ففسـروا قـولهم بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد)[1]

ثم ذكر سببا ثالثا لـذلك الخلـط بين قـول الصـوفية وقـول الفلاسفة ـ وهو الذي يتشـبت بـه المنكـرون في العـادة ــ وهـو (هذه الكلمات التي تناثرت هنا وهنـاك مخترعـة ملفقـة مزيفـة، ضالة في معناها، تافهة في قيمتهـا الفلسـفية غريبـة على الجـو الإسلامي تنادي بصورتها ومعناها: أنها اخترعت تضـليلا وافتياتـا، إنهـا هـذه الكلمـات الـتي يعزونهـا إلى الحلاج، أو إلى غـيره.. لا توجـد في كتـاب من كتبـه ولم يخطهـا قلمـه.. لقـد اخترعوهـا اختراعــا ثم وضــعوها أساســا تــدور عليــه أحكــامهم بــالكفر والإضـلال. ويكفي أن يتشـبث بهـا انسـان فيكـون في منطـق البحث غير أهل الثقة)[2]

وبناء على هذا راح الشيخ يوضح مدى عقلانية وشرعية مـا يطرحه الصوفية من معان حول وحدة الوجـود، فقـال: (الوجـود الواحـد: وهـل في الوجـود الواحـد من شـك؟ إنـه وجـود اللـه المستغني بذاته عن غيره، وهو الوجود الحق الـذي أعطى ومنح الوجـود لكـل كـائن، وليس لكـائن غـيره سـبحانه. الوجـود من نفسه، أنه سبحانه الخـالق. وهـو البـارئ المصـور.. وصـلة اللـه بالإنسان إذن: هي أنه سبحانه يمنحه الوجود الذي يريده لـه في كل لحظة من اللحظات المتتابعة. فشكل حياته في كل بصـورة أمده سبحانه وتعالى بها. وصلة اللـه بكـل كـائن: إنمـا هي على هذا النمط)[3]

ثم بين أن معنى وحدة الوجـود في النصـوص القرآنيـة هـو نفسه معنى القيومية، فاللـه سـبحانه وتعـالى (قيـوم السـموات والأرض قائم على كـل نفس بمـا كسـبت، وقـائم على كـل ذرة من كل خلية وقائم على كل ما هو أصغر من ذلك وما هو أكــبر،

1() أبو العباس المرسي، ص134.
2() أبو العباس المرسي، ص 135.
3() أبو العباس المرسي، ص 136.

بحيث لا يعزب عن هيمنته وعن قيوميتـه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السماء. هذه القيومية أخذ القرآن والسنة يتحدثان عنهـا في استفاضة مستفيضـة ليهـزا الإنسـان هـزة عنيفـة، فلا يخلـو على الأرض، ولا يتبـع هـواه، وإنمـا يرتفـع ببصـره، ويستشـرف بكيانـه إلى الملأ الأعلى مستخلصـا نفسـه من عبوديـة المـادة ليوحد الله سبحانه وتعـالى في عبوديـة خالصـة، وفي إخلاص لا يشوبه شرك من هوى أو شرك من سيطرة المـادة أو الغرائـز) [1]

وبناء على هـذا راح يسـتعرض آيـات القـرآن الكـريم الـتي يُستدل بها عادة في إثبات وحدة الوجود القرآنيـة الـتي يؤمنـون بها، ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَـا تُمْنُـونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الواقعـة: 58، 59]، وقولـه: ﴿أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعــة: 63، 64]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: 68، 69]

ثم علـق على هـذه الآيـات الكريمـة وغيرهـا مبينـا قيمـة النظرة إلى الكـون بهـذه الصـفة، بقولـه: (هـذه الهيمنـة وهـذه القيومية يمر بها قوم فلا يعيرونها التفاتا، إنهم يمرون بها مــرور الحيوانات بما تدرك ولا تعقل، إن الله سـبحانه وتعـالى لا يحتـل من شـعورهم درجــة أيــا كــانت، وهمهم كــل همهم مصــبحين ممسين، إنما هو ملء البطن، أو كنز الذهب والفضـة، أو الـنزاع على جاه، أو العمل لتثبيت سلطان. انهم يمرون بآيـات اللـه فلا يشهدونها، وتحيط بهم آثاره، فلا ينظرون اليها، وتغمرهم نعماؤه وآلاؤه، فلا يــوجههم ذلــك إلى الحمــد لا إلى الشــكر. إن اللــه سـبحانه وتعـالى لا يحتـل في قلـوبهم ولا في تفكـيرهم ولا في بيئتهم، قليلا ولا كثيرا. والطرف الآخـر المقابـل لهـذا هـو هـؤلاء الـذين انغمسـوا حقـا في محيـط الإلهيـة. سـبحوا في بحارهـا، واستنشقوا نسائمها الندية، وغمرهم لألاؤها وضياؤها؛ لقد بــدأوا بحمد الله وشكره على نعماه وآلائه الـتي تحيـط بهم من جميـع أقطارهم، فزادهم نعما وآلاء.. لقد اتقوا الله حق تقاتــه فعلمهم الله.. لقد اكتفوا بالله هاديا ونصيرا، فهـداهم اللـه إلى صـراطه المستقيم، ونصرهم على أنفسهم وعلى أعدائهم) [2]

1() أبو العباس المرسي، ص 137.
2() أبو العباس المرسي، ص 138.

هذا هو مقصود الحكماء من [وحدة الوجود]، كما يوضحها أعلامهم الكبار، وهي مما لا حرج فيه، بل إنها دليل على المراتب العالية التي يعيشها السالك في صحبة ربه.

وأنا لا أنكر ـ أيها المريد الصادق ـ هذه المعاني، وكيف أنكرها، وقد نطق القرآن الكريم بالدلالة عليها.. ولكني أنكر تلك التصانيف التي ألفت في بعض تفاصيلها، مما هيأ الفرصة للمندسين ليتحولوا بها عن معناها الشرعي الصحيح إلى معان أخرى.. لا يقبلها العقل المجرد، ولا العقل المسدد.

لذلك أوصيك بدل أن تضيع وقتك في فهم تلك الألغاز التي وضعوها، والإشكالات التي طرحوها، أن تنشغل بذكر ربك، وعبوديته، وممارسة أدوارك الرسالية التي كلفت بها.. وحينها سيفتح الله لك من فهم الحقائق ما لا تطيق كل تلك الدفاتر جميعا أن تبلغك إياه.

القرب والبعد

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن معـنى قـرب اللـه تعـالى وبعـده، وكيفيـة انسـجامه مـع التنزيـه والتقـديس والحمد.. والمعارف المرتبطة بذلك.

وقد ذكرت لي أثناء سؤالك ما أشكل به عليك بعضـهم من قوله: إن كان الله قريبـا من خلقـه، فهـذا يسـتدعي الحلـول أو الاتحـاد.. وإن كـان بعيـدا عنهم، فهـذا يسـتدعي الجسـمية، وأن يكون لله محل خاص به، يباين به خلقه..

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن صـاحب النفس المطمئنة الـذي أدرك عظمـة ربـه وقدوسـيته وكمالـه، وعـرف استحالة إدراكه بالقياس أو الخيال أو التوهم والتصـور.. وعـرف أن كل ما يخطر بباله، فربه بخلافه.. لن يعجز عقله عن الإيمان بالقرب والبعد المنزه عن الجسمية والمكان والحلول والاتحاد.. ذلك أن كل تلك المعـاني ناشـئة عن الخيـالات الـتي تتحكم في العقول، فتتوهم أن الأمر لا يعدو تلك الاحتمالات التي ذكرتها..

ولذلك؛ فإن هذا العقل يسلم لكل تلك الآيات الكريمة التي تخـبر عن قـرب اللـه تعـالى من خلقـه، ومعيتـه لهم، وفي كـل الأحـوال.. وأنـه أدنى إليهم من حبـل الوريـد، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]

ويذكر الله له معيته وحضوره مع كل شـيء، فيقـول: ﴿هُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَـا يَخْـرُجُ مِنْهَـا وَمَـا يَـنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَالله بِمَا تَعْمَلُـونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد 4]

ويقول: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَـةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَـرَ إِلَّا هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَـا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ الله بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: 7]

ويذكر معيته مع المؤمنين الصالحين، فيقول: ﴿ وَقَـالَ اللـه إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّـلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَـاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُـلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: 12]، ويقول:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا﴾ [التوبة 40]، ويقول: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: 12]

ويذكر حضوره مع المنحرفين الذين يستخفون من الناس، ولكنهم لا يستطيعون الاستخفاء منه، فيقول: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُم﴾ [النساء 108]

وهكذا نجد الأحاديث الصحيحة الموافقة للمعقول والمنقول، والتي لم تتلطخ بتشويهات المجسمة والمحرفة تنص على هذا، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للصحابة لما رأى رفعهم لأصواتهم بالذكر: (أيها الناس! أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)(1)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن قرب الله تعالى مثل سائر صفاته وأسمائه الحسنى منزه عن كل ما أشكل به عليك من الحلول والاتحاد أو الحاجة للمكان والمحل.. ذلك أن كل ذلك مرتبط بالأجسام.. فهي التي باقترابها يحل بعضها في بعض، أو يتحد بعضها ببعض.. وهي التي ببعدها يكون لها محلها الخاص بها، والذي لا تداني أو تلامس به غيرها.

أما سؤالك عن البعد في حق الله تعالى، وكيف ينسجم مع القرب، فجوابه أن إيمانك بقدوسية الله تعالى والتي تجعلك تؤمن بقربه المطلق من خلقه جميعا، ومن دون مسافة أو ما يشابهها مما يرتبط بالأجسام.. هو نفسه الذي يجعلك تؤمن بالبعد والحجاب الذي وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم..

فقد ذكر الله تعالى بعد الكفار عن ربهم وحجابهم عنه، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44]

ومثل ذلك ذكر قرب المؤمنين، والصالحين منهم خصوصا، فقال: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ: 37]

(1) البخاري 13/372 ح 7386.

وذكر تقريبه لداود عليه السلام، فقـال: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَـا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَـا لَـهُ ذَلِـكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص:24، 25]

ولــذلك كــان المقربــون من أصــناف الصــالحين، بــل من أعلاهم درجة، كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: 10، 11]، وقال عن الملائكة: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِـيحُ أَنْ يَكُـونَ عَبْـدًا لله وَلَا الْمَلَائِكَـةُ الْمُقَرَّبُـونَ﴾ [النساء: 172]

وكــل ذلــك لا يعــني القــرب المكــاني.. أو قــرب الحلــول والاتحاد.. بل يعني القـرب الـذي عـبر عنـه رسـول اللـه ﷺ في الحديث القدسي، فقال ـ حاكيا عن ربـه تبـارك وتعـالى ــ: (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقـرب إلي عبـدي بشـيء أحب إلي ممـا افترضـته عليـه، ومـا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل حـتى أحبـه، فـإذا أحببتـه كنت سـمعه الـذي يسـمع بـه وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينـه، وإن اسـتعاذني لأعيذنـه، ومـا تـرددت عن شــيء أنــا فاعلــه تــرددي عن قبض نفس المــؤمن: يكــره الموت، وأنا أكره مساءته)(1)

وهو يشير بذلك إلى أن القـرب هـو قـرب العبـد من اللـه، بكثرة طاعته له.. أما الله تعالى فهو قريب من كل شـيء، كمـا عبر بعض الحكماء عن ذلك، فقال: (القـرب عنـدنا: هـو ارتفـاع الغفلة عن ذات الله تعالى)، ثم قرب ذلك بقوله: (أليس أن من نظر إلى الزجاج على ضربين: ضرب إنما همـه الزجـاج، ورؤيـة ما وراء ذلك بالعرض.. وضرب إنما همه ما وراء الزجاج، ورؤيــة الزجـاج بـالعرض.. فكلاهمـا نـاظر إلى الزجـاج والى مـا ورائـه ولكن افترقـا في ارتفـاع الغفلـة والتيقـظ والشـعور والالتفـات فاتضح بهذا المثال معنى قولنا: ارتفاع الغفلة)(2)

وقال آخر: (معنى قربه منك وقربك منه: أنك متقـرب منـه بالخدمة، وهـو يتقـرب بالرحمـة.. وأنت تتقـرب بالسـجود، وهـو يتقرب بـالجود.. وأنت تتقـرب بالطاعـة، وهـو يتقـرب بتوفيقـك الاستطاعة)(3)

1() رواه البخاري 6502.

2() ولي الله الدهلوي، التفهيمات الإلهية، ج2 ص 260.

3() عز الدين بن عبد السلام المقدسي، حل الرموز ومفاتيح الكنوز، ص 86.

وقال آخر: (لا يقترب مخلوق من الله عز وجل قرباً مكانياً، فإنه تعالى لا يحويه مكان، ونسبة الأمكنة إليه واحدة، ولكن القرب المقصود في كلام الصوفية عامة هو قرب معنوي.. هو قرب محبة ورضى، قرب مكانة لا مكان)[1]

وقال آخر: (قربك منه أن تكون شاهداً لقربه، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟)

وقال آخر: (قرب المسافات والنسب والمداناة: وهو قرب الأجسام، وسائر المحدثات، فلا يليق بالحق سبحانه، ولا يجوز عليه)[2]

وقال آخر: (القرب منه ليس بالمكان، وإنما هو باكتساب الكمال على حسب الإمكان.. وأن كمال النفس بالعلم والعمل، والاطلاع على حقائق الأمور، مع حسن الأخلاق)[3]

وقال آخر: (القرب على ثلاثة أوجه: قرب من حيث المسافة، وهو محال.. وقرب من حيث العلم والقدرة، وهو واجب.. وقرب من حيث الفضل والرحمة، وهو جائز)[4]

وقال آخر: (القرب: كناية عن قرب العبد من ربه بطاعته وتوفيقه)[5]

وقال آخر: (القرب: هو تحصيل الولاية برفع الحجب وإخلاص العبودية إليه)[6]

وقال آخر: (القرب من الحق تعالى: هو قرب معنوي وليس ذلك إلا برفع حجاب الجهل)[7]

وقال آخر: (القرب: هو القرب من طاعته، وشغل الأوقات بعبادته)[8]

وقال آخر: (القرب منه تعالى: هو التخلي عن كل صفة ذميمة، والتحلي بمكارم الأخلاق، والإقبال عليه والطاعة له والإعراض عن كل ما سواه، وفعل كل ما يقرب إليه، وذلك هو معنى طريق الله، أو قل طريق القرب إلى الله تعالى)[9]

1() ابن عربي، الإسرا إلى المقام الأسرى، ص 24.
2() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 319 0
3() الإمام الغزالي، ميزان العمل، ص 293 0
4() محمد بن المنور، أسرار التوحيد في مقامات أبو سعيد، ص 349.
5() معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 38، 39.
6() عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج 1 ص 134.
7() المرجع السابق، ج 1 ص 135.
8() أحمد الكمشخانوي النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 281.
9() السيد محمود أبو الفيض المنوفي، معالم الطريق إلى الله، ص 224.

وقال آخر: (حقيقة القرب: هو أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزاد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه)[1]

ولهذا كان السلوك إلى الله كله رحلة إلي التقرب إلى الله.. وكان علم السلوك هو العلم الباحث في أقصر الطرق الموصلة لذلك، كما عبر عن ذلك بعضهم بقوله: (ما تقرب أحد إلى ربه بشيء أزين عليه من ملازمة العبودية وإظهار الافتقار، لأن ملازمة العبودية تورث دوام الخدمة، وإظهار الافتقار إليه يورث دوام الالتجاء والتضرع، ولذا علمهم في الفاتحة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]هذا إظهار الافتقار)[2]

وقال آخر: (القرب ينقسم إلى تسعة أقسام: الأول: قرب العلم، وهو يتولد من خالص الجد، ودوام الجهد، ولزوم الطلب.. الثاني: قرب العمل، وهو يتولد عن حقيقة الإخلاص، وتصحيح القصد، واستدامة الصدق.. الثالث: قرب الحال، وهو يتولد عن صفاء المحل، وتخليص الأفعال، وصفاء الوقت.. الرابع: قرب إلى القلب، وهو يتولد عن لطائف الذكر، وحقائق الفكر، وجمع التفرقة.. الخامس: قرب النفس، وهو يتولد عن حقيقة التذكار، وفقد الهوى، وسلب الاختيار، وعدم الإرادة.. السادس: قرب الروح، وهو يتولد من الاستغراق في المحبة، والتوغل في بحار العظمة، ودوام الحمد.. السابع: قرب السر، وهو يتولد عن تجلي الحقيقة، وظهور الطريقة، ومصافات الوقت بطيب استرواح الملكوت.. الثامن: قرب للرسول، وهو يتولد من امتثال الأوامر، ودوام التعظيم، واستشعار الأدب.. التاسع: القرب من الله تعالى، وهو يتولد عن ألا يخطر بباله ما نهاه عنه، ولا يغيب عن خاطره ما أمره به، مع التزام الأدب في العبودية، والوقوف تحت قهر الربوبية)[3]

ثم بين النتائج المترتبة على كل قسم من أقسام القرب، فقال: (فحقيقة قرب العلم: الظفر بالراحة، وظهور الأدب وحسن الخلق.. وحقيقة قرب العمل: تصحيح المكاسب،

1() ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 2 ص 22، 23.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 801.

3() أحمد البوني، مواقف الغايات في أسرار الرياضات، ص 354، 355.

واستـرواح المـواهب، وراحـة البـاطن.. وحقيقـة قـرب الحـال: تـــنوير البـاطن بـأنوار المكاشـفة، والظـاهر بـأنوار السـكون والهيبة.. وحقيقـة القـرب من القلب: ظهـور السـكينة بلطـائف الإيمان، واستحلاء الطاعة بدوام الجد، وثبـوت الحـال.. وحقيقـة القـرب من النفس: اسـتغراق الأوقـات في المناجـاة، وطهـارة الحركات والسكنات من ظلمات الغفلات.. وحقيقة قرب الروح: كشف أسرار المحبين، والثبوت عند تواجد الواجـدين.. وحقيقـة القرب من السر: لطائف الإلهام، واضـمحلال الرسـوم، وذهـاب الحس.. وحقيقة القرب من الرسول: بروز الحكمة على صراط الحق والشرع، مع الاسـتغراق في الحـال، والحمايـة من خـاطر النفس، والفهم عن الله تعالى.. وحقيقة القرب من الله تعـالى: ظهـــور الحقيقـــة والأنفـــاس، وذهـــاب الأكـــوان والإحســـاس، واستيحاش الحقيقة من الإيناس)[1]

وقال آخر: (القرب على ثلاث مراتب: قرب بالطاعة وترك المخالفـــة، وقـــرب بالرياضـــة والمجاهـــدة، وقـــرب بالوصـــول والمشـاهدة.. فقـرب الطـالبين: بالطاعـة، وقـرب المريـدين: بالمجاهدة، وقرب الواصلين: بالمشاهدة)[2]

وقال آخر: (العبد له في قربه ثلاث مـراتب: القـرب الأول: قربـة الأبـدان: وهـو العمـل بالأركـان.. الثـاني: قـرب القلب: بالتصديق والإيمان.. الثالث: قرب الروح: بـالتحقيق والإحسـان)[3]

وقال آخر: (لا تصل إلى منازل القربـات حـتى تقطـع عنـك سـت عقبـات: العقبـة الأولى: فطم الجـوارح عن المخالفـات الشرعية.. العقبة الثانية: فطم النفس عن المألوفـات العاديـة.. العقبـة الثالثـة: فطم القلب عن المرغوبـات البشـرية.. العقبـة الرابعة: فطم السر عن الكدورات الطبيعية.. العقبـة الخامسـة: فطم الـروح عن البخـارات الحسـية.. العقبـة السادسـة: فطم العقل عن الخيالات الوهمية.. فتشـرف من العقبـة الأولى على ينـابيع الحكم القلبيـة.. وتطلـع من العقبـة الثانيـة على أسـرار العلـوم اللدنيـة.. وتلـوح لـك في العقبـة الثالثـة أعلام المناجـاة الملكوتية.. وتلمـع لـك في العقبـة الرابعـة أنـوار أعلام المنـازل

1() أحمد البوني، مواقف الغايات في أسرار الرياضات، ص 354، 355.
2() معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 38، 39.
3() عز الدين بن عبد السلام المقدسي، حل الرموز ومفاتيح الكنوز، ص 88.

القريبـة.. وتطلـع لـك في العقبـة الخامسـة أقمـار المشـاهدات الحبيــة.. وتهبــط من العقبـــة السادســـة إلى ريــاض الحضــرة القدسية، فهناك تغيب من ما تشـاهد من اللطـائف الإنسـية عن الكثائف الحسية)[1]

وقــال آخــر: (الــرواح إلى المــولى بــالقرب لا يكــون إلا بالأركـان العشـرة وهي: التوبـة، والزهـد، والتوكـل، والقناعـة، والعزلة، والذكر، والتوحيد، والتسليم، والمراقبـة، والرضـى، وإلا فلا يسمى من المقربين)[2]

وهكذا، فإن قرب اللـه تعـالى من خلقـه، وإن كـان شـاملا للجميع إلا أن هناك قربـا ومعيـة وخاصـة للصـالحين من عبـاده، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاحذر من أن تنسب للصـالحين مـا رمـاه بـه أعـداؤهم بسـبب سـوء فهمهم لبعض أقوالهم، فراحوا يتهمونهم بالقول بالحلول والاتحاد، مع أنهم لــو اطلعوا على ما كتبـوه في الـرد على ذلـك لكـان كافيـا لهم في التراجع والتوبة عن هذه التهمة الشنيعة، وقـد قـال بعضـهم في ذلـك: (ولعمـري إذا كـان عُبـاد الأوثـان لم يتجـرؤوا أن يجعلـوا آلهتهم عين اللــه، بــل قــالوا: ﴿ أَلَا لِلــه الــدِّينُ الْخَــالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَـا نَعْبُـدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَـا إلى اللـه زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، فكيف يُظَن بأولياء الله تعـالى أنهم يـدَّعون الاتحـاد بالحق على حد ما، تتعقله العقول الضعيفة ؟! هذا كالمحال في حقهم رضي الله عنهم، إذ مـا من ولي إلا وهـو يعلم أن حقيقتـه تعــالى مخالفــة لســائر الحقــائق، وأنهــا الخارجــة عن جميــع معلومات الخلائق، لأن الله بكل شيء محيط) [3]

وقال آخر مبينا فسـاد هـذه العقيـدة ووجـوه بطلانهـا عقلا: (وأما الاتحاد: فذلك أيضاً أظهر بطلاناً، لأن قول القائل: إن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه، بل ينبغي أن ينـزه الرب تعالى عن أن يجـري اللسـان في حقـه بأمثـال هـذه المحـالات، ونقول قولاً مطلقـاً: إن قـول القائـل: إن شـيئاً صـار شـيئاً آخـر محال على الإطلاق، لأننا نقول إذا عقل زيد وحده وعمرو وحده

1() عز الدين بن عبد السلام المقدسي، حل الرموز ومفاتيح الكنوز، ص 32، 34.
2() مكتوبات للشيخ نور الدين البريفكي، ص16.
3() اليواقيت والجواهر، ج 1، ص83.

ثم قيل أن زيداً صار عمراً واتحد به، فلا يخلو عند الاتحاد إما أن يكون كلاهمـا موجـودين، أو كلاهمـا معـدومين، أو زيـد موجـوداً وعمرو معـدوماً أو بـالعكس، ولا يمكن [وجـود]قسـم [آخـر]، وراء هذه الأربعة، فـإن كانـا موجـودين فلم يصـير عين أحـدهما عين الآخر، بل عين كـل واحـد منهمـا موجـود، وإنمـا الغايـة أن يتحـد مكانهمـا، وذلـك لا يـوجب الاتحـاد، فـإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة، ولا تتباين محالهـا، ولا تكـون القدرة هي العلم ولا الإرادة، ولا يكون قد اتحـد البعض بـالبعض وإن كانا معدومين فما اتحـدا، بـل عـدما، ولعـل الحـادث شـيء ثالث.. وإن كان أحدهما معدوماً والآخر موجـوداً فلا اتحـاد، إذ لا يتحد معدوم بموجود، فالاتحاد بين شـيئين مطلقـاً محـال، وهـذا جار في الذات المتماثلة فضلاً عن المختلفـة، فإنـه يسـتحيل أن يصـير هـذا السـواد ذاك السـواد، كمـا يسـتحيل أن يصـير هـذا السواد ذلـك البيـاض أو ذلـك العلم، والتبـاين بين العبـد والـرب أعظم من التباين بين السواد والعلم، فأصـل الاتحـاد إذاً باطـل) [1]

ثم بين وجوه فساد الحلول، فقال: (وجه اسـتحالة الحلـول لا يفهم إلا بعد فهم معنى الحلول، فإن المعـاني المفـردة إذا لم تدرك بطريق التصور لم يمكن أن يفهم نفيهـا أو إثباتهـا، فمن لا يدري معنى الحلول، فمن أين يدري أن الحلول موجود أو محال ؟)[2]

ثم فسـر ذلـك، فقـال: (المفهـوم من الحلـول أمـران: أحدهما: النسبة بين الجسم ومكانـه الـذي يكـون فيـه، وذلـك لا يكون إلا بين جسـمين، فـالبريء عن معـنى الجسـمية يسـتحيل في حقه ذلك.. والثاني: النسبة التي بين العرض والجوهر، فـإن العرض يكون قوامه بالجوهر، فقد يعبر عنه بأنه حال فيه، وذلك محال على كل ما قوامه بنفسه.. فـدع عنـك ذكـر الـرب تعـالى وتقدس في هذا العرض، فإن كل ما قوامه بنفسـه يسـتحيل أن يحـل فيمـا قوامـه بنفسـه إلا بطريـق المجـاورة الواقعـة بين الأجسام، فلا يتصور الحلول بين عبدين، فكيف يتصور بين العبـد والرب ؟) [3]

1() المقصد الاسنى، ص 168.
2() المقصد الاسنى، ص 168.
3() المقصد الاسنى، ص 168.

وعلى هذا اتفق جميع الحكماء، وذكروا أن سبب ما رماهم بـــه المخـــالفون هـــو بعض مـــا ورد في أشـــعارهم من أنـــواع الاستعارة والمجاوز ونحوها، مما عُهد مثله عند الشـعراء، لبيـان مـدى قـربهم من محبـوبهم، كمـا قـال بعضـهم في قـول بعض الشـعراء: (أنـا مَنْ أهـوى ومَنْ أهـوى أنـا): (هـذا إِنمـا أراد بـه الشاعر الاتحاد المعنوي، كاتحاد أحد المحبّين بالآخر، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقــول، ويفعل مثل ما يفعل؛ وهذا تشابه وتماثل، لا اتحاد العين بـالعين، إذا كان قد استغرق في محبوبه، حتى فني به عن رؤيــة نفســه، كقول الآخر: غبتُ بكَ عنِّي... فظننْتُ أنَّك أنِّي.. فهذه الموافقــة هي الاتحاد السائغ)(4)

وقال آخر: (اعلم أنه وقع في عبـارة بعض المحققين لفـظ الاتحاد، إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد، فإن الاتحاد عندهم هــو المبالغة في التوحيد، والتوحيـد معرفـة الواحـد والأحـد، فاشـتبه ذلــك على من لا يفهم إشــارتهم فحملــوه على غــير محملــه، فغلطوا وهلكوا بذلك.. فـإن أصـل الاتحـاد باطـل محـال مـردود شـرعاً وعقلاً وعرفـاً بإجمـاع الأنبيـاء ومشـايخ الصـوفية وسـائر العلمـاء والمسـلمين، وليس هـذا مـذهب الصـوفية، وإنمـا قالـه طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعـالى، فشـابهوا بهذا القـول النصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام: (اتحد ناسوته بلاهوته)، وأما من حفظه الله تعـالى بالعنايـة، فـإنهم لم يعتقـدوا اتحـاداً ولا حلـولاً، وإن وقـع منهم لفـظ الاتحـاد، فإنمـا يريدون بـه محـو أنفسـهم، وإثبـات الحـق سـبحانه.. وقـد يـذكر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات، وبقاء الموافقات، وفناء حظــوظ النفس من الــدنيا وبقــاء الرغبــة في الآخــرة وفنــاء الأوصــاف الذميمة، وبقاء الأوصـاف الحميـدة، وفنـاء الشـك، وبقـاء اليقين وفناء الغفلة وبقاء الذكر.. وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمـه الله تعالى: (سبحاني ما أعظم شأني) فهو في معرض الحكايــة عن اللــه، وكــذلك قــول من قــال: (أنــا الحــق) محمــول على الحكاية، ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد، لأن ذلك غير مظنــون بعاقــل، فضــلاً عن الممــيزين بخصــوص المكاشــفات واليقين والمشــاهدات، ولا يظن بــالعقلاء الممــيزين على أهــل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهـدة وحفـظ حـدود

4() مجموع رسائل ابن تيمية ص 52.

الشرع الغلط بالحلول والاتحـاد، كمـا غلـط النصـارى في ظنهم ذلك في حق عيسى عليه السلام، وإنما حدث ذلك في الإســلام من واقعات جهلة المتصوفة، وأما العلماء العـارفون المحققـون فحاشاهم من ذلك)[1]

وقد قال بعضهم يذكر ذلك في قصيدة له:

يظنوا بي حلولاً واتحاداً ... وقلبي من سوى التوحيد خالي

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول، ثم فسر ذلك، فقال:

وعلمك أن كل الأمر أمري ... هو المعنى المسمى باتحاد

فـذكر أن المعـنى الـذي يريدونـه بالاتحـاد إذا أطلقـوه هـو تسليم الأمر كله لله، وترك الإرادة معه والاختيار، والجــري على مواقع أقداره من غير اعتراض وترك نسبة شيء ما إلى غيره.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تتحقق بمعاني القرب من الله تعالى، واحذر من أن تقع فريسة لتلك الشبه التي تبثها الشياطين لتصرفك عن الحق وتبعدك عن التقرب منه.

1() جلال الدين السيوطي، الحاوي للفتاوي، ج2 ص 134.

التنزيه والتشبيه

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن تنزيه الله تعالى وتقديسه، والمعارف المرتبطة بذلك.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن تنزيه الله تعالى وتسبيحه وتقديسه من الأركان الكبرى لمعرفته؛ فلا يمكن لمن وقع في مستنقعات التشبيه والتجسيم والتحديد والتقييد أن يعرف ربه العظيم الذي لا حدود لعظمته.

ولذلك كان سلب ما لا يليق بالله من الأركان الكبرى التي قامت عليها رسالات الأنبياء عليهم السلام في تعريفهم بربهم، فلا يمكن تأسيس العقائد الصحيحة في ظل الانحرافات والتشويهات والتبديلات.

بل إن الله تعالى يخبر أن التسبيح والتقديس والتنزيه هو وظيفة الكون جميعا في مسيرته للتعرف على الله، قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾(الجمعة:1)

وأخبر عن الملائكة عليهم السلام وقولهم: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة:30)، وهو دليل على اندماج التقديس في الحمد والثناء وإثبات الكمالات، فلا يمكن إثبات الكمال مع اعتقاد النقص.

ولهذا يمتلئ القرآن الكريم بالآيات التي تنزه الله تعالى عن كل ما لا يليق به.. فهي تنزهه عن الشريك، قال تعالى:﴿ الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ.. ﴾ (البقرة: 255)، وقال:﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ (1) الله الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص)

وهي تنزهه عن الشبيه.. فالقدوس لا يشبهه شيء، قال تعالى:﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الاخلاص:4)، وقال:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: من الآية11)

وهي تنزهه أن يكون له زوجة أو ولد، قال تعالى إخبارا عن مقالة الجن:﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا ﴾ (الجن: 3)، وقال:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116)﴾ (البقرة)

وهي تنزهه عن الموت والنوم، قال تعالى:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى

الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان)

وهي تنزهه عن الظلم، قال تعالى:﴿ إِنَّ الله لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)﴾ (النساء)

وهي تنزهه عن الكذب؛ فقوله الصدق وخبره الحق، قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا ﴾ (النساء: 87)

وهي تنزهه عن الضلال والنسيان، قال تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام أنه قال:﴿ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾ (طه: 52)

وهي تنزهه عن الفناء؛ فالقدوس باق، قال تعالى:﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:88)

وهي تنزهه عن كل العوارض التي لا تتناسب مع جلال الألوهية، كما قال تعالى:﴿ الله لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة:255)

وهي تنزهه عن الفقر والبخل، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15)﴾ (فاطر)

وهي تنزهه عن التعب والنصب، قال تعالى:﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (ق: 38)

وهي تنزهه عن الحاجة إلى الآلات والأدوات وتقدم المادة والمدة، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشيءإِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل: 40)

وهي تنزهه عن انتهاء القدرة وحصول الفقر، قال تعالى:﴿ لَّقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذين قَالُواْ إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ (آل عمران: 181)

وهي تنزهه عن الحاجة قال تعالى:﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ (الأنعام: 24) ﴿ وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ (المؤمنون: 88)

وهي تنزهه عن أن يخلق الباطل، قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ (ص: 27)، وقال تعالى حكاية عن المؤمنين:﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ (آل عمران:

(191)

وهي تنزهه أن يخلق للعب، قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ، وَمَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ (الدخان: 38 39)

وهي تنزهه أن يخلق للعبث؛ قال تعالى:﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فتعالى الملك الحق ﴾ (المؤمنون: 115، 116)

وهي تنزهه أن يرضى بالكفر، قال تعالى:﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ (الزمر: 7)

وهي تنزهه عن إرادة الظلم، قال تعالى:﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ (غافر: 31)

وهي تنزهه عن حب الفساد، قال تعالى:﴿ والله لاَ يُحِبُّ الفساد ﴾ (البقرة: 205)

وهي تنزهه عن أن يعاقب من غير سابقة جرم، قال تعالى:﴿ مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ (النساء: 147)

وهي تنزهه عن أن ينتفع بطاعات المطيعين أو يتضرر بمعاصي المذنبين، قال تعالى:﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسراء: 7)

وهي تنزهه أن يعترض أحد على أفعاله وأحكامه، قال تعالى:﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (الأنبياء: 23)، وقال تعالى:﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج: 16)

وهي تنزهه عن أن يخلف وعده ووعيده، قال تعالى:﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ وَمَا أَنَاْ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ (ق: 29)

وهكذا يمتلئ القرآن الكريم بالحقائق العرفانية المرتبطة بالتنزيه، والتي تجعل المؤمن ينفي عن ذهنه وعقله وقلبه كل ما تبثه الأوهام إليه عن ربه.

ولكن الشيطان مع ذلك لم ييأس من أن يسرب لهذه الأمة من الأوهام ما سربه لغيرها، فلذلك ظهر فيها دعاة التشبيه والتجسيم، الذين لم يكتفوا بتلك الخرافات الإسرائيلية التي تلقفوها من أهل الكتاب، وإنما راحوا للقرآن الكريم، يفسرونه بحسب ما علق في أذهانهم من التشبيه، مضيفين إليها الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

لكن أئمة الهدى، راحوا يكملون وظائف النبوة في التصدي لتلك الظواهر، والتحذير منها، لإعادة المؤمنين إلى العقيدة

التنزيهية التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، وقد روي أن الإمام الصادق ذكرت له بعض الروايات التجسيمية التي كانت تنتشر في عصره، وخاصة بين المحدثين، فقال: (سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]،لا يحد ولا يحس ولا يجس ولا تدركه الأبصار ولا الحواس ولا يحيط به شئ ولا جسم ولا صورة ولا تخطيط ولا تحديد)[1]

وقال: (إن الله تعالى لا يشبهه شيء، أي فحشٍ أو خنى أعظمُ من قولٍ من يصف خالق الأشياء بجسمٍ أو صورة أو بخلقة أو بتحديد وأعضاء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[2]

وقال: (من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء فقد أشرك. إذ لو كان على شيء لكان محمولا، ولو كان في شيء لكان محصورا، ولو كان من شيء لكان محدثا)[3]

ومثله قال الإمام الكاظم لما ذكر له بعض المجسمة ممن يزعمون صحبته: (قاتله الله أما علم أن الجسم محدود والكلام غير المتكلم، معاذ الله وأبرأ إلى الله من هذا القول، لا جسم ولا صورة ولا تحديد وكل شيء سواه مخلوق، إنما تكون الأشياء بإرادته ومشيئته من غير كلام ولا تردد في نفس ولا نطق بلسان)[4]

وقال الإمام الرضا: (إنه ليس منا من زعم أن الله عز وجل جسم، ونحن منه برآء في الدنيا والآخرة، إن الجسم محدث، والله محدثه ومجسمه)[5]

وفي مقابل أولئك المشبهة ظهر من ينفي صفات الله تعالى وكمالاته بحجة التنزيه المطلق؛ فجعل من التنزيه وسيلة لنفي التحميد، وجعل من كل تلك الأوصاف العظيمة الواردة في القرآن الكريم عن الله تعالى مجرد ألغاز لا معنى لها.

ولهذا نجد اقتران التنزيه بالتحميد.. فلا يكفي من يريد معرفة الله أن يسلب فقط، بل عليه أن يثبت أيضا.. بل إن التنزيه نفسه يحمل معنى الإثبات ذلك أنه يعني سلب ونفي النقص، وهو يعني إثبات الكمال.

1() الكافي للكليني1/104.
2() الكافي1/105.
3() الرسالة القشيرية (ص/ 6)
4() الكافي 1/ 106.
5() التوحيد للصدوق 104.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى عند ذكره لقول الملائكة عليهم السلام: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: 130]

وقال:﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (قّ:39)

وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: 97، 98]

وغيرها من الآيات الكثيرة، ومثلها الأذكار المروية عن رسول الله ﷺ وعن أئمة الهدى والتي يجتمع فيها كلا الأمرين: التنزيه والحمد، والتي توهم بعض من توهموا أنفسهم منزهة أن فيها تشبيها لا يليق بالله تعالى، فراحوا يؤولونه، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

وقد روي في هذا أن بعضهم قال للإمام الرضا: (الله واحد والإنسان واحد، فليس قد تشابهت الوحدانية؟) فقال: (إنّما التشبيه في المعاني، فأمّا في الأسماء فهي واحدة، وهي دلالة على المسمّى.. والإنسان نفسه ليس بواحد؛ لأنّ أعضاءه مختلفة، وألوانه مختلفة غير واحدة، وهو أجزاء مجزّأة.. فالإنسان واحد في الاسم، لا واحد في المعنى.. والله جلّ جلاله واحد لا واحد غيره) [1]

ولهذا نجد القرآن الكريم يضرب الأمثال المرتبطة بنا ليعرفنا بنفسه، فيقول: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: 28]

فهذه الآية تخاطب المشركين الذين كان لهم عبيد ومماليك، لتقول لهم: (لو كان لكم عبيد وملك يمين، وهو ملك مجازي، لما رضيتم بأن يشركوكم في التصرف في أموالكم، فكيف تتصورون المخلوقات التي هي ملك حقيقي لله شركاءه، أو تزعمون أن بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة الله أو بعض المخلوقات الأخرى كالجن أو الأصنام الحجرية والخشبيّة

1() التوحيد، الشيخ الصدوق: ص 61.

شركاءه، ألا ساء ما تحكمون!!)(1)

وبـــذلك قـــربت الصـــورة لهم بحســـب مـــا يعرفـــون من أنفسهم.. ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللــه مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَـلَمًا لِرَجُـلٍ هَـلْ يَسْـتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29]

ولهذا ورد في الحديث عن النبي ﷺ: (من عرف نفسه فقد عـرف ربـه)(2)، وعن الإمـام علي أنـه قـال: (اطلبـوا العلم ولـو بالصين، وهو علم معرفة النفس، وفيه معرفـة الـربّ عزّوجـلّ)(3)

وقـد سـبق أن ذكـرت لـك قـول بعض الحكمـاء في سـبل معرفة الله، وأن أولها وأيسرها هو تلك التقريبـات الـتي وفرهـا الله تعالى لنا من خلال معرفتنا بأنفسنا، فقد قال: (لمعرفة الله سبحانه وتعـالى سـبيلان: أحـدهما قاصـر، والآخـر مسـدود، أمـا القاصر فهو ذكر الأسماء والصفات وطريقة التشبيه بما عرفنـاه من أنفســنا، فإنــا لمــا عرفنــا أنفســنا قــادرين عــالمين أحيــاء متكلمين، ثم سمعنا ذلك في أوصاف اللـه عـز وجـل أو عرفنـاه بالدليل فهمناه فهما قاصرا.. لأن حياتنا وقدرتنا وعلمنا أبعـد من حياة الله عز وجل وقدرته وعلمه، بـل لا مناسـبة بين البعيـدين، وفائدة تعريف الله عز وجل بهذه الأوصاف أيضـا إيهـام وتشـبيه ومشاركة في الاسم لكن يقطع التشبيه بأن يقال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـــيْءٌ ﴾ [الشـــورى: 11]، فهـــو حي لا كالأحيـــاء، وقـــادر لا كالقادرين.. وكأنا إذا عرفنا أن اللـه تعـالى حي قـادر عـالم فلم نعرف إلا أنفسنا ولم نعرفـه إلا بأنفسـنا إذ الأصـم لا يتصـور أن يفهم معنى قولنا ﴿إِنَّ الله سَمِيعٌ ﴾ ولا الأكمه يفهم معنى قولنـا إنه بصير، ولذلك إذا قال القائل كيف يكون الله عز وجل عالمـا بالأشياء؟ فنقول: كما تعلم أنت الأشياء، فإذا قال: فكيف يكـون قادرا؟ فنقـول: كمـا تقـدر أنت، فلا يمكنـه أن يفهم شـيئا إلا إذا كان فيه ما يناسبه، فيعلم أولا ما هو متصـف بـه، ثم يعلم غـيره بالمقايسة إليه، فإن كان لله عز وجل وصف وخاصية ليس فينـا ما يناسبه ويشاركه في الاسم لم يتصور فهمه البتة، فما عـرف أحد إلا نفسه، ثم قايس بين صفات الله تعالى وصـفات نفسـه،

1() تفسير الأمثل، مكارم الشيرازي (12/ 513)

2() بحار الأنوار (2/ 32)

3() بحار الأنوار (2/ 32)

وتتعالى صفاته عن أن تشبه صفاتنا، فتكون هذه معرفة قاصـرة يغلب عليهـا الإيهـام والتشـبيه، فينبغي أن تقـترن بهـا المعرفـة بنفي المشابهة وينفي أصل المناسبة مع المشاركة في الاسـم)[1]

وفي هذا المعنى قـال بعضـهم: (من عـرف نفسـه بالفنـاء عرف ربه بالبقاء.. ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربـه بالوفاء والعطاء.. ومن عرف نفسه بالافتقار قام للـه على قـدم الاضـطرار.. ومن عـرف نفسـه لمـولاه، قلت حوائجـه إلى من سواه)[2]

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تعمم ذلـك؛ فتقـع في التشبيه والتجسيم، كما فعل أولئـك الـذين راحـوا يصـفون اللـه تعالى بما وجدوا عليه أنفسهم، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقـال تعليقا على قولـه تعـالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُـلٌ يَمْشُـونَ بِهَـا أَمْ لَهُمْ أَيْـدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِـرُونِ﴾ [الأعـراف: 195]: (فأعلمنا ربنا جـل وعلا أن من لا رجـل لـه، ولا يـد، ولا عين، ولا سمع فهو كالأنعام بل هو أضل، فالمعطلـة الجهميـة: الـذين هم شر من اليهود والنصارى والمجوس: كالأنعام بل أضل)[3]

وإيــاك أيضــا أن تعمــل عقلــك أو تــدع لخيالــك وكشــفك وشهودك أن يتدخل في معرفة الله؛ فيصف اللـه تعـالى بمـا لم يصف به نفسه، ولم يصفه به أعلم خلقه به، وقـد روي أن رجلاً قال للإمـام علي: هـل تصـف ربنـا نـزداد لـه حبـاً وبـه معرفـة؟ فغضب وخطب الناس، فقال: (عليك يا عبدالله بمـا دلـك عليـه القرآن من صفته، وتقدمك فيه الرسول من معرفته، فـائتم بـه، واستضيَ بنور هدايته، فإنما هي نعمة وحكمـة أوتيتهـا، فخـذ مـا أوتيت وكن من الشاكرين، وما كلفك الشيطان علمه ممــا ليس عليك في الكتـاب فرضـه، ولا في سـنة الرسـول وأئمـة الهـدى أثره، فكل علمه إلى الله، ولا تقدر عظمة الله عليه قدر عقلك، فتكـون من الهـالكين.. واعلم يـا عبـد اللـه أن الراسـخين في العلم، هم الذين أغناهم الله عن الاِقتحام على السدد المضروبة دون الغيــوب، إقــراراً بجهــل مــا جهلــوا تفســيره من الغيب

1() المقصد الأسنى (ص: 53)
2() أحمد الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، ص 87.
3() التوحيد لابن خزيمة (1/ 202)

المحجـوب، فقـالوا:﴿.. آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا.. (7)﴾ (آل عمـران)، وقـد مـدح اللـه اعـترافهم بـالعجز عن تنـاول مـا لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمـق فيمـا لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً)(1)

وقال الإمام الكاظم: (صفوه عزّ وجلّ بما وصف به نفسه، وكفّوا عمّا سوى ذلك)(2)

وقال لأحد أصحابه: (لا تتجـاوز في التوحيـد مـا ذكـره اللـه تعالى في كتابه فتهلك) (3)

وقال الإمام الرضا: (إنّ الخالق لا يوصف إلاّ بما وصـف بـه نفسه، وأنّى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهـام أن تناله، والخطرات أن تحدّه، والأبصار عن الإحاطة بـه، جـلّ عمّـا وصفه الواصفون، وتعالى عمّا ينعته الناعتون)(4)

وقـال: (سـبحانك لـو عرفـوك لوصـفوك بمـا وصـفت بـه نفسك.. اللهم لا أصفك إلاّ بما وصفت به نفسك) (5)

وقال لأحد أصحابه، وقد وجده يصف الله تعالى: (لا تجــاوز ما في القرآن) (6)

وقال: (من وصـف اللـه بخلاف مـا وصـف بـه نفسـه فقـد أعظم الفرية على الله) (7)

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تتحقق بهذا الـركن من أركـان المعرفـة لتحمي نفسـك من كـل جهل دُس في الدواوين باسـم العلم، فليس المطلـوب منـك أن تكون ذا علم كثـير، ولكن المطلـوب أن تكـون ذا علم صـحيح.. فكل علم يحجب عنك ربك، ويصفه بمـا لا يليـق بـه، لن يزيـدك عن ربك إلا بعدا.

1() التوحيد، الشيخ الصدوق، ص 55.
2() الكافي، ج 1، ص 102.
3() التوحيد، الشيخ الصدوق: ص 74.
4() التوحيد، الشيخ الصدوق: ص 60.
5() الكافي،ج 1، ص 101.
6() الكافي،ج 1، ص 101.
7() الكافي،ج 1، ص 101.

الظهور والبطون

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسـألني عن اسـمي اللـه تعالى [الظاهر والباطن]، والحقـائق العرفانيـة المرتبطـة بهمـا، وآثارهما في النفوس المطمئنة الراضية.

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن كـل مراحـل السلوك إلى الله عبارة عن رحلة قدسية إلى العوالم المرتبطـة بهـذين الاسـمين الجليلين.. ذلـك أن الهـدف من المعرفـة هـو ظهــور الحقــائق وتجليهــا ووضــوحها وزوال كــل الإشــكالات المرتبطة بها.. وذلك هو عين تجلي اسم الله [الظاهر]

وهي في نفس الـــوقت ممتلئـــة بالتقـــديس والتعظيم والتنزيــه.. فلــذلك لا يطمــع الســالك في أن تُكشــف لــه كــل الأسرار، ولا أن تنجلي أمام بصيرته كل الحقائق.. وذلك هو عين تجلي اسم الله [الباطن]

وبــذلك فــإن البطــون يبقى مصــاحبا للظهــور، والظهــور مصاحبا للبطون.. ويبقى السالك بين الانبهـار والعجـز والتعظيم والتقديس.. وتلك هي المعرفة بالله تعالى، والتي لا نهاية لها.

وبهذا المعنى ورد في الآيات القرآنية الكثـيرة الـدعوة إلى التعرف على الله تعالى من خلال مظاهر الكائنات، فهي الدليل عليـه، وكأنــه ظـاهر فيهـا متجـل للعيـان، لمن يريـد أن يـراه ببصيرته، قال تعـالى:﴿فَـانْظُرْ إلى آثَـارِ رَحْمَتِ اللـه كَيْـفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَـا إِنَّ ذَلِـكَ لَمُحْيِ الْمَـوْتَى وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: 50]

وقال مشيرا إلى إمساكه للسموات والأرض أن تزولا: ﴿إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَـكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: 41]

وقال مشيرا إلى آياته الكثيرة الدالة عليـه، والـتي لا نهايـة لهـا، ولا لـدلالاتها: ﴿إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَـا يَنْفَـعُ النَّاسَ وَمَـا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْـرِيفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]

وأمــر المحجــوبين عنــه، وعن ظهــوره، أن ينظــروا إلى

الأشياء بعين البصيرة، لا بعين البصر وحده، للسير منها إليه، والاستدلال بها عليه، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 17 - 20]

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تجعل الكون كله مرآة تتجلى فيها حقائق المعرفة الإلهية، فالكون كله كتاب للدلالة على الله والتعريف به، لذلك كان من المستغرب أن يجهل أحد ربه، وهو بذلك الظهور، كما قال الشاعر:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد ... إلاّ على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... وكيف يبصر من بالعزة استترا؟

بل إن العارفين بالله، ونتيجة لليقين العظيم الذي يحصل لهم، لا يعرفون الله من خلال كونه، وإنما يعرفون الكون من خلال معرفتهم بالله، كما روي في المناجاة المعروفة: (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أ لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك)

لكن الله تعالى مع ذلك، وبعزته وقدسه، يحجب من يستغرق في الأكوان، ويغفل عن الحقائق المختفية وراءها، وبذلك كان الله تعالى ظاهرا للصادقين المخلصين، يرونه من خلال آياته، وفي نفس الوقت باطنا عن الغافلين الذين انشغلوا بالآيات عن صاحبها:

ما خلقت لك العوالم إلا ... لتراها بعين من لا يراها

فارق عنها رقي من ليس يرضى ... حالة دون أن يرى مولاها

وقد قال بعض الحكماء في ذلك: (أباح لك الله أيها الإنسان أن تنظر ماذا في السموات والأرض من النور اللطيف الذي قامت به الأشياء، وما أباح لك أن تقف مع ذوات المكونات، تقف مع القشر وتحجب عن اللب)(1)

وعبر عن ذلك آخر بحكمة جميلة قال فيها: (الأكوان ظاهرها غرة، وباطنها عبرة، فمن وقف مع ظاهرها كان

---

(1) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 322.

محجوبا، ومن نفذ إلى باطنها كان عارفا محبوبا)

وعبر عن ذلك آخر، فقال: (إنّ الله موجود عند الناظرين في صنعه مفقود عند الناظرين في ذاته)

وذكر آخر مراتب الخلق في التعرف على الله تعالى من خلال آياته، فقال: (الموجودات بأسرها، لما كانت مظاهر الحق سبحانه وتعالى، ومنازل تدليه ومرائي تجليه على تفاوت درجتها، ومراتب تعيناتها، انقسم الناس في شهودهم للحق بحسبها إلى ثلاثة أقسام: أولها: العالم المحجوب، انحجبوا بصور العالم عن رؤية معناه المقيم له.. وثانيها أهل الشهود الحالي المستهلكون في الله تعالى، نفوا وجود العالم، ولم يقروا بوجود شيء سوى الحق.. وثالثها: أهل كمال الشهود، الذين رأوا الحق في مجاليه)(1)

وقال آخر مبينا مراتب السالكين في تحققهم بهذه المعرفة: (أهل مقام البقاء: يشهدون الحق بمجرد وقوع بصرهم على الكون، فهم يثبتون الأثر بالله، ولا يشهدون بسواه، إلا أنهم لكمالهم يثبتون الواسطة والموسوطة، فهم يشهدون الحق بمجرد شهود الواسطة أو عندها، بلا تقديم، ولا تأخير، ولا ظرفية، ولا مظروف.. وأهل السير من المريدين: يشهدون الكون ثم يشهدون المكون عنده وبأثره، فيمتحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه، وهذا حال المستشرفين.. وأهل مقام الفناء: يشهدون الحق قبل شهود الخلق بمعنى: أنهم لا يرون الخلق أصلاً، إذ لا ثبوت له عندهم، لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة، فانون عن الحكمة، غرقى في بحر الأنوار، مطموس عليهم الآثار، وفي هذا المقام قال بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله.. وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان: إنما يشهدون الكون، ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده)(2)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاحذر من أن تقع فيما وقع فيه أولئك الغافلون الذين توهموا التناقض في هذين الاسمين، وذلك لضيق أفقهم عن معرفة الحقائق وتجلياتها المختلفة، مع أنه كان في إمكانهم أن يضعوا لكل اسم من الاسمين مجاله الخاص به، والذي لا يزاحمه فيه غيره، لينجلي

1() كمال الدين القاشاني، لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 526.
2() إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 40.

التناقض.
وقد قال بعض الحكماء مشيرا إلى بعض تجليات هذين الاسمين: (الله تعالى هو الظاهر بالعلو والرفعة، والباطن بالعلم والحكمة.. وهو الظاهر فلا خفاء في جلال عزه، والباطن فلا سبيل إلى إدراك حقه.. وهو الظاهر بلا خفاء، والباطن بنعت العلاء وعز الكبرياء.. وهو الظاهر بالرعاية، والباطن بالولاية.. وهو الظاهر بالإحياء، والباطن بالإماتة والإفناء.. وهو الظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب.. وهو الظاهر بالأدلة، والباطن بالبعد عن مشابهة الجملة.. وهو الظاهر بالإنعام، والباطن بالإكرام.. وهو لظاهر بأن رعاك، والباطن بأن كفاك.. وهو الظاهر ليس يخفى عليه شيء من شأنهم، وليس يدع شيئاً من إحسانهم، والباطن يعلم ما ليس لهم به علم من خسرانهم ونقصانهم فيدفع عنهم فنون محنهم وأحزانهم)(1)
وقال آخر: (هو الله ظاهر في بطونه، باطن في ظهوره.. فاسمه الظاهر يمحو ظهور السوى ويبطنه، إذ لا ظاهر معه سبحانه وتعالى.. واسمه الباطن يقتضي ظهور تجلياته، ليكون باطناً بالنسبة إلى حسها الظاهر، فلو بقي على ما كان عليه من البطون، ما عرف ولا عبد)(2)
وقال آخر: (هو الظاهر من جهة التعريف، والباطن من جهة التكييف، إذ كنه الربوبية لا يكيف.. وهو ظاهر بقدرته، باطن بحكمته أي سبب حكمته، فقد أظهر الحكمة وأبطن القدرة) (3)
إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن اجتماع هذين الاسمين في محل واحد يقتضي رؤية خاصة يجتمعان فيها، بحيث يمكن أن يُعبر عنها بالرؤية، كما يمكن أن يُعبر عنها بعدمها.. وإليها الإشارة بقول موسى عليه السلام لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]
فموسى عليه السلام كان يعلم استحالة الرؤية الحسية لله تعالى، ذلك أن الله تعالى باطن، ويستحيل رؤية الباطن.. ولذلك طلب تلك الرؤية الخاصة التي يجتمع فيها الظهور مع البطون.

1() تفسير لطائف الإشارات، ج 6 ص 99 – 101.
2() ابن عجيبة، شرح تصلية القطب ابن مشيش، ص 51.
3() ابن عجيبة، شرح تصلية القطب ابن مشيش، ص 51.

وقد أخبره الله تعالى عن استحالة ذلك المطلب الذي طلبه بكماله، فالله تعالى لا يحاط به.. ولذلك دله على بعض آياته الدالة عليه، فالآيات هي المرائي التي يظهر فيها الحق من غير تشبيه ولا تحديد ولا تجسيم، كما قال تعالى: قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إلى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [الأعراف: 143]

والتجلي المراد هنا ـ أيها المريد الصادق ـ ليس ما يذكره بعض الممتلئين بالتشبيه والتجسيم، أو أولئك الذين يذكرون أن (تجلّي الحقيقة الواحدة بأطوارها وأشكالها كتجلّي ماء البحر بصورة الأمواج)، فالله تعالى منزه عن كل ذلك.

وإنما المراد به ما فسره الإمام علي بقوله: (فأبدى الله جلّ ثناؤه بعض آياته، وتجلّى ربنا للجبل فتقطع الجبل فصار رميماً وخر موسى صعقاً)

فالله تعالى أظهر بعض آياته العجيبة للجبل، فاندك، وخر موسى عليه السلام صعقا، وليس المراد من ذلك ما ذكره المجسمة من أن الله تعالى أبدى بعضه للجبل[1]

ومثله قوله ﷺ: (فتجلى لخلقه من غير ان يكون يرى)[2]

وقول الإمام علي: (فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير ان يكونوا رأوه)[3]

وقوله: (بها تجلّى صانعها للعقول)[4]

وقوله: (متجلٍ لا باستهلال رؤية)[5]

وفي دعاء السمات: (وبمجدك الذي تجلّيت به لموسى كليمك عليه السلام في طور سيناء، ولإبراهيم خليلك عليه السلام من قبل في مسجد الخيف، ولإسحاق صفيك عليه السلام في بئر شيع، وليعقوب نبيك عليه السلام في بيت إيل)[6]

1() من الأحاديث الموضوعة في ذلك ما رووه أنه (أخرج طرف الخنصر، قال أحمد أرانا معاذ قال: فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد، قال: فضرب صدره ضربة شديدة، وقال من أنت يا حميد؟ وما أنت يا حميد؟ يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ فتقول أنت ما تريد إليه) [أحمد في المسند: (3/ 125)]

2() علل الشرائع: ص119ب9ح1.

3() نهج البلاغة: الخطبة 147الفقرة2.

4() نهج البلاغة: الخطبة 186

5() الكافي: ج1ص138ح4.

6() مصباح المتهجد: ص418.

وكل هذا مما يعبر عنه بالتجلي الخاص، أو الظهور الخاص، المراد منه ذلك الشعور بالحضور الإلهي، والذي قـد يطغى على كل كيان الإنسان بحيث يصبح مستغرقا لا يرى غير ربه.

وبذلك فإن المراد من التجلي الإلهي هو تلـك الحالـة الـتي تعتري السالك بسبب قابليته للظهور الإلهي الخاص في نفســه، فهو وإن كان قبل ذلك مؤمنا ومذعنا وموقنا، لكنــه عنـد التجلي يصبح أكثر إذعانا وإيمانا ويقينا.

وهو يشبه في ذلـك مـا ورد في القـرآن الكـريم من طلب إبراهيم عليه السلام لمزيد الطمأنينة بإحيـاء اللـه للمـوتى، كمـا قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَـوْتَى قَـالَ أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ قَـالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَـالَ فَخُـذْ أَرْبَعَـةً مِنَ الطَّيْـرِ فَصُـرْهُنَّ إِلَيْـكَ ثُمَّ اجْعَـلْ عَلَى كُـلِّ جَبَـلٍ مِنْهُنَّ جُـزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260]

فمـع كـون إبـراهيم عليـه السـلام كـان موقنـا بإحيـاء اللـه للموتى، ولكنه أحب أن يعاين مشاهد ذلك، لتكون ضمن ما عبر عنـه قولـه تعـالى: ﴿وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75]

وهكذا، فـإن معاينـة المؤمـنين لتجليـات اللـه تعـالى الـتي يستدعيها ظهوره تتناسب مع بطونه.. والذي يدل على اسـتحالة رؤية الذات الإلهية.. فهي في الغيب المطلق الذي لا يطمع فيـه طامع.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ بعد كل هـذا أن تجليـات اللـه تعالى عليك، تكون بحسب قابليتك.. فلـذلك إن أردت أن يتجلى عليك برحمته، فكن من المتحققين بالأهلية لها، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156]

وهكـذا إن أردت أن يتجلى عليهـا بعفـوه ومغفرتـه ولطفـه وكرمه.. فلكل ذلك قوانينه المرتبطة بك.. فكلما كنت أهلا لنـوع من أنواع التجلي، كلمـا تحقـق لـك.. فـالعبرة ليس بتجليـه فهـو الظاهر الذي لا يحجبه شيء، ولكن العبرة باستعداد مرآة قلبــك لذلك التجلي المقدس.

العلم الواسع

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن علم الله تعالى الواسع، والذي يشمل كل شيء دق أو جل، ويستوعب الماضي والحاضر والمستقبل، ويحيط بأصناف الكائنات صغيرها وكبيرها.. وعن أثره في النفس المطمئنة ورضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك بأن يقين النفس المطمئنة بعلم ربها الواسع الشامل المحيط هو الذي يجعلها ممتلئة بالتسليم والإذعان والطمأنينة له.. ذلك أنها تعلم أنه يجمع بين السعتين: الرحمة والعلم.. ومن جمع بينهما لا يصدر منه إلا الخير والفضل والكرم.

ولتعرف ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ عن كثب.. فاسأل من شئت من الناس عن طبيب يجمع كل خبرات الأطباء وعلومهم، وفي نفس الوقت يحمل قلبا حنونا لطيفا على مرضاه، يتألم لآلامهم، ويفرح لأفراحهم، ويستعمل كل الوسائل لإنقاذهم من عللهم.. فهل تراهم يفرحون به، ويرضون عنه أم لا؟

وإن شئت أن تزداد يقينا فخيرهم بين طبيب كثير الرحمة لكنه قليل العلم.. وبين طبيب كثير العلم لكنه قد يكون أقل من صاحبه رحمة.. فستجدهم يختارون صاحب العلم الكثير، لأن تخصصه في علمه هو الذي يفيدهم، وهو الذي يحتاجون إليه.

ولهذا ترى الأطباء يذكرون مع أسمائهم الشهادات العلمية التي نالوها، والمؤتمرات التي حضروها، والكتب التي ألفوها، وعدد المرضى الذين أجروا لهم عمليات ناجحة، وكل ذلك ليملأوا قلوب زبائنهم من المرضى ثقة في علمهم.

وهكذا غيرهم من أصحاب الوظائف.. فكلهم يقرون بأفضلية الأعلم على غيره، ذلك أن علمه وخبرته هي التي تتيح له أن يؤدي الوظائف الموكلة إليه أحسن قيام.

ولهذا؛ فإن إيمان المؤمن اليقيني بعلم الله تعالى الواسع الذي يشمل كل شيء يملؤه بالراحة والتسليم، لأنه يثق في ربه، وفي تشريعاته، ومقاديره، فيسلم لها جميعا سواء بسواء.. لأن الذي شرع هو نفسه الذي قدر.. وهو نفسه العليم بكل شيء.. بالحاضر والماضي والمستقبل.

وهذه المعاني هي التي أشارت إليها المصادر المقدسة

كثيرا، لتتلقفها النفوس المطمئنة، فتسعد بخالقها العليم، وتفرح بعلمه وخبرته ولطفه.. لأنها الأساس الذي تقوم عليه كل الحركات والسكنات في الكون.. فهي حركات وسكنات مبنية على العلم الشامل الواسع المحيط بكل الجوانب.. وليست حركات اعتباطية، لا تُعلم نتائجها.

ولهذا يبشر الله تعالى المؤمنين فيقول: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ الله وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 29]

فهذه الآية الكريمة لا تدعو فقط إلى تزكية النفس، والحذر من الخواطر السيئة، واطلاع الله عليها، ولكنها تبشر المؤمنين بأن الله تعالى عالم بما في صدورهم من الأماني والطلبات والرغبات، والتي قد يستحون من ذكرها أو طلبها.. ولذلك يلبيها لهم في الوقت الذي يشاء بناء على مصالحهم.. ولهذا لم يختم الله الآية الكريمة بكونه سريع الحساب، وإنما ختمها ببيان قدرته المطلقة، وأخبر قبلها بعلمه بما في السموات والأرض.

وهكذا يخبر الله تعالى عن تلك الأحاديث التي يتحدث الإنسان بها إلى نفسه، وعلمه بها، فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16]، وهي مثل الآية السابقة تدفع إلى الأمرين: تزكية النفس والحذر من الاستجابة لوساوس النفس وخواطر السوء فيها.. وبين البشارة بأن الله تعالى لا يعلم فقط ما في النفس، ولكنه قريب منها أيضا.. وذلك ما يشعرها بالطمأنينة والسكينة والرضا.

وهو لا يشعرها بذلك فقط، وإنما يجعلها تقبل على كل الأعمال الصالحة بعيدا عن الرياء والسمعة والأمراض النفسية، لأن الذي يراها ويصاحبها في ذلك العلم هو ربها سبحانه وتعالى.

وهكذا يخبرنا الله تعالى في آيات كثيرة عن شمولية علمه لعالم الغيب والشهادة، وما بطن وما ظهر، وليس كعلم الخلائق الذين لا تتاح لهم إلا بعض الظواهر البسيطة المحدودة، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7]

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الْغَيْبِ

وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ [التوبـة: 105]، وقولـه: الله يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِـيرُ الْمُتَعَـالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِـهِ وَمَنْ هُـوَ مُسْـتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ [الرعد: 8 ـ 10]، وقوله: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَا تَأْتِينَـا السَّـاعَةُ قُـلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَـأْتِيَنَّكُمْ عَـالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَـالُ ذَرَّةٍ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْـغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [سبأ: 3]

وهكـذا يـبين القـرآن الكـريم سـعة العلم الإلهي، وكونـه محيطـا بكـل شـيء، دقيقـه وجليلـه، وأولـه وآخـره، وعاقبتـه وفاتحته، لا نهاية لمعلوماته ولا حصر لها، كما قـال تعـالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: وَسِـعَ رَبُّنَـا كُـلَّ شَـيْءٍ عِلْمـاً (الأعراف: 89)

ولهذا نرى اقتران اسم الله [العليم] باسمه [الواسع] ليدل على أن سـعة علم اللـه مقترنـة مـع سـعة فضـله وتصـريفه وقيوميته، قال تعالى: وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:115)

وقال عن هبة الملك: وَاللـه يُـؤْتِي مُلْكَـهُ مَنْ يَشَـاءُ وَاللـه وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة: 247)

وقال عن مضاعفة الأجـور: مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:261)

وقال عن هبة المغفرة والفضل: الشَّيْطَانُ يَعِـدُكُمُ الْفَقْـرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَالله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْـلاً وَاللـه وَاسِـعٌ عَلِيمٌ (البقرة:268)

وهكذا في كل آي القرآن الكريم، حتى في الآيـة الـتي ورد فيهـا اسـم الواسـع مضـافا قـرن بـالعلم، قـال تعـالى: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِـرَةِ هُــوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَــأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُــونِ أُمَّهَـاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَـكُمْ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (النجم:32)، فقد قـرن تعـالى في هـذه الآيـة بين سـعة مغفرتـه وبين علمـه بخلقه.

فلذلك لا نهاية لمعرفة الله ولا حد لها، لأن (كـل سـعة وإن عظمت فتنتهي إلى طــرف، والــذي لا ينتهي إلى طــرف، فهــو

أحق باسم السعة، والله سبحانه وتعالى هو الواسع المطلق، لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق وكل سعة تنتهي إلى طرف، فالزيادة عليه متصورة وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة)(1)

وانطلاقا من هذا يبث القرآن الكريم في روع المؤمنين الأوصاف الكثيرة الدالة على هذه السعة التي لا حدود تنتهي إليها، ويجعل ذلك في كثير من الفواصل القرآنية لتكون برهانا على ما اشتملت عليه الآية من أمر أو تدبير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: 75) الذي ورد في فاصلة عشرين موضعا في القرآن الكريم.

وغيرها من المواضع القرآنية الكثيرة التي تصف علم الله تعالى، لتملأ المؤمن طمأنينة ورضا عن ربه العليم بكل شيء.. وكيف لا يطمئن له أو يفرح به، وهو يرى الخلق في الدنيا منبهرين بمن يكتشف اكتشافا علميا بسيطا محدودا، ومع ذلك يكيلون له كل أصناف الثناء والمدح.. فكيف بالعليم بكل شيء.. والذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ولا في غيرهما.

وقد قرب الله تعالى بعض سعة العلم لخلقه، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: 27]، وقال:﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف:109)، فهذه الآيات الكريمة تنص على أنه لو كانت تلك البحار ـ بجميع مياهها ـ مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلاما، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا أن يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه.

وهذا مجرد مثال تقريبي؛ فعلم الله تعالى تابع لذاته، وبما أن ذات الله لا محدودية لها، ولا إحاطة بها، فعلمه كذلك.

ولهذا كان من الأصول الكبرى للعرفان القرآني والنبوي اليقين التام بعلم الله تعالى بكل الجزئيات والتفاصيل المرتبطة بالأشياء جميعا، فالله تعالى رب كل شيء، والعليم بكل شيء.. فـ ﴿عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(1) المقصد الأسنى: 119.

وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَـا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [الأنعام: 59]

فاحذر ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقع في ذلك الجدال الذي وقعت فيـه العقـول المحـدودة، حين راحت تسـقط محـدوديتها على ربه، فتتوهم جهله بالتفاصـيل والجزئيـات، واقتصـار علمـه على المجامع والكليات، وقد قـال الإمـام علي في الـرد عليهم: (لا يعزب عنه عدد قطر السماء، ولا نجومهـا ولا سـوافي الـريح في الهواء، ولا دبيب النمل على الصفا، ولا مقيل الذر في الليلة الظلماء، يعلم مساقط الأوراق، وخفي الأحداق)(1)

و قال: (الحمد لله الذي يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصــي العبــاد في الخلــوات، واختلاف النينــان في البحــار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات)(2)

و قال: (قد علم السرائر، وخبر الضمائر، له الإحاطـة بكـل شيء)(3)

وسئل الإمام الصادق عن قول الله عزّ وجـلّ: وَإِنْ تَجْهَـرْ بِـالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّـرَّ وَأَخْفَى [طـه: 7] فقـال: (السـرّ مـا كتمته في نفسك، وأخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته)(4)

وسئل عن قوله عزّ وجلّ: (يَعْلَمُ خَائِنَـةَ الْأَعْيُنِ وَمَـا تُخْفِي الصُّـدُورُ [غـافر: 19]، فقـال: (ألم تـر إلى الرجـل ينظـر إلى الشيء وكأنه لا ينظر إليه، فذلك خائنة الأعين)(5)

واحـذر ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن يجـرك الحـرص على التعـرف على حقـائق الأشـياء إلى البحث فيمـا لا قـدرة لعقلـك على بلوغه، فسلم لربك علمـه الشـامل لكـل شـيء، ولا تبحث عن كيفية ذلك.. فـأنت لا تـزال في مراحـل تكوينـك الابتـدائي.. وعقلك وقلبك وكل لطائفك ليست مستعدة لتلقي كل الحقائق.

لكن يمكنـك أن تقـرب ذلـك للغـافلين الـذين لا تسـتطيع عقولهم هضم الحقائق إلا بعد تسويغها وتقريبها بما ييسر عليهم قبولهـا.. فتقـرأ عليهم سـورة الإخلاص ليعلمـوا أن صـفات اللـه تابعة لذات الله، وذات الله لا تحد ولا تقيد، ولا يقال عنها كيــف، ومثلها صفاته.

1() نهج البلاغة، خطبة 178.

2() نهج البلاغة، خطبة 198.

3() نهج البلاغة، خطبة 86.

4() بحار الأنوار: 4/79، ومعاني الأخبار.

5() بحار الأنوار: 4/80، ومعاني الأخبار.

وهذا الجواب يرضي العقل السليم ويغنيه، لأنه إذا قيل له: (إن فلانا الراعي يدرك خفايا النظريات العلمية ودقائقها، بل يستطيع أن يحول منها واقعا ملموسا) تجده يستغرب، ويسأل محتارا:(كيف يكون هذا؟)

لكن إن قيل له:(إن الدكتور الفلاني يعلم كل ذلك) لا يستغرب ولا ينكر ولا يسأل عن كيف ولا أخواتها.

فهو يدرك أن حقيقة الدكتور العلمية تختلف عن حقيقة الراعي.

وذلك نفس ما يقوله العقل السليم عن الله، فلا يستغرب صفاته تعالى ولا يتعجب منها إلا الجاهل بذات الله أو بقدر الله.

ولذلك قال تعالى في الإخبار عن قصة أصحاب الكهف: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴾ (الكهف:9)، أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى؛ وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

فلذلك أمرنا بتسبيح الله عند رؤية آياته حتى ننزهه من أن نحصر قدرته أو صفاته في حدود معينة، كما قال تعالى عن العارفين:﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:191)

فالتسبيح هو تنبيه العقل إلى عدم حد الله بأي حدود، فالله هو الواسع المحيط بكل شيء.

وإياك ــ أيها المريد الصادق ــ بعد هذا أن تتعجب أو تستغرب من علم الله تعالى بالمستقبل، أو بالأشياء قبل حصولها، وتتوهم أن ذلك يتنافى مع الحرية التي أتاحها الله لعباده، أو أن الله تعالى يعاقب عباده بحسب علمه فيهم، لا بحسب الأعمال التي قاموا بها.

فكل ذلك ناتج عن القياس الفاسد الذي ينشأ من مقارنة علمك أو علم الخلق بعلم الله تعالى.. وهما مختلفان تماما، بل لا مجال للمقارنة بينهما..

ومع ذلك فإنك لو ذهبت إلى هؤلاء الذين يتوهمون أن علم الله تعالى بالأشياء قبل حصولها، لوجدتهم يلجؤون كل حين لمن يسمونهم خبراء، حتى يتعرفوا من خلالهم على المستقبل؛

فتجدهم يرجعون في التحاليـل السياسـية والعسـكرية والطبيـة وغيرهــا إليهم، حــتى أن أقــوالهم الــتي تحــاول استشــراف المستقبل بناء على الواقع تصبح هي الواقع الذي يـؤثر في كـل المجالات.

فلذلك يكفي أن يقول الخبراء الاقتصاديون باحتمال ارتفاع عملة معينة ليحول السوق من قبلة إلى قبلة.. ويكفي أن يوجـه الخبراء السياسيون حادثة معينة توجيها خاصا ليتحول العالم إلى عالم آخر..

بــل إنــا في حياتنــا العاديــة نرجــع إلى الخــبراء في كــل المجـالات، لأن علم الخبـير مبـني على الواقـع لا على الخيـال، ومؤيد بالخبرة والتجربة والمعايشة التي تحول من تنبؤاته علمــا محققا.

وانطلاقـا من هـذه الخـبرة الهزيلـة الـتي منحهـا الإنسـان، والــتي من خلالهــا اســتطاع أن يستشــرف كثــيرا من خبايــا المسـتقبل، نتسـاءل عن التعجب من خـبرة اللـه، وعن سـؤال: كيف؟ عن خبرة الله.

فالله تعالى الذي خلق الإنسان، ويعلم خصائصـه الظـاهرة والباطنة، كيف لا يعلم مستقبل الإنسان، قـال تعـالى: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك:14)

وذلك، كما أن صانع الآلـة ومخترعهـا هـو خبـير بإمكانيتهـا، وبمـا يحصـل لهـا من عطب، وبمـا يـؤول إليـه أمرهـا، فيتعامـل معها، وكأنها جزء منه، بخلاف من يتعامل معها تعامل المستهلك الذي لا يرى منها إلا جانبها المنفعي المحدود.

وللفرق بين علم الخبير وعلم غيره أمر الله تعـالى طـالب معرفة الله بالرجوع إلى الخبير، وهـو العـالم باللـه العـارف بـه المصاحب له، قال تعالى: الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْـأَلْ بِـهِ خَبِيراً (الفرقان: 59)

ولذلك يخبرنا الله تعالى في معـرض الحـديث عن أحكامـه عن خبرتــه بأعمــال خلقــه، لأن العــالم بــذوات الخلــق أعلم بأعمالهم:

ففي معرض ذكر الله تعالى لجواز تزين النساء بعـد انتهـاء إحـدادهن، قـال تعـالى: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَـذَرُونَ أَزْوَاجـاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة:234)

وهي تحمل عتابا مبطنا لمن ينكر عليهن، لأن في إنكاره تعديا على الله، فالله هو الخالق الخبير بخلقه، وهو أعلم بما في نفوسهم وبواطنهم، وله وحده الحق في الإنكار أو عدمه.

وفي معرض ذكره للصدقات قال تعالى: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (البقرة: 271)، فالله تعالى عقب على هذا السلوك الذي هو إظهار الصدقات أو إخفائها بكونه خبيرا، وكأنه يخبر من أظهر الصدقات بأن الله خبير يعلم نيته في إخراجه لها علانية.. فالعلانية لا تدل بحد ذاتها على الإخلاص أو على الرياء، ولهذا فهي تحتاج إلى خبير يميز بينهما.

ولهذه الفاصلة المترددة في هذه الآيات وغيرها تأثير سلوكي تربوي عظيم.. فهي تربي المؤمن على مراعاة خبرة الله ببواطن الأشياء.. وذلك ما يجعله يتقن العمل ظاهرا وباطنا، فلا تشغله حروفه عن مقاصده، ولا ظاهره عن باطنه.

وترد خبرة الله تعالى في القرآن الكريم مقرونة بلطفه وعلمه في مواضع كثيرة للتنبيه إلى أن هذه الخبرة مستندة إلى العلم الواسع من جهة، ولا يصدر منها إلا اللطف من جهة أخرى، فهي خبرة علمية عملية:

وقد جمع الله تعالى بينها جميعا في قوله: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (الملك:14) والتي جاءت عقب قوله تعالى: وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (الملك:13)

وكأنها بذلك تعلل سر علم الله بسر العباد وجهرهم وبذات صدورهم، فالله هو الخالق، وهو اللطيف الذي لطف في خلقهم بتلك الصورة، وهو الخبير بمصالحهم وأحوالهم وتصرفاتهم عند فعلها أو قبل فعلها.

وقال تعالى قارنا اللطف بالخبرة في حكايته عن موعظة لقمان عليه السلام لابنه: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ (لقمان:16)

فالله تعالى خبير بموضعها لطيف بوضعها الموضع

المناسب لها.

وقال تعالى في تعليل إدراكه للأبصار، وعدم إدراكها له: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:103)

فعدم إدراك العباد لله معلل بلطف الله وخبرته، فالله لطيف بعباده رفيق بهم خبر ضعفهم عن إدراكه فحرمهم منه في الدنيا لطفا ورفقا لا شحا وبخلا، فهو الكريم الجواد.

وقال تعالى عن لطفه المقترن بخبرته في النظام والإبداع الذي زين به السماء والأرض:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الحج:63)

وقال تعالى قارنا بين العلم والخبرة:﴿ إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:34) فقد علل تعالى علمه بمستقبل الأشياء بعلمه بها وخبرته.

وقال تعالى مرجعا سر خلق البشر على هذه الصور المختلفة إلى علم الله وخبرته:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تعمق معاني علم الله الواسع سواء في تفاصيله، أو في مجالاته، أو في التوقيتات المرتبطة به.. وكل ذلك مما يملأ قلوب المؤمنين فرحا بربهم، وحبا له، وسعادة به.

الإرادة النافذة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن إرادة الله تعالى ومشيئته ومجالاتها وعلاقتها بالمقادير المختلفة، وعلاقتها بالحرية الإنسانية، وعلاقتها بعد ذلك كله وقبله برضى النفس وطمأنينتها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن السر الأكبر في طمأنينة النفس وسلامها واستقرارها، بل السر الوحيد، هو شعورها بكمال ربها وعظمته وعدم حاجتها إلى غيره.. لأن كل مطالبها عنده، وكل حاجاتها لديه، وذلك ـ كما يقتضي علم الله تعالى الواسع المحيط، وقدرته المطلقة التامة ـ يقتضي كذلك إرادته النافذة التي لا يزعجها أو يقهرها أو يكرهها شيء.

ذلك أنه لا ينفع علم العالم، ولا قدرة القادر، إذا كان صاحب إرادة متذبذبة ضعيفة، تختلف باختلاف مزاجه، من دون أن تستند إلى سنن محكمة، أو قوانين ضابطة، وذلك مما يجعل الراكن إليه راكنا إلى رياح هوجاء تقلبه كل حين بحسب الأمزجة المتقلبة، لا بحسب القوانين الثابتة.

ولذلك كان فرح المؤمن بإرادة الله، واتساعها لكل شيء مثل فرحه بعلم ربه وقدرته ولطفه وحكمته.. ذلك أن الإرادة هي التي توجه المقادير الإلهية إلى كل المصالح التي تقتضيها.

أما الذين يشاغبون في الإرادة الإلهية وينزعجون منها؛ فسبب ذلك يعود إلى أوهامهم التي جعلتهم لا يقدّرون الله حق قدره، فتوهموا أن إرادة الله تلغي إرادتهم.. ولو أنهم أعملوا عقولهم لعلموا أنهم أحرار في كل ما يقومون به، والدليل على ذلك حريتهم التي يبدونها في جدلهم وشغبهم على الحقائق، من دون أن يقهرهم قاهر، أو يكرههم أحد.

ولو أنهم عادوا إلى أنفسهم، وإلى تعاملهم مع أصحاب الخبرات المختلفة، وكيف يسلمون لهم شؤونهم، بل كيف يستشيرونهم في الصغير والكبير، بل كيف يدفعون إليهم الأموال لأجل أن يتحكموا فيهم بحسب ما تمليه عليهم خبرتهم.. لعلموا أن تسليم المؤمن نفسه لله، وتوكيله كل شؤونه إليه، وتفويضه كل أموره إليه من هذا الجنس..

بل إن المؤمن في ذلك أحكم وأعقل لأنه أسند شؤونه

للعـالم الحقيقي الـذي لا يغيب عنـه شـيء.. وصـاحب الإرادة النافذة الذي لا يزعجه أو يقهره عنها شيء.

ولهـذا يـرد في القـرآن الكـريم الإخبـار عن الأنبيـاء والصالحين، ومراعـاتهم لـرد كـل شـيء للـه، باعتبـاره صـاحب المشيئة النافذة، وباعتبارهم لا حول ولا قوة لهم من دونه، ومن ذلك مـا ورد في قصـة يوسـف عليـه السـلام لمـا التقى بأهلـه، وطلب منهم الـدخول إلى مصـر:﴿ ادْخُلُـوا مِصْـرَ إِنْ شَـاءَ اللـه آمِنِينَ ﴾ (يوسف:99)

فمع أن يوسف عليه السلام كان عزيـز مصـر، وكـان لديـه سلطان كبير فيها إلا أنه لمعرفتـه بالحقـائق، وتأدبـه معهـا، علم أن كل ذلـك غـير كـاف في تحقيـق مـراده، من دون إرادة اللـه تعالى ومشيئته؛ فلذلك وكل الأمر إليه، ولم يكله إلى نفسه.

ومثـل ذلـك حكى اللـه تعـالى عن موسـى عليـه السـلام، وقوله في استجابته للخضـر عليـه السـلام:﴿ سَـتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ الله صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ (الكهف:69)

ومثله ذكر رده على الشيخ الصالح، وأدبه مع الله في ذلـك الرد: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ الله مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القصص: 27)

ومثلـه حكى عن إسـماعيل عليـه السـلام في اسـتجابته لوالـده: ﴿ يَـا أَبَتِ افْعَـلْ مَـا تُـؤْمَرُ سَـتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللـه مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: 102)

ولذلك كان رسول الله ﷺ يـرد المشـيئة إلى اللـه في كـل الأمور، ومن الأمثلة على ذلك قوله لأصحابه:(ألا هل من مشـمر للجنـة، فـإن الجنـة لا خطـر لهـا، هي ورب الكعبـة نـور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجـة حسـناء جميلـة، وحلـل كثـيرة، ومقـام في أبـد في دار سـليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمـة، في محلـة عاليـة بهيـة)، قـالوا: (نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها)، قـال:(قولـوا: إن شـاء الله)، قال القوم: (إن شاء الله)[1]

ودخل مرة على بعض الأعراب يعوده، فقال له ﷺ:(لا بأس طهور إن شاء الله)، وكان الأعرابي جلفا غليظا، فقال: (طهـور، بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيـره القبـور)، قـال:(فنعم إذن)[2]

1() رواه ابن ماجة.

2() رواه البيهقي.

وكان ﷺ يراعي الاستثناء بمشيئة الله في كل أحواله، قال ﷺ:(إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها)(1)

وقال:(اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء) (2)

وقال:(لكل نبي دعوة مستجابة دعا بها في أمته فاستجيب له، وإني أريد إن شاء الله تعالى أن أدخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) (3)

وقال لما حاصر الطائف:(إنا قافلون غدا إن شاء الله) وقال لما قدم مكة:(منزلنا غدا إن شاء الله بخيف بني كنانة) وقال يوم بدر:(هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان إن شاء الله)، وقال في بعض أسفاره:(إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم ثم إنكم تأتون الماء غدا إن شاء الله)، وقال في زيارة المقابر:(وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)(4)

بل قد ورد في النصوص المقدسة ما يدل على أثر التقصير في رد المشيئة إلى الله تعالى من عدم تحقق المطالب، كقوله تعالى عن أصحاب الجنة الذين أقسموا ليجذن ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ولا يتصدقوا منه بشيء:﴿ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ (القلم:18)، أي فيما حلفوا به، بأن يقولوا: إن شاء الله، ثم قال بعدها مباشرة:﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (القلم:19)، أي أصابتها آفة أهلكتها.

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاحذر أن تكون كأولئك المشركين الذين تعللوا بإرادة الله تعالى على اقتحام المعاصي، وقالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ الله مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [النحل: 35]، وقالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]

فهؤلاء أصحاب جدل ومشاغبون، وهم يكذبون على أنفسهم، لأنهم لو آمنوا بإرادة الله تعالى النافذة، لآمنوا قبلها

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري ومسلم.
3() رواه البخاري ومسلم.
4() رواه مسلم.

ومعها بأوامره الحكيمـة، وشـريعته العادلـة، ولوحـدوه بالعبـادة، ولتركوا تلك الأصنام التي سلموا أمورهم إليها.

وهم في ذلك يشبهون ذلك الأستاذ الذي شرح لتلاميذه كل الدروس، وعلمهم كل العلوم، وأقام عليهم الحجة في ذلك.. ثم أخبرهم أن هناك امتحانا ينتظرهم، وهم أحـرار فيـه.. فمن بـذل جهده، فلنفسه، ومن قصـر فعليهـا.. وأن تقصـيرهم أو نجـاحهم لن يضره شيئا، بل الضرر أو النفع المجرد سيكون لهم وعليهم.

وبدل أن يكون هذا التنبيه محـذرا ودافعـا لهم إلى الاجتهـاد والبـذل، راحـوا يفهمـون مـا شـاءوا من كلام أسـتاذهم دون أن يستوعبوه جميعا.. فأخبروه بعد رسوبهم أنه هو الـذي أتـاح لهم ذلك، وأن مشيئته هي التي قهرتهم على أن يقعـوا فيمـا وقعـوا فيه.

ولذلك رد الله تعالى على المشركين بقوله: ﴿هَـلْ عِنْـدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُـــوهُ لَنَـــا إِنْ تَتَّبِعُـــونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148]

وصدق الله العظيم في رده، فمـا كـانت تلـك الحجج الـتي أوردوها إلا كذب منهم وتخريص.. وإلا فلم يسـعون في أرزاقهم مع أنهم يعلمون أن الله تعـالى هـو الـرزاق؟.. ولم يسـعون في علاج أنفسهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الطبيب؟.. ولم يسعون في حفظ أنفسهم من المهالك مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الحفيظ؟.. ولم لم يوكلوا كل ذلك إلى الله تعالى كمـا أوكلوا أمر الهداية والضلال؟

لقد كان في إمكانهم أن يختاروا مشيئة الهداية بدل مشيئة الضــلال.. ومشــيئة الســعادة بــدل مشــيئة الشــقاء.. لكنهم لتخرصـهم وكـذبهم على أنفسـهم، واتبـاعهم لأهـوائهم اختـاروا المشيئة التي تسخط ربهم.

وهم في ذلك مثل ذلك الأستاذ الذي وضع امتحانا لطلبته.. هو يعرف مستوياتهم، ويميز المجتهد منهم من الكسول، ولكنــه لعدله بدل أن يحكم لكل واحـد منهم بمـا يعلمـه راح يختـبرهم، ويترك لهم الفرصة ليختاروا أحد النجدين.. نجد النجـاح، أو نجـد الرسوب.

فمن اختار منهم نجد النجاح رضي عنه، وقربه، ووهبــه من التزكية مـا يرفـع مسـتواه، أو يؤهلـه للوظـائف الكريمـة.. ومن اختار منهم نجد الرسوب، أو قعـد من دون أن يجيب.. فالأسـتاذ

كذلك لا يتـدخل في شـأنه.. لأنـه وإن خـالف رضـاه، لم يخـالف إرادته..

ذلـك أنـه أراد تميـيز الصـادقين من تلاميـذه من الكـاذبين، ولذلك منح الحرية للجميع ليعـبروا بمحض إرادتهم، لا بمـا يملى عليهم.. فلا يمكن لأحـد أن يعـبر عمـا تختلج بـه جوانحـه، تحت سيف الإكراه والقهر.. ولذلك لم يخرج الراسـبون عن مشـيئته، وإن خرجوا عن رضاه.

لذلك كان الـذين يريـدون من ربهم أن يتخلى عن مشـيئته وإرادتــه حــتى تتحقــق لهم الحريــة، واهمــون وكــاذبون على أنفسهم.. ذلك أنهم يشعرون بالحريـة، ويفرقـون بين أعضـائهم الــتي تعمــل من دون إرادتهم، وأعضــائهم الــتي لا تتحــرك إلا برضـاهم ورغبتهم.. ويعلمـون أن ربهم لا يحاسـبهم إلا على مـا كسبت أيديهم، وتحركت به رغباتهم.

ولو أنهم عادوا لعقولهم لتخلوا عن تلك الكبريـاء الـتي تملأ جوانحهم، والتي تزعم لهم أن الكمال في أن يسـلم ربهم كونـه إليهم ليــــديروه بمحض رغبتهم، من غــــير أن يعرفــــوا جهلهم وعجزهم وقصورهم..

ولو أنهم أعملوا عقولهم لعلموا أن الله تعالى وضع لخلقــه كل معالم الهداية والضلال، وأرســل لهم الرســل الـذين يـبينون الحقائق، وترك في نفس الـوقت الفرصـة لمن يضـلهم، لأنـه لا يتحقق التميـيز إلا بتـوفر السـبل الكثـيرة الـتي تجعـل الإنسـان يختار بمحض إرادتـه مـا تميـل إليـه نفسـه.. وعنـدما يختـار، لن يخرج اختياره عن اختبار ربه أو إرادته.. ولن ينضم إلى إله الشر كما يقول المشركون.. بل يظل عبدا لربه.. وتظل إرادته نافــذة فيه.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللــه إِنَّ اللــه كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) ﴾ [الإنسان: 29 - 31]

وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَــالَمِينَ (27) لِمَنْ شَــاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْــتَقِيمَ (28) وَمَـا تَشَــاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَــاءَ اللــه رَبُّ الْعَــالَمِينَ (29) ﴾ [التكوير: 27 - 29]

فهذه الآيات الكريمة تثبت المشيئتين: مشيئة اللــه تعـالى، ومشيئة عباده، وتخـبر أن مشـيئة العبـاد لا تتنـاقض مـع مشـيئة ربهم، وإلا كـان اللـه تعـالى مكرهـا على مـا لم يـرده، وذلـك لا

يتناسب مع الكمال الإلهي.

ولذلك كان المنصرف عن الله بسبب هذا أو غيره منسجما تماما مع ما يريده الله تعالى ويشاؤه، ذلك أن هداية الله تعالى أكرم من أن تتنزل على المنحرفين والمستكبرين.. ولذلك نصب لهم العقبات التي تحول بينهم وبين الهداية، حتى يتخلوا عن كبريائهم وطغيانهم وجبروتهم، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: 146]

إن مثلهم في ذلك مثل رجل دعا قوما إلى وليمة، فحضر الأمراء والعلماء والحكماء، وكانوا كلهم بأحسن مظهر.. ثم جاء بعض الناس بثياب قذرة، تفوح منها الروائح الكريهة، وكان لسانه ممتلئا بالفحش والبذاءة.. فهل يمكن لمثل هذا أن يشارك في تلك الوليمة؟.. وهل يمكن لأحد من الناس أن يرضى بالجلوس بجانبه؟

لكنه لو ذهب، وتطهر، وغسل ثيابه، وطهر لسانه، وعاد إلى الوليمة لم يكن للداعي الكريم أن يرفضه، ولا أن يرده.. وهكذا الأمر مع الخلق.. فالله تعالى لم يرد أولئك لذواتهم، وكيف يفعل ذلك وهو الذي خلقهم ورزقهم ووفر لهم كل الحاجات، ولكنه فعل ذلك بهم لما اختاروه لأنفسهم من الكبر والضلال.. ولو أنهم تخلوا عن ذلك لكان الله تعالى أول من يقبلهم، فهدايته شملت كل شيء، ورحمته وسعت كل شيء.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاحذر من أن تكون كأولئك الذين راحوا بعقولهم المحدودة العاجزة، يفرضون تصوراتهم وخيالاتهم على إرادة الله تعالى قياسا لهم على إرادتهم؛ فتوهموا أن الإرادة نقص، ولذلك فسروها بالعلم، وعرفوا الإرادة بأنها علم الله تعالى بالنظام الأصلح والأكمل والأتم، فراراً من أن يتصف الله تعالى بأمر حدوثي، أو بالفعل والإنفعال، كما هو الحال في إرادة الإنسان[1]

---

[1] ومن القائلين بهذا صَدْر المتألهين، فقد قال: (معنى كونه مريداً أنَّه سبحانه يَعْقِل ذاتَه ويعقِلُ نظامَ الخَيْر الموجود في الكُلّ من ذاته، وأنَّه كيف يكون. وذلك النظام يكون لا محالة كائناً ومستفيضاً) [الأسفار الأربعة، ج 6، ص 316]، وقال: (إنَّ إرادته سبحانه بعينها هي علمه بالنظام الأتم، وهو بعينه هو الداعي لا أمرٌ آخر) [المصدر السابق، ص 333]، ومثله المحقق الطوسي، فقد قال: (إنَّ إرادته سبحانه هي العلم بنظام الكلُ على

وهذا ناشئ عن محاولة العقل تصـور مـا لا يمكن تصـوره، ولذلك وقعوا في الخطأ من حيث إرادتهم التنزيه.. فـنزهوا اللـه تعالى بنفي بعض كمالاته، ولو أنهم أعملوا عقـولهم، لعلمـوا أن إنكار الإرادة أو تأويلها أو تعطيها إنكار لبعض الكمـالات الإلهيـة، ذلـك أن (الفاعـل المريـد أكمـل من الفاعـل غـير المريـد، فلـو فسّرنا إِرادته سبحانه بعلمه بالنظام، فقد نفينا ذلك الكمال عنـه وعرَّفناه فاعلا يشبه الفاعل المضطر في فعله)(1)

ومما يروى في هـذا عن الإمـام الصـادق أنـه سئل: علمـه ومشيئته مختلفان أو متّفقان؟ فقال: (العلم ليس هـو المشـيئة، ألاترى أنك تقول سأفعل كذا إنْ شاءَ الله، ولا تقول سأفعل كذا إِنْ عَلِمَ الله)(2)

ومثل ذلك تفسير بعضهم لها بابتهاجه بفعلـه ورضـاه عنـه، وذلـك لأن (حقيقـة الإِرادة غـير حقيقـة الرضـا، وغـير حقيقـة الإِبتهـاج، وتفسـير أحـدهما بـالآخر إِنكـار لهـذا الكمـال في ذاتـه سبحانه.. فكون الفاعل مريداً، في مقابل كونـه فـاعلا مضـطراً موجباً، أفضل وأكمل؛ فلا يمكن نفي هذا الكمـال عن ذاتـه على الإِطلاق) (3)

ومثل ذلك تفسير بعضهم لهـا بإِعمـال القـدرة والسـلطنة، وقالوا: (إِنَّا لا نتصـور لإِرادتـه تعـالى معـنى غـير إِعمـال القـدرة والسلطَنَة، ولما كانت سـلطنته تعـالى تامـة من جميـع الجهـات والنواحي، ولا يتصور النقص فيها أبـداً، فبطبيعـة الحـال يتحقـق الفعل في الخارج ويوجد صرْفُ إِعمـال القـدرة من دون توقفـه على أيّة مقدمة أخرى، كما هـو مقتضـى قولـه سـبحانه: إِنَّمَـا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 82])

والجواب على هذا من ضمن الإشكال نفسه، ذلك أنه يقال لهؤلاء: (إِنَّ إعمال القدرة والسلطنة إِما إِختياريٌّ لـه سـبحانه أو اضطراريٌّ، ولا سبيل إلى الثاني لأنـه يسـتلزم أنْ يكـون تعـالى فـاعلا مضـطراً ولا يصح توصـيفه بالقـدرة ولا تسـميته بالقـادر، وعلى الأول، فما هو مِلاك كونه فاعلا مختاراً؟.. فلا بد أن يكـون

الوجه الأَتم، وإِذا كانت القدرة والعلم شيئاً واحداً، مقتضياً لوجـود الممكنـات على النظـام الأكمل كانت القـدرة والعلم والإِرادة شـيئاً واحـداً في ذاتـه مختلفـاً بالإِعتبـارات العقليـة) [المصدر السابق، ص331]

1() الإلهيات للسبحاني.

2() الكافي، ج 1، ص 109.

3() الإلهيات للسبحاني.

هناك قبل إعمال السلطنة وتنفيذ القدرة شيءٌ يدور عليه كونــه فاعلا مختاراً، فلا يصح الأكتفاء بإعمال القدرة)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فسلم لربك كل صفات كماله، ولا تنازعه بعقلك، ولا تبحث عن تصور لذلك.. فيكفيك تعقل عقلك لها، ولا حاجة لتصور كيفيتها؛ فكل صفات الله تابعة لذاته، وهي مما يستحيل إدراكه.

لكن مع ذلك إياك أن تتوهم أن إرادة الله كإرادة البشر، تحتاج إلى ترو وتأن وتفكير وتدبر؛ فالله أعظم من ذلك كله، وقد روي أن بعضهم قال للإمام الصادق: (لم يَزَل الله مريداً؟)، فرد عليه الإمام: (إنَّ المريد لا يكون إلاّ لمراد معه، لم يزل الله عالماً قادراً، ثم أراد)(1)

وقال الإمام الرضا: (الإرادة من الخلق الضمير، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله تعالى فإرادته، إحداثه لا غير ذلك، لأنه لا يُروّي ولا يَهمّ ولا يتفكّر، وهذه الصفات منفية عنه، وهي صفات الخلق؛ فإرادة الله الفعل لا غير ذلك، يقول له كن فيكون، بلا لفظ، ولا نُطْق بلسان، ولا هِمَّة، ولا تَفَكُّر ولا كَيْف لذلك، كما أنَّه لا كَيْف له) (2)

فالإمام الرضا لم ينف الإرادة الإلهية، وإنما أثبتها، وأثبت معها تنزيهها عن تلك النقائص التي تتلبس بها إرادة غيره.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تمتلئ بهذه المعارف، فهي وحدها من يحمي نفسك من التشتت.. وهي وحدها من يجعلك تسلم لربك في كل شيء؛ فالخير كله عنده، وسعادتك كلها بين يديه.. فسلم له وثق به، فهو لا يريد لك إلا الخير في دنياك وأخراك.

1() الكافي ج 1، ص 109.
2() الكافي ج 1، ص 109.

القيم الثابتة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن أولئك الذين يذكرون أن القيم الأخلاقية وغيرها مجرد معان متعارف على حسنها وقبحها، وأنها في ذاتها لا تحمل أي دلالة على ذلك، وما يعطيها ذلك الوصف هو أمر الله تعالى بها.

ذلك أنه ـ كما يقول بعضهم ـ (هو المالك، القاهر، الذي ليس بمملوك، ولا فوقه مبيح، ولا آمر، ولا زاجر، ولا حاظر، ولا مَن رَسَمَ له الرسوم، وحدّ له الحدود.. فإذا كان هكذا، لم يقبح منه شيء، إذ كان الشيء إنَّما يقبح منّا، لأنَّا تجاوزنا ما حدّ ورسم لنا، وأتينا ما لم نملك إتيانه.. فلمَّا لم يكن الباري مملوكاً ولا تحت آمر، لم يقبح منه شيء.. فإن قال: فإنما يقبح الكذب لأنه قبّحه، قيل له: أجل، ولو حسّنه لكان حسناً، ولو أمر به لم يكن عليه اعتراض.. فإن قالوا: فجوِّزوا عليه أن يكذب، كما جوزتم أن يأمر بالكذب. قيل لهم: ليس كل ما جاز أن يأمر به، جاز أن يوصف به)(1)

وقد ذكر هؤلاء أن الله تعالى يمكن أن يعذب الطائعين الصالحين، وينعم على المنحرفين الفاسدين، لأنه يفعل في ملكه ما يشاء، وكل ما يفعله حسن، و﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]

وذكروا أنه يمكن أن يكلف الله عباده بما لا يطيقون، وأنه عادل في ذلك التكليف، وله أن يعاقبهم على تقصيرهم.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هذا القول الذي ذكرته يتنافى مع النصوص المقدسة، ويتنافى بعد ذلك مع الفطرة السليمة، ويتنافى قبله مع معارف النفس المطمئنة، والتي تجعلها ممتلئة بالرضا التام، ومن كل الجوانب.

ذلك أن طمأنينة النفس ناشئة عن ذلك الثبات الذي يحكم الكون جميعا، فهو ملك إله واحد، وتحت إدارته وحكمه المباشر، وقوانينه ثابتة راسخة، تُطبق على الجميع، وبنفس المعايير والموازين..

ولهذا يرد في النصوص المقدسة تطمين الله لعباده بأن قوله لا يرد، وكلماته لا تتبدل، ووعده أو وعيده لا يتخلف، ولذلك

---

(1) اللّمع، ص 117.

توصف كلمات الله بكونها تامات، فالتمام هنا هو التحقق، فالشيء لا يتم إلا بعد تحققه، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: 115) أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

وقال تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام: 34) أي أن الله لا يبدل الكلمات التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين.

بل إن الله تعالى ليطمئن عباده يذكر في كلماته المقدسة التزامه بتلك القوانين والقيم مثل إلزامهم بها.. فهو كما حرم الظلم على خلقه حرمه على نفسه.. وكما أوجب الصدق والعدل وكل القيم الرفيعة على خلقه أوجبها على نفسه.. بل إنه هو المتصف بها ابتداء، ولذلك دعا خلقه إليها لينسجم الكون جميعا وفق تلك القوانين الثابتة.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ (الليل:12) فقد أخبر الله تعالى أن عليه هدى الناس جميعا، وهو تعريفهم بالسبل كلها، ومنحهم الإدراك، ليختار كل منهم بعد ذلك ما يتناسب مع هواه وإرادته.

وليس معنى ذلك تخصيص قوم بالهداية دون غيرهم.. فهداية الله شاملة للخلق جميعا، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ (النحل: 9)، وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الحجر:41) فمن معانيها أن عليه بيان الطريق المستقيم.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:54)، فالآية الكريمة تشير إلى أن الرحمة قيمة ثابتة، وأن الله تعالى كتبها على نفسه، وألزمها بها؛ فيستحيل عليه أن يتصرف خلاف ما تقتضيه.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى الله رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود:6)، فقد أوجب تعالى ــ رحمة منه وفضلا ــ

على نفسه رزق كل دابة في الأرض.

ومن الأمثلة على ذلك، قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:103)، ومثلها قوله تعالى في وعده لعباده المرسلين بالنصر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 171 – 173]، فالله تعالى أوجب على نفسه ـ حسب هذه الآيات وغيرها ـ رحمة منه وفضلا إنجاء المؤمنين من المهالك ونصرهم، وهي مما تتفق العقول على اعتبارها من الأعمال الحسنة.

ومثلها إيجابه على نفسه ـ رحمة منه وفضلا ـ نصر المؤمنين، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:47)، وهي من القيم التي تسلم لها العقول السليمة، ذلك أن المؤمنين في القرآن الكريم لا يقصد بهم سوى أولئك الطيبين المتواضعين الذين قد يظلمهم المستكبرون؛ فيحتاجون إلى الدفاع عن أنفسهم.

ومثلها إيجابه على نفسه ـ رحمة منه وفضلا ـ إدخال المجاهدين المضحين بأنفسهم في سبيل الحق والعدالة، ومواجهة الظلم والاستبداد الجنة، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:111)، وهي من القيم الثابتة التي تسلم لها العقول؛ فالمضحي بنفسه في سبيل الحق والعدل يستحق كل ذلك التكريم..

ولذلك كان ما ذكرته ـ أيها المريد الصادق ـ عن أولئك الذين جوزوا لله تعالى تعذيب المطيع وتكريم العاصي منافيا لكل ما ورد في القرآن الكريم من الجزاء المعد المحسنين، والعقاب المعد للمسيئين، وهو مما يؤثر في المعرفة بالله والرضا عنه وعدم التسليم له باعتباره العدل المطلق.

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ لبعض أصحابه:(أتدري ما حق الله على عباده) قال:(الله ورسوله أعلم) قال:(حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا)، فقال:(أتدري ما حق العباد

على الله إذا فعلوا ذلك)، قال:(الله ورسوله أعلم) قــال:(حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار)[1]

فهذا الحديث يشـير إلى أن هنـاك عقـدا بين اللـه وعبـاده، وأن من أوفى منهم بعقده، أوفى الله له بما وعده به.

وهكذا ترد في الأحاديث الكثيرة وعود اللـه تعـالى لعبـاده، بصيغة الحق الواجب عليه، الـذي أوجبـه على نفســه، ولا تبـديل لكلماته، ومن ذلك وعده بأن يضع ما ارتفع من أمور الدنيا، ممـا لم يقصد به، كما قال ﷺ: (إن حقا على الله تعـالى أن لا يرتفـع شيء من أمر الدنيا إلا وضعه) [2]

ومنها وعده بالإعانة والبركة لمن فعـل أمـورا معينـة، كمـا قال ﷺ:(ثلاث من فعلهن ثقة بالله واحتسابا كان حقـا على اللـه تعالى أن يعينه، وأن يبارك لـه: من سـعى في فكـاك رقبـة ثقـة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له، ومن تـزوج ثقـة باللـه واحتسـابا كـان حقـا على اللـه تعـالى أن يعينه، وأن يبارك له، ومن أحيا أرضـا ميتـة ثقـة باللـه واحتسـابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له)[3]

ومنها وعده بإجابة من رفـع كفـه إليـه سـائلا، قـال ﷺ:(مـا رفع قوم أكفهم إلى الله تعالى يسألونه شيئا إلا كـان حقــا على الله أن يضع في أيديهم الذي سألوا)[4]

ومنها المغفرة لمن عرف ربه غافرا ومعـذبا، قـال ﷺ:(من أذنب ذنبا فعلم أن له ربا إن شاء أن يغفر له غفر له، وإن شــاء أن يعذبه عذبه؛ كان حقا على الله أن يغفر له)[5]

ومنها وقاية من ذب عن عرض أخيه من النار، قال ﷺ:(من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يقيه من النار) [6]

ومنها تهديد من أدخـل الـرعب في قلـوب المؤمـنين، قـال ﷺ:(من أخاف مؤمنا كان حقا على اللـه أن لا يؤمنـه من افـزاع يوم القيامة)[7]

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي.
3() رواه الطبراني في الكبير والأوسط.
4() رواه الطبراني.
5() رواه الطبراني في الأوسط.
6() رواه أحمد والطبراني.
7() رواه الطبراني في الأوسط.

ومنهـا الغضـب على من شـفع للمجـرمين حـتى لا تقـام عليهم قوانين العدالة، قال ﷺ:(أيمـا رجـل حـالت شـفاعته دون حد من حدود الله لم يزل في سخط الله حتى ينزع) [1]

ومنها عقوبة من اتهم الأبرياء بما لم يفعلوه، قال ﷺ: (أيما رجل أشاع على رجل بكلمة وهو منها بريء يشينه بها في الدنيا كان حقا على اللـه أن يدنيـه يـوم القيامـة في النـار حـتى يـأتي بإنفاذ ما قال)[2]

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي يصدقها القرآن الكــريم، ويصدقها العقل، لأنها تنسجم مـع الفطـرة السـليمة الـتي تمـيز بين الحسن والقبيح من دون حاجة لأي جهة خارجيـة تـدلها على ذلك.

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تتـوهم من هـذه النصـوص المقدسة، ما ذكره بعضهم مما يتنافى مع الأدب مـع اللـه، حيث راح يفرض عليه ما يريده بمحض عقلـه.. ففـرق بين أن يـوجب الله على نفسه شيئا، وبين أن يوجب عليه خلقه ذلك.

ومثل تلك النصوص ما ورد في القرآن الكريم من الــدعوة إلى التأمـل والتـدبر في الشـرائع والقيم الـتي دعـا إليهـا اللـه تعالى، ولولا أن معانيها ثابتة في العقول حسنها وقبيحها ما كـان الله ليدعو لذلك، بل يكتفي بالأوامر والنواهي باعتبارهـا صـادرة عنه.

ومن ذلك قوله تعـالى: ﴿وَضَـرَبَ اللـه مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَـدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَـأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: 76]

فهذا المثل الموجه للعقول يبين الفـرق بين ذلـك الإنسـان السلبي الذي لا يفعل أي خير، وبين غيره من الصادقين الآمرين بالعدل الملتزمين بالسراط المسـتقيم، وهـو القيم الثابتـة الـتي تتفق عليها العقول والشرائع.

ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ ﴾ [النحـل: 90]، فهـو يخـبر أن كـل الشـرائع الإلهيـة متناسبة مع تلـك القيم المستحسـنة في النفـوس، وهي العـدل

1() رواه الطبراني في الكبير.

2() رواه الطبراني في الكبير.

والإحسان والصلة وغيرها.. ومثلها نواهيه؛ فكل النفوس تنفر من الفحشاء والمنكر والبغي.

وهكذا يكثر في القرآن الكريم الدعوة لإعمال العقول لتبين مدى الحق الذي يحمله الدين الإلهي، سواء في جانب حقائقه، أو في جانب قيمه، ولهذا يستحيل أن يكون مصير المجرمين شبيها بمصير الصالحين، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: 28]، وقد جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، والتدبر والتذكر يعني أن هناك قيما ثابتة في العقول، وهي التي تنسجم مع النصوص المقدسة، ولولا ذلك ما دعا إلى التدبر والتذكر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 35، 36]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60]

وغيرها من الآيات الكريمة التي ترد على كل ما ذكره أولئك الذين توهموا أن القيم مجرد أوامر أو نواه أو تشريعات لا علاقة لها بواقع الأمر.

أما دعواهم بأن الله تعالى يمكن أن يكلف النفوس بما لا تطيق؛ فهو مخالف لما ورد في القرآن الكريم من ذلك، فالنصوص القرآنية صريحة في أن الله تعالى لا يكلف النفوس إلا بحسب طاقتها، قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: 286)، وقال: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ الله لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ (الطلاق:7)، وقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: 50)

ولهذا أنكر الله تعالى عمل الرهبان واعتبارهم لتعذيب الجسد عبادة، فاعتبر ذلك بدعة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:27)

ومثل ذلك أنكر على من أراد أن يحرم ما لم يحرم الله من أنواع الزينة، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ

لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُـونَ (الأعراف:32)

ومثل ذلـك أخـبر أن الإنسـان على مـا عمـل غـيره، إن لم يكن له علاقة بـه، قـال تعـالى: وَلَا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِهَا لَا يُحْمَـلْ مِنْـهُ شَـيْءٌ وَلَـوْ كَـانَ ذَا قُـرْبَى [فاطر: 18]، وقال: مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِـهِ وَمَن ضَـلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَـا كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً [الإسراء: 15]

وهكـذا وردت الأحـاديث الكثـيرة عن رسـول اللـه ﷺ تنهى عن تكليف النفس ما لا تطيق، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال:(إن هذا الدين متين فأوغلوا فيـه برفـق، فـان المنبت لا أرضا قطع ولاظهرا أبقى)(1)

وقال: (إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغضــوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبت لا بلغ بعدا، ولا أبقى ظهرا، واعمل عمل امرئ يظن أن لا يموت إلا هرما) (2)

ولهذا كان ﷺ يتشدد مع المتشددين، بـل يخـبر بهلاكهم في تشددهم، فيقول:(هلك المتنطعون(3)، قالها ثلاثاً(4)

وروي أنه: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجلٍ قائمٍ، فسـأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نـذر أن يقـوم في الشـمس ولا يقعـد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصـوم، فقـال النـبي ﷺ:(مـروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه)(5)

وغيرها من الأحاديث الكثيرة، ومثلها تلـك الآيـات الكريمـة التي تخبر عن رفع الحرج عن المؤمنين، وأن الله تعالى لم يـرد بتكاليفه أن يعذبهم، وإنما أراد أن يهـذبهم، كمـا قـال تعـالى في المقصـد من التشـريعات المرتبطـة بالطهـارة: مَـا يُرِيـدُ اللـه لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (المائدة:6)

ومثلها تلك الآيات الكثيرة التي تخبر عن يسـر الـدين، كمـا قال تعالى: يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (البقرة:

1() رواه البزار.
2() رواه ابن عساكر.
3() المتنطعون: المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد.
4() رواه مسلم.
5() رواه البخاري.

185)، وقـال: يُرِيـدُ اللـهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِـقَ الإِنْسَـانُ ضَعِيفًا (النساء: 28)، وقال: وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْـرَى (الأعلى:8)، وقال: لَيْسَ عَلَى الضُّـعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَـى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ (التوبة: 91)

أمـا مـا ورد من الشـرائع المشـددة في الأديـان السـابقة، فهي ليست من تشريع الله ابتـداء، ولكن أهـل تلـك الأديـان هم الذين ألزموا بها أنفسهم، حتى أصبحت جزءا من أديانهم، ولهذا جاءت الشريعة الخاتمة لترفع كل تلك الأغلال، كما قـال تعـالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّورَ الَّذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (157) (الأعراف)

هذه جوابي على أسـئلتك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فبشـر بهذه المعاني التي تجعل الشريعة التي أنزلهـا اللـه على رسـله متوافقة مع الشـريعة الـتي وضـعها في عقـول عبـاده.. وتجعـل الكون جميعا يسير وفق شريعة ومـوازين دقيقـة ثابتـة لا مجـال فيها للتغير والتبدل.

القدرة المطلقة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسـألني عن قـدرة اللـه، وحقيقتها، ومجالاتها، وعلاقتهـا بالإنسـان وحريتـه، وعلاقتهـا بعـد ذلك كله وقبله برضى النفس وطمأنينتها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الإيمان بقدرة اللــه المطلقة التي لا تحدها الحدود، ولا تعترضها العوارض، ولا يحول دونها شـيء من أعظم أسـباب الطمأنينـة والاسـتقرار النفسـي الذي يتحلى به المؤمن، ويواجه به كل التحديات التي تعرض له.

وكلما كان ذلك الإيمان أعظم وأعمق، كلمـا كـانت النفس أكثر طمأنينة، بل أكثر قوة على مواجهة كل الصـعاب، وكيـف لا تواجهها، وهي لا تعتمد على حولهـا وقوتهـا وطاقتهـا المحـدودة، وقدرتها العاجزة، وإنما تعتمد على ربها.

وفوق ذلك؛ فـإن الإيمـان بقـدرة اللـه المطلقـة هـو الـذي يجعل المؤمن يؤمن بسهولة ويسر بكل ما يعجـز الجـاهلون عن الإيمان به، نتيجة عدم إيمانهم بقدرة الله تعالى.

فالمؤمن يؤمن بالبعث واليوم الآخر، وما أعد اللـه لأوليائـه من أصـناف النعيم الـتي لا يمكن تخيلهـا.. وهـو الإيمـان الـذي عجزت بعض العقـول عن التسـليم والإذعـان لـه، نتيجـة جهلهـا لقدرة الله تعالى، ولو أنها آمنت بقدرته المطلقة، والــتي تتجلى في كل شيء، لسهل عليها الإيمان بذلك وغيره.

ولذلك يخبر الله تعالى أن الخلق ما قدروه حق قـدره حين نسـبوا العجـز لـه في أي محـل من المحـال، قـال تعـالى: مَـا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللـه لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ (الحج:74)، وقـال: وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْـزَلَ اللـه عَلَى بَشَـرٍ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام:91)

فلذلك يذكرهم بقدرته التي لا تحد، قال تعالى: وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر:67)

بل يقسم الله تعالى على قدرتـه الـتي لا تحـد ليؤكـد هـذا المعـنى في الضـمير المـؤمن، قـال تعـالى: فَلا أُقْسِـمُ بِـرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ(المعارج:40)

وعندما تعجب الغافلون من إمكانية إحيـاء المـوتى بعـد أن

يصبحوا رمما بالية، رد عليهم الله تعالى بقوله: وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الروم:27)

ويبين أن سبب ما وقع فيه أولئك الغافلون هو مقارنتهم لقدرتهم بقدرة الله تعالى، ونسوا أن ينظروا إلى أنفسهم ليروا الآيات العظيمة التي ينطوي عليها وجودهم، قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (يّس:78)

ثم أمر رسوله ﷺ بالرد عليهم بدعوتهم إلى النظر إلى منشئها الأول، فقال: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (يّس:79)

وهكذا يدعوهم إلى النظر في الآفاق، وتقليب أطرافهم في السماء والأرض ليدركوا بعض مظاهر قدرة الله، قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (الاحقاف:33)

والقرآن الكريم لا يسوق هذه التنبيهات لهؤلاء الغافلين من المنكرين للبعث، بل يسوقها لكل ضمير قد توسوس له خواطر السوء أن هناك شيئا ما من شئون الحياة قد يعجز الله، أو قد يستحيل على الله.

ولذلك، كان أعرف الخلق بالله، أعظمهم معرفة بقدرته، وكان أجهل الخلق بالله أعظمهم جهلا بقدرته..

وهكذا، فإن أسعد الخلق بالله، وأفرحهم به، وأعظمهم أملا فيه هو من عرف قدرته التي لا تحدها الحدود، ولا يقف في وجهها شيء.. وكان أشقى الخلق، وأكثرهم حزنا، وأضيقهم صدرا، وأجزعهم عند كل مصيبة من حجبت عينا بصيرته عن قدرة الله.

والأمر في ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ يشبه رجلين:

أما أحدهما؛ فكان يلتجئ إلى قوي قادر حكيم طبيب كريم شجاع.. يشفيه من كل داء، ويخلصه من كل عدو، ويغنيه من كل فاقة، ويسد له كل حاجة.

وأما الثاني؛ فلم يكن له من يلتجئ إليه، فكان يقف أمام كل عقبة، حزينا يائسا محبطا ممتلئا هما وغما.

فأما الأول.. فذلك الذي يعرف الله.. ويعرف قدرته التي لا تحدها الحدود، ولا تقف في وجهها العقبات.. وأما الثاني.. فذلك الذي لا يعرف الله.. أو يعرفه، ولكنه يعرفه إلها عاجزا ممتلئا ضعفا؛ فلا يحل له معضلة، ولا يعينه في مصيبة.

وقد اعتبر القرآن الكريم الثاني مشركا بالله.. لأن الشرك هو اعتقاد ند لله، وأي ند أعظم من ذلك الذي يحول بين الله وبين تنفيذ قدرته.

ولهذا يمن الله تعالى على المؤمنين بإلههم القادر على كل شيء في مقابل الذين تعلقوا بآلهة من القش، تفر منهم أحوج ما يكونون إليها.

قال تعالى في وصف الآلهة التي تعلق بها هؤلاء المشركون: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:41)

وذكر العجز الذي تمتلئ به آلهتهم، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:73)

فهذه الآلهة العاجزة تعجز حتى عن خلق ذبابة، بل أبلغ من ذلك أنهم عاجزون عن مقاومة الذباب والانتصار منه لو سلبها شيئًا من الذي لها، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، مع أن الذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال تعالى: ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾، فسوى بين الطالب والمطلوب، أو بين البشر الذين يؤمن بقدرة الله والذباب.

ولهذا، فإن إبراهيم عليه السلام في محاجته للنمروذ، تحداه ببرهان القدرة الإلهية، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:258)

وما ذكره القرآن الكريم من التحديات الإلهية للمنكرين لقدرة الله تعالى، لا يزال قائما، وفي كل العصور، حتى في هذا العصر الذي توهم فيه الإنسان أنه ــ بسبب تلك الاكتشافات التي وصل إليها ـ قد بلغ من القوة بحيث لا يحتاج لإله.

فتحدي القرآن بالذبابة لا زال قائما.. ولـذلك يقـال لأولئـك الذين اسـتعبدتهم الحضـارة الحديثـة وعلومهـا، فنسـوا ربهم، أو توهمـوا أنهم قـد تخلصـوا منـه: اخلقـوا ذبابـة واحـدة كمـا ذكـر القرآن.. فإن عجزتم، فلا ينبغي إلا أن تخضعوا للذي خلق ملايير ملايير من الـذباب.. بـل الـذي خلـق هـذا الكـون الواسـع الـذي يمتلئ بكـل أنـواع القـدرة، والـذي لا يشـكل الـذباب إلا عنصـرا ثانويا، بل مرفوضا فيه.

والعلماء ـ أيها المريد الصادق ـ يدركون هذا، بخلاف أولئـك البسطاء الذين انبهروا بمنجزات هذه الحضارة، مـع الغفلـة عن أسرار المكتشـفات القائمـة عليهـا، والـتي هي فيض من قـدرة الله تعالى.

إنهم يدركون أن الإنسان لو تمكن من خلـق ذبابـة واحـدة، فإنه بذلك يكون قد أنجز أعظم إنجاز في تاريخ البشرية جميعا.. فلا نستطيع بحـال من الأحـوال أن نقيس السـفينة الفضـائية أو العقل الالكتروني أو أي منجز من منجزات هذه الحضارة بخلــق ذبابة [1]

فليس في هذه المنجزات ـ مع احترامنـا لهـا، بـل اعتقادنـا أنها من فضل الله على عباده ـ أي نمـو أو رشـد، ويسـتحيل أن تنجب مثيلا لها، ولا يمكنها من داخل نفسها ترميم ما يطرأ عليها من الأضرار، فهي لا تصلح قطعها التالفة أبـداً، وهي فـوق ذلـك تحتاج إلى الهداية والقيادة من الخارج.

أما الذبابة، فلها من هذه الجهات أفضلية واضحة على تلـك السفينة الفضائية أو جهاز الكومـبيوتر، ولكن كـثرة الـذباب أدى إلى تصـوره من قبلنـا كموجـود حقـير، ولـو كـانت هنالـك ذبابـة واحدة فقط في العالم لاتضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.

وهـــذا الكلام لا نقولـــه نحن.. ولا يقولـــه فقـــط علمـــاء المسلمين.. ولا يقولـه قبـل ذلـك القـرآن.. بـل هـو من العلم لا يصـير العـالم عالمـا إلا إذا علمـه.. وقـد قـال بعض العلمـاء في ذلك: (سوف يصل الانسان بعد ألف سنة إلى سر الحيـاة، ولكن هذا لا يعني أنه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حـتى خلية حية)

1() انظر: الأمثل للشيرازي.

ويــرد آخــر على بعض الملاحــدة، فيقــول: (قــال هيغــل: أعطوني الهواء والماء والمواد الكيمياوية والزمان وسوف أخلق بهـا إنسـاناً، لكن هيغـل نسـي أنـه بحاجـة إلى نطفـة وجرثومـة الحياة من أجل هذا المشروع أيضـاً، إنـه بعـد أن يجمـع الـذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضـها ضـمن نظـام وتـرتيب خـاص بخلقة الإنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القـالب! وعلى فـرض أنه وُفّق للقيام بكل هذه الأُمور الخارقة للعادة، هنالـك احتمـال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لظهور حيـوان لم تشـاهد عين الدهور شيئاً أغرب منـه، والأعجب هـو أن هيغـل لن يقـول بعـد الموفقيـة في هـذا الأمـر أن هـذا الموجـود العجيب ظهـر بحسب التصـادف والاتفـاق، بـل يقـول:(إن ذكـائي ونبـوغي هـو الذي خلقه)[1]

ويقول آخر: (من أجل تشكيل البروتين يجب التحـام مئـات أو آلاف الجزئيـات (أحمـاض أمينيـة) بنسـب مختلفـة وبأشـكال متنوعة على شكل سلسلة، وإن عدد أنواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنه لايمكن العثور على نوعين من الحيوانـات يكـون لهمـا نوع واحد من البروتينات، إذن فجزيئات المواد العضـوية تشـكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعهـا وتعقيـدها يبعث على الحـيرة، ومن أجـل صـنع موجـود حي واحـد لا نحتـاج إلى مقـدار كـاف ونسب معينة من انواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بـل يجب ترتيبهـا ترتيبـاً صـحيحاً أيضـاً، أي ان بناءهـا لـه من الأهميـة مـا لتركيبها الكيمياوي من الأهمية.. إن بناء البروتينـات معقـد حقـاً، وإن أعقد الأجهزة التي صنعها الانسان (كالعقل الألكتروني) هي بحكم الألعوبة مقابل أبسط الكائنـات الحيـة! يكفي الانسـان أن يفكـر في هـذه العظمـة لتتضـح لـه اسـتحالة الخلقـة الذاتيـة أو التصادفية)

وغيرها من التصريحات التي تثبت عجز العلم، بل عجز كل العلماء، عن تقليد جزء بسيط من القدرة الإلهيـة الـتي لا يمكن تحديدها ولا تصور عظمتها.

فلذلك كان المؤمن بالقدرة الإلهية، والمـذعن لهـا صـاحب عقل علمي، لا صاحب عقل خرافي كما يزعم الجهلة.. فالعــالم هو الذي يقيس ما يشاهده على غيره.. فمن رأى هذه المظـاهر العجيبــة للقــدرة الإلهيــة في النفس والآفــاق لن يســتغرب أي

[1]() سر الخلق، ص 139 إلى 141.

شيء تبرزه هذه القدرة.

ولهذا كان الدهريون الـذين أنكـروا قـدرة اللـه على البعث أجهل الخلق بالله، وأبعـد النـاس عن مقتضـيات عقـولهم، وقـد ذكر الله تعالى المنطق الذي يفكرون بـه، فقـال: ﴿ وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُـلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُـزِّقْتُمْ كُـلَّ مُمَـزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَافْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِـالآخِرَةِ فِي الْعَـذَابِ وَالضَّـلالِ الْبَعِيـدِ (8)﴾ (سـبأ)، فالضلال البعيد ـ هنا ـ هو ذلك الضـلال عن مسـتلزمات العقـول السليمة.

ولهذا يوجههم إلى النظر في دلائل القدرة التي تنطق بكل لسان، قال تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللـه الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَـلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيـهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ (الاسراء:99)، وقـال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُـوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (يّـس:81)

وهو يوجههم إلى النظر في أصـل الخلـق.. فمن قـدر على أن يخلق لن يعجز على أن يعيـد، قـال تعـالى: ﴿ وَهُـوَ الَّذِي يَبْـدأُ الْخَلْــقَ ثُمَّ يُعِيــدُهُ وَهُــوَ أَهْــوَنُ عَلَيْــهِ وَلَــهُ الْمَثَــلُ الْأَعْلَى فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ﴾ (الـروم:27)، وقـال: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُـونَ خَلْقـاً جَدِيـداً (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللـه الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَـادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَـلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيــهِ فَــأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (99)﴾ (الإسراء)، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَـهُ الْمَثَـلُ الأَعْلَى فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)﴾ (الروم)

وهكذا؛ فإن الإيمان بقدرة الله يبعث في صاحبه كل ألـوان العزيمة والشجاعة؛ فالمؤمن الذي يرى نفسـه مسـتندا للقـدرة الـتي لا يعجزهـا شـيء، لا يخـاف من أي شـيء، وكيـف يخـاف، والله ربه.

ولهـذا اعتـبر اللـه تعـالى من أسـباب الـرعب الـذي يملأ النفــوس الشــرك، فقــال: ﴿ سَـنُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ كَفَـرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِالله مَا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطَاناً وَمَـأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْـوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمـران:151)، فقـد اعتـبر اللـه تعالى في هذه الآية شركهم مصدر رعبهم.

وقـد ذكـر اللـه تعـالى في مقابـل هـذا مواقـف المؤمـنين الصــادقين الــذين ملأوا قلــوبهم باللــه، فــرزقهم الأمن التــام، والسـكينة المطلقـة، ومنهم إبـراهيم عليـه السـلام الـذي هـدده قومـه بكـل أصـناف التهديـدات، لكنـه لم يـذعن لهم، بـل قـال متعجبا: ﴿وَكَيْـفَ أَخَـافُ مَـا أَشْـرَكْتُمْ وَلا تَخَـافُونَ أَنَّكُمْ أَشْـرَكْتُمْ بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:81)

وقد كان في ذلك الموقف يقارن بين القوة الوهميـة الـتي يستند إليها قومـه، والقـوة الوهميـة الـتي كـانوا يتصـورون أنهم يملكونها، وبين قوة الله تعـالى، فـأخبر أن قومـه أولى بـالخوف منه.

وقد عقب الله تعالى على قول إبراهيم عليه السلام مقررا هذه الحقيقة المطلقة، ومقننا هذه السنة الإلهية التي لا تتخلف، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام:82)

وهكذا، فـإن الإيمـان بقـدرة اللـه تعـالى هـو الـذي يحفـظ صاحبه من الإحباط واليأس، ذلـك أن سـبب اليـأس هـو اعتقـاد العجز.. فمن عرف أن في قدرة اللـه أن يحقـق لـه كـل أمنيـة، فإنـه سـيعيش ممتلئـا بالأمـل السـعيد الـذي تنهض بـه الحيـاة، وتستقر به النفس.

ولهذا ربط الله تعالى بين الأمل والقدرة وتحقيق المطالب في قصة زكريا عليه السلام، فقد كان زكريا عليه السـلام محبـا للولد، وكان يود لو سأل الله ذلك، ولكنه كـان يتوقـف كـل حين إلى أن رأى ما دعاه لأن يسأل ذلك السؤال الذي كان يملأ عليه نفسه.

قــال تعــالى يربــط بين الإيمــان بالقــدرة المعجــزة، وبين الأمل:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَـا بِقَبُـولٍ حَسَـنٍ وَأَنْبَتَهَـا نَبَاتًـا حَسَـنًا وَكَفَّلَهَـا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًـا قَـالَ يَـا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْـرِ حِسَـابٍ (37)هُنَالِـكَ دَعَـا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَـالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَـمِيعُ الـدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْـهُ الْمَلَائِكَـةُ وَهُـوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَـدِّقًا بِكَلِمَـةٍ مِنَ الله وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّـالِحِينَ (39) قَـالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَـاقِرٌ قَـالَ كَـذَلِكَ اللـه

يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40) قَالَ رَبِّ اجْعَـلْ لِي آَيَـةً قَـالَ آَيَتُـكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَـةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْـزًا وَاذْكُـرْ رَبَّكَ كَثِـيرًا وَسَـبِّحْ بِالْعَشِـيِّ وَالْإِبْكَارِ (41)) (آل عمران)

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ بعض آثـار الإيمـان بقـدرة اللـه تعـالى المطلقـة على النفس المطمئنـة، وكونهـا سـبب رضـاها وطمأنينتهـا وسـعادتها وقوتهـا.. فاسـع لأن تعمـر نفسـك بهـذه المعاني، ودعك من أولئـك المجـادلين الـذين يخوضـون فيمـا لا طاقـة لهم بـه.. فيتسـاءلون عن سـر القـدرة الإلهيـة وكيفيـة تحققها.. فذلك مما لا تطيقه عقولهم.. ورحم الله امـرؤا عـرف قدر نفسه وعقله، فلم يتجاوزهما.

ومثـل ذلـك السـؤال عن علاقـة القـدرة الإلهيـة بقـدرة الإنسان.. وعلاقتها بالجبر.. فمن يقول ذلك يكـذب على نفسـه، فهو يفرق بين حركاته الاختيارية وحركاته الضرورية، ويشعر بأن له الحرية المطلقة في أن يفعل في جانبه الاختيـاري مـا يشـاء، ويتلفظ بما يريد من دون أن يمنعه مـانع.. ولـذلك كـان إسـناده لجهله وجرائمه لقدرة الله تعالى فرارا عن الحقيقة، وكذبا على النفس.

التوفيق والخذلان

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عما ورد في النصوص المقدسة من الدلالة على توفيق الله تعالى لعباده الصالحين، وخذلانه لغيرهم من المنحرفين، وعن علاقة ذلك بالعدالة والرحمة الإلهية، وعلاقته بعد ذلك وقبله بالنفس المطمئنة الراضية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العلم بالتوفيق والخذلان الإلهي، وحقيقتهما وأسبابهما من المعارف الضرورية للنفس المطمئنة، ذلك أنها لم تصل إلى تلك الدرجة الرفيعة في سلم التزكية والترقية إلا بعد حصولها على التوفيق الإلهي، فهو تأشيرتها وتذكرتها التي مكنتها من الوصول.

ولو أنها تخلت عن شعورها بالتوفيق الإلهي لحظة واحدة، وتوهمت أن كل ما لها من عندها، وليس من عند الله؛ فإن كل شيء لديها ينهار، وتعود من التوفيق إلى الخذلان، ومن التزكية إلى الدنس، ومن الترقي إلى السقوط، ومن النفس المطمئنة إلى النفس الأمارة.

وقد أشار إلى هذا قوله تعالى عن ذلك الذي ركن إلى نفسه، وتخلى عن ربه، فسقط بعد ارتفاع، وضل بعد هداية، وخُذل بعد توفيق: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلهمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 175، 176]

ولهذا يخبر الله تعالى عن المؤمنين أنهم لا يحمدون أنفسهم على ما حصل لهم من الهداية، وإنما يحمدون ربهم على توفيقه لهم لذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله﴾ [الأعراف: 43]، وقد ذكر قبل ذلك توفيقه لهم بنزع المثالب التي كانت تعمر قلوبهم، قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف: 43]

ومثل ذلك توفيقه لأئمة الهدى، فقال:﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (الانبياء:73)، فأخبر أن كونهم أئمة للهدى هو بتوفيق الله تعالى.

وفي مقابل ذلك قال عن أئمة الضلال: وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ (القصص:41)

وقال عن تقسية قلوب بني إسرائيل، وتعرضهم للخذلان الإلهي بسبب ما جنت أيديهم: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (المائدة: 13)

وقال عن جعل الأكنة في قلوبهم والوقر في آذانهم لئلا يؤمنوا: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (الأنعام:25)، وقال: وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (الاسراء:46)

فهذه الآيات الكريمة تخبر أن ذلك الخذلان المتمثل في الأكنة والوقر الذي حجبهم عن الاستماع للحق، لم تكن لتصيبهم لولا قابليتهم لذلك، ولو أنهم تواضعوا للحق، وسلموا لهم، لتنزل عليهم بدلها الفتح والنور والبصيرة.

ولهذا يقرن الله تعالى بين ذكر المؤمنين المتواضعين المتعرضين للتوفيق الإلهي، وغيرهم من المستكبرين، فيقول: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (الكهف: 28)

وهكذا ورد في الأحاديث الكثيرة أن الهداية والصلاح والتقوى وغيرها ثمرات للتوفيق الإلهي، قال ﷺ: (إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله)، فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: (يوفّقه لعمل صالح قبل الموت)(1)

وأجاب ﷺ من سأله أن يدله على عمل يدخل به الجنة، فقال:(لقد سألتني عن عظيم! وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة،

(1) الترمذي(2142) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد(4/ 135)

وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ألا أدلك على أبواب الخير! الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ألا أخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه! رأس الامر الاسلام، من أسلم سلم وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، لا أخبرك بملاك ذلك كله! كف عليك هذا وأشار إلى لسانه)[1]

وهذه المعاني تجعل صاحب النفس المطمئنة في رضا تام، وفرح عظيم، وسعادة لا يمكن تصورها، ذلك أنه يشعر أن الله تعالى هو الذي اصطفاه واجتباه ووفقه.. ولذلك يكون فرحه بتوفيق الله تعالى لطاعته أكثر من فرحه بالطاعة نفسها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: 58]

وقد قال بعض الحكماء في ذلك: (لا تفرحك الطّاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من اللّه إليك)

وقسّم آخر المؤمنين في فرحهم بالطاعة ــ بحسب درجاتهم ـ إلى ثلاثة أقسام: أولها أولئك الذين (فرحوا بها لما يرجون عليها من النعيم ويدفعون بها من عذابه الأليم، فهم يرون صدورها من أنفسهم لأنفسهم لم يتبرؤوا فيها من حولهم وقوتهم، وهم من أهل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5])[2]

والقسم الثاني، أولئك الذين (فرحوا بها من حيث إنها عنوان الرضا والقبول، وسبب في القرب والوصول، فهي هدايا من الملك الكريم، ومطايا تحملهم إلى حضرة النعيم، لا يرون لأنفسهم تركا ولا فعلا ولا قوة ولا حولا، يرون أنهم محمولون بالقدرة الأزلية مصروفون عن المشيئة الأصلية وهم من أهل قوله تعالى: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. فأهل القسم الأول: عبادتهم للّه. وأهل القسم الثاني: عبادتهم باللّه وبقدرة اللّه، وبينهما فرق كبير)

والقسم الثالث، أولئك الذين كان (فرحهم باللّه دون شيء سواه، فانون عن أنفسهم باقون بربهم، فإن ظهرت منهم طاعة فالمنة للّه، وإن ظهرت منهم معصية اعتذروا للّه أدبا مع اللّه، لا ينقص فرحهم إن ظهرت منهم زلة، ولا يزيد إن ظهرت

1() رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

2() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 155.

منهم طاعة أو يقظة؛ لأنهم باللّه وللّه، من أهل لا حول ولا قــوة إلا باللّه، وهم العارفون باللّه)

وقال بعض المشايخ مخاطبا مريـدا لـه: (إن ظهـرت منـك أيها المريد طاعة أو إحسان فلا تفـرح بهـا من حيث إنهـا بـرزت منـك فتكـون مشـركا بربـك، فـإن اللّـه تعـالى غـني عنـك وعن طاعتك، وغنى عن أن يحتـاج إلى من يطيعـه سـواه، قـال اللّـه تعـالى: ﴿وَمَنْ جاهَـدَ فَإِنَّمـا يُجاهِـدُ لِنَفْسِـهِ إِنَّ اللــه لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6]، وقال ﷺ حاكيا عن ربه عز وجلّ: (يـا عبـادي لـو أنّ أوّلكم وآخـركم وإنسـكم وجنّكم كـانوا على أتقى قلب رجل واحد، ما زاد ذلك في ملكي شيئا)[1]، وافرح بهـا من حيث إنها هدية من اللّه إليك تـدل على أنـك من مظـاهر كرمـه وفضله وإحسانه، فالفرح إنما هو بفضل اللّـه وبرحمتـه، ففضـل اللّه هو هدايته وتوفيقه، ورحمته هو اجتباؤه وتقريبه)

وهـذه المعـاني الرفيعـة هي الـتي تحمي المـؤمن من كـل الوسـاوس النفسـية والشـيطانية الـتي تجعـل صـاحبها معجبـا بعمله، مغترا به، لشعوره أنه منه، وليس من ربه.. فإذا مـا علم أنه لم يكن ليعمل أي عمل صـالح من دون توفيـق إلهي، يكـون ذلك تأديبا وتربية له للتخلي عن حوله وقوته، والركون إلى حول الله وقوته.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أن التوفيـق والخذلان منسجمان مع العدالة والرحمة الإلهية مثلهما مثل كـل شيء في الكون؛ فيستحيل على أي شيء أن يخرج عن قوانين العدالة والرحمة.

ولتوضيح ذلك أذكر لـك أن التوفيـق الإلهي بمثابـة الجـائزة التي ينالها من توفرت فيه بعض الصفات الكسبية، والـتي أخـبر الرسل عليهم السلام عنها الخلق جميعـا.. ولـذلك فـإن كـل من يـرغب في التوفيـق الإلهي ليس عليـه سـوى الاتصـاف بهـا، أو تنقية نفسه مما يعارضها، حتى يصبح أهلا لذلك التوفيق.

وإن شـئت توضـيحا أقـرب وأصـح.. أذكـر لـك أن التوفيـق والخـذلان مثـل عيـون منتشـرة، بعضـها يسـيل بالمـاء العـذب الفرات، والآخر يسـيل بـالملح الأجـاج، وقـد تُـرك للخلـق حريـة الاستقاء.. فمن شاء أن يستقي من المنـابع العذبـة نـال فضـلها وشفاءها وتوفيقهـا، ومن اسـتقى من غيرهـا نـال الأدواء والبلاء

[1]() رواه مسلم (4/ 1994) والترمذي (4/ 656) وأحمد في المسند (5/ 154)

والخذلان وما يرتبط بها.

وهذا ما ينسجم مع العدالة الإلهية، ذلك أنه لو كان التوفيق مخصوصا بجنس معين من البشر، مثلما زعم اليهود، الذين حصروا النبوة والصلاح والولاية في بني إسرائيل، لكان ذلك منافيا للعدالة.. لكنها متاحة للجميع بشروطها التي لا تعدو أن تكون توفير القابلية أو البيئة الصالحة لتنزل التوفيق الإلهي.

وأول تلك الشروط، وهو يسير سهل لا يُحرم منه إلا المحرومون دعاء الله تعالى بطلب التوفيق والهداية والصلاح وغيرها.. والله لا يخيب من دعاه، ولا يرد من قصده.. والدعاء دليل على الصدق، والله لا يرد الصادقين.

ولهذا يذكر الله تعالى أن الصالحين كانوا يدعون الله تعالى أن يوفقهم لمراضيه، والتي يتصورها الغافلون أفعالا محضة لهم تقع باختيارهم وبتنفيذهم، ولا دخل لله فيها.

ومن ذلك قول الخليل عليه السلام: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة:128)، فأخبر الخليل عليه السلام أنه تعالى هو الذي يجعل المسلم مسلما، فلذلك طلب منه أن يجعله مسلما وذريته.

ومثل ذلك دعاؤه بأن يجعله مقيما للصلاة هو وذريته، قال تعالى: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (ابراهيم:40)، وقال: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلهمْ يَشْكُرُونَ (ابراهيم:37)

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام أنه قال عن ولده: وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً (مريم: 6)

وأخبر تعالى عن مقالة الثابتين مع طالوت، وكيف رجعوا إلى الله في طلب الصبر والتثبيت، فقال تعالى: وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (البقرة:250)

ومن ذلك الشعور بالعجز، والتبري من الحول والقوة، وهو ما يهيئه للتوفيق الإلهي، ولهذا ورد في الأحاديث النبوية الكثير من الأذكار التي يرجع فيها المؤمن إلى الله تعالى متبرئا من حوله وقوته ملتجئا إلى حول الله وقوته، ولعل أجمعها ما عبر

عنه ﷺ بقوله لبعض أصحابه: (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنــة (لا حول ولا قوة إلا بالله)[1]

وهذا الكنز من كنوز الجنة هو ما يشير إليه قوله تعالى في حوار المؤمن مع صاحب الجنـتين: ﴿ وَلَـوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَـكَ قُلْتَ مَا شَاءَ الله لا قُوَّةَ إِلَّا بِالله ﴾ (الكهـف: 39) أي هلا إذا أعجبتـك جنتك حين دخلتها ونظـرت إليهـا حمـدت اللّـه على مـا أنعم بـه عليك، واعتبرته من مشيئة الله وقوته لا من مشيئتك وقوتك.

وفي هذا دليل على ما تكسبه هذه الكلمـة من تواضـع في نفس قائلها وتأدبه مع ربه تعالى.

ومن الأذكار الواردة في السنة، والـتي يتـبرأ فيهـا المـؤمن من حولــه وقوتــه إلى حــول اللــه وقوتــه مــا ورد في دعــاء الاستخارة، فهو كله تفويض ورجـوع إلى اللـه، وتـبرؤ من حـول العبد وقوته إلى حول الله وقوته، ففي الحديث عن جـابر قـال: كـان رسـول اللـه ﷺ يعلمنـا الاسـتخارة في الأمـور كمـا يعلمنـا السـورة من القـرآن، يقـول ﷺ:(إذا هم أحـدكم بـالأمر فلـيركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمــك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنـك تقـدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيـوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه باسـمه خـير لي في ديـني ومعاشـي وعاقبـة أمــري فاقــدره لي ويســره، ثم بـارك لي فيــه، اللهم وإن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنــه، واصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به)[2]

وفي دعـاء النـوم علمنـا رسـول اللـه ﷺ أن نقـول:(اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجـأت ظهـري إليـك رغبة ورهبة إليك لا ملجـأ ولا منجى منـك إلا إليـك آمنت بكتابـك الذي أنزلت ونبيك الـذي أرسـلت)[3]، وأخـبر أن من مـات على هذا مـات على الفطـرة، والفطـرة تعـني انسـجام الإنسـان مـع السـنن الإلهيـة، كمـا قـال تعـالى: ﴿ فَـأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللـه الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللّـه ذَلِـكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:30)

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري.
3() رواه البخاري ومسلم.

وكـان رسـول اللـه ﷺ إذا قـام إلى الصـلاة كـبر ثم قـال: (وجَّهتُ وجهيَ للذي فطر السموات والأرض حنيفـاً ومـا أنـا من المشـركين، إن صـلاتي ونُسُـكي ومحيـاي وممـاتي للـه رب العالمين، لا شريك له وبذلك أُمِـرتُ وأنـا من المسـلمين، اللهم أنت الملك لا إلـه إلا أنت، أنت ربي وأنـاً عبـدُك، ظلمتُ نفسـي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفـر الـذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصـرف عني سيئَها لا يصرف عني سيئَها إلا أنت، لبيك وسعديك والخـير كلـه في يـديك، والشَّـرُّ ليس إليـك، أنـا بـك وإليـك، تبـاركتَ وتعاليتَ، أستغفرك وأتوبُ إليك)(1)

وغيرها من الأدعية والأذكار الكثـيرة، الـتي تخلص المـؤمن من شعوره بحوله وقوته، وتجعله مستسلما لربـه مسـالما لـه.. فاسع ـ أيها المريد الصادق ـ لأن تلـتزم بتلـك الأذكـار والأدعيـة، فما حفظها الله لنا إلا لتتوفر فينا القابلية لتنزل الفضل الإلهي.. فلا تتهم الله في عدم تـنزل فضـله وتوفيقـه، واتهم نفسـك في عدم استعدادها لتنزله.. ففضل الله أعظم من أن يبخل به على من وفر لنفسه الأهلية له.

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليـه السـلام: (مـا اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عـرفت ذلـك من نيّتـه ثمّ تكيـده السـماوات والأرض ومن فيهنّ، إلاّ جعلت لـه المخرج من بينهنّ، وما اعتصم عبـد من عبـادي بأحـد من خلقي عـرفت ذلـك من نيّتـه، إلاّ قطعت أسـباب السـماوات من يديـه وأسخت الأرض من تحته، ولم أبال بأيّ واد هلك)(2)

ويروى عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه: (يا بنيّ.. ثـق بالله عزّ وجلّ، ثم سل في الناس: هل من أحـد وثـق باللـه فلم ينجه؟.. يا بنيّ..توكل على الله، ثم سل في الناس: من ذا الذي توكل على الله فلم يكفه؟.. يا بني.. أحسن الظن بالله ثم سـل في الناس: من ذا الذي أحسن الظن بالله فلم يكن عنـد حُسْـن ظنّه به)(3)

فالشـأن ليس في فضـل اللـه تعـالى وتوفيقـه، فهـو مهيـأ يسير سهل، ولكن الشأن في الذي يُقبلـون عليـه، ويقبلـون بـه،

1() رواه مسلم.
2() الكافي 2/63.
3() بحار الأنوار: 68/156.

ولا تستكبر نفوسهم أن تناله.. فالله عزيز، ولا يعطي فضله لمن رغب عنه، أو تكبر عليه.

الهداية والضلال

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عما ورد في النصوص المقدسة من الدلالة على كون الله تعالى هو الهادي والمضل لعباده، وأنه لا يمكن أن تتم الهداية ولا الضلال من دون إرادته وتيسيره، وعن علاقة ذلك بالعدالة والرحمة الإلهية، وعلاقته بعد ذلك وقبله بالنفس المطمئنة الراضية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هذه المعرفة من المعارف الضرورية للنفس المطمئنة، وأنها سبب من أسباب طمأنينتها ورضاها، ذلك أن الأساس الأكبر للطمأنينة والرضا هو اعتقاد تفرد الله تعالى بكل شيء في كونه.

ولو أن أمر الهداية والضلال، وهما من أهم الأمور التي ينبني عليها الكون، وُكل إلى غير الله، أو وُكل بعضه لغيره، لكان في ذلك مزاحمة للألوهية، وتناقضا مع التوحيد؛ ولحصل في الكون ما لا يريد ربه، وفي ذلك كل المفاسد، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا الله لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]

أما رضاها عن ذلك؛ فيعود إلى أمرين:

أولهما، هو فرحها باختيار الله تعالى لها للهداية؛ فيكون الفرح بالاصطفاء الإلهي أعظم من الفرح بالهداية نفسها، كما ذكرت لك ذلك عند حديثي عن التوفيق والخذلان.

وأما **الثاني**؛ فطمأنينتها وأمانها من أن يقع عليها الضلال من جهة أخرى؛ فما دام الضلال بيد الله؛ وقد أسلمت نفسها إليه؛ فهي بذلك تشعر براحتها العظمى من جهته، ولا تخاف من جهة غيره، لأنه لا توجد جهة تنتقم منها بسبب هدايتها.

ولو أن الأمر لم يكن كذلك لكان المهتدون ممتلئين بالمخافة من المضلين.. ولتشتتت نفوسهم، ولم يطمئنوا إلى ربهم.. أما الضالون، فيتوهمون أنهم قد غلبوا ربهم، بسبب عدم انصياعهم لهدايته.

أما توافق ذلك مع العدالة؛ فقد ذكرت لك بأن الله تعالى هو العدل المطلق، وكما أن الكون يسير بموازين دقيقة ممتلئة بالعدالة، فمثل ذلك عالم النفس وعالم الحياة.. وعالم الهداية وعالم الضلال.. فقد نصب الله تعالى للهداية أعلامها، ورغب فيها، وأرسل لأجلها الرسل، وأنزل من أجلها الكتب، ووفر لها

كل الدواعي، ووضع لها كل الحجج.

فمن رغب فيها، أقبل عليه، وثبته، وزاده هدى، ووفر له كل ما يمكن للهداية من قلبه، بل وفر له كل ما يرقيه في مراتب الهداية، بحيث تتحول معارفه الإيمانية من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين.

أما الذين يعرضون عن تلك الأعلام الواضحة البينة؛ فإن الله تعالى بعدله، لا يرغمهم على اتباعها، بل يدعهم ونفوسهم، ويعطيهم الفرص المختلفة؛ فإن اهتدوا تعامل معهم كما يتعامل مع المهتدين، وإن أبوا تركهم وضلالهم.. فهم في ضلالهم لم يخرجوا عن إرادة الله، وإنما خرجوا عن رضاه، وتحولوا عنه إلى سخطه وغضبه.

وأما توافق ذلك مع الرحمة الإلهية، فهو ما وفر الله تعالى للهداية من أسباب كثيرة واضحة، يمكن لأي عاقل، وبنظرة بسيطة أن يصل إلى الهدى.. فليس فيه إلا التواضع والسكون والتفكر، ليصل المهتدي إلى ربه، وإلى كل القيم النبيلة التي دعا لها.. بخلاف طريق الضلالة الذي فيه العنت والضنك والتعب، مع مخالفته لما تقتضيه الفطر والعقول السليمة.

إذا عرفت ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ فاقرأ كلمات ربك المقدسة على ضوء تلك الرؤية التنزيهية التعظيمية البعيدة عن الجدل، أو التي تدخل أهواءها ومزاجها فيما لا طاقة لها به.

فعندما يقول لك ربك: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: 39)، لا تفهم منها ما يفهمه الجاحدون، الذين اتهموا ربهم بالظلم نتيجة سوء فهمهم للمشيئة الإلهية، بل اقرأ الآية بكمالها، لتعلم أن الله تعالى نصب الآيات الواضحات، وأرسل الرسل والهداة بما يوضح طرق الهداية، وسبلها، لكن المغفلين صموا آذانهم عن سماع كلمات الحق، أو رؤية الآيات الدالة عليه؛ فلذلك تحققت لهم مشيئة الضلال، وكان في إمكانهم أن تتحقق لهم مشيئة الهداية.

وبمثل ذلك اقرأ قوله تعالى، وهو يخبرنا بأن ما نراه من مشاهد الضلال ليس خارجا عن مشيئته، بل هو من مقتضياتها: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:13)، فالله تعالى ذكر في هذه الآية مشيئته المطلقة، وهي الدالة على وحدانيته

في التصرف في الكون، وهي مشيئة مبنية على عدالته ورحمته التي لا تضع أي شيء إلا في محله الصحيح المناسب له.

وبمثل ذلك اقرأ قوله تعالى، وهو يـذكر غنـاه المطلـق عن خلقه: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَسْـتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَـا أَنْشَـأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَـوْمٍ آخَـرِينَ ﴾ (الأنعـام: 133)، فهو يشير إلى أن الهداية والضلال لا تنفع الله تعـالى ولا تضره، ولا تزيـد في ملكـه ولا تنقص منـه، وإنمـا منفعتهـا تعـود للمهتدين، وضررها يعود للضالين.

فلذلك يرى المؤمن في الضلال الموجود على الأرض غـنى الله المطلق عن خلقه، قال تعالى: ﴿ إِنْ تَكْفُـرُوا فَـإِنَّ اللـه غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمـر: 7)، وقال مخبراً عن مقالـةِ موسـى عليـه السـلام: ﴿ إِنْ تَكْفُـرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (ابراهيم: 8)

وقد ورد في الحديث القدسي الجليل: (يقول اللّه تعالى: يـا عبـادي لـو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم كـانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلـك في ملكي شـيئاً، يـا عبـادي لـو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مـا نقص ذلـك من ملكي شـيئاً، يـا عبـادي إنمـا هي أعمـالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمـد اللّـه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(1)

وزيادة على كل تلـك المعـاني النفسـية الـتي تفرزهـا تلـك المعارف الإيمانية؛ فإن لها أيضا تأثيرها الاجتماعي الكبـير، ذلـك أن المؤمن بكون الهداية من الله تعالى، وأنه لا يمكن لأحـد من الناس أن يفرضها على غيره كرها، يجعله مسالما لغـيره، يـوفر له أسباب الهداية، ثم يتركه بعد ذلـك ليختـار القـرار المناسـب، ولهذا نهي عن الإكراه على الإيمان، فقد عقب الله تعالى قوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ (يونس: 99) بقوله: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِين﴾ (يونس: 99)

ويذكر سر ذلك، وهو أن كتابة الإيمان في القلب فضل من الله، وهذا الفضل لا يكون إلا بإذنه، كما قال تعـالى: ﴿ وَمَـا كَـانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُـؤْمِنَ إِلَّا بِـإِذْنِ اللـه وَيَجْعَـلُ الـرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:100)

بالإضــافة إلى ذلــك؛ فــإن اللــه تعــالى يطمئن المبلغين

1() رواه مسلم وغيره.

والدعاة والهداة إليه، أنه في حال عدم تحقق الهداية في الـذين تولوا دعوتهم، لا يعني ذلك تقصيرهم، ولا عدم أدائهم لوظائفهم التي وكلت إليهم، وإنما يدل ذلك على عـدم القابليـة في أولئـك المدعوين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللـه يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص:56)

ويضرب المثل على ذلـك بـابن نـوح عليـه السـلام، والـذي توفر له كل فرص الهداية وأسبابها، ولأمد طويل جدا، ومع ذلـك رغب عنها، قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَـابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَـا وَلَا تَكُنْ مَـعَ الْكَـافِرِينَ (42) قَـالَ سَـآوِي إِلَى جَبَـلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللـه إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: 42، 43]

ومثله أخبر عن زوجـتي لـوط ونـوح عليهمـا السـلام، قـال تعالى: ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُـوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَـا عَنْهُمَـا مِنَ الله شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: 10]

وفي مقابل ذلك ذكر امرأة فرعون، التي عاشت في بلاط الضلالة، ولكن قابليتها للهداية جعلتها من المهتدين، قال تعـالى: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَـوْنَ إِذْ قَـالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًـا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَـوْنَ وَعَمَلِـهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: 11]

وقد ورد في الحـديث عن رسـول اللـه ﷺ: (عرضـت علي الأمم، فـرأيت النـبي ومعــه الرهيــط، والنــبي ومعــه الرجــل والرجلان، والنبي وليس معه أحد)(1)

بالإضافة إلى ذلك، فإن الإيمان بتولي اللـه تعـالى لشـؤون الهداية والضلال يحمي المؤمن من تلك العقد التي تسببها رؤيته لانتشار الضلالة، وكثرة الواقعين فيها، ولهـذا يتكـرر في القـرآن الكريم النهي عن الحزن لضلال الضالين، لأن ذلك لا يخــرج عن إرادة اللـه في خلقـه، قـال تعـالى:﴿ فَلا تَـذْهَبْ نَفْسُـكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: 8)، وقال:﴿ فَلَعَلَّكَ بَـاخِعٌ نَفْسَـكَ عَلَى آثَـارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُـوا بِهَـذَا الْحَـدِيثِ أَسَـفاً ﴾ (الكهـف:6)، وقـال:﴿ لَعَلَّكَ بَـاخِعٌ نَفْسَـكَ أَلَّا يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:3)

ولـذلك يـأمر تعـالى بالتسـليم للـه في أمـر هدايـة الخلـق

(1) رواه مسلم (220)

وإضلالهم بعد القيام بالأسباب المشروعة، قال تعالى: أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً (الرعد: 31) أي: ألم ييأس الذين آمنوا من إيمان جميع الخلق ويتبينوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا.

بل إن رؤية المؤمن لانتشار الضلالة تجعله يحمد الله تعالى، ويتوجه إليه بالشكر العميق نتيجة المن عليه واصطفائه بالهداية، كما قال تعالى مخبرا عن مقالة المؤمنين لأقوامهم: قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا الله (الأنعام: 71)، وقال: وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (ابراهيم:12)، وقال تعالى مخبرا عن مقالة أهل الجنة بعد دخولها: الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا الله (الأعراف: 43)

أما الغافلون عن هذه الحقائق، فهم الذين يمنون على الله بإيمانهم، وبالتالي يطالبون بالجزاء على هذا الإيمان، وقد قال تعالى مخبرا عنهم ورادا عليهم: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (الحجرات:17)

وفوق ذلك كله، فإن المؤمن بهذه المعاني تجعله يلجأ إلى الله، ويفر إليه في كل ما اشتد على نفسه قبوله أو الإذعان له؛ فيسأله أن يهديه سواء السبيل، ويريه الحق حقا، ويرزقه اتباعه..

ولذلك تمتلئ الأدعية الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أئمة الهدى بهذه المعاني، ومن الأمثلة عنها ما ورد في دعاء رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: (اللهم أصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)(1)

وكان يقول:(اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي كلها، اللهم أنعشني واجبرني واهدني لصالح الأعمال والأخلاق، فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرف سيئها إلا أنت)(2)

وأوصى عليا بأنه يقول:(اللهم اهدني، وسددني)، وعلمه ما يستشعره أثناء هذا الدعاء، فقال:(واذكر بالهدى هدايتك

---

(1) رواه الطبراني في الكبير، والحاكم.
(2) رواه الطبراني في الكبير.

الطريق، وبالسداد سداد السهم)[1]

ومن أدعيـة الإمـام السـجاد قولـه في [مناجـاة المطيعين لله]: (اللهم ألهمنا طاعتك، وجنبنا معصيتك، ويسر لنـا بلـوغ مـا نتمنى من ابتغاء رضوانك، وأحللنـا بحبوحـة جنانـك، واقشـع عن بصـائرنا سـحاب الارتيـاب، واكشـف عن قلوبنـا أغشـية المريـة والحجـــاب، وأزهـــق الباطـــل عن ضـــمآئرنا، وأثبت الحـــق في سرائرنا، فإن الشكوك والظنـون لـواقح الفتن، ومكـدرة لصـفو المنـآئح والمنن.. اللهم احملنـا في سـفن نجاتـك، ومتعنـا بلذيـذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودك وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنـا بـــك ولـــك، ولا وســـيلة لنـــا إليـــك إلا أنت.. إلهي اجعلـــني من المصطفين الاخيار، وألحقني بالصـالحين الابـرار، السـابقين إلى المكرمـــات، المســـارعين إلى الخـــيرات، العـــاملين للباقيـــات الصالحات، الساعين إلى رفيـع الـدرجات، إنـك على كـل شـيء قدير، وبالاجابة جدير برحمتك يا أرحم الراحمين) [2]

وقوله في [مناجاة المريدين]: (سبحانك ما أضـيق الطـرق على من لم تكن دليله، وما أوضح الحق عند من هديته سـبيله.. إلهي فاسلك بنا سبل الوصول إليك، وسيرنا في أقـرب الطـرق للوفود عليك، قرب علينا البعيد، وسهل علينـا العسـير الشـديد، وألحقنا بعبادك الـذين هم بالبـدار إليـك يسـارعون، وبابـك على الـدوام يطرقـون، وإيـاك في الليـل والنهـار يعبـدون، وهم من هيبتـــك مشـــفقون، الـــذين صـــفيت لهم المشـــارب، وبلغتهم الرغـــآئب، وأنجحت لهم المطـــالب، وقضـــيت لهم من فضـــلك المـآرب، وملات لهم ضـمائرهم من حبـك ورويتهم من صـافي شربك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا، ومنك أقصـى مقاصـدهم حصلوا، فيا من هو على المقبلين عليه مقبـل، وبـالعطف عليهم عآئد مفضل، وبالغـافلين عن ذكـره رحيم رؤوف، وبجـذبهم إلى بابه ودود عطوف، أسألك أن تجعلـني من أوفـرهم منـك حظـا، وأعلاهم عندك مـنزلا، وأجـزلهم من ودك قسـما، وأفضـلهم في معرفتـك نصـيبا، فقـد انقطعت إليـك همـتي، وانصـرفت نحـوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سـهري وسـهادي)

1() رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

2() الصحيفة السجادية (291)

[1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تتحقـق بأسـباب الهدايـة لتحـل عليـك أنوارهـا، وأول أسـبابها تواضـعك للحـق والحقيقـة، وتسـليمك لأهلهـا، وعـدم جـدلك أو مشـــاغبتك، فهي من أعظم الحجب الــتي تحــول بينــك وبين التحقق بالهداية.

1() الصحيفة السجادية (292)

النفع والضرر

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عما ورد في النصوص المقدسة من الدلالة على كون الله تعالى هو وحده النافع الضار، وكل نفع أو ضر لا يكون إلا منه، وبإذنه، وعن علاقة ذلك بالعدالة والرحمة الإلهية، وعلاقته بعد ذلك وقبله بالنفس المطمئنة الراضية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن هذه المعرفة من المعارف الضرورية للنفس المطمئنة، وأنها سبب من أسباب طمأنينتها ورضاها، وذلك يعود إلى ما ذكرت لك من أن الأساس الأكبر للطمأنينة والرضا هو اعتقاد تفرد الله تعالى بكل شيء في كونه، وما دام النفع والضر مرتبط بالتدبيرات الكونية؛ فالله تعالى هو المتفرد بتدبيرهما.

وذلك لا يعني عدم وجود علاقة لعباده بذلك.. بل لهم علاقة كبيرة، ذلك أن النفع والضر مثلهما مثل الهداية والضلال، أو التوفيق والخذلان، أو الخفض والرفع، كلها لها أسبابها المرتبطة بأعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: 41]

فالله تعالى أخبر في الآية الكريمة أنه هو من يذيق عباده جرائر أعمالهم، لكنه أخبر في نفس الوقت عن سبب ذلك، وهو أهليتهم وقابليتهم لذلك الضر الذي نزل بهم، وكان في إمكانهم تحويله إلى نفع لو أنهم لم يفسدوا.

وهذه المعرفة ــ أيها المريد الصادق ــ هي وحدها من يُكسب النفس طمأنينتها ورضاها، ذلك أنها تعلم أن الأمر كله لله؛ فلذلك توحّد مشاعرها جميعا نحوه، ولو أنها اعتقدت أن النفع منه والضرر من غيره، لتشتت بين إرضاء من يملك النفع، أو من يملك الضر، وذلك ما يجعلها منقسمة على نفسها، لأنها إن أرضت جهة أسخطت غيرها.

ولذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: (واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا

بشيء قد كتبه اللّه عليك)[1]

وهـذا الاعتقـاد ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ هـو الـذي يجعـل المؤمن قويا شجاعا لا يخـاف في سـبيل الحـق الـذي يحملـه أو ينتصر له لومة لائم، ولذلك أخبر الله تعـالى عن مقالـة إبـراهيم عليه السلام لقومه في عزة المؤمن عندما خوفـوه بكـل ألـوان التخويف، حيث قال: أَتُحَاجُّونِّي فِي الله وَقَـدْ هَـدَانِ وَلا أَخَـافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمـاً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (الأنعام: 80)

ثم عقب بعدها بسر الأمن النفسي العظيم الذي واجـه بـه كل تلك المخاوف بقوله: وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَـافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَـأَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (الأنعام:81)

ومثله مقالة نبي اللّه هود عليه السلام لقومه عنـدما قـالوا له: يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِـكَ وَمَـا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوء (هود: 53 ـ 54)، فرد عليهم: إِنِّي أُشْهِدُ الله وَاشْهَدُوا أَنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِـهِ فَكِيـدُونِي جَمِيعـاً ثُمَّ لا تُنْظِـرُونِ إِنِّي تَـوَكَّلْتُ عَلَى اللـه رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَـا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُـوَ آخِـذٌ بِنَاصِـيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (هود:من الآية:54 ـ 56)

ولهذا يتردد في القرآن الكريم الإخبار بأن النفع والضر بيـد الله، ورهن مشيئته، حتى يقرر في النفس التوحيد المطلـق؛ فلا ترجع لغير اللـه، ولا ترجـو ولا تخـاف غـيره، يقـول تعـالى آمـرا رسول الله ﷺ: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَـرّاً إِلَّا مَـا شَـاءَ اللـه وَلَـوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْـتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْـرِ وَمَـا مَسَّـنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف:188)

ودعا رسول الله أن يقول لقومه: لا أَمْلِكُ لِنَفْسِـي ضَـرّاً وَلا نَفْعـاً إِلَّا مَـا شَـاءَ اللـه لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ إِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (يونس:49)

ويخـبر اللـه تعـالى أن هـذه المشـيئة المطلقـة في الضـر والنفع هي من مقتضيات الألوهية، قال تعالى: قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَالله هُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (المائدة:76) أي لا يقـدر على دفـع ضـر عنكم، ولا إيصـال نفـع إليكم.

1() رواه الترمذي والحاكم.

ولهذا يخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن مشيئته تعالى قادرة على أن ترزقه من الخير في الدنيا ما يحولها إلى جنة في ناظريه، قال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (الفرقان:10)

وفي نفس الوقت يملؤنا بمعاني التوحيد حين لا نرى الضر والنفع إلا من الله، قال تعالى: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (يونس:107)

ولهذا كان من أسماء الله الحسنى المقترنة ببعضها (النافع الضار)، وهما اسمان متعلقان بجميع ما يصدر في الكون مما يسمى نفعا أو ضرا، سواء نُسب ذلك إلى الله مباشرة أو نُسب للملائكة أو الإنس أو الجمادات، فمشيئة الله تعالى وراء كل ذلك، وقد قال بعض الحكماء معبرا عن هذا المعنى: (فلا تظنن أن السم يقتل ويضر بنفسه، وأن الطعام يشبع وينفع بنفسه، وأن الملك والإنسان والشيطان أو شيئا من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضر بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر منها إلا ما سخرت له)(1)

وما نراه من نفع أو ضار صادر من الأشياء، فنتوهمه منها وبها، فننحني شكرا لها، أو نتنحى هيبة منها وهم كبير أفرزته الغفلة عن مشيئة الله، فكل ما نراه (بالإضافة إلى القدرة الأزلية كالقلم بالإضافة إلى الكاتب في اعتقاد العامي، وكما أن السلطان إذا وقع بكرامة أو عقوبة لم ير ضرر ذلك ولا نفعه من القلم، بل من الذي القلم مسخر له، فكذلك سائر الوسائط والأسباب)

بل إن الغافل هو الذي يرى القلم مسخرا للكاتب، أما العارف فيعلم أن الكل مسخر بيد الله ومشيئته الكاتب والقلم وسائر الأسباب والوسائط.

إذا علمت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاحذر من أن تسمي الله تعالى باسم [الضار]، مجردا عن اسمه [النافع]، فيستحيل على الله تعالى خلق الشر المجرد، أو أن يكون ضارا بخلقه، وكيف يكون ذلك، وهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

1() المقصد الأسنى: 145.

فلذلك كان كل ما نراه ضررا أو شرا صادرا منه ممتلئا برحمات كثيرة تغيب عنا حقائقها، فيكون حالنا كحال من يرى الطبيب الجراح، وهو يقوم بتمزيق جسد المريض، فيتوهم أنه يعذبه بذلك، ولا يعلم أنه يداويه به.

وأول تلك الرحمات تمييز مراتب الخلق في هذه النشأة حتى لا يختلط الطيب بالخبيث، والصالح بالمفسد، وذلك أن الله تعالى جعل بحكمته هذه الدار محلا لاختبار عباده، لينزل كل واحد منهم ـ في النشأة الآخرة ـ المحل الذي ينسجم مع طبيعته، وتبرزه أهليته.

فلذلك كان ذلك الضرر البسيط المحدود المتنزل على الخلق نوعا من الاختبار لطبائعهم وما تكنه صدورهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ الله الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال:37)، وقال:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:142)،ـ وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ الله وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:16)

وقد أشار بعض الحكماء إلى هذا المعنى حين دخل عليه جماعة يزورونه، فجمع بين يديه حجارة، ثم قال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال: ما بالكم ادعيتم محبتي، إن صدقتم فاصبروا على بلائي.

وقال آخر: كنت نائما عند بعض الصالحين، فانبهني فقال لي: (يا فلان، رأيت كأني قد وقفت بين يدي الله تعالى فقال لي: خلقت الخلق فكلهم ادعى محبتي، وخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم، وبقي معي العشر، وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، وبقي معي عشر العشر، فسلطت عليهم ذرة من البلاء، فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر، فقلت للباقين: معي، لا الدنيا اردتم، ولا الجنة أخذتم ولا من النار هربتم، فماذا تريدون، قالوا: إنك تعلم ما نريد، فقلت لهم: فإني مسلط عليكم من البلاء بعدد انفاسكم ما لا تقوم له الجبال الرواسي اتصبرون؟ قالوا: اذا كنت انت المبتلي لنا، فافعل ما شئت فهؤلاء عبادي حقا)

وقال آخر: (الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل

بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المـؤمن إلى إيمانـه، وصـار المنافق إلى نفاقه)

وبنـاء على هـذا يخبرنـا القـرآن الكـريم عن المواقـف المختلفـة من أنـواع البلاء، وتميـيز الخلـق على أساسـها، ففي موقـف الخـوف مثلا يخـبر تعـالى عن صـنفين من النـاس: أمـا الأول، وهو النـاجح في الاختبـار، فيـذكر وقوفـه كـالطود الأشـمّ أمـام كـل المخـاوف، قـال تعـالى: الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَـزَادَهُمْ إِيمَانـاً وَقَـالُوا حَسْـبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران:173)

وأما غيرهم من الجبناء الساقطين في الاختبـار، فقـد قـال تعـالى في شـأنهم: فَتَـرَى الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ يُسَـارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ (المائدة:52)

وقد أخبر تعالى عن الناجحين في الاختبـار بأنـه من المنعم عليهم، قـال تعـالى: قَـالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَـافُونَ أَنْعَمَ اللـه عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَـإِذَا دَخَلْتُمُـوهُ فَـإِنَّكُمْ غَـالِبُونَ وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (المائدة:23)

وهذا في مقابلة الساقطين الجبناء الذين قالوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَـا قَوْمـاً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَـدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُـوا مِنْهَـا فَـإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (المائدة:22)، وقالوا بكـل تبجح: يَـا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (المائدة:24)

وهكذا في كل المواقف، نجد المؤمنين الصادقين الناجحين فيما أنعم بـه عليهم من البلاء، ونجـد الراسـبين السـاقطين في الامتحان الذين قـال تعـالى في شـأنهم: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ الله عَلَى حَرْفٍ فَـإِنْ أَصَـابَهُ خَيْـرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِـرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ ذَلِـكَ هُـوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ (الحج:11)

فهذا الخاسر لا يعبد اللـه في الحقيقـة وإنمـا يعبـد أهـواءه التي قد تتفق أحيانا مع ما يأمر به الله، فيتوهم الخلق أنـه يعبـد الله، فلذلك يبتلى بما يظهر حقيقته، ويكشف عن سريرته.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن ذلـك البلاء المحدود الذي قد ينزله الله على عبـاده، يسـتبطن خـيرا كثـيرا، فهو ضرر في ظـاهره، لكنـه نفـع ونعمـة في باطنـه، ولهـذا ورد الأمر بتبشير الصابرين، والبشارة لا تكون إلا على نعمة وفضـل،

قال تعالى: وَلَنَبلُوَنكُم بِشَيء منَ الخَوف وَالجُوعِ وَنَقصٍ منَ الأمَوَالِ وَالأنفُس وَالثمَراتِ وَبَشرِ الصابِرِينَ الذِينَ إِذَا أَصَابَتهُم مصِيبَةٌ قَالُوا إِنا لِلهِ وَإِنا إِلَيهِ راجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيهم صَلَواتٌ من ربهِم وَرَحمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهتَدُونَ (البقرة:155-157)

ولهذا ذكر الله تعالى كثرة الخير المخزن في طيات ما نكره، فقال: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء:19)، وقد قال بعضهم تعليقا على الآية: (لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك)

ولهذا بشر ﷺ المبتلين بأنهم سيكونون موضع غبطة الخلق يوم القيامة عندما يعاينون ما أعد الله لهم من جزاء، فقال: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)[1]

وهذا ما جعل أصحاب النفوس المطمئنة الراضية ينشغلون بالمكاسب المرتبطة بما ينزل بهم، بدل الانشغال بالآلام التي تعرض لهم، وقد روي أن بعضهم راح يعدد المعاني الجمالية المصبوبة في قوالب البلاء، فقال: (إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني)

وروي عن بعض الصالحين أنه برىء من علة كان فيها، فجلس للناس، وهنؤوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم، قال: (إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد، الخيار)

ومن تلك النعم التي يراها أصحاب النفوس المطمئنة، والتي يحجب عنها المعترضون على الله من أصحاب النفوس الأمارة، [نعمة التأديب]، وهي التي أشار إليها قوله تعالى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (الانبياء:87)، فقد جعل الله تعالى ذلك البلاء الذي حل بيونس عليه السلام مؤدبا له، وزاجرا عما وقع فيه.

1() الترمذي رقم (2403)

ومثـل ذلـك مـا حصـل لآدم عليـه السـلام من أكلـه من الشجرة بعد أن نهي عنها.. فقد ابتلي ليـؤدب أمـام أوامـر ربـه، وليعرف مـدى عـداوة الشـيطان لـه، فكـان ظـاهر بلائـه نقمـة، وباطنـه رحمـة، قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَـا الشَّـجَرَةَ بَـدَتْ لَهُمَـا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَـا رَبُّهُمَـا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف:22)

ولو أن ذلك الخروج كان نهائيا من الجنة بحيث يستحيل أن يعود إليها، كان ضررا محضا، ولكنه عندما أتيح له أن يعـود إليهـا بعد تحققه بالشروط التي تستلزمها، كان نفعا محضا، وقد قـال بعض الحكمـاء على لسـان الحضـرة الإلهيـة مخاطبـا آدم عليـه السلام، يبين النعم المختفية وراء العقوبة: (يـا آدم لا تجـزع من قولي لك:﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (الأعـراف:24)، فلـك ولصالح ذريتك خلقتها.. يـا آدم كنت تـدخل علي دخـول الملـوك على الملوك، واليوم تدخل علي دخول العبيد على الملـوك.. يـا آدم لا تجزع من قولي لك:﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَـيْئاً وَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُم﴾ (البقرة:216)[1]

ولهذا ورد في النصوص المقدسة الإخبار بابتلاء الله لعبـاده بسبب الذنوب التي يقعون فيها، وهـو ابتلاء يشـبه تمامـا تقريـع المعلم لتلميذه رادعا له ومؤديا، وقد قال تعـالى:﴿ وَمَـا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:30)، فالآية الكريمة تبيّن بوضوح أن المصـائب الـتي تصـيب الإنسـان هي نـوع من التحـذير والعقـاب الإلهي إلا مـا كـان من البلاء المتعلق بالمقربين من الأنبياء والصديقين، فله نواح أخـرى غـير هذا.

وقد روي أنه لما نزلت هـذه الآيـة قـال النـبي ﷺ: (مـا من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبـة حجـر إلا بـذنب ولمـا يعفـو الله عنه أكثر)[2]

ولهذا، فإن أصـحاب النفـوس المطمئنـة يمتلئـون سـرورا، وهم يوقنون هذا المعنى، ذلك أنهم يلاحظون عنايـة اللـه تعـالى بهم، وتأديبه لهم، وقد ورد في الحديث الإشـارة إلى ذلـك، فعن الإمام علي أنه قال: (ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا

1() الفوائد:35.
2() ابن عساكر.

بهـا النـبي ﷺ: ﴿ وَمَـا أَصَـابَكُمْ مِنْ مُصِـيبَةٍ فَبِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى:30)، ثم قـال: (يـا علي مـا أصـابكم من مرض أوعقوبة أوبلاء في الدنيا فبما كسـبت أيـديكم، واللـه أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخـرة ومـا عفـا عنـه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه)[1]

وقد شاءت حكمة الله وعدله وتربيته لعباده ألا يــنزل البلاء على الأفراد فقط، بل هو يعدوها إلى المجتمعـات لينبههـا حـتى تعود إلى ربها وتتأدب بين يديـه، ويشـير إلى هـذا المعـنى قولـه تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ بِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلهمْ يَرْجِعُـونَ﴾ (الـروم:41)، وهـذا يدل على كون هذا سنة اجتماعية.

وفي قوله تعالى:﴿ لَعَلهمْ يَرْجِعُونَ ﴾ تنبيه إلى أن العلة في ذلك ليس الانتقام وإنما التأديب، فـ ﴿ مَا يَفْعَلُ الله بِعَــذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ الله شَاكِراً عَلِيماً﴾ (النساء: 147)

ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿ ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللـهِ لَمْ يَـكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِـهِمْ وَأَنَّ اللـه سَـمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفـال:53)، وقولـه:﴿ إِنَّ اللــه لا يُغَيِّرُ مَـا بِقَــوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11)

وقد عبر عن هذا بعض الحكماء، فقـال: (المحن آداب اللـه عز وجل لخلقه، وتأديب الله بفتح القلوب، والأسماع، والأبصار)

وكتب آخر إلى صديق له في محنة لحقته: (إن اللـه تعـالى ليمتحن العبد، ليكثر التواضع له، والاسـتعانة بـه، ويجـدد الشـكر على ما يوليه من كفايته، ويأخذ بيده في شــدته، لأن دوام النعم والعافية، يبطران الإنسان، حتى يعجب بنفسه، ويعـدل عن ذكـر ربه)

وقد قال الشاعر معبرا عن ذلك:

لا يترك اللّه عبداً ... ممن يؤدّبه أو من

[illegible]

أو نعمة تقتضي ... أو نقمة حين ينسى

[illegible]

ومن تلـك النعم الـتي يراهـا أصـحاب النفـوس المطمئنـة، ويحجب عنها أصـحاب النفـوس الأمـارة، [نعمـة التـذكير]، وهي التي أشار إليها قولـه تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَـا يَتَـذَكَّرُ فِيـهِ مَنْ

1() أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً، ورواه مرفوعاً من وجه آخر.

تَذَكَّرَ وَجَـاءَكُمُ النَّذِيرُ (فـاطر:37)، فمن الأقـوال في تفسـيرها أن المراد بالنذر الأمراض.

وقد ورد في بعض الآثار: (الحمى رائد الموت، وسجن الله في الأرض)[1]

وروي أن بعض الأنبيـاء عليهم السـلام قـال لملـك المـوت عليه السلام: أمالك رسول تقدمه بين يديك ليكـون النـاس على حـذر منـك؟ قـال: (نعم، لي واللـه رسـل كثـيرة من الإعلال والأمـراض والشـيب والهمـوم وتغـير السـمع والبصـر، فـإذا لم يتذكر من نزل به ولم يتب، فإذا قبضـته ناديتـه: ألم أقـدم إليـك رسولاً بعد رسول ونـذيراً بعـد نـذير؟ فأنـا الرسـول الـذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الـذي ليس بعـدي نـذير، فمـا من يـوم تطلع فيـه شـمس ولا تغـرب إلا وملـك المـوت ينـادي: يـا أبنـاء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد، أذهانكم حاضرة وأعضاؤكم قويـة شداد. يا أبناء الخمسين قـد دنـا وقت الأخـذ والحصـاد، يـا أبنـاء السـتين نسـيتم العقـاب وغفلتم عن رد الجـواب فمـا لكم من نصير: أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَـا يَتَـذَكَّرُ فِيـهِ مَنْ تَـذَكَّرَ وَجَـاءَكُمُ النَّذِيرُ (فاطر:37))[2]

وكـل هـذه المعـاني تجعـل المـؤمن الكيّس الفطن الحـذر على دينـه ومسـتقبله الحقيقي يسـارع إلى المبـادرة بالأعمـال الصالحة، قبل أن يفوت الأوان..

وليس ذلك فقط، بـل إن البلاء في صـوره المؤلمـة يجعـل صـاحبه يقلـع عمـا هـو فيـه من الغي، فلا يلقى اللـه وهـو في سـكرات غيـه، وقـد قـال بعض الحكمـاء معـبرا عن ذلـك: (إن الشيخوخة والمرض والبلاء، وما يحدث من وفيـات هنـا وهنـاك، تقطّـر ذلـك الألم المريـر إلى نفس كـل إنسـان، وتُنـذره دومـاً بمصيره المحتوم، فلا جرم أن أولئك الضالين وأربـاب السـفاهة والمجون سيتأجج في قلوبهم جحيمٌ معنوي، يعذبهم بلظاه حـتى لو تمتعوا بمباهج الدنيا ولذائذها، بيد أن الغفلة وحـدها هي الـتي تحول دون استشعارهم ذلك العذاب الأليم)[3]

وقال ـ يخاطب مريضا متألمـا يـذكره بـالكنوز المخبـأة في طيـات المـرض ــ: (أيهـا المسـكين الشـاكي من المـرض! إن

1() ابن السني وأبو نعيم في الطب.
2() ذكره ابن الجوزي في كتاب:(روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق)
3() الكلمات، النورسي، ص: 158.

المرض يغدو كنزاً عظيماً لبعض الناس، وهدية إلهية ثمينة لهم.. وباستطاعة كل مريض أن يتصور مرضه من هذا النوع، حيث أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الأجلُ مجهولاً وقته، إنقاذاً للإنسان من اليأس المطلق أو من الغفلة المطلقة، وإبقاءاً له بين الخوف والرجاء، حفظاً لدنياه وآخرته من السقوط في هاوية الخسران.. أي أن الأجل متوقع مجيئه كل حين، فإن تمكّن من الإنسان وهو سادر في غفلته يكّبده خسائر فادحة في حياته الأخروية الأبدية. فالمرض يبدد تلك الغفلة ويشتتها، وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر الموت في الذهن فيتأهب له. بل يحدث أن يربّحه ربحاً عظيماً، فيفوز خلال عشرين يوماً بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة[1]

ومن تلك النعم التي يراها أصحاب النفوس المطمئنة، ويحجب عنها أصحاب النفوس الأمارة، [نعمة الافتقار]، وهي التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:6 ـ 7)، فقد أخبر تعالى بأن رؤية الإنسان لغناه، تجعله طاغية ظالما متعديا لحدوده.

ولذلك يكون الافتقار، وكل ما يؤدي إليه نعمة من النعم تخلص الإنسان من الطغيان، وتعيده إلى وضعه الطبيعي.

وهذا ما تشير إليه آيات كثيرة في القرآن الكريم، فالله تعالى يقول، وهو يبين سنة اجتماعية لا تكاد تتخلف: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (الشورى:27)

وهذا ما يدل عليه الواقع.. فهم إن عاشوا الترف نسوا الخالق والمخلوق.. وظلموا وبغوا، كما عبر عن ذلك بعض الحكماء، فقال: (الإنسان متكبر بالطبع، فإذا وجد الغنى والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصلية وهو التكبر، وإذا وقع في شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد إلى الطاعة والتواضع)[2]

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن من العقوبة التي تنزل على عباد الله الغافلين أن تفتح عليهم زهرة الدنيا، ويفاض عليهم نعيمها، قال تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام:44)

1() اللمعات، النورسي، 326، بتصرف.

2() التفسير الكبير.

ويروى في هذا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم)، ثم تلا قوله تعالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (الأنعام:44))[1]

ولهذا، فإن المتوسمين من عباد الله يستدلون بوجود الفاقات على قرب الصدقات، لأن الفاقة تحقق صاحبها بالافتقار، والافتقار يؤهل صاحبه للفضل، وقد أشار بعض الحكماء إلى هذا فقال: (خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلى وجود ذِلتك)

وقال: (فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض)

ولهذه الآثار الجميلة التي يحدثها البلاء في النفس، ومع الله، ومع المجتمع، كان الحمد لله والشكر له يخرج من أفواه الصالحين غضا طريا مشفوعا بالشعور بالمنة لاعتقادهم أن الله ما ابتلاهم ليعذبهم، وإنما ابتلاهم ليخلصهم من أوزار نفوسهم، وليجعلهم أهلا له، وقد روي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: (إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغني مقبلا إليك فقل: ذنب عجلت عقوبته)[2]

وكان بعضهم إذا اشتد مرضه وجوعه يقول: (إلهي ابتليتني بالمرض والجوع، وكذلك تفعل بأوليائك، فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به علي)

وكان آخر يقول: (إلهي أجعتني، وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح، وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك؟)

وسر ذلك هو خوف الصالحين من الاستدراج بالنعيم، كما قال قائلهم: (والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه. وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه)

1() ابن أبي حاتم.

2() وهذا ـ طبعا ـ ليس على عمومه، بل له محله الخاص، وقد ذكرنا المعنى الصحيح لهذا الخبر في رسالة (كنوز الفقراء)

بل هذا ما صرح به ﷺ في قوله: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)(3)

هذه بعض نعم الله المختزنة في طي بلائه.. والتي يراها المؤمنون نعما يفرحون بها، ولا يحزنون لها، بينما يراها الغافلون شرا محضا، ويتهمون الله بسببها، أو قد يشركون به، فيتوهمون أنها من غيره، وكأن للكون إلهين: إله يدير خيره، وآخر يدير شره.

هذا جوابي على رسالتك ـ أيها المريد الصادق ــ فأحسن ظنك بربك، واعلم أنه لا يريد لك إلا الخير والصلاح، واعلم أن هناك عالما آخر غير هذا العالم لن ترى فيه إلا الخير المحض، والنفع الخالص، ولكن بشرط أن تتحقق بالأهلية التي تجعلك مستحقا لذلك الجزاء العظيم.

وأول ذلك أن تصفي نفسك، وتسلم قلبك لربك، ولا تدع فيه محلا للشر، ولا للضر؛ فإن الخير المحض، والنفع الخالص، لا تناله إلا القلوب السليمة الصافية الخالصة الخالية من كل كدر.

3() أحمد والترمذي وابن ماجة عن عمرو بن عوف.

الخفض والرفع

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن إدارة الله تعالى لشؤون الخفض والرفع، والعزة والذلة، والجاه والخمول، وأسرارها، ومعارفها، وأثرها في النفس المطمئنة، وسر علاقتها برضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن من الأسس التي تقوم عليها ملكية الله تعالى لكونه ومالكيته له انفراده بما ذكرت من الخفض والرفع، والعزة والذلة.. فهو وحده من يخفض، ووحده من يرفع، ووحده من يذل، ووحده من يعز.. لا شريك له في ذلك.

ولذلك كان من أسماء الله تعالى الحسنى اسم (الخافض الرافع)، وهو من الأسماء المركبة، ويعني أو يعنيان جميعا أن الله تعالى هو المتفرد بالخفض والرفع، فيرفع من يشاء ويضع من يشاء، ومثله في الدلالة الاسم الكريم (المعز المذل) أي أن الله هو الذي يعز من يشاء، وهو الذي يذل من شاء.

وقد صرحت بمقتضيات ذينك الاسمين الكثير من النصوص المقدسة، كقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:26)

وقد أخبر رسول ﷺ أن في هذه الآية:(اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى)[1]، وفي ذلك إشارة إلى أن من أدرك مالكية الله للملك، وما يترتب على ذلك من طلاقة مشيئته في الرفع والخفض والإعزاز والإذلال، وانفراده بذلك سيحرر المؤمن من كل توجه إلى غير الله، وهذا التحرر هو نفسه اليقين الذي تستجاب به الدعوة.

والآية الكريمة لا تعني ما يفهمه بعض حماة الاستبداد والظلم من أن الملوك الذين يتربعون على العروش، ويتسلطون على الخلق واجبو الطاعة، ولا يجوز نصحهم أو الخروج عليهم.. فالآية الكريمة لا تذكر ذلك، ومعاذ الله أن تقر الظلم والاستبداد أو السكوت عليه، وإنما هي تخبر عن الإرادة الإلهية التي لولاها ما تمكن الملوك من تلك المناصب التي

(1) رواه الطبراني.

اســتولوا عليهــا؛ فهم لم يســتولوا عليهــا مراغمــة على اللــه، وتعجــيزا لــه، وإنمــا لأن اللــه تعـالى أذن في ذلــك اختبـارا لهم ولرعيتهم.

ولــذلك؛ فــإن كــل خفض أو رفــع لا يكــون على أســاس الموازين الإلهية، ليس سـوى مرحلـة مؤقتـة مرتبطـة بالاختبـار الإلهي، وليست حالة دائمة، كما صرح بذلك قوله تعـالى: ﴿وَهُـوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَـعَ بَعْضَـكُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَـابِ وَإِنَّهُ لَغَفُـورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام:165)

فقـــد أخـــبر اللـــه تعـــالى أن الـــدرجات المهيمنـــة على المجتمعـات، هي من جعـل اللـه تعـالى وإنشـائه، لا باعتبارهـا صـوابا محضـا، لا يجـوز الخـروج عليـه، وإنمـا باعتبارهـا ابتلاء واختبارا إلهيا.

ولذلك أخبر الله تعالى عن خروج الأنبياء عن تلك المـراتب الــتي وضـعها أقــوامهم؛ فخفضــوا بهـا من شـاءوا ورفعــوا من شـاءوا.. ووضـع الأنبيـاء عليهم السـلام بـدلها المـراتب الإلهيـة الصحيحة، والتي تعبر عن الواقع بدون تزييف.

ومن الأمثلة على ذلك ما أجاب به نوح عليه السـلام قومـه حين احتقروا المؤمنين الذين اتبعوه، وقالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَـرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الـرَّأْيِ وَمَـا نَـرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هـود: 27]؛ فـرد عليهم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا بِطَـارِدِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّهُمْ مُلَاقُـو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَـاقَوْمِ مَنْ يَنْصُـرُنِي مِنَ اللَـه إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: 29، 30]، وقـال: ﴿وَلَا أَقُـولُ لِلَّذِينَ تَـزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُـؤْتِيَهُمُ اللـه خَيْـرًا اللـه أَعْلَمُ بِمَـا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: 31]

وهذا الجواب الأخير يشير إلى أن حقيقة الخفض والرفع لا ترتبط بالمناصب، ولا بالجاه الذي يتعبها، وإنما بما يعمر الأنفس من معان، فلذلك أخبر نوح عليـه السـلام، أنـه لا يعـرف مـا في نفوس أتباعه، وسر اصطفاء الله تعالى لهم.

ومن الآيات الكريمة التي تشير إلى الموازين البديلـة الـتي اختارها البشر لأنفسهم في مقابل الموازين الإلهية ما نص عليه قوله تعالى في أدلـة المعترضـين على رسـالة رسـول اللـه ﷺ، والذين قالوا: ﴿ لَـوْلا نُـزِّلَ هَـذَا الْقُـرْآنُ عَلَى رَجُـلٍ مِنَ الْقَـرْيَتَيْنِ

عَظِيمٍ (الزخرف: 31)، فرد الله تعالى عليهم بأنه وحده من يملك تقسيم الدرجات، كما يملك تقسيم المعايش، قال تعالى: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (الزخرف:32)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن معرفتك بكون الله تعالى هو الخافض الرافع، ليست معرفة عقدية إيمانية فقط، وإنما لها آثارها النفسية والاجتماعية، وأولها أن تخضع موازين الخفض والرفع والعزة والذلة في نفسك لربك، لا لمجتمعك، ولا للأعراف التي تبناها.

فإذا سمعت ربك يقول: يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: 13]، فاعلم أن التقوى هي أساس الرفعة والعزة والكرامة.. فإذا استبدلت هذا الميزان، بموازين الأنساب التي وضعها البشر لأنفسهم، تكون قد أشركت بربك، لأنك توهمت أن لغيره القدرة على خفض من رفع، أو رفع من خفض.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ ما يشير إلى خطورة الركون لموازين البشر، وترك موازين الله، قال ﷺ: (إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي: ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم؛ فأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان خير من فلان بن فلان؛ فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون) (1)

ولهذا كان رسول الله ﷺ يحذر في كل المناسبات من ترك موازين الله، والعودة إلى موازين الجاهلية، فقد روي في الحديث عن جابر، قال: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: (يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ (الحجرات: 13)، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (فليبلغ الشاهد الغائب) (2)

1() قال المنذري: رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعا وموقوفا وقال المحفوظ الموقوف، الترغيب والترهيب: 3/ 375.

2() المعجم الكبير:18/ 12، شعب الإيمان:4/ 289.

وقـال في حـديث آخـر محـذرا: (إن اللـه عـز وجـل أذهب عنكم عبيـة الجاهليـة وفخرهـا بالآبـاء، النـاس بنـو آدم وآدم من تراب مؤمن تقي وفاجر شقي، لينتهين أقـوام يفتخـرون برجـال إنمـا هم فحم من فحم جهنم أو ليكـونن أهـون على اللـه من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها) (1)

وقال ﷺ: (أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحـدكم، كلكم بنـو آدم ليس لأحـد على أحـد فضـل الا بالـدين أو تقـوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا) (2)

واعلم ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بعـد هـذا أن اللـه تعـالى يختبرك بالصادقين من عباده، والذين أمر بتكـريمهم وإعـزازهم ورفعهم، فإن عاملتهم بخلاف ما أمرك به سقطت في الاختبـار، بل أذنت لنفسك بأن تكون في مواجهة الله تعالى.

بل أذنت لنفسك أن تتشبه بإبليس، الذي اختبره الله تعالى بتكريم آدم عليه السلام، بـل السـجود تعظيمـا لـه؛ فـأبى إلا أن يعظم نفسه، ويسـجد لهـا، وهـو مـا جعلـه يسـقط في الاختبـار سقوطا مريعا، ويكون بذلك إماما لكـل من راح يخفض مـا أمـر الله برفعه، ويهين ما أمر الله بتكريمه.

ومن متبعيه في ذلك أولئك النفر من بـني إسـرائيل الـذين عارضـوا مـا اختـاره لهم ربهم ونـبيهم ليكـون عليهم ملكـا، بالموازين التي وضعوها لأنفسهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَـالُوتَ مَلِكـاً قَـالُوا أَنَّى يَكُـونُ لَـهُ الْمُلْـكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَـعَةً مِنَ الْمَـالِ قَـالَ إِنَّ الله اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:247)

ولهذا كان كل ما حصل للأمم من البلاء بعد أنبيائها، بسـبب وقوعها في هـذا النـوع من الاختبـار، حيث تـركت مـوازين اللـه تعالى في الاختيار، ولجأت إلى الموازين التي وضـعتها لنفسـها، حسدا وكبرا، لتوهمهـا أن اللـه تعـالى وضـع المناصـب في غـير محالها، قال تعالى: ﴿كَـانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ اللـه النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِـالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيـهِ وَمَـا اخْتَلَـفَ فِيـهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُـوهُ مِنْ بَعْـدِ مَـا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ

(1) أحمد:2/ 523، شعب الإيمان:4/ 286.
(2) شعب الإيمان:4/ 292، مسند أحمد:4/ 158.

مِنَ الْحَـقِّ بِإِذْنِـهِ وَالله يَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ إلى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ [البقرة: 213]

وأخــبر أن دين اللــه واحــد، وأن الأنبيــاء كلهم كـانوا على الإسلام، ولكن الذي فرق الأديان، وأشاع الصراع بينها، هـو تلـك الفئة الباغية التي يتصور الناس أنها الفئة الوارثة للرسل، لكنهـا تخالف منهجهم خلافا جذريا، كمـا قـال تعـالى: إِنَّ الـدِّينَ عِنْـدَ الله الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ الله فَإِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَـابِ [آل عمران: 19]

وبـذلك وقـع الخلـق في اختلال المـوازين حيث رفعـوا من يجب خفضه، وخفضوا من يجب رفعه، وحـاربوا من يجب عليهم أن يســالموه، وســالموا من يجب عليهم أن يحــاربوه، وبــذلك وقعوا لا في حرب الأوليـاء فقـط، وإنمـا في حـرب اللـه تعـالى نفسه.

وقد ورد في الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (من عادى لي وليّا فقـد آذنتـه بـالحرب. ومـا تقـرّب إليّ عبـدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافـل حتّى أحبّـه، فـإذا أحببتـه كنت سـمعه الّـذي يسـمع بـه وبصره الّذي يبصر به ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشــي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنّه، ومــا تــردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنــا أكره مساءته)(1)

فهذا الحديث يشير كل حرف منـه إلى خطـورة الانحــراف عن موازين الله تعالى، واعتبار إهانة ولي الله إهانة لله نفسه.. فهو يذكر أن ذلك الولي الذي تقرب إلى الله تعالى، صار ربانيا، يسمع بالله، ويبصر بالله، ويفعل كل شيء بالله وللــه.. فإهانتــه أو إذيته إهانة لله نفسه.

ولهذا حل المقت بأولئك الـذين طلبـوا من رسـول اللـه ﷺ أن يطرد أولئك الصادقين الذين لم يريدوا بأعمـالهم ولا حيـاتهم إلا وجه الله تعالى، قال تعـالى: وَلَا تَطْـرُدِ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ وَمَــا مِنْ حِسَــابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَــيْءٍ فَتَطْــرُدَهُمْ فَتَكُــونَ مِنَ الظَّالِمِينَ [الأنعام: 52]

(1) البخاري (6502)

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن الله تعالى أخفى أولياءه في خلقه، ولذلك قد يكون الولي الصالح إنسانا بسيطا، أو صاحب حرفة حقيرة، فإياك أن تخطئ في حق أحد من الناس، حتى لا تقع في الخطأ في حق أولياء الله، وقد ورد في الحديث عن الإمام علي قوله: (إن الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة أخفى رضاه في طاعته، فلا تستصغرن شيئا من طاعته، فربما وافق رضاه وأنت لا تعلم، وأخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغرن شيئا من معصيته، فربما وافق سخطه وأنت لاتعلم، وأخفى إجابته في دعوته فلا تستصغرن شيئا من دعائه فربما وافق إجابته وأنت لاتعلم، وأخفى وليه في عباده فلا تستصغرن، عبدا من عبيد الله فربما يكون وليه وأنت لاتعلم) (2)

ولهذا، إياك أن تكون كأولئك المشركين الذين حجبوا بأكل أنبيائهم، ومشيهم في الأسواق، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8)﴾ (الفرقان)

فولي الله بشر كسائر البشر، ولا يمكنك أن تعرفه من خلال تلك المظاهر التي يبدو بها، والتي لا يخالف بها سائر الناس.. فسر الخصوصية ـ كما يقول الحكماء ـ مستور بظهور البشرية، وإلا فلو أن الله تعالى أظهر أنوار أوليائه لصعق كل من نظر إليهم.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تحكم ربك في كل شيء، من أمور دينك ودنياك، فلا تنظر إلى الخلق من حيث الدرجات التي وضعوها لأنفسهم، وإنما تنظر إليهم من حيث الدرجات التي وضعها الله لهم، وهي درجات التقوى والإيمان والصلاح.. فانظر إليهم بقدر قربهم من الله، وحبهم له، ولا تنظر إليهم بحسب ما لديهم من الدنيا وأموالها وجاهها؛ فكل ذلك ستغير عليه الأيام، وستنجلي الحقائق يوم القيامة عن الواقع الحقيقي الذي غفل الخلق عنه بركونهم للأهواء.

لقد أشار الله تعالى إلى ذلك، ودعا إلى وضع ذلك اليوم

2() معانى الاخبار 112.

في الحسـبان، فقــال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَــةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَــا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَـةٌ (3)﴾ [الواقعـة: 1 ـ 3]، فهي تخفض المرتفعين المستكبرين، وتـريهم صـورهم الحقيقيـة الـتي كـانوا يسترونها بكبريائهم وطغيـانهم، وفي نفس الـوقت ترفـع أولئـك البسـطاء الـذين خفضـهم الظلمـة، واحتقـرهم النـاس، لـتريهم صورهم الحقيقية الممتلئـة بالجمـال، والـذي كـان مغطى بـذلك الوشاح الدنيوي الذي حال بين البشر ورؤيتهم.

فاسع ـ أيها المريد الصادق ـ لأن تكون من أهـل الـدرجات الحقيقية، أولئك الذين يجلسون على منابر النور، ويشـربون من أحواض الأنبيـاء، فـدرجات الـدنيا لا تسـاوي شـيئا أمـام درجـات الآخـرة، قـال تعـالى: ﴿انْظُـرْ كَيْـفَ فَضَّـلْنَا بَعْضَـهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (إن أهـل الجنـة ليتراءون في الجنة أهـل الغـرف، كمـا تـراءون الكـوكب الـدري الغارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات)، فقالوا: يا رسول الله، أولئك النـبيون؟ فقـال: (بلى، والـذي نفسـي بيـده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل)(1)

(1) رواه أحمد (2/ 339) والترمذي برقم (2556)

العطاء والمنع

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن إدارة الله تعالى لشؤون العطاء والمنع، والقبض والبسط، والكرم والتقدير، وأسرارها، ومعارفها، وأثرها في النفس المطمئنة، وسر علاقتها برضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن انفراد الله تعالى بكل شؤون العطاء والمنع، والقبض والبسط من الأسس التي تقوم عليها وحدانية الله تعالى في تدبيره لملكه، وتنظيمه له، ولو أن الشركاء تنازعوا في هذا التدبير لاختل نظام الكون.

ولذلك كان من أسماء الله تعالى الحسنى الدالة على ما يتعلق بشؤون العطاء والمنع اسمه المركب (المعطي المانع) [1]، وهو يفيد أن كل ما يحصل في الكون من عطاء وأرزاق وهبات هي فضل من الله تعالى، وكل ما فيه من منع فهو من مقتضيات حكمته تعالى.

ومن أسمائه تعالى الدالة عليه أيضا اسمه المركب (القابض الباسط)، وهو يعني أن كل ما في الكون من قبض أو بسط هو من نتائج مشيئة الله وإرادته وحكمته.

ولهذه المعرفة آثارها الكبيرة على النفوس، بل يستحيل أن تطمئن من دونها، ذلك أنه لو وكل إلى الله العطاء، ووكل لغيره المنع، لتشتت النفوس، وانقسمت على نفسها، واحتارت من ترضي هل ذلك الذي يعطيها، أم ذلك الذي يمنعها.

ولذلك كان تفرد الله تعالى بهذه الشؤون جميعا، تنظيما لها، حتى يكون العطاء في محله المناسب، والمنع في محله المناسب.

ولهذا اعتبر الحكماء المعرفة بحقائق العطاء والمنع من المعارف الضرورية للسالكين، حتى يتأدبوا مع ربهم، ويزدادوا معرفة به، وقد قال بعضهم في ذلك: (متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره.. فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك)

وقال: (إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه)

---

[1]() وقد فسر المانع بمعنى الحافظ، أي أن الله تعالى برحمته يمنع عبده من أسباب هلاكه، وليس مرادنا منه هنا هذا المعنى، وإن كانت غايته هذا المعنى.

وقال: (ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.. متى فتح لك باب الفهم في المنع، عاد المنع هو عين العطاء)

وقال آخر: (إذا منعت فذاك عطاؤه، وإذا أعطيت فذاك منعه، فاختر الترك على الأخذ)

وقال آخر: (ميز بين ما تُعطي وتُعطى: إن كان من يعطيك أحب إليك فإنك محب الدنيا.. وإن كان من تعطيه أحب إليك فإنك محب للآخرة) (1)

وعرف آخر اسم الله [المانع] بأنه (في وصفه سبحانه بمعنى: منع البلاء عن أوليائه، أو منع العطاء عمن شاء مطلقا. فإذا منع البلاء عن أوليائه، كان ذلك لطفا جميلا، وإذا منع العطاء عنهم، كان ذلك فضلا جزيلا) (2)

وقال آخر: (المانع، جل جلاله: هو الذي يمنع من شاء، وقد يكون باطن المنع عطاء، قد يمنع العبد من كثرة الأموال، ويعطيه الكمال والجمال، وقد يمنع العبد من صحة الأجسام، ويعطيه الرضا عن الأحكام.. فالمانع: هو المعطي، ففي باطن المنع عطاء، وفي ظاهر العطاء بلاء) (3)

وكل هذه الأقوال تدل على أن من ضروريات المعرفة بالله، والتي لها آثارها السلوكية الكبرى، معرفة فضل الله تعالى في عطائه ومنعه، بل شهود العطاء في منعه، لأنه لا يمنع إلا ما فيه مصلحة لعباده، وحفظا لهم.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ مثالا يقرب لك ذلك؛ فتصور أن هناك رجلا كريما لا يعرف إلا العطاء، فهو لا يرد من سأله، مهما كانت مسألته.. وقد جعل ذلك بعضهم يسأله أن يوفر له من المخدرات والمسكرات ما يريحه من بعض الآلام التي تعرض لها.. وبما أنه لا يعرف كلمة [لا]، أبدا، فقد استجاب له، وأعطاه ما جعله يقع في الإدمان، ويتحول إلى زمرة المدمنين والمنحرفين، وكل ذلك بسبب ذلك الكرم الذي أُغدق عليه من طرف الذي يعطي ولا يمنع.

وهذا المثال ينطبق على غير العارفين بسنة الله تعالى في العطاء والمنع، حيث أنهم يتهمون الله تعالى بالبخل، لأنه

1() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 64.

2() التحبير في التذكير، ص 89.

3() أحمد سعد العقاد، الأنوار القدسية في شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية، ص 230.

يمنعهم من المخــدرات الــتي يطلبونهــا، والــتي تشــغلهم عن حقيقتهم ومصيرهم، كما ذكر الله تعالى ذلك عن اليهود، فقـال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَـا قَـالُوا بَـلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]

ومثل ذلك اتهامهم الله تعـالى بـالفقر، قـال تعـالى: ﴿لَقَـدْ سَـمِعَ اللـه قَـوْلَ الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّ اللـه فَقِـيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَـاءُ﴾ [آل عمران: 181]

ولهذا ترد الإشارات الكثيرة في القرآن الكريم إلى ما يملأ النفس قناعة بفضل الله تعالى في الجميع؛ فهـو الغـني الكـريم الذي يفيض أرزاقه على خلقه بحسـب مصـالحهم وحاجـاتهم، لا بحسب أهوائهم وأمزجتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِـيراً بَصِـيراً ﴾ (الاسـراء:30)، وقال:﴿ الله يَبْسُطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَيَقْـدِرُ لَـهُ إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (العنكبوت:62)

ويخــبر أن من مظـاهر لطـف اللــه بعبـاده تقـدير الأرزاق عليهم، قال تعـالى:﴿ وَلَـوْ بَسَـطَ اللـه الـرِّزْقَ لِعِبَـادِهِ لَبَغَـوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَـزِّلُ بِقَـدَرٍ مَـا يَشَـاءُ إِنَّهُ بِعِبَـادِهِ خَبِـيرٌ بَصِـيرٌ﴾ (الشورى:27)

ويخبر بـأن أكـثر النـاس لا يـدركون هـذه الحقيقـة، بسـبب جهلهم واسـتعجالهم وعـدم تـأملهم، قـال تعـالى: ﴿قـلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْـدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ﴾ (سـبأ:36)

ويصرح في آيات أخرى بأن هـذه الحقيقـة لا يـذعن لهـا إلا المؤمنون الواثقون بربهم، المسلمون له شؤون تـدبير مملكتـه، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله يَبْسُطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْـدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ﴾ (الـروم:37)، وقـال:﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزمر:52)، وقال: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْـلُ الْكِتَـابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الله وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد:29)

إذا عرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن لهـذه المعرفـة آثارهـا الكبـيرة في النفس، بـل يسـتحيل أن تتحقــق بالرضا والطمأنينة من دونها، وأول تلك الآثار حمايتهـا من اتهـام الله تعالى بالبخل، أو عـدم إجابـة من سـأله، لأنهـا تعلم أنـه مـا

حرمها إلا لكون ذلك مصلحة لها، فتسلم له في كل شـيء، ثقـة ورضا.

وذلك ما يجعلها تعيش في سكينة وطمأنينة ورضا، تحميهـا من أن تقع فيمـا يقـع للغـافلين من نـدب حظهم المتعـثر الـذي أوقعهم في الفقر بينما يتنعم الجاحـدون بمـا شـاءوا من النعم.. فالمؤمن يعتقد أن كل ذلـك متـاع أدنى لا يسـتحق زفـرة حـزن واحـدة، قـال تعـالى: ﴿اللـه يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيَقْـدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَمَـا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا فِي الْآخِـرَةِ إِلَّا مَتَـاعٌ ﴾ (الرعد:26)

ويقص علينا القرآن الكريم مقالة الذين تمنوا مكانة قارون بعـد أن رأوا مصـيره، قـال تعـالى:﴿ وَأَصْـبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَـهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ وَيَقْـــدِرُ لَـــوْلا أَنْ مَنَّ اللـــه عَلَيْنَـــا لَخَسَـــفَ بِنَـــا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (القصص:82)

ولذلك، فإن المؤمن يترفع عن نظـرة الغافـل، ويطلب من يد الله المبسوطة نحوه الأرزاق الشـريفة الـتي لا تنقطـع، قـال تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللـه كَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُـلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللـه يُضَـاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:261)، وقال:﴿ لِيَجْـزِيَهُمُ اللـه أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالله يَرْزُقُ مَنْ يَشَـاءُ بِغَيْـرِ حِسَابٍ ﴾ (النور:38)

ومن آثار تلك المعرفـة ألا يحـول الخـوف على الـرزق بين المـؤمن وتنفيـذ أوامـر اللـه تعـالى، ولهـذا ينهى اللـه تعـالى المؤمـنين أن يجعلـوا من خـوف العيلـة علـة لـترك المشـركين يزورون المسجد الحرام، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْـجِدَ الْحَـرَامَ بَعْـدَ عَـامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِنْ فَضْـلِهِ إِنْ شَـاءَ إِنَّ اللـه عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:28)

ومن آثارها أن يلجـأ إلى اللـه في طلب رزقـه معتقـدا أنـه يرزق بغير حساب، قال تعالى عن مريم عليها السلام:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَـنٍ وَأَنْبَتَهَـا نَبَاتـاً حَسَـناً وَكَفَّلَهَـا زَكَرِيَّا كُلَّمَـا دَخَـلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:37)

ومن آثارها أن يفيض يده بالنفقة في وجوه الخير عالما بأن الخير من الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ:39)

ومن آثارها أن يشهد العطاء في كل شيء، وأولها وأعظمها نعمة الإيمان والهداية، والتي لا تعدلها جميع كنور الدنيا، ولهذا رد الله تعالى على أولئك الأعراب الذين راحوا يمنون على الله تعالى إسلامهم بقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ﴾ [الحجرات: 17]

وذكر منته على رسول الله ﷺ بهذه النعمة، فقال: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: 7]، وقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]

وذكر مقولة المؤمنين الفرحين بفضل الله عليهم بالهداية، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 11، 12]

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما مجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى، ونحمده لما هدانا للإسلام، ومن علينا به، فقال: (أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة) [1]

وقال الإمام الصادق: (العطاء من الله على وجهين: في الابتداء: الإسلام والإيمان، وفي الانتهاء: التجاوز عن الزلات ودخول الجنان) [2]

ويروى أن المسيح عليه السلام مر برجل أعمى، أبرص، مقعد مضروب الجبين بفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه.

1() رواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، زيادات حقائق التفسير، ص 214.

فقال له المسيح: يا هذا، أي شي ء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال: يا روح الله، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته. فقال له: صدقت، هات يدك. فأوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجها، وأفضلهم هيئة. وقد أذهب الله عنه ما كان به. فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه[1]

ويروى أن بعض الصالحين قطعت رجله من ركبته من أكلة خرجت بها، فقال: الحمد لله الذي أخذ منى واحدة، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت، ثم لم يدع ورده تلك الليلة.

ومن النعم التي يراها العارفون بمنع الله وعطائه تلك الحقائق الحكمية التي يرزقها الله تعالى للمؤمن بسبب تسليمه لربه، والتي يحرم منها الغافلون، كما قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة:269)

ومنها تحققهم بالشكر لله تعالى على كل نعمه التي يغفل عنها من لا يعرف هذه الحقيقة، كما عبر عن ذلك بعض الحكماء فقال: (الشاكرون على ثلاث طبقات، منهم: من يكون شكره لغذاء النفس، ومنهم: من يكون شكره لغذاء الروح، ومنهم: من يكون شكره لغذاء القلب؛ فأما الشكر على غذاء النفس: فالمطعم والملبس والعافية، وأما غذاء الروح: فالعلم والمعرفة والطاعة فعليه الشكر، وأما غذاء القلب: فالمعرفة والرضا؛ فأبناء الدنيا، شكرهم لغذاء أنفسهم، وأبناء الآخرة، شكرهم لغذاء أرواحهم، وأصحاب القلوب، شكرهم لغذاء قلوبهم)[2]

ومنها ذلك الرضا بكل ما يحصل لهم، لاعتقادهم أن الله تعالى لا يقدر لهم إلا ما فيه مصلحتهم، وإن بدا في الظاهر ضررا، مثلما أخبر الله تعالى عن ذلك في قصة أصحاب السفينة التي خرقها الخضر عليه السلام، وعاتبه موسى عليه السلام، إلى أن علم بعد ذلك المصلحة المرتبطة بذلك الخرق.

ويروى في هذا أن رجلا كان يسكن البادية، وكان له كلب وحمار وديك؛ فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء، ويحمل لهم خباءهم، والكلب يحرسهم؛ فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له، وكان الرجل صالحا فقال: عسى أن

1() إحياء علوم الدين، 5/ 132.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 1122.

يكون خيرا، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرا، ثم أصـيب الكلب بعـد ذلـك فقال: عسى أن يكون خيرا، ثم أصبحوا ذات يـوم فنظـروا فـإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، وإنما أخذ أولئك لما كان عنــدهم من أصوات الكلاب، والحمير. والديكة.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تتحقق بهذه المعرفة الجليلة لتنـال الطمأنينـة والرضـا، وتسـعد بربك الكـريم الجـواد الـذي أفـاض عليـك كـل أنـواع النعم، ولم يحرمك من بعضها بسبب رعايته لمصلحتك، ولكون ما أعـد لـك في دار القرار أعظم من أن تتخيله أو تتصوره أو تتوهمه..

التسليم والمدافعة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الموقف من الأقدار، وهل هو التسليم المطلق لها، أم أنه يمكن مدافعتها ومنازعتها، وعن علاقة ذلك بطمأنينة النفس ورضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن للتعامل الشرعي مع الأقدار ـ بحسب ما تدل عليه النصوص المقدسة ـ موقفان: موقف لا ينبغي لك أن تتعامل معه إلا بالتسليم والرضا، وموقف لا ينبغي لك أن تتعامل معه إلا بالمدافعة والمنازعة.

أما **الموقف الأول**، وهو الذي أمرت فيه بالتسليم له تسليما مطلقا، وعدم منازعته في شيء، فهو القدر الذي ليس لك فيه أي اختيار، لأن منازعته لا دور لها إلا تحطيم قلبك، من غير أن يكون لها أي تأثير عملي، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد:22)، ثم قال بعدها:﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَالله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد:23)

أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تيأسوا على ما فاتكم ولا تفخروا على الناس بما أنعم اللّه به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا بكدكم، وإنما هو عن قدر اللّه ورزقه لكم.

فكلا الأمرين مما ذكرته الآية الكريمة يحول بين الإنسان والعمل الصالح الجاد، فالأول هو الوهن الذي يسببه تحمل جميع أثقال الماضي، والثاني هو البطر الذي يسببه الفرح بالحاضر، والتسليم للقدر يقي من كليهما.. فإذا وقي الإنسان من كليهما توجه بكليته للعمل الجاد المثمر الذي أتيح له التحكم فيه.

ولذلك، فإن الذين ينكرون على المؤمنين ما طبعوا عليه من تسليم الأمر لله في مثل هذا لا يفعلون شيئا في الحقيقة سوى رميهم في أتون الإحباط أو البطر الذي يجعلهم مستعبدين لذواتهم، بعيدين عن ربهم، ومن ثم بعيدين عن كل عمل إيجابي.

وبذلك فإن هذا النوع من التعامل مع أقدار الله، يتضمن دعوة إلى العمل والاجتهاد، لأن أكبر ما يُقعد الإنسان عن العمل

الجاد الماضي بآلامه والمستقبل بمخاوفه؛ فإذا سلم المؤمن أمرهما لله، انشغل بما ينفعه في حاضره، وبذلك يحمي مستقبله، وقد يصحح ماضيه.

وأما **الموقف الثاني**، فهو الذي أمرت بمنازعته ومدافعته، وهو ما يتعلق بالجوانب الاختيارية، والتي لك فيها الإرادة المطلقة..

ومن الأمثلة القرآنية لذلك ما ذكره عن أولئك المستضعفين الذين رضوا بأن يسكنوا بين الظالمين والمستبدين، من غير أن يفكروا، لا في الثورة عليهم، ولا في الخروج من بين أيديهم، والتخلص من هيمنتهم، فقد عاتبهم الله على ذلك، بل اعتبرهم من الظالمين، لأنهم سلموا للواقع الذي وجدوا فيه، ولم يفكروا في الثورة عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء: 97)

وقد تحقق هذا المعنى بمنتهى كماله في رسول الله ﷺ، ولعل أدل مثال على ذلك ما وقع منه في غزوة بدر، فقد أراه الله مصارع المشركين حتى أنه أخذ يريها لأصحابه[1]. ومع ذلك لم يكف عن الإلحاح على ربه في الدعاء.

وقد روي عن الإمام علي أنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح[2]

وفي يوم المعركة كان رسول الله ﷺ لا يكف عن الدعاء، مع يقينه بنصر الله، فعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لاتعبد بعد اليوم)[3]

ولتفقه هذا ـ أيها المريد الصادق ـ وسره؛ فإن عليك أن تعرف أن الأقدار الإلهية نوعان:

المقادير الأبدية:

أما النوع الأول، فهو المقادير الأبدية المستمدة من علم

1() رواه مسلم وغيره.
2() رواه أبو يعلى والبيهقي في الدلائل.
3() رواه البخاري والنسائي.

الله وخبرته بالأشياء قبل وجودها، فالله تعالى يعلم كـل شـيء، وفي كل الأحوال، ولا يحتاج لتحقق الشيء حتى يعلمه، بـل هـو يعلم ما كان وما يكون أزلا وأبـدا، ولـو أنـه لم يكن كـذلك لكـان علمه مفتقرا لخلقه، والله غني عن الفقر بكل وجوهه.

وهذا النوع من المقادير لا تغيير فيها ولا تبـديل، والكتب الـتي تضمنها كتب وصفية لما يحـدث، أو تدبيريـة لمـا يحـدث، وهي ممـا استأثر الله بعلمه، وقد يطلع على بعضه من شاء من خلقه.

وقـد سـمى اللـه تعـالى الكتـاب الحـاوي لهـذا النـوع من المقادير [أم الكتاب]، فقال: ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعـد:39)، وهي تدل في اللغة تدل على الأصل الذي يُرجـع إليـه، فـالعرب تسمي كل جامع أمراً أو مقدم لأمر (أُمّاً)، ولهذا سميت الفاتحة أم الكتاب، كما قال ﷺ عنها:(الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى)[1]

وسميت الآيات المحكمـات الـتي لا تغيـير فيهـا ولا تبـديل، والتي يرجع إليها عند الاشتباه أم الكتاب، كما قال تعـالى:﴿ هُـوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَـا تَشَـابَهَ مِنْـهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـهُ إِلَّا اللـه وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا وَمَـا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُـو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:7)، فـالمراد بـأم الكتـاب هنـا أصـله الـذي يرجع إليه عند الإشتباه.

وسمى الله تعالى هذا النوع من المقـادير أيضـا بــ [الإمـام المبين]، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُـلَّ شَـيْءٍ أَحْصَـيْنَاهُ فِي إِمَـامٍ مُبِينٍ ﴾ (يّـس:12) أي جميع الكائنات مكتوبة في كتـاب مسـطور مضـبوط هـو الإمـام المبين.

والإمام في التعبير الشرعي يراد به المتبوع والأصـل الـذي يرجع إليه غيره، كما قـال تعـالى:﴿ وَجَعَلْنَـاهُمْ أَئِمَّةً يَـدْعُونَ إِلى النَّارِ وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ لا يُنْصَـرُونَ﴾ (القصـص:41)، وقـال ﷺ:(إذا كان يوم القيامـة أذن مـؤذن: ليتبـع كـل أمـة مـا كنت تعبـد، فلا يبقى أحــد كــان يعبــد غــير اللــه من الاصــنام والانصــاب إلا يتســاقطون في النــار حــتى لم يبــق إلا من يعبــد اللــه من بــر

1() رواه أبو داود والترمذي.

وفاجر)[2]
ومن أسمائه أيضا [اللوح المحفوظ]، كما قال تعالى: فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج:22)
ومن أسمائه [الكتاب المكنون]، كما قال تعالى: فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (الواقعة:78)
وهذه الأسماء المختلفة لهذا النوع من المقادير ليست اعتباطية، وإنما تدل على الخصائص الكبرى المرتبطة بهذا النوع من المقادير، وهي ثلاث خصائص: الشمولية، والحفظ، والستر، ومعرفتك ـ أيها المريد الصادق ـ لها هو الذي يجعلك تسلم لها تسليما مطلقا، وتفرق بينها وبين ما أمرت بمنازعته ومدافعته.
أما **خاصيتها الأولى**، وهي الشمولية، فهي تعني اشتمال تلك المقادير، أو الكتب المخصصة لها على كل التفاصيل المرتبطة بالكون، كما قال تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام:38) أي أن الله تعالى أثبت في اللوح المحفوظ كل ما يقع من الحوادث.
وقد ذكر الله تعالى التفاصيل الكثيرة الدالة على كتابة الله للصغير والكبير من أحداث الكون، قال تعالى: وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (الأنعام: 59)، فأخبر تعالى أنه سجل حركة الأشجار وغيرها من الجمادات في هذا الكتاب.
وأخبر تعالى أن كل ما يحدث في الكون من أنواع المصائب مسجل في هذا الكتاب، قال تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ (الحديد:22)
وأخبر أنه لا تموت نفس إلا وعند الله علمها، وأنه سجلها في ذلك الكتاب، قال تعالى: قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (قّ:4)
وأخبر أن هذا الكتاب هو الذي تحدث الأشياء كل الأشياء وفقه، قال تعالى: لَوْلا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (الأنفال:68)

2() رواه البخاري ومسلم.

وأخـبر عن مقالـة موسـى عنـدما سـأله فرعـون عن حـال القرون الأولى، فقال: ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِــلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى﴾ (طـه:52)

بل نص على أن كل شيء مسجل في هذا الكتاب تسـجيلا واضحا بينا، فقـال ﴿ وَمَـا مِنْ غَائِبَـةٍ فِي السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:75)

وأخـبر تعـالى عمـا يحويـه هـذا الكتـاب من تفاصـيل حيـاة الإنسان وأعماله، فقال:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُـو مِنْـهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيـهِ وَمَا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَـالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّـمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:61)

وأخبر عن احتـواء هـذا الكتـاب على أعمـار الإنسـان، قـال تعالى:﴿ وَمَـا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُـرِهِ إِلَّا فِي كِتَـابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ (فاطر: 11)

وكتابة المقادير بهذه الصفة ـ أيها المريد الصادق ـ لا يصـح الاحتجاج بها على ترك العمل، لأن الله تعالى كمـا كتب الأجزيـة كتب الأعمـال، بـل رتب الجـزاء على العمــل، فلـذلك إن قعـد قاعد، وقال:(إن كنت من أهل الجنـة، فلمـاذا أعمـل؟ وإن كنت من أهل النار، فلماذا أتعب نفسي)، فإن هذا يقـال لـه: إن اللـه كتب لك أن تجوع ثم كتب أن تأكـل، ثم كتب لـك أن تشـبع بعـد أكلك، فإذا جعت، فلا تأكل، وقل: إن كـان اللـه قـد قـدر لي أن أشبع، فما حاجتي لتكلف الأكل.

ولهذا ربط النبي ﷺ بين هذه الحقائق الكبرى وبين العمـل، فقد روي في الحديث أن غلامين شابين سألا النبي ﷺ فقالا: يــا رسول الله، أنعمل فيما جَفَّت به الأقلام وجَرَتْ به المقــادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال ﷺ:(بل فيما جفت بـه الأقلام، وجـرت به المقادير) قالا: ففيم العمـل إذًا؟ قـال: (اعملـوا فكـل عامـل ميسر لعمله الذي خلق له)

وقد كان هذا القول محفزا لهـذين الشـابين، فقـالا:(فـالآن نجد ونعمل)[1]

ولذلك، فإن كتابة هـذه المقـادير لا يفهم منهـا المـؤمن مـا يفهمه المجادلون، بل يراها دليلا على كمال الله وغناه المطلــق وعلمــه الواســع، وهي مـع ذلـك تحمـل كـل العـدل والرحمـة

1() تفسير الطبري (30/144)

والحكمة.
وأمـا **خاصـيتها الثانية**، فهي [الحفـظ] ولـذلك يسـمى الكتاب الذي سجلت فيه [اللوح المحفوظ]، أي أنه محفوظ من التغيير والتبديل، فلا يغير ما فيه ولا يبدل، فقد سجل فيه تعـالى بقلم القدرة الإلهية ما سيحصل في الكون من الأحداث الـتي لا تبـدل ولا تغـير، فلـو اجتمـع الخلـق كلهم على شـيء كتبـه اللـه تعالى فيه أنـه كـائن ليجعلـوه غـير كـائن لم يقـدروا عليـه، ولـو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائنـا لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.
وهذا الكتاب يشبه آيات القـرآن الكـريم المحكمـة الـتي لا يمكن أن تتعرض بحال من الأحوال للنسخ، ولـذلك أخـبر تعـالى أنه لا تبديل لكلمات الله، قال تعالى: لَهُمُ الْبُشْـرَى فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (يونس:64)
وقـال تعـالى مخاطبـا الإنسـي وقرينـه من الجن عنـدما يختصمان بين يديه: قَـالَ لا تَخْتَصِـمُوا لَـدَيَّ وَقَـدْ قَـدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (قّ:28 ـ 29)
وهو نفس مـا قـال تعـالى في آيـات القـرآن الكـريم، قـال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِـدْقاً وَعَـدْلاً لا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ وَهُـوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (الأنعام:115)، وقال: وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (الكهف:27)
فهذا الكتاب يحوي المقادير في صورتها النهائية المفصـلة، التي لا تغيير فيها ولا تبديل لأنهـا ترجـع إلى علم اللـه بالأشـياء، والعلم لا يتغير.
وأمـا خاصـيتها الثالثـة، فهي [السـتر]، وهـو مـا يـدل عليـه اسـم(الكتـاب المكنـون)، فـالمكنون في اللغـة هـو المصـون المستور، وهذا ما تدل عليه النصوص الدالة على اختصاص اللـه بعلم الغيب، فلـو كـان هـذا الكتـاب غـير مكنـون لأمكن الاطلاع على موعد الساعة والحقائق الغيبية الكثيرة.
ولهذا يخبرنا اللـه تعـالى أنـه وحـده المسـتأثر بعلم الغيب، وأن هذا الكتاب المكنون الذي هو فيض من فيوضـات علم اللـه سر من أسرار الله، قال تعالى: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا الله وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُـونَ (النمـل:65)،

وقال: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (الجـن:26)

ولهذا يرد في القرآن الكريم وصف الله تعالى بكونه عالما للغيب والشهادة، قال تعـالى: عَـالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ الْكَبِـيرُ الْمُتَعَالِ (الرعد:9)، وقال: عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (المؤمنون:92)، وقال: ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (السجدة:6)، وقال: هُوَ الله الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (الحشر:22)

وأخبر تعالى أنه لا يطلع على غيبه أحدا، فقـال: مَـا كَـانَ اللـه لِيَـذَرَ الْمُـؤْمِنِينَ عَلَى مَـا أَنْتُمْ عَلَيْـهِ حَتَّى يَمِـيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللـه يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِالله وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران:179)

ورد على من تـألى على اللـه، فـزعم أنـه يمكن أن ينـال بجهده ما لم يقدره الله له، فقال: لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (مـريم: 77) بقوله تعـالى:أَطَّلَـعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَـذَ عِنْـدَ الـرَّحْمَنِ عَهْـداً (مريم:78)، أي أعلم ماله في الآخـرة، حـتى تـألى وحلـف على ذلك، أم له عند اللّه عهد سيؤتيه ذلك؟

بل تردد في القرآن الكريم الأمر بإخبار رسول الله ﷺ عن عدم علمه بالغيب، قال تعالى: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْـدِي خَـزَائِنُ الله وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُـوحَى إِلَيَّ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِـيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (الأنعـام: 50)

ومثل ذلك أمره تعالى بالاستدلال على ذلـك بأنـه لـو كـان يعلم الغيب لاستكثر من الخير ومـا مسـه السـوء، قـال تعـالى: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعـاً وَلا ضَـرّاً إِلَّا مَـا شَـاءَ اللـه وَلَـوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَـا مَسَّـنِيَ السُّـوءُ إِنْ أَنَـا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأعراف:188)

ومثلـه أمـره ﷺ أن يخـبرهم بـأن رسـالته لا تعـني اطلاعـه على الغيب، قال تعالى: وَلا أَقُـولُ لَكُمْ عِنْـدِي خَـزَائِنُ اللـه وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُـولُ إِنِّي مَلَـكٌ وَلا أَقُـولُ لِلَّذِينَ تَـزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُـؤْتِيَهُمُ اللـه خَيْـراً اللـه أَعْلَمُ بِمَـا فِي أَنْفُسِـهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (هود:31)

ولكن مع ذلك قد يطلـع اللـه تعـالى بفضـله ورحمتـه بعض خلقـه على بعض شـؤون الغيب ممـا تتعلـق بـه مصـالح العبـاد،

ولحكم قد تقتضي ذلك، ولهـذا ورد الاسـتثناء بعـد قولـه تعـالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِـرُ عَلَى غَيْبِـهِ أَحَـداً﴾ (الجــن: 26) بقولـه: ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ (الجـن: 27)، وقال: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: 255)

وقـد أخبرنـا اللـه تعـالى عن بعض من خصـوا ببعض علم الغيب، ومنهم الخضر عليـه السـلام الـذي قـال تعـالى عن نـوع العلم الذي أوتيه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ (الكهف: 65)

ومن هذا الباب ما أطلع الله تعالى به رسوله ﷺ من عــالم الغيب مما ترتبط به مصالح دينه وأمته، سـواء تعلقت بالماضـي أو تعلقت بالمستقبل:

أما ما تعلق منهـا بالماضـي، فمنـه تلـك الإخبـارات الغيبيـة الواردة في القرآن الكريم، والتي لم يكن ليعلمهـا رسـول اللـه ﷺ لولا إعلام الله، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُـكَ مِنْ قَبْـلِ هَـذَا فَاصْـبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَـةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:49)، وقال: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيـهِ إِلَيْـكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف:102)، وقـال: ﴿ ذَلِـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيـهِ إِلَيْـكَ وَمَـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِـمُونَ﴾ (آل عمران:44)

ومن هـذا الإطلاع مـا أخـبر عنـه رسـول اللـه ﷺ أمتـه من النبوءات الغيبية، والمقصد منهـا إثبـات نبوتـه لكـل الأجيـال من جهة، وتنبيه أمته لما تفعله عند نزول تلك الفتن من جهة أخرى.

لكن هذا النوع من الغيب الذي يطلع الله تعالى عليه بعض خلقه لبعض الحاجات علم محدود مرتبط بالتـدابير الـتي تتطلب الاطلاع على هذا الغيب، أما ما عدا ذلك فهـو ممـا اسـتأثر اللـه بعلمه.

وقـد عـبر القـرآن الكـريم عن بعض هـذا المسـتأثر بعلمـه بكونـه (مفـاتيح الغيب)، فقـال تعـالى: ﴿ وَعِنْـدَهُ مَفَـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَـا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَـابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:59)

وكل هذه المعـاني ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تملأ المـؤمن

بالرضا والتسليم لله، وفي نفس الوقت تملؤه بالحركة الإيجابية نحو كل الأعمال الصالحة، ذلك أنه لا يهتم بما حجب عنه من الغيوب، وإنما يهتم بإصلاح ما في نفسه من العيوب، كما قال بعض الحكماء: (تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)

ولهذا وصف الله تعالى المؤمنين بالإشفاق من الآخرة، فقال تعالى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (الانبياء:49)

بينما يستعجل بها الجاهلون بها، قال تعالى مقارنا بين النظرتين: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (الشورى:18)

ولهذا كان ﷺ يسأل من طلب معرفة موعد الساعة عن مدى استعداده لها، وقد روي أن رجلا دخل والنبي ﷺ يخطب الجمعة، فقال: متى الساعة؟ فأومأ الناس إليه بالسكوت، فلم يقبل، وأعاد الكلام، فقال له النبي ﷺ في الثالثة: ماذا أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ:(إنك مع من أحببت)[1]

ولهذا فإن المؤمن العارف بالله يفرح بغيب الله وشهادته، فيرى الغيب كما يرى أحدنا المفاجأة الجميلة تأتيه من أحب أحبابه، يستقبلها فرحا بمهديها.

المقادير المؤقتة:

أما النوع الثاني، فهو المقادير المؤقتة، وهي المقادير التي كلفت ـ أيها المريد الصادق ـ بمنازعتها ومدافعتها أو اختيار ما يتناسب منها مع مصالحك الشرعية في التزكية والترقية، وهي جميعا لا تخرج عن أقدار الله تعالى، ولا عن ما كتبه لك في الأزل.

وإلى هذا النوع من المقادير الإشارة بقوله تعالى: يَمْحُوا الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (الرعد:39)

وإليها الإشارة كذلك بالنصوص الواردة في منازعة الأقدار كقوله ﷺ:(لا يغنى حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء، فيعتلجان إلى يوم القيامة)[2]

1() رواه ابن خزيمة وأحمد والنسائي والبيهقي.
2() رواه ابن عدي والحاكم والخطيب.

وقالﷺ:(لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر الا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) (1)

والتعرف على هذا النوع من الأقدار، ومنازعته، ومدافعتــه، هو الذي يحفظ المؤمن من الوقوع فيما وقع فيه الجبرية الـذين سـلموا وهنهم وكسـلهم وقعـودهم إلى المقـادير، واتهمـوا اللـه تعالى، وبرؤوا أنفسـهم، مثلمـا فعـل المشـركون عنـدما قـالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ الله مَـا عَبَـدْنَا مِنْ دُونِـهِ مِنْ شَـيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَـا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: 35]

أو مثلما فعل إبليس عندما رفض تلبية أمر اللـه تعـالى، ثم أخـبر أنـه سـبب غوايتـه، فقـال: ﴿فَبِمَـا أَغْـوَيْتَنِي لَأَقْعُـدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: 16]، وكان في إمكانه أن ينفذ أمر الله تعالى، ويقول: (فبما هديتني)، بدل [فبما أغويتني]

ولهذا قال الإمام الصادق: (ما بعث الله نبيا قط حتى يأخـذ عليه ثلاثا: (الإقرار لله بالعبودية، وخلع الأنداد، وأنّ الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء)(2)

ومن أول خصـائص هـذا النـوع من المقـادير أنهـا [مقـادير محتملة]، أي أنها ليست قطعية، بحيث تنزل بالعبد لا محالة، بل هي معرضة للنسخ والتبديل، بل إن الله تعالى وهب العبد قدرة على نسخها ومحوها وتبديلها.

ولا يستغرب هذا القول، فـإن القـرآن الكـريم، وهـو كتـاب من كتب اللـه، أو هـو نمـوذج من كتب اللـه يخبرنـا عن وقـوع النسخ(3)، أو التـدرج، أو مخاطبـة الإنسـان على حسـب حالـه ودرجتـه، كمـا أخـبر تعـالى عن قـول المسـيح عليـه السـلام: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]

أمـا دور الإنسـان وتـأثيره في نسـخ أحكـام هـذه الكتب ورفعها فقـد وردت النصـوص الكثـيرة الدالـة على ذلـك، ومنهـا قوله تعـالى:﴿وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْكِتَـابِ آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَكَفَّرْنَـا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (المائـدة:65)، فهـذه الآيـة الكريمة تذكر تأثير الأعمال في جانب علاقة هؤلاء العبـاد بـربهم تعالى.

1() رواه النسائي وابن ماجه وأحمد وأبي يعلى وابن منيع والطبراني.

2() بحار الأنوار: 4/108، والمحاسن.

3() النسخ الذي نريده هنا هو نسـخ القـرآن الكـريم للكثـير من الأحكـام الـواردة في الكتب السابقة، أما كون القرآن يحوي ناسخا ومنسوخا، فهـذا ممـا نـنزه القـرآن الكـريم عنه، وقد ذكرنا ذلك في كتاب [القرآن والأيدي الآثمة]، وغيره.

ومن الجانب الآخر، وهو دور العبد في تقدير نـزول الأرزاق عليه، أو رفعها قال تعـالى: وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَـذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعـراف:96) أي أن أرزاق اللـه مفتوحـة على العباد، ولكن العباد هم الواقفون دون نزولها.

ومثال هـذا مثـل من تفـرض لـه جهـة مـا مبلغـا محـددا أو جـائزة معينـة، وتشـترط عليـه الحضـور لتسـلمها، ولكنـه يظـل راضيا بفقره شاكيا منه غافلا عما قدر له.

لـذلك، فـإن هـذه المقـادير المشـتملة على مصـالح العبـاد متوقفة على أعمال العباد؛ فمع أن الأعمار بآجالها إلا أن رسول الله ﷺ أخبرنا بما يزاد فيه العمـر المقـدر، فقـال:(من سـره أن يعظم الله رزقه، وأن يمد في أجله، فليصل رحمه)(1)

وعندما توهم بعضهم أن هذا الحديث معارض بقوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَـلٌ مُسَـمّىً عِنْـدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (الأنعام:2)، رد عليه ابن عباس بقوله: (الأجـل الأول أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته، والأجل الثـاني ـ يعني المسمى عنده ـ من حين وفاته إلى يوم يلقاه في الـبرزخ لا يعلمه إلا الله؛ فإذا اتقى العبد ربه ووصل رحمه زاده الله في أجل عمره الأول من أجـل الـبرزخ مـا شـاء، وإذا عصـى وقطـع رحمه نقصه الله من أجل عمره في الدنيا ما شـاء، فيزيـده في البرزخ)

ولهذا ترد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة الدالـة على أن مصير العباد يتغير، بسبب حسـن أفعـالهم أو سـوئها، ومن ذلـك قوله تعالى حاكيا عن نـوح عليـه السـلام: اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِـلِ السَّـمَاءَ عَلَيْكُمْ مِـدْرَارًا (11) وَيُمْـدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا [نـوح: 10-12]، فقد اعتـبر نـوح عليـه السـلام الاسـتغفار علـة مـؤثرة في نزول المطر، وكثرة الأموال والبنين، وجريان الأنهار.

وهكذا أخبر القرآن الكريم على أن للأعمال السيئة تأثيرهـا في المقادير، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: وَضَـرَبَ اللـه مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَـا رِزْقُهَـا رَغَـدًا مِنْ كُـلِّ مَكَـانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَـوْفِ بِمَـا كَـانُوا يَصْنَعُونَ [النحل: 112]، وقوله: ذَلِكَ بِأَنَّ اللـه لَمْ يَـكُ مُغَيِّرًا

1() رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأنفال: 53]

ومن هذا الباب يفسر قوله تعالى: إِنَّ الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد: 11]، وقوله: ذَلِكَ بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الأنفال: 53]، وقوله: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [الأعراف: 96]، وغيرها من الآيات الكريمة التي تربط الجزاء بالعمل.

ولهذه المعاني تأثيرها النفسي والسلوكي العظيم، وقد عبر عن ذلك بعض الحكماء، فقال: (الاعتقاد بالمحو والإثبات، وأن العبد قادر على تغيير مصيره بأفعاله وأعماله، لا بد من أن يبعث الرجاء في قلب من يريد أن يتطهر، وينمي نواة الخير الكامنة في نفسه، فتشريع البداء، مثل تشريع قبول التوبة، والشفاعة، وتكفير الصغائر بالاجتناب عن الكبائر، كلها لأجل بعث الرجاء وإيقاد نوره في قلوب العصاة والعتاة، حتى لا ييأسوا من روح الله، ولا يتولوا بتصور أنهم من الأشقياء وأهل النار قدرا، وأنه لا فائدة من السعي والعمل، فلعلم الإنسان أنه سبحانه لم يجف قلمه في لوح المحو والإثبات، وله أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، يسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، وليست مشيئته جزافية غير تابعة لضابطة عقلية، لأن العبد لو تاب، وعمل بالفرائض، وتمسك بالعروة الوثقى، فإنه يخرج من سلك الأشقياء، ويدخل في صنف السعداء، وبالعكس.. وهكذا فإن كل ما قدر في حقه من الموت والمرض والفقر والشقاء يمكن تغييره بالدعاء، والصدقة، وصلة الرحم، وإكرام الوالدين، وغير ذلك، فجميع هذا من باب الرحمة الإلهية لأجل بث الأمل في قلب الإنسان، وعلى هذا فالاعتقاد بذلك من ضروريات الكتاب وصريح آياته)[1]

ولهذا ورد عن أئمة الهدى الدعوة إلى هذا النوع من المعارف، والرد على أولئك الجبرية الذين حولوا الدين أفيونا ومخدرا باسم الإيمان بالقضاء والقدر، وقد روي عن الإمامين الباقر والصادق أنهما قالا: (ما عبد الله عز وجل بشئ مثل

---

(1) أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، ص 447.

البداء)[1]

وروى عن الصادق أنه قال: (لو يعلم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا من الكلام فيه)[2]

وقال: (ما عظم الله عز وجل بمثل البداء)[3]، وقد علق على قوله هذا بعض الحكماء، فقال: (إذ لولا الإقرار بالبداء بهذا المعنى ما عرف الله حق المعرفة، بل ويبدو سبحانه في نظر العبد (بناء على عقيدة بطلان البداء) أنه مكتوف الأيدي، لا يقدر على تغيير ما قدره، ولا محو ما أثبته) [4]، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى عن اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]

ومما يروى في هذا عن ابن مسعود أنه كان يقول (ما دعا عبد قط بهذه الدعوات، إلا وسع الله له في معيشته: يا ذا المن ولا يمن عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول، لا إله إلا أنت ظهر اللاجين وجار المستجيرين ومأمن الخائفين، إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقيا فامح عني اسم الشقاء، وأثبتني عندك سعيدا، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروما مقترا علي رزقي، فامح حرماني ويسر رزقي وأثبتني عندك سعيدا موفقا للخير، فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت: ﴿ يَمْحُوا الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:39)[5]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تتحقق بهذه المعارف الجليلة؛ فلا تخلط الأمور ببعضها، فتجتنب العدل، وتقع في الظلم، بل تعامل مع الله تعالى بحسب ما أمرك أن تتعامل به، بعيدا عن الهوى والتقلبات والوساوس.

1() بحار الأنوار، 4: 107.
2() الكافي 1: 115.
3() التوحيد للصدوق، الحديث 2.
4() أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، ص 448.
5() رواه ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي الدنيا في الدعاء.

الجبر والاختيار

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن المعارف المرتبطة بحرية الإنسان في أداء تكاليفه، ومجازاته عليها، وعن علاقة ذلك بالعلم الإلهي المستوعب لكل شيء، وعلاقته بعدالة الله ورحمته التي وسعت كل شيء، وعن أثر تلك المعارف في النفس المطمئنة، وسر علاقتها برضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن أسئلتك هذه تندرج ضمن ذلك السؤال المعروف المكرر، وهو عن علاقة القدر الإلهي بالجبر والاختيار، وبما أن النفس المطمئنة هي النفس التي سلمت لربها، وصفت عن كل الكدورات التي تعتري أمثالها من النفوس، حتى لا يبقى فيها أدنى ريب، ولا أقل شبهة؛ فإن الجواب عن هذه الشبهة أو حل الإشكالات المرتبطة بها من العلوم الضرورية لها.

وهي لا تجيب عليها بمثل ما يفعل بعضهم من التسرع؛ فيعتبر الجبر هو الحاكم في هذا الكون تغليبا لتوحيد الله، وهيمنته على شؤون كونه، ولإثبات علمه الواسع، وإرادته المطلقة.

أو يعتبر الاختيار هو الحاكم لهذا الكون؛ فيضطر لأجل ذلك أن ينفي علم الله تعالى بالأشياء قبل حدوثها، وينفي معه إرادته المطلقة، ومشيئته النافذة، وينفي بعد ذلك جميعا كل ما سجل في أم الكتاب من حقائق الأقدار التي لا تغير ولا تبدل.

والحل الذي تصل إليه النفوس المطمئنة بسيط جدا، وليس فيه أدنى تعقيد، ذلك أنها تنطلق في تعاملها مع الحقائق من تواضعها وتسليمها وعجزها.. فلذلك لا تقيس عالم الألوهية على عالم البشرية، ولا تسأل عن الكيف، ولا عن التصورات المرتبطة به.. بل هي توقن أنه ما دام علم الله تعالى وإرادته وقدرته ورحمته وكل صفاته تابعة لذاته.. وذاته مجهولة لا يمكن تصورها أو تخيلها أو حدها.. فإن كل ما يرتبط بها يبقى مجهولا.. ويبقى التعامل السليم معه هو التعقل لا التصور.

وهذا هو العقل السليم.. والذي على أساسه قامت العلوم.. بل لولاه لم يتقدم البشر في علومهم شبرا واحدا.. ذلك أن البشر الآن يتعاملون مع قانون الجاذبية، ويبنون عليه

الكثـير من مشـاريعهم العلميـة النظريـة والتطبيقيـة.. وهم إلى الآن لا يعرفون حقيقة الجاذبية، ولم يروها، وإنما رأوا آثارها.

وهكذا كان الطب القديم يعالج المرضى، ويفلح مـع الكثـير من الأمراض، وقد أثبت الطب الحديث نجاعة الكثير من الأدوية التي كان يستعملها.. ومع ذلك لم يكن للطب القديم أي بحــوث علمية تفصيلية حول جسـد الإنسـان، ولا عن الأدويـة الـتي كـان يصفها له.

وهكذا هذه العقول المؤمنـة المسـلمة لربهـا.. فهي تـؤمن بأن ربهـا أعظم من أن يعتريـه الجهـل، لا في الماضـي، ولا في الحاضـر، ولا في المسـتقبل، ولـذلك فـإن كـل علومـه صـحيحة سيثبتها الواقـع لا محالـة، لأنـه لـو لم يثبتهـا لتحـول علمـه جهلا، وذلك يستحيل مع الألوهية.

وفي نفس الوقت يـؤمن بمـا ورد في النصـوص المقدسـة من الحرية التي وهبها الله تعـالى للإنسـان، والـتي يجازيـه على أساسها، وهو عدل في جزائه، كما أنه عدل في تكليفه.

وهو لا يحتاج لإثبات حريته لأي نصوص، ذلك أنه يشعر بهـا، ويفرق بينها وبين الحركات الجبرية التي تعتري بعض المرضــى، أو هي من أوصاف بعض أعضائه.. فلا أحد في الدنيا لا يسـتطيع أن يفرق بين دقات القلب الجبرية، أو حركة المعـدة في هضـم الغذاء، وبين الحركات الاختيارية التي يمارسها أثنـاء رياضـته، أو أثناء كلامه، والذي يوجهه حيث يشاء.

إذا علمت ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحـذر من أن تـترك كلمات ربك المقدسة، وما هداك إليه عقلـك الرشـيد؛ فتقـع بين أولئك الذين يعتقدون أن الأمر جبر لا خيار فيـه، فتتهم ربـك في عدالته ورحمته.. أو تعتقد أن الخيـار المتـاح للخلـق يجعـل اللـه تعالى جاهلا بأفعـالهم ومصـيرهم وحقيقتهم.. فتتهم اللـه تعـالى في علمه المحيط بكـل شـيء تشـبيها لعلمـه بعلمـك، ولإرادتـه بإرادتك.

ولهذا نادى أئمة الهدى عندما ظهرت بـدع الجـبر والاختيـار إلى هذا الذي ذكرته لك، فقد روي أن الإمام الرضا سئل: يا أبــا الحسن الخلق مجبورون؟ فقال: (الله أعدل من أن يجبر خلقــه ثم يعذبهم)، قيـل: فمطلقـون؟ قـال: (اللـه أحكم من أن يهمـل عبده ويكله إلى نفسه) [1]

(1) بحار الأنوار (5/ 59)

وروي أنه سئل عن قوله عز وجل: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]، فقال: (إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنه متى علم أنهم لا يرجعون عن الكفر والضلال منعهم المعاونة واللطف، وخلى بينهم وبين اختيارهم)، فسئل عن قوله عز وجل: ﴿ خَتَمَ اللـه عَلَى قُلُـوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، فقال: (الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم كما قال تعالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: 155]، وسئل: (هل يجبر الله عباده على المعاصي؟) فقال: (بل يخيرهم ويمهلهم حتى يتوبوا)، فقيل: فهل يكلف عباده ما لا يطيقون؟ فقال: (كيف يفعل ذلك وهو يقول: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] ؟)[1]

وعندما شكا إليه بعضهم اتهامه واتهام أئمة الهدى بالجبر والتشبيه، ورواياتهم الروايات في ذلك، قال لمن شكا إليه: (من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر ومشرك ونحن منه برآء في الدنيا والآخرة، يابن خالد إنما وضع الاخبار عنا في التشبيه والجبر الغلاة الذين صغروا عظمة الله، فمن أحبهم فقد أبغضنا، ومن أبغضهم فقد أحبنا ومن والاهم فقد عادانا، ومن عاداهم فقد والانا، ومن وصلهم فقد قطعنا، ومن قطعهم فقد وصلنا، ومن جفاهم فقد برنا، ومن برهم فقد جفانا، ومن أكرمهم فقد أهاننا، ومن أهانهم فقد أكرمنا، ومن قبلهم فقد ردنا، ومن ردهم فقد قبلنا، ومن أحسن إليهم فقد أساء إلينا، ومن أساء إليهم فقد أحسن إلينا، ومن صدقهم فقد كذبنا، ومن كذبهم فقد صدقنا، ومن أعطاهم فقد حرمنا، ومن حرمهم فقد أعطانا.. يا بن خالد من كان من شيعتنا فلا يتخذن منهم وليا ولا نصيرا) [2]

وقبله قال الإمام الصادق: (الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا يريد) [3]

وقال لمن سأله عن القضاء والقدر: (ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو منه، وما لم تستطع أن تلوم العبد عليه فهو من فعل الله، يقول الله تعالى للعبد: لم عصيت؟ لم فسقت؟ لم

1() بحار الأنوار (5/ 11)
2() بحار الأنوار (5/ 53)
3() بحار الأنوار (5/ 52)

شـربت الخمـر؟ لم زنيت؟ فهـذا فعـل العبـد؛ ولا يقـول لـه: لم مرضت؟ لم قصرت؟ لم ابيضضت؟ لم اسوددت؟ لانه من فعل الله تعالى)

وقال لزرارة بن أعين: (يا زرارة أعطيك جملة في القضـاء والقدر؟) قال: (نعم جعلت فداك)، قال: (إذا كـان يـوم القيامـة وجمع الله الخلائـق سـألهم عمـا عهـد إليهم، ولم يسـألهم عمـا قضى عليهم) [1]

وروي أنه قال يوما لبعض من يقولـون بـالجبر: هـل يكـون أحد أقبل للعذر الصحيح من اللـه؟ فقـال: لا، فقـال: فمـا تقـول فيمن قال ما أقـدر وهـو لا يقـدر؟ أيكـون معـذورا أم لا؟ فقـال المجبر: يكون معذورا، قال لـه: فـإذا كـان اللـه يعلم من عبـاده أنهم ما قدروا على طاعته وقـال لسـان حـالهم أو مقـالهم يـوم القيامة: يارب ما قدرنا على طاعتك لانك منعتنا منها أمـا يكـون قولهم وعذرهم صحيحا على قـول المجـبرة؟ فقـال: بلى واللـه فقال: فيجب على قولك أن اللـه يقبـل هـذا العـذر الصـحيح ولا يؤاخذ أحدا أبدا وهذا خلاف قول أهل الملل كلهم. فتاب المجـبر من قوله بالجبر في الحال[2]

وروي أن طاووس اليماني دخل عليه، وكان يعلم أنه يقول بالقـدر، فقـال لـه: يـا طـاووس من أقبـل للعـذر من اللـه ممن اعتذر وهو صادق في اعتذاره؟ فقال له: لا أحد أقبل للعذر منه، فقـال لـه: من أصـدق ممن قـال: لا أقـدر وهـو لا يقـدر؟ فقـال طاووس: لا أحد أصدق منه، فقال الإمام الصادق له: يا طاووس فما بال من هو أقبل للعذر لا يقبل عذر من قال: لا أقدر وهـو لا يقدر؟ فقام طاووس وهو يقول: لس بيـني وبين الحـق عـداوة، الله أعلم حيث يجعل رسالته، فقد قبلت نصيحتك[3]

وروي أنـه قـال لهشـام بن الحكم: ألا أعطيـك جملـة في العدل والتوحيد؟ قال: بلى جعلت فداك، قال: (من العـدل أن لا تتهمه، ومن التوحيد أن لا تتوهمه) [4]

وقبل ذلك رويت الروايـات الكثـيرة عن الإمـام علي، فمن أقوالـه في ذلـك: (أتظن أن الـذي نهـاك دهـاك؟ وإنمـا دهـاك

1() كنز الفوائد، (ص 171)
2() بحار الأنوار (5/ 58)
3() بحار الأنوار (5/ 58)
4() بحار الأنوار (5/ 58)

أسفلك وأعلاك، والله برئ من ذاك)، وقوله: (لو كان الـزور في الاصـل محتومـا كـان المـزور في القصـاص مظلومـا)، وقولـه: (أيدلك على الطريق ويأخذ عليـك المضـيق؟)، وقولـه: (كـل مـا استغفرت الله منه فهو منـك، وكـل مـا حمـدت اللـه عليـه فهـو منه) [1]

وكـل هـذه المعـاني اقتبسـوها من منبعي النـور: القـرآن الكريم، ورسول الله ﷺ، فقد ورد في الحديث عن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: (خمسة لا تطفأ نـيرانهم، ولا تمـوت أبـدانهم: رجـل أشرك، ورجل عـق والديـه، ورجـل سـعى بأخيـه إلى السـلطان فقتله، ورجل قتـل نفسـا بغـير نفس، ورجـل أذنب وحمـل ذنبـه على الله عزوجل)[2]

وقال: (من زعم أن الله تعالى يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله ومن زعم أن الخير والشر بغير مشية اللـه فقـد أخرج الله من سلطانه، ومن زعم أن المعاصي بغـير قـوة اللـه فقد كذب على الله ومن كذب على الله أدخله الله النار) [3]

والله تعالى ذكر في القرآن الكريم كلا الحقيقـتين: حقيقـة الحريـة الإنسـانية، وفي مجالاتهـا المختلفـة، وحقيقـة الهيمنـة الإلهية على كل مقاليد الكون.

أمـا **الحقيقة الأولى**، فهي الـتي صـرح بهـا مـا ورد في القـرآن الكـريم من النصـوص الكثـيرة الدالـة على حريـة إرادة الإنسـان ومسـؤوليته عن أعمالـه، كقولـه تعـالى: ﴿ مَنِ اهْتَـدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَـا يَضِـلُّ عَلَيْهَـا وَلا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الاسراء: 15)

ومثلها تلك الآيات التي تخبر عن السبل الـتي وضـحها اللـه تعالى للإنسان، كقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّا هَـدَيْنَاهُ السَّـبِيلَ إِمَّا شَـاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: 3]، وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَـدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَـانًا وَشَـفَتَيْنِ (9) وَهَـدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: 7 - 10]

ومثلها إخباره عن استحالة ظلمه لعبـاده، وأنهم هم الـذين يظلمون أنفسهم بسـبب اختيـاراتهم المنحرفـة، قـال تعـالى: ﴿ ذَلِـكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللـه لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ﴾ (آل

1() كنز الفوائد، (ص 170)
2() كنز الفوائد، (ص 202)
3() بحار الأنوار (5/ 51)

عمران:182)، وقال: وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (غافر: 31)، وقال: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (فصلت:46)، وقال: إِنَّ الله لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (يونس:44)، وقال: إِنَّ الله لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (النساء:40)، وقال: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً (طه:112)

وأما الحقيقة الثانية، وهي هيمنة الله تعالى على كونه جميعا، وتفرده بالحكم والتحكم فيه، فتدل عليه نصوص مقدسة كثيرة، منها تلك التي تخبر أن المشيئة الأولى والأخيرة لله تعالى، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام محاجته لقومه: وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي الله وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ [الأنعام: 80]

وفي أكثر المواضع القرآنية يجمع الله تعالى بين الحقيقتين، وهي نفسها [الأمر بين الأمرين]؛ فلذلك يعقب على أفعال العباد المكتسبة بأنها لم تحصل خارجة عن مشيئة الله، بل هي في إطار مشيئته، ليجمع القلب على التوحيد بعد تذكيرهم بمسؤوليتهم في عالم الأسباب.

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات ضرر السحر الذي هو فعل المكلف: فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ (البقرة: 102)، ثم تعقيبه بعدها بأن هذا الضرر لا يحصل إلا بإذن الله: وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله (البقرة: 102)

ومن ذلك قوله تعالى إثبات كسب المخالفين والمعادين لرسول الله ﷺ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً (الأنعام: 112)، ثم قوله بعدها في إثبات التوحيد: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ (الأنعام: 112))

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات كسب المشركين من قتل أولادهم التشنيع عليهم بذلك: وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ (الأنعام: 137)، ثم التعقيب على ذلك بالرد إلى التوحيد: وَلَوْ شَاءَ الله مَا فَعَلُوهُ (الأنعام: 137) (الانعام 6: 137)

ومن ذلــك قولــه تعــالى في إثبــات وقــوع الشــرك من المشـركين بنسـبتهم إلى الشـرك: ﴿ وَأَعْـرِضْ عَنِ الْمُشْـرِكِينَ﴾ (الأنعام: 106)، ثم قوله بعـدها في إثبـات أن شـركهم لا يخـرج عن مشيئة الله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكُوا﴾ (الأنعام: 107)

ومن ذلــك قولــه تعــالى في إثبــات كســب العبــد لمشــيئة الاســتقامة: ﴿ لِمَنْ شَــاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْــتَقِيمَ﴾ (التكــوير:28)، ثم تعقيبه بعدها بما يقتضـيه التوحيـد من إرجـاع مشـيئة العبـد إلى مشـيئة اللـه: ﴿ وَمَـا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللـه رَبُّ الْعَـالَمِينَ﴾ (التكوير:29)

ومن ذلك قوله تعالى في إثبات كسب العبـد ومشـيئته في السـلوك إلى اللـه: ﴿ إِنَّ هَـذِهِ تَـذْكِرَةٌ فَمَنْ شَـاءَ اتَّخَـذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الانسان:29)، ثم تعقيب ذلك بإرجاع المشيئة إلى الله: ﴿ وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللـه إِنَّ اللـه كَـانَ عَلِيمـاً حَكِيمـاً ﴾ (الانسان:30)

ومن ذلك قوله تعالى في إثبـات كسـب العبـاد في التـذكر بالقرآن الكـريم: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَـذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَـاءَ ذَكَـرَهُ (55)﴾ (المدثر)، ثم تعقيبه على ذلـك بإرجـاع المشـيئة إلى اللـه إثباتـا للتوحيد: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله هُـوَ أَهْـلُ التَّقْـوَى وَأَهْـلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (المدثر:56)

وغيرهـا من الآيـات الكريمـة الـتي يكفيـك ــ أيهـا المريـد الصادق ـ تأملها لتملأ نفسـك بحقـائق القضـاء والقـدر الجميلـة، الممتلئة بالتوحيد والحريـة والعدالـة والرحمـة، وهي وحـدها من يحميك من جدل المجـادلين وشـغب المشـاغبين.. وهي وحـدها من يملأ نفســك بالطمأنينــة والرضــا على ربــك العظيم العليم العدل الرحيم.

العدل والرحمة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عما ذكره بعضهم من غلبة الرحمة الإلهية على العدل، وأن الله تعالى في الآخـرة سيتجلى لعباده برحمته الشاملة المطلقة، ولـذلك يكتفي بتنفيـذ وعــده دون وعيــده، ليشــتمل النعيم المحســنين والمســيئين، والمقربين والمبعدين.

وذكرت لي أنه قرب ذلك بأن اللـه تعـالى لـو (فـوض أمـر خلقه إلى بعض عباده وقدّره ومكّنــه من التصـرف فيهم، وكـان خيّراً غنياً، لأزال العذاب عنهم، وهـذا الـراحم أنـا وامثـالي، وهـو تعالى أرحم الراحمين)[1]

وذكرت لي أنه استدل لذلك بأن الثنـاء لا يكـون إلا بصــدق الوعد، لا بصدق الوعيد، (والحضرة الإلهيّة تطلب الثّناء المحمود بالـذّات؛ فيثــني عليهــا بصــدق الوعــد، لا بصــدق الوعيــد، بــل بالتّجاوز، ولـذلك قـال تعـالى: فَلا تَحْسَـبَنَّ اللـه مُخْلِـفَ وَعْـدِهِ رُسُلَهُ [إبراهيم: 47]، ولم يقل ووعيده، بل قال: ونَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ [الأحقاف: 16] مع أنّه توعّد على ذلك)[2]

وذكرت لي من أشعارهم في هذا قول بعضهم:

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده	و ما لوعيد الحقّ عين تباين
و إن دخلوا دار الشّقاء فإنّهم	على لذّة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد	و بينهما عند التّجلّي تباين
يسمّى عذابا من عذوبة طعمه	و ذاك له كالقشر والقشر صائن

وذكرت لي أن العمدة في كل هذا تعود لتلـك المكاشـفات الــتي حصـلت للصـالحين؛ فجعلتهم يــرون الحقـائق رأي العين، ولذلك لا يمكن البرهنة على ما ذكروه إلا بسلوك الطريق الــذي سلكوه.

وجوابا على سؤالك الوجيـه، وذلـك بالتسـليم الجـدلي لمـا ذكـرت، وأنـه لا يمكن التعـرف على هـذه الغيبيـات إلا من خلال الكشف والمشاهدة والترقي؛ فهذا يخالف ما ذكروه من جهتين:

1() الشواهد الربوبية، ص319.

2() جواهر النصوص فى شرح الفصوص، ج 1، ص: 331.

أولا ــ كـان الأصـل تـركهم لـذكر هـذا ومثلـه؛ فلا يُبث في الكتب، ولا ينشر بين الناس، لأنه ـ كما يـذكرون ــ علم الخاصـة الـذي يصـلون إليـه عن طريـق الكشـف؛ فنشـره يحولـه من مشاهدة وكشف خاص بالثلة القليلة من الصـالحين إلى عقيـدة جديدة، والعقائد لا تبنى على الكشف، وإنمـا تبـنى على الـوحي المعصوم.

ثانيا ـ أنهم بنشرهم مثل هذه المقـالات ــ حـتى في حـال صحتها ـ يخالفون مقصد الشارع، ويحطمـون كـل تلـك الزواجـر التي استعملها الله تعـالى ليملأ القلـوب ورعـا وتقـوى.. فيكـون الخوف من الله أو الخوف من عذابه هو السـوط الـذي يحميهم من شر أنفسهم، وقد يكون هو الوسيلة التي تقربهم إلى ربهم، وتنقل نفوسهم من عالم الدنس إلى عالم الصفاء.

ذلك أنه من البديهيات التي تتوافق عليها العقــول أن القيم السـلوكية الرفيعـة تحتـاج إلى حـوافز، تـدفع إلى العمـل بهـا، وعقوبــات تنفــر من الوقــوع في أضــدادها؛ فــإذا مــا رفعت العقوبـات، ولم تبـق إلا الحـوافز الـتي يسـتوي فيهـا العـاملون والمقصرون، لن تبقى أي قيمة، بل لن يبقى أي دين.

فهل يمكن أن يستقيم أمر دولـة تضـع القـوانين المشـددة للجـرائم، ثم يـأتي أئمتهـا وخطباؤهـا ومفكروهـا ليقولـوا لعامـة الناس: لا تخـافوا؛ فكـل تلـك العقوبـات المسـطرة لن تحصـل؛ فالحاكم رحيم وصاحب قلب طيب، وقد وسع برحمته كل رعيته صالحهم ومجـرمهم، بـرهم وفـاجرهم، ولـذلك فسيصـدق معكم في كـل وعـوده، ولا تلومـوه إن لم يصـدق وعيـده؛ فـالكرام لا يفون بالوعيد، وإنما يفون بـالوعود فقـط.. فهـل يمكن أن تبقى في هـذه المدينـة بعـد هـذا أي قيم رفيعـة، أو أخلاق عاليـة، أو نظام محكم؟

هذا بناء على التسليم الجدلي لما ذكره، وهو كاف لجعلهم يخالفون مقاصد الشارع، سواء في ترغيباتـه وزواجـره الدافعـة إلى التنافس على العمل الصالح، أو في تحـويلهم العلم اللـدني كما يذكرون إلى عقائد يشترك في ادعائها الناس جميعا.

أما المخالفة الثانية؛ فهي أخطر وأشـد، ذلـك أنهم ــ بتلـك الدعاوى التي طرحوها، والتي تستند إلى الكشف والشهود كمـا يذكرون ـ يقضون على الكثير من النصوص المقدسة، ويحولـون منهـا إلى مجـرد ألفـاظ لا معـاني لهـا، وهـو مـا يسـقط هيبتهـا،

ويحولها مجالا لكل من يريد التلاعب بها.

وقد وقعوا بذلك ـ من حيث لا يشعرون ـ في ذلـك التفكـير الرغبوي الذي وقع فيه أهل الكتاب، والـذين وصـف اللـه تعـالى دعـاواهم، فقـال: ﴿ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُواْ لَن تَمَسَّـنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًـا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون﴾ [آل عمران:24].

والآية الكريمـة تشير إلى ذلـك [التفكـير الرغبـوي]، الـذي عبر عنه قولـه تعـالى: ﴿ وَغَـرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَـانُواْ يَفْتَـرُون﴾، والذي قد يكون عمدتهم فيها رؤى منامية، أو إلهامات روحية، أو كشوف ومشاهدات إشراقية.. بعيدا عن الوحي الإلهي.

ذلك أن التفكير الرغبوي ـ أيها المريد الصادق ــ قـد يظهـر بصور مختلفـة.. فيظهـر للفيلسـوف في صـورة تـرتيب منطقي ممتلئ بالحجج.. ويظهر للصوفي صـورة كشـف وشـهود.. وهـو في الحقيقة لم يشاهد إلا ما في نفسه من رغبات، أو في عقله من معارف ورثها عن بيئته.. وكذلك الفليسوف الـذي حـول من معارفه حقائق بديهية ألزم بها غيره، مع أنها ليست سوى وليدة عقله.

ولذلك فإن دين البشر ـ المعتمـد على مثـل تلـك المصـادر غير المعصومة ـ يتبنى مثل تلك الأفكـار، ثم يفرضـها على ربـه، ويتألى عليه، ويتصور أن الجنة والنار صارت بيده، لا بيد ربه.

وما ذكره القرآن الكريم عن اليهود، هو نفسه ما وقـع فيـه النصارى، فقد ورد في [رسـالة يوحنـا الرسـول الأولى 2:ـ 1)]: (يا أولادي أكتب إليكم هـذا لكي لاتخطئـوا وإن أخطـأ أحـدٌ فلنـا شفيع عند الأب، يسوع المسيح البار، وهو كفارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً)

وبناء على هذه المقولة وغيرها ذهبت كـل تعـاليم المسـيح والقيم النبيلة التي جاء بها أدراج الرياح، ذلك أن السـوط الـذي جعله الله لتأديب عباده، وهو جهنم، وعذابها الشديد، صار ملغيـا بفعل تلك المفاهيم الإرجائية.

ونفس الشيء حصـل للمسـلمين في عهـدهم الأول، حيث تحول الكثير منهم إلى فرق إطفاء لجهنم، وسعيرها، بل إلغائهـا أصلا، واعتبـار أن كـل تلـك التهديـدات الـتي وردت في القـرآن الكريم، ولأبسط التجاوزات والذنوب مجـرد تهديـدات لفظيـة لا قيمة لها..

وانتشر بينهم أن رحمة الله واسعة.. ولطفه بعباده عظيم..

وأنــه يكفي أن يتحقــق الإيمــان باللــه ورســوله، لتتــنزل بعــده السعادة المطلقة، ولا يهم بعد ذلك، هل كان ذلك الإيمان مجرد أقوال تقال، أو حركات تـؤدى، أو كـانت قيمـا يعيشـها صـاحبها، ويضحي بكل شيء من أجلها.

لقد انتشر في ذلك الحين مثل تلك الأحاديث التي لا تعطي أي قيمــة للعمــل، ولا للســلوك الأخلاقي مثــل حــديث: (أتــانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق)(1)

وهكذا انتشرت مثل هـذه النصـوص الإرجائيـة، لتحـول من الزنا والسرقة وشهادة الزور وكـل الجـرائم الإنسـانية بمـا فيهـا القتل نفسه شـيئا بسـيطا لا أهميـة لـه، مـع أن اللـه تعـالى في القرآن الكريم يتوعد بالعذاب الشديد لأجل قضايا بسـيطة جـدا، لا تساوي أمامها تلك الجرائم شيئا.

ثم جاء بعـد ذلـك من يـدّعون الكشـف والشـهود، ليقضـوا على ما بقي من الزواجر الـتي وردت بهـا النصـوص المقدسـة، ويصـبح الحـديث عن العـذاب أو جهنم دليلا على عـدم المعرفـة بالله، وكأن الله تعالى الذي تجلى لعبـاده في كتابـه لم يكن هـو الإله الذي دلت عليه الحقائق.

مع أن الله تعالى يقـول في القـرآن الكـريم: ﴿نَبِّئْ عِبَـادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَـذَابِي هُـوَ الْعَـذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجـر: 49 ـ 50)، ويقول: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ﴾ (الأعــراف:156)، ويقــول: ﴿وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم:7)

وغيرهـا من الآيـات الكريمــة الـتي تجمـع بين عـدل اللـه ورحمته؛ فالعدل لا يقضي على الرحمة، وإنما يكملها، والرحمــة لا تقضي على العدل، وإنما تنتظم معه في سلك واحد.

ذلــك أن الرحمــة بـالمجرم تنـافي العدالـة، وتسـيء إلى المظلوم البريء؛ فلذلك كانت رحمة الـبريء تقتضـي القصـاص من المجرم.. بل إن رحمة المجرم نفسـه تقتضـي تخليصـه من ذلـك الإجـرام الـذي وقـع فيـه بالعقوبـة المناسـبة لـه، مثلمـا يستأصل الداء بالألم والجراحة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فإني أحــذرك من أن تضع كتاب ربك، وكلماته المقدسة وراء ظهرك، وتتوهم أن تلـك

(1) رواه البخارى (6/2721، رقم 7049) ومسلم (1/94، رقم 94)

العقول القاصرة، أو النفوس المدنسة غير المعصومة، يمكنها أن تنسخ حرفا واحدا من كتاب ربك أو سنة نبيك ﷺ.

ذلك أن العقل أو الكشف أو أي وسيلة من الوسائل التي يحاول بها العقل البشري المحدود الوصول إلى حقائق الوجود بعيدا عن الوحي الإلهي ستوقعه في الضلال والتيه، ذلك أن الله تعالى ضمن العصمة في كلامه، ولم يضمنها في غيره، لاستيلاء الأهواء، وامتزاجها بالوساوس الشيطانية، وقصور العقل الإنساني بمراتبه المختلفة عن إدراك الحقائق بصورتها الصحيحة الكاملة.

ولو أنك ـ أيها المريد الصادق ـ رجعت إلى ذلك التشبيه الذي ذكرته لي لوجدته كافيا لرد هذه المقولة، ذلك أنه قاس الله تعالى على بعض خلقه ممن غلبت عليه الرحمة، وربما قصر في العدل، ولو أنه قاسه على من غلب عليه العدل لذكر غير ذلك، وهذا ما ذكره كل الحكماء الذين توفر لديهم التسليم المطلق لله؛ فلذلك تأدبوا في حضرته، ولم يكن لهم تدبير غير تدبيره، وقد قال بعضهم في ذلك: (أمن الممكن لربّ هذا العالم ومالكه الذي أظهر بآثاره كرما بلا نهاية، ورحمة بلا نهاية، وعزة بلا نهاية، وغيرة بلا نهاية، أن لا يقدّر مثوبةً تليق بكرمه ورحمته للمحسنين، ولا يقرر عقوبةً تناسب عزته وغيرته للمسيئين)(1)

وقال: (أمن الممكن لخالق ذي جلال أظهر سلطان ربوبيته بتدبير قانون الوجود ابتداء من الذرات وانتهاء بالمجرات، بغاية الحكمة والنظام وبمنتهى العدالة والميزان.. أن لا يعامِل بالإحسان من احتموا بتلك الربوبية، وانقادوا لتلك الحكمة والعدالة، وأن لا يجازي أولئك الذين عصَوا بكفرهم وطغيانهم تلك الحكمةَ والعدالة.. بينما الإنسان لا يَلقى ما يستحقه من الثواب أو العقاب في هذه الحياة الفانية على وجه يليق بتلك الحكمة وتلك العدالة إلاّ نادرا، بل يؤَخَّر، إذ يرحل أغلبُ أهل الضلالة دون أن يلقوا عقابهم، ويذهب أكثرُ أهل الهداية دون أن ينالوا ثوابهم.. فلابد أن تُناط القضيةُ بمحكمة عادلة، وبلقاءٍ آيل إلى سعادة عظمى) (2)

وهذا الذي ذكره هو الذي يتناسب مع النصوص المقدسة،

---

(1) الكلمات، ص 67.

(2) المرجع السابق، ص 70.

والتي امتلأت بكل صيغ الـردع للظـالمين والمجـرمين وكـل من ترك السراط المستقيم ليتبع السبل المنحرفة.

فقـارون بين مـا ذكرتـه من أقـوال، وقولـه تعـالى في المتمردين عليه وعلى رسوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُـولَهُ وَيَتَعَـدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَـهُ عَـذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النسـاء: 14]؛ فالله تعالى وصف عذابه بكونه مهينا، وليس مؤلما فقط.

ومثـل ذلـك قـال في عقوبـة البخـل وكتمـان فضـل اللـه: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَـا آتَـاهُمُ اللـه مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 37]

وقـال في الكفـر بمختلـف أنواعـه ومظـاهره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُـرُونَ بِاللـه وَرُسُـلِهِ وَيُرِيـدُونَ أَنْ يُفَرِّقُـوا بَيْنَ اللـه وَرُسُـلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَـافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَـدْنَا لِلْكَـافِرِينَ عَـذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء: 150، 151]

وقـال في المكـذبين بآيـات اللـه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الحج: 57]

وغيرها من الآيات الكريمة الـتي تصـف الإهانـات العظيمـة التي يتعرض لها المعرضون عن الله، أو عن القيم التي جاء بها.

أما ما ذكرت من أن تلـك الإهانـات، ومثلهـا العـذاب الـذي يعانونه، كانت صورته صورة عـذاب، لكن حقيقتـه كـانت نعيمـا، ولذلك لم يكونوا يشـعرون بـه إلا كمـا يشـعرون بـالنعيم.. فـإن القرآن الكـريم يفنـده بـذكر الكثـير من مظـاهر السـخط والألم النفسي التي يعانيها المسيئون في دار الجزاء نتيجة اختيـاراتهم التي اختاروها في الدنيا.

ومن أهم تلك المظاهر تلك الحسرات التي لا تنتهي، والتي نجد القرآن الكريم يحذر منهـا أهـل الـدنيا كثـيرا حـتى لا يقعـوا فيها، ومنها قولـه تعـالى: ﴿ وَاتَّبِعُـوا أَحْسَـنَ مَـا أُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُـولَ نَفْسٌ يَاحَسْـرَتَا عَلَى مَـا فَـرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللـه وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّـاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُـولَ لَـوْ أَنَّ اللـه هَـدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَـرَّةً فَـأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) ﴾ [الزمر: 55 - 58]

ومن تلـك الحسـرات ذلـك الألم الـذي يعـتريهم بسـبب الخسارة العظيمة التي خسروها، والتي لا يمكن أن تعوض أبدا،

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: 15].

وهكذا يذكر القرآن الكريم مشاهد كثيرة عن تلك الحسرات ومشاعر الندم التي يعبر بها المسيئون عن سوء المصير الذي اختاروه لأنفسهم، وذلك عند تذكرهم لكل موقف من مواقف السوء، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: 27 - 29]

وهكذا يخبر الله تعالى عن خطاب الملائكة لهم، والمملوء بكل أنواع الشدة، جزاء لهم على شدتهم وقسوتهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: 49، 50]

ويخبر القرآن الكريم عن تلك الآلام الشديدة التي يعاني منها المسيئون، والتي تجعلهم يطلبون من الملائكة أن يطلبوا من الله تعالى القضاء عليهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف: 74 - 78]

وهكذا يذكر القرآن الكريم تلك الحوارات الكثيرة التي تجري بين المسيئين، والتي يستعيدون فيها جرائمهم التي مارسوها في الدنيا، ويلقي بعضهم على بعض اللوم بسببها.

ومن تلك المشاهد ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48)﴾ [غافر: 47، 48]

ومنها ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ

اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: 31 - 33]

ومنها ما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: 21]

وغيرها من النصوص المقدسة الكثيرة التي ترد كل ما ذكره أولئك المرجئة الذين راحوا يبدلون الكلم عن مواضعه، ويضعون العقائد البديلة عن العقائد التي وردت في الوحي المعصوم المقدس.

وعلى هذا المنهج سار أئمة الهدى، الذين هم الورثة الحقيقيون للنبوة والكتاب؛ فقد وردت عنهم النصوص الكثيرة المحذرة من عذاب الله، بل ورد عنهم ما يدل على خوفهم منه مع ما آتاهم الله من التقوى والصلاح.

وكمثال على ذلك ما قاله الإمام الحسين ـ سيد شباب أهل الجنة ـ في دعاء يوم عرفة، فقد قال: (يا أسمع السامعين، ويا أبصر الناظرين، ويا أسرع الحاسبين، ويا أرحم الراحمين، صل على محمد وآل محمد، وأسألك اللهم حاجتي التي إن أعطيتنيها لم يضرني ما منعتني، وإن منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني، أسألك فكاك رقبتي من النار) (1)

فانظر ـ أيها المريد الصادق ـ إلى هذا الذي اجتمعت له الولاية بكل أركانها، وكان فوق ذلك سبط النبي ﷺ، وقدم كل التضحيات في سبيل الله، ولكنه مع ذلك سأل الله تعالى أن ينجيه من العذاب.. فقارن بين هذا الولي الذي لا شك في ولايته.. وبين أولئك المدعين الذين يسخرون من عقوبات الله، ويستهزئون بوعيده، ويتوهمون أن كشفهم وشهودهم أعظم صدقا من وحي الله، المنزل على خير خلقه.

فإن شككت في الدعاء والرواية التي وردت به، فاقرأ قوله تعالى في وصف خيرة خلقه الذين سماهم [عباد الرحمن]: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا

---

(1) من دعاء الإمام الحسين في عرفة، إقبال الأعمال ص: 52.

وَقِيَامًـا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا اصْـرِفْ عَنَّا عَـذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَـذَابَهَا كَـانَ غَرَامًـا (65) إِنَّهَـا سَـاءَتْ مُسْـتَقَرًّا وَمُقَامًـا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًـا (67)﴾ [الفرقان: 63 - 67]

وقال في وصف مجلس من مجالس أهـل الجنـة، يـذكرون فيه سبب تنعمهم فيهـا: ﴿وَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَـاءلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الطور: 25 ـ 28)

ولذلك إن أردت الحزم والكياسة والفطنة، فـاتبع السـراط المسـتقيم الـذي تمثلـه النبـوة وورثتهـا، واحـذر من كـل سـبيل يخالفها، وقد قال رسول الله ﷺ: (الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه وهواها وتمنى على الله الأماني) (1)

(1) الترمذي 4/ 219 ح (2459)

الجلال والجمال

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عما وردت الإشارة إليه في النصوص المقدسة من صفات الجلال والجمال الإلهي، وحقيقتها، وأثر المعارف المرتبطة بها في النفس المطمئنة، وسر علاقتها برضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أنه لا يمكن تأسيس علاقة صحيحة مع الله تعالى من دون التعرف عليه بحسب الواقع الذي وصف نفسه به، لا بحسب ما تشتهيه الأنفس، أو ترغب فيه الأهواء.. فالأهواء لا يمكنها أن تغير الحقائق، ولا أن تبدل الواقع.

وعندما نرجع إلى النصوص المقدسة، ومثلها عندما ننظر إلى عوالم الآفاق والأنفس، نجد ما يسمى [الجلال والجمال] واضحا متجليا في كل شيء، ولهذا تمر نفوسنا بأحوال مختلفة؛ فنحن نفرح للربيع وأزهاره وثماره، فنمتلئ أنسا وراحة وسعادة، وهذا ما يطلق عليه وصف [الجمال].. كما أننا نمتلئ هيبة من الصواعق والزلازل والبراكين، وكل ما نخاف أن يصيبنا بالأذى، وهو ما يطلق عليه [الجلال]

وكلا الأمرين قد يتواردان على نفوسنا في محل واحد؛ فنشعر بالجمال في نفس الوقت الذي نشعر فيه بالجلال، لأن الجمال لا يناقض الجلال، وإنما يكمله.

ولهذا إن رأينا رحيما حنونا لطيفا شعرنا في نفوسنا بجماله، وامتلأنا أنسا به، لكنه إن قُهر وظُلم وأوذي، ولم يستطع أن يدافع عن نفسه، أثر فينا ذلك، وتمنينا لو اختلط جماله ببعض الجلال الذي يحميه، ولذلك كان الكمال في اجتماع كلا الوصفين.

ولذلك كان الذين يكتفون من الله تعالى بأوصاف الجمال دون الجلال واقعين في أوهام كثيرة، أخطرها عدم تعظيمهم لله تعالى، أو توقيره حق توقيره، كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: 13، 14]، فالتوقير ـ كما يستدعي الفرح بالموقر والأنس به ــ يستدعي كذلك تعظيمه والهيبة منه والخشية من ارتكاب أي شيء قد يغضبه.

ومثل ذلك الذين يغلبون الجلال في تعاملهم مع الله تعالى، ذلك أنه يحرمهم من معرفة الحقيقة كما هي، كما يحرمهم من التواصل مع الله تعالى بالحب والأنس والشوق وغيرها، وهي كلها مرتبطة بالجمال الإلهي.

والكمال هو الجمع بين الجمال والجلال.. وهو ما دل عليه الواقع، وما دلت عليه معه النصوص المقدسة التي يختلط فيها ذكر الجمال والجلال.

ولهذا اتفق الحكماء على توارد كلا المعنيين في نفوس السالكين، وقد قال بعضهم في ذلك: (اعلم إنه عز وجل يكاشف القلوب مرة بوصف جلاله، ومرة بوصف جماله، فإذا كاشفها بوصف جلاله، صارت أحوالها دهشاً في دهش، وإذا كاشفها بوصف جماله صارت أحوالها عطشاً في عطش.. فمن كاشفه بجلاله أفناه، ومن كاشفه بجماله أحياه، فكشف الجلال يوجب صحواً وغيبة، وكشف الجمال يوجب صحواً وقربة.. فالعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا، فمن غاب فهو مهيم، ومن طاب، فهو متيم)(1)

وهم يذكرون اختلاط الجلال بالجمال، ذلك أن لكل منهما علاقة بالآخر، فالجلال مظهر من مظاهر الجمال، والجمال مظهر من مظاهر الجلال، قال بعضهم معبرا عن ذلك: (كل من هاتين الصفتين [الجلال والجمال] فيها من الصفة الأخرى، لأن الموصوف بها واحد، فالجمال باطنه جلال، والجلال باطنه جمال، ولا يزال الأمر هكذا إلى أبد الآبدين)(2)

وذكر آخر ما يدل على هذا من عالم الآفاق، فقال: (يلاحظ المتأمل للوجود ظواهر تعكس معاني الجمال والرحمة والعطاء، كما يلاحظ ظواهر تعكس معاني الجلال والعظمة، ويلاحظ المتأمل للوجود ظواهر تعكس معاني الجمال والرحمة والعطاء، كما يلاحظ ظواهر تعكس معاني الجلال والبطش والمنع والإذلال، والمدهش أن الكثير من هذه المظاهر التي تبدو متناقضة هي إفراز لمنظومات واحدة؛ فنجم الشمس الذي هو مفاعل نووي مهلك يعمل بآلية الاندماج النووي، هو الشمس التي تقوم على طاقتها الحياة في الأرض، ويسحرنا جمالها

1() د. إبراهيم بسيوني، سيرته، آثاره، مذهبه في التصوف، ص 304.

2() الشيخ عبد الغني النابلسي، أسرار الشريعة أو الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص 190.

وقت الشـروق والغـروب.. إن هـذه الملاحظـة مـا هي إلا مثـال للجمع بين صفتي الجمال والجلال، ومثال لكيفيـة تحـول الجلال إلى جمـال، وذلـك بوجـود الغلاف الجـوي لكـوكب الأرض الـذي يحجب عنا الأشـعة الكونيـة المـدمرة. إنهـا مثـال للكمـال الـذي يجمـــع بين الجمـــال والجلال، ولا يمكن أن يكـــون الجمـــع بين منظومتي الجمال والجلال في الكون إلا إفرازاً لصفات الجمـال والجلال لموجد الكون ومدبره) [1]

وهكذا؛ فإن للأحوال النفسية دورها في التعامل مـع هـذين الوصفين، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (إذا أردت أن يسهل عليك الجلال، فقابله بضده وهو الجمال، فإنـه ينقلب جمـالاً في ساعته. وكيفية ذلك: أنه إذا تجلى باسـمه القـابض في الظـاهر، فقابله أنت بالبسط في البـاطن، فإنـه ينقلب بسـطاً. وإذا تجلى لك باسمه القوي، فقابله أنت بالضـعف.. وهكـذا يقابـل الشـيء بضده قياماً بالقدرة والحكمة)[2]

وقال آخـر: (الجلال والجمـال وصـفان للـه تعـالى، والهيبـة والأنس وصفان للإنسان، فإذا شاهدت حقـائق العـارفين الجلال هــابت وانقبضــت، وإذا شــاهدت الجمــال أنســت وانبســطت، فجعلوا الجلال للقهـر والجمـال للرحمـة وحكمـوا في ذلـك بمـا وجدوه في أنفسهم.. فالجلال لله: معنى يرجـع منـه إليـه، وهـو الذي منعنا من المعرفة به تعالى.. والجمـال: معـنى يرجـع منـه إلينا، وهو الذي أعطانا هذه المعرفة التي عندنا به) [3]

لكن السبب الأكبر في تجليات الجمال والجلال هي أسـماء الله الحسنى؛ فذكر الرحمن، الرحيم، الحميد، الـودود، الـرزاق، المغـــني، المجيب، الفتاح، المحي، المعـــز، النـــافع، الباســـط، المعطي، الخالق، البارىء، المصور، الشـكور، الجـواد، الكـريم، المنعم، الوهـــاب، المغيث، النـــور، الهـــادي، الشـــافي، العفـــو، الغفور، الحليم..وغيرها، يملأ القلب أنسا وشعورا بالجمال.

وذكر المميت، المذل، الخـافض، الضـار، المـانع، القـابض، القهار، المنتقم، الجليل، المتكبر، المتعـال، وغيرهـا، يملأ القلب هيبة وتعظيما وشعورا بالجلال.

1() الوجود رسالة توحيد.

2() الشيخ إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 23.

3() عبد الكريم الجيلي، الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من الأنوار، ص 171، 173.

وقد يكون في الاسم الواحد الدلالتين جميعا، بحسب تفسيره، مثل اسم [الجبار] الذي يعني البطش بالظالمين والمتكبرين، ويعني في نفس الوقت جبر وإصلاح حال الضعفاء والمنكسرين.

ولتعرف ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم لأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته العليا الواردة في النصوص المقدسة تقسيمات مختلفة، منها ما يرجع إلى سلب ما لا يليق بالله تعالى وتنزيهه عن كل ما يتنافى مع الألوهية، كاسم الواحد الذي ينفي عنه الشريك، والأحد الذي ينفي عنه التركيب، وهكذا الكثير من أسمائه كالقدوس والسلام والمؤمن والتي تنفي عنه التشبيه والتجسيم وغيرها مما لا يليق بعظمته وكماله.

ومنها أسماء تصف الله تعالى بما تقتضيه الألوهية من صفات، ككونه حيا عليما مريدا قادرا سميعا بصيرا متكلما.. وغير ذلك من الصفات الثبوتية المرتبطة بالذات الإلهية.

ومنها أسماء ترتبط بأفعال الله، والتي تستند إلى الصفات الثبوتية، ومن أمثلتها كونه خالقا بارئا مصورا بديعا.. فكل هذه الصفات تستند للعلم والإرادة والقدرة الإلهية.

وبما أن لهذه الأسماء جميعا تأثيراتها المختلفة في النفوس، فقد قسمت بهذا الاعتبار إلى أسماء جلال، وأسماء جمال، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78]، والتي فسرت تفسيرات مختلفة، يمكن اعتبارها جميعا، ذلك أن الجلال والجمال ـ كما ذكرت لك ـ ليسا من الصفات المتنافرة المتناقضة، بل هما قد يتواردان في محل واحد، فيكون الجمال عين الجلال، والجلال عن الجمال.

ومن تلك التفسيرات ما ذهب إليه بعض الحكماء من اعتبار صفات الجلال مرتبطة بتنزيه الله تعالى، وصفات الجمال مرتبطة بصفات الكمال.. ذلك أن البهاء والرحمة والكمال والثبوت مناسب للجمال، ونفي النقص والحاجة مناسب للجلال والعظمة والكبرياء والعلو والرفعة، (فصفة الجلال ما جلّت ذاته عن مشابهة الغير، وصفة الإِكرام ما تكرمت ذاته بها وتجملت) (1)

ومن أقوالهم في الجلال الإلهي وآثاره في النفس قول

---

(1) الحكمة المتعالية في الاسفار العقلية الأربعة، ج 6، ص 118.

بعضهم: (جلال الله: عبارة عن صفات العظمة، والكبرياء، والعز، والاعتلاء، والمجد، والسناء.. والجمال: عبارة عن صفات الرحمة، واللطف، والرأفة، والعطوفة، والجود، وأمثالها.. والحق سبحانه باعتبار جلاله: لا يمكن ظهوره لأحد، وحكمه: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار... فإن العزيز: هو المنيع الحمي، والجليل: هو الذي لا يعرف ولا يوصف، فلو ظهر لأحد لم يكن عزيزاً وجليلاً) (1)

ولهذا عرفوا (الجليل)، بأنه (الموصوف بنعوت الجلال.. ونعوت الجلال: هي الغنى، والملك، والتقدس، والعلم، والقدرة، وغيرها من الصفات)(2)

وقال آخر: (الجليل هو الذي جل، أي: عظم من قصده، وذل من طرده.. وقيل: هو الذي جل قدره في قلوب العارفين، وعظم خطره في نفوس المحبين.. وقيل: هو الذي أجلّ الأولياء بفضله، وأذل الأعداء بعدله)(3)

وقال آخر: (الجليل هو المنعوت بنعوت العظمة الذي عظم شأنه وظهر أمره، فلا يوازيه غيره، ولا يدانيه في ذات ولا صفة ولا فعل)(4)

وقال آخر: (الجليل هو الكامل في ذاته وجميع صفاته، أو العظيم القدر الذي له الجلال والعظمة والكمال في ذاته وجميع صفاته، أو الذي يستحق أن يعترف بجلاله وكبريائه العاقلون، ولا يجحدوا ألوهيته ولا يكفروا به)(5)

ومن أقوالهم في الجمال الإلهي: (الجمال هو تجلي القلوب بالأنوار، والسرور، الألطاف، والكلام اللذيذ، والحديث الأنيس، والبشارة بالمواهب الجسام، والمنازل العالية، والقرب منه عز وجل)(6)

وقال آخر: (الجمال: هو نعوت الرحمة والألطاف من الحضرة الإلهية بإسمه الجميل، وهو الجمال الذي له الجلال المشهود في العالم)(7)

1() عبد الحميد التبريزي، البوارق النورية، ص59.
2() المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص 104.
3() عبد العزيز يحيى، الدر المنثور في تفسير أسماء الله الحسنى بالمأثور، ص 58.
4() فاتق الرتق على راتق الفتق، ص 252.
5() حسنين محمد مخلوف، أسماء الله الحسنى والآيات الكريمة الواردة فيها، ص 58.
6() عبد القادر الكيلاني، فتوح الغيب (بهامش قلائد الجواهر للتادفي) ص 17، 18.
7() الفتوحات المكية، ج 2 ص 133.

وقال آخر: (الجمـال: هـو نعت الرحمـة، والرقـة، والرأفـة، والمحبة)[1]

وقـال آخـر: (الجمـال: هـو أول التجليـات الإلهيـة الثلاثـة، الجمال والجلال والكمال، وفيه يرى الصوفي بعين قلبه، أن كـل مـا في الوجـود هـو تبـديات للجمـال الإلهي، ويشـهد في كـل المظاهر أثـر جمـال اللـه المطلـق، وهنـا يرتفـع حكم القبح، ولا يبقى غـير حكم الحسـن الشـهودي بقولـه: مـا رأيت شـيئاً إلا ورأيت الله فيه)[2]

وقال آخر: (جمال الله تعالى: هو عبارة عن أوصافه العليـا وأسمائه الحسنى هذا على العموم، وأما على الخصوص: فصفة الرحمــة وصــفة العلم وصــفة اللطــف والنعم وصــفة الجــود والرزاقية والخلاقية وصفة النفع وأمثال ذلك كلها صفات جمال. وثم صـفات مشـتركة لهـا وجـه إلى الجمـال ووجـه إلى الجلال، كاسمه الرب، فإنه باعتبار التربية والإنشاء اسم جمال، وباعتبار الربوبية والقدرة اسم جلال، ومثله اسم اللـه واسـمه الـرحمن، بخلاف اسمه الرحيم: فإنه اسم جمال، وقس على ذلك)[3]

وقال آخر:(الجميل محبوب والجميـل المطلـق هـو الواحـد الذي لا ندّ له، الفرد الذي لا ضدّ له، الصـمد الـذي لا منـازع لـه، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل مـا يشـاء، ويحكم مـا يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، العالم الـذي لا يعـزب عن علمه مثقال ذرّة في السموات والأرض، القـاهر الـذي لا يخـرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشـه رقاب القياصرة، الأزلي الذي لا أول لوجوده الأبدي الذي لا آخـر لبقائـه، الضـروري الوجـود الـذي لا يحـوم إمكـان العـدم حـول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كـل موجـود بـه، جبـار السـموات والأرض، خـالق الجمـاد والحيـوان والنبـات، المنفـرد بـالعزة والجـبروت، والمتوحـد بالملـك والملكـوت، ذو الفضـل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال)

وقال آخر:(والله عز وجل له الكمال المطلق من كل وجـه الذي لا نقص فيه بوجه ما، وهو سبحانه الجميـل الـذي لا أجمـل منه، بل لو كان جمال الخلق كلهم على رجل واحد منهم وكـانوا

1() محمد ماضي ابو العزائم، شراب الأرواح، ص 19.
2() د. يوسف زيدان، ديوان عبد القادر الجيلاني، ص 143.
3() الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، ج 1ص 53.

جميعهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قط نسبة إلى جمال الله، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلى حذاء جرم الشمس، ولله المثل الأعلى)

ورد بعضهم على من يقصرون الحب على الجمال الحسي، وذلك بسبب عدم إدراكهم لحقيقة الجمال، فلذلك يتوهمون أن العلاقة بالله هي علاقة الطاعة والعبودية، وأن معنى محبة الله طاعته، فقال: (اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان، فإنّ الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا متشكلاً ولا متلوناً مقدّر فلا يتصوّر حسنه، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوباً) (1)

ثم يذكر أن هذا خطأ واضح؛ فالجمال يمكن أن يكون في أي شيء، فنقول:(هذا خط حسن، وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن، وهذا ثوب حسن وهذا إناء حسن)، وهذه الأشياء قد تدرك بالعين وقد لا تدرك بها، وهو يدل على أن الجمال ليس قاصرا على رؤى العين، وليس قاصرا كذلك على شيء بعينه.

ثم بين أن (كل شيء جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر) (2)

فكل شيء حسنه اللائق به، والذي تجتمع فيه جميع كمالاته، فحسن الفرس ــ مثلا ــ هو أن يجمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كرّ وفرّ عليه، وحسن الخط هو أن يجمع كل ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها.

فلكل شيء كماله الذي يتناسب معه، والذي قد لا يتناسب مع غيره، فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به

1() إحياء علوم الدين (4/ 298)
2() إحياء علوم الدين (4/ 299)

الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

وهـــذا الحســـن النـــاتج عن الكمـــال لا يتعلـــق فقـــط بالمحسوســات، بــل إن الحســن والجمــال موجــود في غــير المحسوسات، فيقال:(هذا خلق حسن، وهذا علم حسـن، وهـذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة)

وكل هذه المعاني التي يتفق البشـر على جمالهـا محبوبـة، والموصوف بها محبـوب بـالطبع عنـد من عـرف صـفاته، ولهـذا جبلت الطبـاع السـليمة على حب الأنبيـاء عليهم السـلام وحب الصالحين والعلماء، مع أنهم لم يروهم.

ويذكر مثلا معاصرا له، وهو ما يفعله المتعصبون للمـذاهب من مظاهر تدل على مدى حبهم لأئمتهم، فقال:(حتى أنّ الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حدّ العشـق فيحملـه ذلـك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعـه، فكم من دم أريـق في نصرة أرباب المذاهب) [1]

وهـذا الحب المفـرط البـالغ درجـة العشـق لا يرتبـط بحب الصورة، يقول:(وليت شعري من يحب الشافعي مثلاً فلم يحبـه ولم يشاهد قط صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صـورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظـاهرة، فـإنّ صـورته الظـاهرة قـد انقلبت ترابـاً مـع التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الـدين والتقـوى وغـزارة العلم والإحاطـة بمـدارك الـدين وانتهاضـه لإفـادة علم الشـرع ولنشره هذه الخيرات في العـالم، وهـذه أمـور جميلـة لا يـدرك جمالها إلا بنور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها) [2]

ومثل ذلك من يحب غيره ويفضله ويتعصب له، فــإن حبهم لا يرجــع إلا (لاستحســان صــورهم الباطنــة من العلم والــدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره)

وقـد حـاول حصـر تلـك الصـفات الباعثـة على المحبـة في صفتي العلم والقدرة، فقال:(وتلـك الصـفات ترجـع جملتهـا إلى العلم والقـدرة إذا علم حقـائق الأمـور وقـدر على حمـل نفسـه عليهـا بقهـر شـهواته، فجميـع خلال الخـير يتشـعب على هـذين الوصفين، وهما غير مدركين بالحس، ومحلهما من جملـة البـدن

1() إحياء علوم الدين (4/ 299)

2() إحياء علوم الدين (4/ 300)

جـزء لا يتجـزأ فهـو المحبـوب بالحقيقـة. وليس للجـزء الـذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله) (1)

انطلاقا من هذا فـإن جمـال العلم والقـدرة مرتبـط بتـوفر الكمال فيهمـا، يقـول:(كلمـا كـان المعلـوم أشـرف وأتم جمـالاً وعظمة كـان العلم أشـرف وأجمـل، وكـذا المقـدور كلمـا كـان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليـه أجـل رتبـة وأشـرف قدراً)

ثم طبــق هــذا على جمــال اللــه تعــالى؛ فــذكر أن العلم والقدرة لا يكتملان إلا لله عز وجل؛ أما من ناحيـة العلم، (فـأين علم الأوّلين والآخـرين من علم اللـه تعـالى الـذي يحيـط بالكـل إحاطـة خارجـة عن النهايـة حـتى لا يعـزب عنـه مثقـال ذرّة في السموات ولا في الأرض؟)

ولهذا، فإن الحب الناشئ من اعتقاد كمال العلم لا يحق إلا لله عز وجل، يقول: (فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوبـاً وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعـالى. فعلـوم العلمـاء جهـل بالإضـافة إلى علمه، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كـان الأجهـل لا يخلـو عن علم مـا تتقاضـاه معيشـته. والتفـاوت بـين علم اللـه وبـين علم الخلائـق أكـثر من التفـاوت بــين علم أعلم الخلائـق وأجهلهم، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهيــة يتصوّر في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسـب والاجتهـاد وفضـل علم الله تعـالى على علـوم الخلائـق كلهم خـارج عن النهايـة إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية) (2)

أمـا الناحيـة الثانيـة، وهي صـفة القـدرة، وهي الـتي يتفـق البشـر على كونهـا كمـالا، وأن العجـز نقص، ويتفقـون على أن (كل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنـه محبـوب وإدراكـه لذيذ، حتى أن الإنسان ليسـمع في الحكايـة شـجاعة الشـجعان، فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحـاً ضـرورياً بمجـرّد لـذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً

1() إحياء علوم الدين (4/ 300)
2() إحياء علوم الدين (4/ 301)

للمتصف به فإنه نوع كمال) (1)

وعند المقايسة بين قدرة الخلق كلهم ـ والتي استحقوا بها الإعجاب والمحبة ــ مع قدرة الله تعالى نجد أن (أعظم الأشخاص قوّة وأوسعهم ملكاً وأقواهم بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض، ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها، فلا قدرة له على ذرّة منها.. ثم ما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك) (2)

وفي مقابل ذلك، قدرة الله عز وجل، (فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر، السموات مطويات بيمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة. وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء) (3)

وما ذكره هذا الحكيم من هاتين الصفتين، لم يذكرهما من باب الحصر لصفات جمال الله، فإن ذلك مستحيل، وإنما ذكرهما من باب التمثيل والمقايسة، حتى يُعرف أن المستحق الوحيد للمحبة هو الله عز وجل.

فاحرص ــ أيها المريد الصادق ــ على أن تعيش هذه المعاني العظيمة لتنعم بكلا الرؤيتين: رؤية الجمال، ورؤية

1() إحياء علوم الدين (4/ 301)
2() إحياء علوم الدين (4/ 301)
3() إحياء علوم الدين (4/ 301)

الجلال.. فكلاهما جمال، وكلاهما جلال، وكلاهما يملأ نفسك ثقــة بربك، وتعظيما ومحبة له.

الملك والتدبير

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن ملك الله وتدبيره لشؤون خلقه، والمعارف المرتبطة بذلك، والآثار التي تحدثها في النفس المطمئنة، وعلاقتها برضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن المعارف المرتبطة بملكية الله تعالى لكل شيء، وعلى كل شيء، وتدبيره له، من المعارف الضرورية للنفس المطمئنة، وهي سر كبير من أسرار رضاها وسعادتها، لأنها تعلم أنها في عالم يديره ربها، ويتحكم في كل شيء فيه، صغيرا كان أو كبيرا؛ فلذلك ترى في كل شيء الحضور الإلهي المباشر؛ فتمتلئ سعادة بذلك، لعلمها أنه لا يصدر من ربها إلا اللطف والخير والرحمة ومقتضيات أسمائه الحسنى الممتلئة بالجمال.

وهي لذلك لا ترى الملك الحقيقي إلا لله، وفي كل الأزمان، وفي كل المحال، أما من عداه، فهم مجرد نواب ووكلاء مستعارين لمدد محدودة، ومحال محدودة؛ أما الله، فهو الملك الحقيقي الذي بسط ملكه على كل شيء، وامتد ملكه لكل زمن، ولم يعزب عن ملكه شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26)﴾ (آل عمران)

فالله تعالى يخاطبنا من خلال هذه الآية الكريمة ليذكر لنا أن الملك الحقيقي له.. وله وحده.. وليس من عداه سوى مبتلون ببعض المسؤوليات ليميز الخبيث منهم من الطيب، والصادق منهم من الكاذب، والإنسان منهم من الشيطان.

وذلك ما تدل عليه كل العقول السليمة والفطر النقية؛ فالملك الحقيقي هو الذي له السلطة المطلقة على الأكوان جميعا.. وفي جميع الأوقات.. وليس على ثلة محدودة من الناس.. في بقعة محدودة من الأرض.. في حيز محدود من الزمان.

لقد أشار الله تعالى إلى هذا في الآيات التالية لتلك الآية الكريمة.. فقد ورد فيها: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ

تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27) (آل عمران)
ففي هذه الآية والتي قبلها يخبرنا ربنا بأنـه يعـز من يشـاء، ويذل من يشاء بلا معقب على حكمه، وبلا مجـير عليـه، وبلا راد لقضائه، فهو صاحب الأمـر كلـه، وذلـك من مقتضـيات الألوهيـة التي لا تتم من دونها.
بل إنه يخبرنا أنه صاحب هذه الحركات الخفية المتداخلـة.. حركـة إيلاج الليـل في النهـار، وإيلاج النهـار في الليـل، وإخـراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.
وتخبرنا الآية الكريمة بأن الله هو الرزاق الذي يتولى جميع الخلائق برزقه، ويمن عليه بفضله وتدبيره.
وفي موضع آخر يخبرنا القـرآن الكـريم عن قصـة إبـراهيم عليه السـلام مـع ملـك من ملـوك الأرض أغـراه ملكـه، فتـوهم لنفسه الألوهية، فحاجة إبراهيم عليه السلام بالقدرة التي يعجـز عن مثلها.. لقد ذكر الله تعـالى ذلـك، فقـال:﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلى الَّذِي حَاجَّ إِبْـرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللـهِ الْمُلْـكَ إِذْ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ فَـإِنَّ اللـه يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَـأْتِ بِهَـا مِنَ الْمَغْـرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)﴾ (البقرة)
انظر ـ أيها المريد الصادق ـ كيف حاج إبراهيم عليه السلام هذا الملك.. وهي حجة ينهـار لهـا كـل ملـك من ملـوك الأرض.. فليس هناك من الملـوك من لـه القـدرة على صـرف الأذى عن نفسه، أو جلب ما يريد لها من نفع.
ومن أول آثـار تلـك المعرفـة الاعتمـاد والتوكـل على اللـه وحـده، باعتبـاره الملـك الحقيقي على الأشـياء كلهـا، والمالـك الوحيـد لهـا.. كمـا ذكـر رسـول اللـه ﷺ، ذلـك في وصـيته لابن عباس، والتي يبين له فيها تجليات الملـك الإلهي، والـتي تجعلـه الحصن الوحيد الذي يلجأ إليه المحتاجون.. لقد قال له:(يـا غلام إني أعلمـك كلمـات: احفـظ اللـه يحفظـك، احفـظ اللـه تجـده تجاهـك، إذا سـألت فاسـأل اللـه، وإذا اسـتعنت فاسـتعنْ باللـه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت عَلَى أن ينفعوك بشـيء لم ينفعـوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللـه عليـك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]، وفي رواية:(احفظ اللـه تجـده أمامـك، تعـرف إلى

1() روا ه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصـيبك، ومـا أصـابك لم يكن ليخطئـك، واعلم أن النصـر مـع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاجتهـد في التعـرف على أسماء الله الحسـنى الـتي تملأ قلبـك بهـذه المعـاني حـتى تـترقى من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حـق اليقين.. فكـل المعارف الإلهية مختزنة في أسماءه الحسنى.

ومن تلك الأسماء اسمه [الكبير المتعال] الـوارد في قولـه تعالى: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِـلُ كُـلُّ أُنْثَى وَمَـا تَغِيضُ الْأَرْحَـامُ وَمَـا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِـيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَـرَ بِـهِ وَمَنْ هُـوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 8 - 10]

فهذه الآية الكريمة تشير إلى هيمنـة اللـه تعـالى على كـل شيء، وتدبيره المطلق له، ثم تذكر سبب ذلك، وهـو كـون اللـه تعالى كبيرا متعاليا.

أما الكبير؛ فهو ذلك الـذي اكتمـل وجـوده؛ فلم يكن بـه أي نقص أو قصور.. ولا يكمل الوجود إلا بشيئين: أن يكـون دائمـا لا انقطاع له.. وأن يكون ذاتيا لا تبعية له؛ فكل وجود مقطوع بعدم سابق أو لاحق فهو ناقص، ولذلك يقال للإنسان إذا طـالت مـدة وجوده إنه كبير، أي كبير السن، طويل مدة البقاء.

وهذان المعنيان لا يصدقان إلا على اللـه؛ فاللـه هـو الكبـير الحقيقي، فهو دائم الوجود أزلا وأبدا.. ووجوده هو الوجود الـذي يصدر عنه وجود كل موجود؛ فإن كان الذي تم وجوده في نفسه كاملا وكبيرا، فالذي حصل منه الوجود لجميـع الموجـودات أولى أن يكون كاملا وكبيرا[1]

والمملكة الحقيقيـة لا يـديرها إلا الكبـير الحقيقي، ذلـك أن كمال العدل وكمال الرحمة لا تتمـان إلا من خلال ملـك لا تفنيـه الأيام، ولا يستبد به الضعف، ولا يتسلل إلى طاقاته القصور.

وأما اسمه (المتعال)، والوارد في قوله تعالى: ﴿ اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَـل مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ (40)﴾ (الروم)، وغيرها من المواضع، فإنه يدل على ذلك الـذي لا رتبـة فوق رتبته، بل جميع المراتب منحطة عنه..

1() المقصد الأسنى (ص: 110)

فالمتعال مشتق من العلو.. والعلـو هـو المقابـل للسـفل.. وهــو إمــا في درجــات محسوســة كالــدرج والمــراقي وجميــع الأجســام الموضــوعة بعضــها فــوق بعض.. وإمــا في الــرتب المعقولة للموجودات المرتبة نوعا من الترتيب العقلي.

فكل ما له الفوقية في المكان فله العلو المكاني، وكل مـا له الفوقية في الرتبة فله العلـو في الرتبـة، فـالعلو يطلـق على التدريجات العقلية كمـا يطلـق على التـدريجات الحسـية.. فـإذا قدرت شيئا سببا لشيء ثان، والثاني سبب لثالث، والثالث لرابع إلى درجـات كثـيرة.. فـالواقع في الرتبـة الأخـيرة هـو الأسـفل الأدنى، والأول واقع في الدرجة الأولى من السببية فهو الأعلى، ويكون الأول فوق الثاني فوقية بالمعنى لا بالمكان.. وهكـذا في التفاوت الذي بين العلة والمعلول، والفاعـل والقابـل، والكامـل والناقص..

وبما أن الله تعالى مـنزه عن أن يحـده المكـان، فلـذلك لا يراد بعلوه ما يذكره المجسمة، فذلك يتنافى مـع قدوسـية اللـه وغناه عن الجهة والمحل.. بل المراد به ما هو أشـرف من ذلـك وأعظم، وهــو أن الموجــودات لا يمكن قســمتها إلى درجــات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحق سبحانه وتعـالى في الدرجـة العليا من درجات أقسامها، حتى لا يتصور أن يكون فوقه درجة، وذلك هو العلي المطلق، وكل مـا سـواه فيكـون عليـا بالإضـافة إلى ما دونه، ويكون دنيا أو سافلا بالإضافة إلى ما فوقه[1]

ومن الأمثلــة على ذلــك أن العقــل يقتضــي انقســام الموجودات إلى ما هو سبب وإلى ما هو مسبب، والسبب ـ كما تعلم ــ فـوق المسـبب فوقيـة بالرتبـة، ومن هـذا البـاب، فـإن الفوقية المطلقة ليست إلا لمسبب الأسباب.

ومثــل ذلــك الموجــودات؛ فإنهـا تنقســم إلى ميت وحي.. والحي ينقســم إلى مــا ليس لــه إلا الإدراك الحســي، مثــل الحيوانـات، وإلى مـا لـه مـع الإدراك الحسـي الإدراك العقلي.. والذي له الإدراك العقلي ينقسم إلى مـا يعارضـه في معلوماتـه الشـهوة والغضـب، وهـو الإنسـان، وإلى مـا يسـلم إدراكـه عن معارضة المكدرات.. والذي يسلم ينقسم إلى ما يمكن أن يبتلى به، ولكن رزق السـلامة كالملائكـة، وإلى مـا يسـتحيل ذلـك في

1() المقصد الأسنى (ص: 107)

حقه وهو الله تعالى..

وهكـذا ففي أي تقسـيم من تقسـيمات العقـول نجـد للـه تعالى المرتبة التي ليس فوقها مرتبة.

والمملكة الحقيقية لا تستقيم إلا بملك قـد حـاز من الـرتب أعلاهـا؛ فلا ينافســه في كمالــه منــافس، ولا يتطلــع إلى جلالــه متطلع.

وهكذا ـ أيها المريد الصـادق ــ يمكنـك أن تعمـق معرفتـك بملكية الله وتدبيره من خلال تأملك في اسـمه تعـالى [المـولى النصير] الوارد في قوله: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَـاعْلَمُوا أَنَّ اللـهَ مَـوْلاكُمْ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)﴾ (الأنفال)

ذلـك أن من صـفات الملـك أن يكـون مـولى يُفـزع إليـه، ونصيرا يستنجد به، وهاتان صفتان لا يستقيم الملك ولا يكمل إلا بهما؛ فالملك الحقيقي هو من فزعت إليـه رعيتـه، واسـتنجد بـه المستضعفون منهم، وهما لا ينطبقان حقيقة إلا على الله.

فالمولى هو الذي كلمـا افتقـرت إليـه وجدتـه أقـرب إليـك منك.. فهو يرحمك، وينصرك، ويرزقك، ويعطيك ما سـألته، ومـا لم تسأله، وهو أعلم بك منك، فلذلك لا يعطيك إلا ما ينفعك، ولا يهديك إلا إلى ما يرفعك.

وأما (النصـير)، فهـو من يحتاجـه كـل من لـه أعـداء، حـتى ينصره عليهم.. وليس هناك من ليس له عـدو، وليس هنـاك من يستغني عمن ينصـره عليهم، وليس ذلـك إلا اللـه؛ فهـو النصـير الوحيـد الـذي ينصـرك من كـل عـدو، ويحفظـك من كـل بلاء، ويعينك على كل هم.

وهكذا ـ أيها المريد الصـادق ــ يمكنـك أن تعمـق معرفتـك بملكيـــة اللـــه وتـــدبيره من خلال تأملـــك في اســـمه تعـــالى (المعطي)، والذي وردت الإشـارة إليـه في قولـه تعـالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنَـا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَـا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَـانَ سَـعْيُهُمْ مَشْـكُوراً (19) كُلاًّ نُمِـدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُـوراً (20) ﴾ (الإسراء)

وهـو يـدل على أنـه سـبحانه من أعطى كـل شـيء خلقـه، وتـولى أمـره ورزقـه في الـدنيا والآخـرة، كمـا قـال تعـالى عن موسى عليه السلام، وهو يصـف عطـاء ربـه: ﴿ قَـالَ رَبُّنَـا الـذِي

أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه:50)، وقال عن عطاء الآخرة:﴿ وَأَمَّا الذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاء رَبك عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: 108)

وعطاء الله قد يكون عاما أو خاصا، فالعطاء العام يكون للخلائق أجمعين، والعطاء الخاص يكون للأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين، فمن العطاء العام ما ورد في قوله تعالى:﴿ كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ (الإسراء:20)، والمراد به تمكين العبد من الفعل ومنحه القدرة والاستطاعة، كل على حسب رزقه أو قضاء الله وقدره.

ومن العطاء الخاص استجابة الدعاء وتحقيق مطلب الأنبياء والصالحين الأولياء، ومن ذلك الدعاء والعطاء في قول سليمان عليه السلام:﴿ رَبِّ اغفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلكا لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُل بَنَّاء وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَو أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص: 39)، وكذلك في دعاء زكريا عليه السلام حيث قال:﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ (مريم:5)، فحقق الله عز وجل مطلبه وأعطاه ما تمناه فقال:﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ (مريم:7)، وقال عن عطائه للمؤمنين في الآخرة:﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ﴾ (النبأ:36)

ومن أسمائه تعالى التي تدل على ملكيته ومالكيته وتدبيره اسمه [المعين]، والذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾ (يوسف)، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (112)﴾ (الأنبياء)

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا قومه: اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف: 128]

بل إن الله تعالى قرن الاستعانة بالعبادة، فقال:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)﴾ (الفاتحة). وهي تعلمنا أن نلجأ إلى

الله في كل حالة حتى في عبادتنا له؛ فلا يعبد اللـه من لم يعنـه الله.

وقد دل العقل والنقل على أنه لا حول عن معصية اللـه إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله..

ومن وجـوه تلـك الدلالة(1) أن القـادر متمكن من الفعـل والـترك على السـوية، فمـا لم يحصـل المـرجح لم يحصـل الرجحان، وذلك المـرجح ليس من العبـد، وإلا لعـاد في الطلب، فهو من الله تعالى، فثبت أن العبد لا يمكنه الإقدام على الفعـل إلا بإعانة الله.

ومنهـا أن جميـع الخلائـق يطلبـون الـدين الحـق والاعتقـاد الصدق مع استوائهم في القدرة والعقل والجـد والطلب، ففـوز البعض بدرك الحق لا يكون إلا بإعانة معين، ومـا ذاك المعين إلا الله تعالى، لأن ذلك المعين لو كان بشـراً أو ملكـاً لعـاد الطلب فيه.

ومنها أن الإنسان قد يطالب بشـيء مـدة مديـدة ولا يـأتي به، ثم في أثناء حال أو وقت يأتي به ويقدم عليـه، ولا يتفـق لـه تلك الحالة إلا إذا وقعت داعية جازمة في قلبه تـدعوه إلى ذلـك الفعل، فإلقاء تلك الداعية في القلب وإزالة الدواعي المعارضة لها ليست إلا من الله تعالى، ولا معنى للإعانة إلا ذلك.

ومن أسمائه تعالى التي تدل على ملكيته ومالكيته وتدبيره اسمه [المؤمن] الوارد في قوله تعالى:﴿ هُوَ اللهُ الذِي لا إِلَـهَ إِلا هُـوَ المَلِـكُ القُـدُّوسُ السَّـلامُ المُـؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيـزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23)﴾ (الحشر)

والمؤمن هو الذي يوفر الأمن والأمان الذي يجعل المستند إليه في مأمن من كل عدو ظاهر أو خفي.. وليس ذلـك إلا اللـه تعالى، كما أشار إلى ذلك في ذكره لنعمته على قـريش:﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)﴾ (قريش)

وقال ضارباً المثل بقرية من القرى الظالمة:﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَـا رِزْقُهَـا رَغَـدًا مِنْ كُـلِّ مَكَـانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَـوْفِ بِمَـا كَـانُوا يَصْـنَعُونَ (112) وَلَقَـدْ جَـاءَهُمْ رَسُـولٌ مِنْهُمْ فَكَـذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)﴾ (النحل)

أما المخاوف التي قد تسلط علينا؛ فالغرض منها أن نبحث

(1) انظر: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (1/ 216)

عنه، فلا يمكن أن يؤمننا من المخاوف غيره، لقد ذكر الله ذلك، فقال:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَـرَاتِ وَبَشِّـرِ الصَّـابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَـابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قَـالُوا إِنَّا للــه وَإِنَّا إِلَيْــهِ رَاجِعُــونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـــلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـــةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَـــدُونَ (157)﴾ (البقرة)

فإذا ما لجأ العبد إلى الله، استشعر بـالأمن الحقيقي الـذي لا تستطيع أي جهـة في الـدنيا أن تـوفره، لقـد ذكـر اللـه ذلـك، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَـادُوا وَالنَّصَـارَى وَالصَّـابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)﴾ (البقرة)، وقال:﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْـكَ أَمَـانِيُّهُمْ قُـلْ هَـاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للـه وَهُـوَ مُحْسِنٌ فَلَـهُ أَجْـرُهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ (112)﴾ (البقرة)،

وهكذا؛ فـإن اللـه تعـالى هـو الملـك الحقيقي الوحيـد بهـذا الاعتبــار، ذلــك أن من صــفات الملــك أن يأمنــه النــاس على أنفسهم وأموالهم؛ فلا يظلمون عنـده، وإذا ظلمـوا سـرعان مـا يقتص من ظالميهم.

ومن أسمائه تعالى التي تدل على ملكيته ومالكيته وتدبيره اسـمه [الـرقيب] والـذي ورد ذكـره في قولـه تعـالى:﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الـذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الـذِي تَسَـاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (1)﴾ (النساء)

وهو يعني أن الله العليم السميع البصير لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في الســماء.. بــل لا يغيب عنــه الســر وأخفى.. ومن كان كذلك فهو أولى باسم الرقيب من كل رقيب.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، ونبه عباده إليه، فقال:﴿ مَا يَكُـونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَـةٍ إِلاَّ هُـوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَـةٍ إِلاَّ هُـوَ سَادِسُـهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُـوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَـا كَـانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَـا عَمِلُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّ اللـه بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلـة،7)، وقال:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْـوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَـانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ

(18)﴾ (ق)، وقال:﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) ﴾ (الملك)

وغيرها من الآيات الكريمة التي تجعل المؤمن يشعر برقابة ربه، والتي تغنيه عن الحاجة لأي شرطي أو قوانين تحد من حريته الجامحة.

ومن أسمائه تعالى التي تدل على ملكيته ومالكيته وتدبيره اسمه [الحكم]، والذي ورد ذكره في قوله تعالى:﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالذِي أُرْسِلتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ (87)﴾ (الأعراف)

ذلك أنّ تنظيم شؤون المجتمعات البشرية بحاجة إلى ثلاث سلطات (السلطة التشريعية). وهي السلطة التي تتكفّل بسنّ القوانين الكفيلة بحفظ النظام في المجتمع والمنع من إضاعة الحقوق، و(السلطة التنفيذية) التي تنفّذ ما صادقت عليه السلطة التشريعية وتتولاّها عادةً الحكومات والوزراء والدوائر الحكومية.. و(السلطة القضائية)، وهي المسؤولة عن معاقبة المتخلّفين عن القانون والمجرمين والمعتدين(1)

فكل الحكومات تحتوي على هذه السلطات الثلاث، وهي تختلف فيما بينها اختلافا شديدا.. لكن الإيمان بملكية الله تعالى ومالكيته وحكمه تجعل من هذه السلطات الثلاثة محصورة في الله؛ فالله هو الذي شرّع القوانين، وهو الذي يجيز تشكيل الحكومات وتنفيذ القوانين، وهو الذي يمنح الشرعية لعمل القضاة، وعليه فانّ هذه السلطات الثلاث لابدّ أن تستمدّ شرعيتها عن طريق الإذن الإلهي طبق الشرائط والأوامر.

لقد ذكر القرآن هذا في مواضع كثيرة، كقوله تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)﴾ (النساء)، وقوله:﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57)﴾ (الأنعام). وغيرها من الآيات الكثيرة.. وكلها تدل على أن الله ـ بحكم كونه ملكا على عباده ـ هو الحاكم عليهم، فلا يحق لعبد أن يتصرف في مملكة ربه مخالفا لأحكامه.

---

(1) انظر: نفحات القرآن للشيرازي.

وليست النصوص المقدسة وحدها من دل على هذا.. حتى العقل السليم يدل عليه..

فلا شكّ أنّ كلّ عارف بالله مقرّ بتوحيده يذعن بنفاذ أمر الله في عالم الوجود، وعندما يتقبّل حاكميته على عالم الوجود فإنّه سوف لا يتردّد في ولايته وحكومته التشريعية، لأنّه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير فغيره لا يكون أهلا للتشريع، ولا يتمكّن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق.

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدبّر فإنّه هو الذي يجب أن يحكم على العباد ويقضي في الاختلافات، وبدونه سيكون هناك تدخل في نطاق مالكية الله عزّوجلّ وتدبيره بدون إذنه.

بالإضافة إلى هذا، فإن القانون الصحيح هو القانون الذي ينسجم مع التركيب الجسمي للإنسان وروحه ويلبّي حاجاته الماديّة والمعنوية، ولا يترك آثاراً سلبية في فترة زمنية قصيرة أو طويلة، ويكون ذا ضمان تنفيذي كاف وذا تقبّل وإنشداد في المجتمع الإنساني.. ولا يمكن أن يصدر هذا القانون إلا من خالق الإنسان العالم بحاجاته.

فالمشرِّعُ الحقيقي ينبغي أن يكون عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة، وعالماً بالكون من جهة أخرى كي يلاحظ بدقّة العلاقات التي تربط الإنسان مع العالم الخارجي والداخلي، ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين.

وما نشاهده من اختلال كبير في القوانين البشرية فهو ناشئ من فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية، ويعلم جميع القوانين والعلاقات التي تحكم العالم، فلا زالت تؤلّف الكتب الكثيرة من قبل المفكّرين تؤكد أن الإنسان مجهول لا يمكن معرفته معرفة شاملة حقيقية.. فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

إضافة إلى هذا، فإن الإنسان محتاج إلى غيره، ولذلك نجد أنّ كلّ مجموعة تسنّ القوانين في إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الإعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب.

إضافة إلى أن الإنسان غير مصون عن الخطأ والاشتباه، ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغيّر المستمرّ، وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطائها بمرور الزمن.. نعم قد يبادر

إلى إصلاحها، ولكن عيوبا أخرى تظهر.. وهكـذا، ولهـذا أصـبحت المجـالس التشـريعية البشـرية مختـبرات تختـبر فيهـا القـوانين بشكل دائم، اختباراً لا طائل فيه، ولا نهاية له.

هذه مجرد نماذج عن بعض أسماء الله الحسنى التي تعمق في نفسك ـ أيها المريد الصـادق ــ المعـارف المرتبطـة بملكيـة الله تعالى ومالكيته وتـدبيره لكونـه؛ فـاحرص على تعميقهـا في نفسك، لترى الكون بصورته الحقيقية، لا بتلك الصـورة المزيفـة الـتي تلغي فاعليـة اللـه في كونـه، وتجعلـه كـذلك الـذي يكتفي بالمشاهدة من دون أن يكون له أي تأثير.

الحكمة والقدرة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن القدرة والحكمة والعلاقة بينهما، والمعارف المرتبطة بذلك، وأثرها في رضا النفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن للقدرة والحكمة ـ بحسب ما تدل النصوص المقدسة، وبحسب ما تعارف عليه الحكماء ـ نوعين من العلاقة:

أولهما أن القدرة الإلهية مع كونها مطلقة، لا حدود تحدها، ولا شيء يقف أمامها، ولكنها مع ذلك تراعي الحكم والمصالح المختلفة، والتي تقتضيها أسماء الله الحسنى.. لذلك قد تبرز القدرة في مظهر رحمة، أو في مظهر شدة، أو في مظهر جلال، أو في مظهر جمال، بحسب ما تقتضيه الأحوال، والتي تستدعيها الحكمة الإلهية البالغة.

وثانيهما أن القدرة الإلهية مع طلاقتها وعدم محدوديتها إلا أن الله تعالى آثر بفضله ومنته وحكمته في خلقه أن تبرز مقتضياتها ضمن عالم الأسباب والمسببات؛ حتى يعبر الصادقون من السبب إلى المسبب، ومن الحكمة إلى القدرة، وحتى يتيه الغافلون في عالم الأسباب؛ فينشغلوا بها عن مسببها.

أما أول العلاقتين؛ فلعل أحسن تعبير عنها ما ذكره بعض الحكماء في قوله: (ليس في الإمكان أبدع مما كان) (1)

وعبر عنها آخر، فقال: (لا تحقر أحدا من خلق الله، فإن الله ما احتقره حين خلقه)(2)

وكلا المقولتين تدلان على أن كل شيء في الكون خلق في محله اللائق به، والذي لا يصلح إلا له، أو كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (لا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرفهم دقائق

1() الإملاء في إشكالات الإحياء 5/ 35 (ملحق بالإحياء) وكذلك أنظر الإحياء 4/ 258.
2() الفتوحات المكية، ج 4، ص 466.

اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة) (1)

ثم استدل لهذا بأن كل (ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي بالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه، ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود، وظلما يناقض العدل، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية) (2)

وهذا المعنى هو الذي وردت به النصوص المقدسة؛ فكلها تشير إلى أن كل شيء في محله الصحيح الذي هو أليق به من غيره، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الملك:3)، ولم يكتف بذلك، بل دعا إلى تكرار النظر، للتأكد من سلامة كل شيء، ووضعه في محله الصحيح، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4]

ولهذا يدعو الله تعالى إلى تبصر حكمته في كل شيء قدره أو خلقه أو شرعه أو أمر به أو نهى عنه.. ولهذا تأتي الفواصل القرآنية في المواقف المختلفة، لترجع كل شيء لحكمة الله المقترنة بقدرته أو عزته أو علمه..

فتصوير الإنسان في الأرحام، وتوفير كل ما يحتاجه صادر من حكمة الله، قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:6)

وإحياء الموتى كبدء الحياة كلاهما صادران من حكمة الله، قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ

1() إحياء علوم الدين: 4/ 258.
2() إحياء علوم الدين: 4/ 258.

الطَّيْـرِ فَصُـرْهُنَّ إِلَيْـكَ ثُمَّ اجْعَـلْ عَلَى كُـلِّ جَبَـلٍ مِنْهُنَّ جُـزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:260)

والخلق والإبـداع والتصـوير وغيرهـا كلهـا صـادرة ومقترنـة بحكمة الله، كما قال تعالى:﴿ هُوَ الله الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر:24)

ولهذا أيضا يقترن اسم الله (العزيز) باسـم اللـه (الحكيم)، فالعزة تعني كمال القدرة والتصرف، والحكمة تعني وضـع ذلـك في موضعه المناسب، ولهذا كان من أدب المسيح عليه السـلام قوله في ختم إجابته لربه:﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَـادُكَ وَإِنْ تَغْفِـرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:118)، فلم يقـل (فإنـك أنت الغفور الرحيم) لأن المقام يقتضي عـزة الـرب وحكمتـه لا مغفرته ورحمته.

وكل هذه المعاني ـ أيها المريـد الصـادق ــ تجعـل المـؤمن يعيش مطمئنا راضيا عن الله في جميع أفعاله؛ فهو يعلم أن كل ما في الكون مؤسس على حكمة الله وقائم بهـا وقـائم عليهـا، فلا ينكر فعلا من أفعال الله، بل يستدل بأفعال الله على الله.

وبهذا يعيش صاحب النفس المطمئنة الراضية بصحبة اللـه الحكيم الذي يضع الأمور دقيقها وجليلها في موضعه الذي يليـق به، فلا فطور في الكون ولا نشاز، بل كل شيء ينطق بالحكمة، ويخبر عن دقة الصنع وإتقانه.

ولذلك تترقى نفسه ليردد ما قالت الملائكة عنـدما أخبرهـا الله بأنه يعلم ما لا تعلم:﴿ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:32)

ويشمل هذا الشـعور كـل شـيء في الكـون، سـواء تعلـق بعالم الخلق، أم بعالم الأمر..

أمـا علاقتـه بعـالم الخلـق؛ فـإن المـؤمن يـرى التناسـب والتناسق في الكون، والمتجلي في كل شـيئا، دليلا على حكمـة الله الباهرة، ولذلك لا تزيده المعارف العلميـة إلا معرفـة بربـه، وحبا له، وكيف لا يكون كذلك، وهو يرى اللطـف الإلهي في كـل شيء.

وقد علق بعضهم على قوله تعـالى: ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللـه عَلَيْكُمُ اللَّيْـلَ سَـرْمَدًا إلى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللـه يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللـه عَلَيْكُمُ

النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72)﴾ (القصص)، فقال:(ترى لو كان ساقا الإنسان أقصر أو أطول مما هما.. أو كانت قدماه أكثر تقعراً أو استدارة.. كيف كان يستطيع أن يقضي حاجته من سير أو عدو.. وترى لو كانت يداه بلا أصابع، كيف يلتقط ما يأكله؟ وكيف يمسك ما يؤدي به أغراضه؟ أليس ذلك دليل على قصد يوضح قدرة القاصد وحكمته؟)

ثم عقب على ذلك بقوله: (إن دلائل ملاءمة الإنسان لبيئته، لأكثر من أن تعد، فحركات المفاصل والعضلات، وتكوين فقرات العظام.. بل تتغلغل أدلة الرحمة حتى تشمل العين، فوجد لها الجفن الذي يحميها والرمش الذي يقيها.. وإن تلاؤم الكائن مع بيئته، ليظهر أوضح في الحيوانات على اختلافها، ففيها آيات ناطقات، تسبح بحمد الموجود الذي عمت رحمته الأرجاء على أتساعها، والكائنات على اختلافها)

ومثل تجلي حكمة الله في عالم الخلق تتجلى حكمته تعالى في عالم الأمر، ولهذا تقترن بعض تشريعات الله في القرآن الكريم بالأسماء المقتضية لعلم الله وحكمته أو لعزة الله وحكمته:

ومن ذلك قوله تعالى تعقيبا على أحكام قسمة التركات: ﴿ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: 11)

ومثل ذلك قوله تعقيبا على مقادير الكفارات والديات:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ الله وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:92)

ومثل ذلك قوله تعقيبا على العقوبة المرتبطة بجريمة السرقة: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ الله وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة:38)

ومما يروى في هذا أن بعض الأعراب سمع قارئا يقرؤها بإبدال (غفور رحيم) بدل (عزيز حكيم)، فقال: ليس هذا كلام

الله، فقال: أتكذب بالقرآن، فقال: لا ولكن لا يحسن هذا فرجع القارئ إلى خطئه فقال عزيز حكيم فقال صدقت.

وعدم فقه هذه الحكمة هو الذي جر بعض المعارضين لله أن يقول:

يد بخمس مئين ... ما بالها قطعت في

تناقض مالنا إلا ... وأن نعوذ بمولانا من

وقد رد عليه بعض الفقهاء بقوله مبينا بعض أسرار الحكم الإلهية في هذا التشريع:

عز الأمانة أغلاها ... ذل الخيانة فافهم

ومثل تجلي حكمة الله في الخلق والأمر تتجلى في أفضاله المختلفة على عباده، فإن أساسها حكمة الله وعلمه وخبرته بعباده، كما قال تعالى:﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:83)، وقال:﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269)

ومثل ذلك ما يقبضه الله من علم عن عباده، فإنه لا يقبضه إلا عمن لا يستحقه أو لا يطيقه، كما قال تعالى عن الأعراب:﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ الله عَلَى رَسُولِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:97)؛ فالبداوة بما تبعثه من قسوة وغلظة لا تفهم من العلم إلا بما يتناسب مع طبيعتها.

وهكذا سائر معاملات الله مع عباده بمختلف أصنافهم، قال تعالى عن الذين يعملون السوء بجهالة:﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:17)

وقال عن المرجون لأمر الله:﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ الله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:106)

وهكذا الأمر في تدبير الله للأحداث والتواريخ، فهي تواريخ منظمة بحكمة الله لا مجال فيها للعشوائية أو الصدفة ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا الله وَإِنَّ الله لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:62)

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ هي العلاقة الأولى بين الحكمة

والقــدرة، أمــا العلاقــة الثانيــة؛ فيقصــد بهــا الحكمــاء خصوصــا التفريق بين نوعين من القدرة الإلهية:

أولاهما: القدرة المباشرة، والتي لا تلاحظ الأسباب، والـتي قد تدخل ضـمن الخـوارق، ومن أمثلتهـا المعجـزات والكرامـات التي تحصل خارج عالم الأسباب.. ويطلقون عليها [القــدرة]، أو [عالم القدرة]

والثانية: القدرة المرتبطة بالأسباب والوسائط، والتي أريـد من خلالهــا اختبــار الخلــق، وهــل يعيــدون الأســباب لخالقهــا الحقيقي، أم يعيـدونها لبعضـها بعضـا؛ فينشـغلوا بالأسـباب عن المسبب.

وإلى هذا الإشارة بالآيات الكثيرة التي تدعو المؤمـنين إلى تجــاوز النظــر إلى الأســباب للوصــول إلى المســبب والخــالق الحقيقي، كما قال تعـالى عن عمليـة الحـرث والـزرع والسـقي وغيرها من الأمور التي ينسبها كل إنسان إلى نفسـه: ﴿أَفَـرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَـاهُ حُطَامًـا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُـونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُـونَ (66) بَـلْ نَحْنُ مَحْرُومُـونَ (67) أَفَـرَأَيْتُمُ الْمَـاءَ الَّذِي تَشْـرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ الْمُـزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُـونَ (69) لَـوْ نَشَـاءُ جَعَلْنَـاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُـورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَـأْتُمْ شَـجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِـئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَـا تَـذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْـوِينَ (73)﴾ [الواقعـة: 63 ـ 74]، وهي تشـير إلى حضور الله تعالى المطلق مع كل شيء، وتصريفه لكل شــيء.. بل عن كونه هو الفاعل الوحيد لكل حركة أو سكنة في الوجود.

ومثلــه قولــه تعــالى في جهــاد المؤمــنين ضــد الظــالمين والمســتكبرين: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُـوهُمْ وَلَكِنَّ اللـه قَتَلَهُمْ وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى﴾ [الأنفـال: 17]، فاللـه تعـالى يخـبر أنـه الـذي قتـل من قتـل منهم.. وهـو الـذي رمـاهم بمـا رمـاهم من سهام.

وهكذا؛ فـإن المؤمـنين الصـادقين لا تحجبهم الأسـباب، ولا الوسائط، بل يعتبرون الوقوف عندها، وإرجاع الأمور إليها شركا بالله تعـالى، من غـير أن ينكروهـا؛ فمنكـر الأسـباب جاحـد لمن سببها.

ولهذا كان أكبر القوادح في التوحيـد نسـبة أحـداث الكـون للكون، بل نص القرآن الكريم على كونـه شـركا، قـال تعـالى:﴿

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (العنكبوت:65)

وقد قال بعض الحكماء يبين ما ينكشف لأصحاب النفوس المطمئنة الراضية: (من انكشف له أمر العلم كما هو عليه علم أنّ الريح هو الهواء، والهواء لا يتحرّك بنفسه ما لم يحرّكه محرّك، وكذلك محرّكه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأوّل الذي لا محرّك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل)(1)

ولهذا يرد في النصوص الدعوة إلى تسمية الله تعالى عند كل شيء، باعتباره صاحبه، ومحركه، قال تعالى: وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (هود: 41) فمجرى السفينة ومرساها من الله تعالى.

ومثل ذلك قوله في الأنعام وركوبها: لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (الزخرف:13)

فالأنعام مسخرة ـ كما تنص الآية ـ وهي لذلك تسير بأمر الله، وتتحرك بتصريف الله، والعاقل هو الذي يلجأ إلى الآمر لا إلى المأمور.

وكل هذه المعاني تملأ النفس الراضية بالكثير من المشاعر السامية، ومنها شعورها بالأنس حين ترى الله تعالى، وهو يجيب الحاجات المختلفة للكائنات، كما قال تعالى: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (الرحمن: 29)

ومنها التأدب مع الكون، واحترامه، ولهذا وردت النصوص الكثيرة تنهى عن سب الريح أو الناقة أو الدهر لأن كل ذلك من الله.

فقد ورد النهي عن سب الزمان والدهر، الذي يعني تقلبات الحوادث في أحاديث كثيرة، كقوله ﷺ:(قال الله عز وجل يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)(2)

وقال:(لا تسموا العنب الكرم ولا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر)(3)

1() إحياء علوم الدين (4/ 247)

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه مسلم.

وقـال: (إن اللـه عـز وجـل قـال استقرضـت عبـدي فلم يقرضني وسبني عبـدي ولا يـدري يقـول وادهـراه وادهـراه وأنـا الدهر)(1)

ونهى ﷺ عن سـب الـريح، وأخـبر بأنهـا لا تتحـرك حسـب رغبتها، وإنما تتحرك بهدي الوحي الإلهي الذي يسير كل شـيء، فقد روي أن رجلا لعن الريح عند النبي ﷺ فقـال:(لا تلعن الـريح فإنها مأمورة، وإنـه من لعن شـيئا ليس لـه بأهـل رجعت اللعنـة عليه)(2)

وعلمنـا ﷺ الطريقـة الصـحيحة في التعامـل معهـا، فقـال: (الريح من روح الله، فروح اللـه تـأتي بالرحمـة وتـأتي بالعـذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا باللــه من شرها)(3)

وقد ذكر ﷺ عقوبة من يسـب بعض هـذه الكائنـات الـتي لا تملك من أمر نفسها شـيئا، وهي عـدم جـواز الانتفـاع بهـا، فعن عائشة أنها ركبت جملا فلعنته، فقال لها النبي ﷺ:(لا تركبيه)(4)، وفي ذلك أبلغ التحذير من التطاول على خلق الله.

بل إن النصوص المقدسة تنهانا عن احتقـار البعـوض الـذي قد يؤذينا بلسعه، قال تعـالى: ﴿ إِنَّ اللـه لا يَسْـتَحْيِي أَنْ يَضْـرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة: 26)

بل إن القرآن الكريم ينبه الـذين يحتقـرون بيت العنكبـوت أن بيوتهم أوهن، قال تعالى:﴿ مَثَـلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللـه أَوْلِيَـاءَ كَمَثَـلِ الْعَنْكَبُـوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتـاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُـوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:41)

وينبه الذين يحتقرون الذباب إلى ما يشير إليـه من نـواحي ضعفهم، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُـوا لَـهُ وَإِنْ يَسْـلُبْهُمُ الـذُّبَابُ شَـيْئاً لا يَسْـتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَـعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:73)

ومن نتائج هذه النظرة السامية: الراحة من منازعة الأقدار اكتفاء بتقدير الله؛ وهي نتيجة مهمة، فإن العـالم بتصـريف اللـه

1() رواه ابن جرير والحاكم.
2() رواه أبو داود والترمذي.
3() رواه البخاري في الأدب، وأبو داود والحاكم.
4() رواه أحمد وأبو يعلى.

للكائنات لا يحزن ما يحصل له منهـا، أو مـا يفوتـه من منافعهـا، لأن سبب الحزن هو فوات المقدور عليه، أما ما يعتقد استحالته فإن نفس استحالته تعزيه عن عدم حصوله عليه.

فلذلك لا يخاف مالـك على ملكـه، مـا دام اللـه هـو مـؤتي الملك ونازعه، فـإن أتى فبفضـل اللـه، وإن ذهب فبقـدرة اللـه، ولن تستطيع قوة في العالم نزعه أو تثبيتـه، قـال تعـالى: ﴿ قُـلِ اللهمَّ مَالِـكَ الْمُلْـكِ تُـؤْتِي الْمُلْـكَ مَنْ تَشَـاءُ وَتَنْـزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَـاءُ بِيَـدِكَ الْخَيْـرُ إِنَّكَ عَلَى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:26)

ولا يخاف على رزقه ما دام اللـه هـو الـرازق قـال تعـالى: ﴿ قُـلْ مَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِـكُ السَّـمْعَ وَالْأَبْصَـارَ وَمَنْ يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْـرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس:31)

ولا يخاف الضر، ولا يرجو النفع من غيره، قال تعالى: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللـه لِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (يونس:49)

وهكذا في جميـع شـؤون حياتـه، كمـا عـبر عن ذلـك بعض الحكمـاء فقـال مبينـا التـأثير النفسـي لهـذه المعـارف:(.. أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلـق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلـك ممـا ينطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، بل كـان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليـه اتكالـك، فإنـه الفاعـل على الانفراد دون غيره، ومـا سـواه مسـخرون لا اسـتقلال لهم بتحريـك ذرّة من ملكـوت السـموات والأرض، وإذا انفتحت لـك أبـواب المكاشـفة اتضـح لـك هـذا اتضـاحاً أتم من المشـاهدة بالبصر)[1]

وهذه المعارف إذا انصبغ بها كيان الإنسان وتوحد قلبه عند النظر للكون أو التعامل معه هو الكفيل الوحيد بتحقيـق الراحـة والسعادة والطمأنينة، لأن مصدر القلق والاضطراب هو الشتات الـذي يحصـل في الإنسـان نتيجـة رؤيـة الأشـياء قائمـة بـذاتها، فتتوزع في نفسه الرغبة منها أو الرهبة، وهي متناقضة مختلفة، فيحصل فيه من التناقض بحسـبما في الأشـياء من تنـاقض، أمـا

1() إحياء علوم الدين (4/ 247)

إذا رآها جميعا بيد الله، فإن قلبه يتوحد مع الله.

ومن نتائج هـذه النظـرة السـامية: اللجـوء إلى اللـه لا إلى الكــون، وطلب الأشــياء من اللــه لا من الأشــياء، فاللــه هــو المتصرف لا الأشياء، ومن الحماقة أن نـترك الآمـر ونتوجـه إلى المأمور.

وقد ضرب بعضـهم لـذلك مثـالا فقـال: (التفـات العبـد في النجـاة إلى الـريح يضـاهي التفـات من أخـذ لتحـز رقبتـه فكتب الملك توقيعـاً بـالعفو عنـه وتخليتـه، فأخـذ يشـتغل بـذكر الحـبر والكاغـد والقلم الـذي بـه كتب التوقيـع يقـول: لـولا القلم لمـا تخلصت، فـيرى نجاتـه من القلم لا من محـرّك القلم وهـو غايـة الجهل)[1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تتحقق بهذه المعارف العميقة، لتنال حظـك من تلـك المشـاعر السـامية؛ فتصـحب ربـك بـالأدب والأنس والفـرح والسـعادة.. ولترى كل شيء بصورته الجميلة التي خلقه عليها.

1() إحياء علوم الدين (4/ 247)

التفرد والوسيلة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تذكر لي بعض المقـــولات الــواردة في كتب الســلوك والتزكيــة، والــتي تــدعو إلى التجــرد التام، وترك الأسباب، وعدم الانشغال أو الاشتغال بهــا، واعتبــار ذلك قادحا في التوحيد، ودالا على الهمة الدنية، والتي لا يتخلص منها إلا من اعتمد على الله وحده.

وذكــرت لي بعض القصــص في ذلــك، والــتي تعــرض فيهــا بعض المتجردين لمهالك كادت تودي بهم، ولكنهم مع ذلك ظلوا على تجريــدهم وتوحيــدهم وتــوكلهم إلى أن تــولى اللــه تعــالى إنقاذهم كرامة منه، ومن غير أسباب معلومة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لــك أن التفريــد والتجريــد والتوحيد الذي يتحــدث عنــه الحكمــاء لا ينــافي الأخــذ بالأســباب والوســائل، ولا العمــل بمــا تتطلبــه، بــل هــو من الأدب مــع اللــه تعالى.

ومثال ذلك مثال أســتاذ كلــف تلاميــذه بالاســتعانة ببعضــهم بعضا في القيام بما يكلفهم به من وظــائف، وحــتى يتمكنــوا من فهم دروســهم جيــدا، لكن بعض التلاميــذ رغب عن ذلــك، وأخــبر أستاذه أنه لا يمكن لهمته العليــة أن تــترك الأســتاذ وتــذهب إلى تلاميذه، مع أن التلاميذ ليسوا سوى صنيعة للأستاذ.

وهذا سوء أدب مع الأستاذ، لأن التلميذ المحترم هــو الــذي يقوم بكل ما يُكلَّف بــه لعلمــه أن أســتاذه لا يريــد لــه إلا الخــير، ولذلك لا يعارضه، ولا يعقب على قوله، بل يفعل كــل مــا يطلبــه منه، وبكل تسليم وسكون وخضوع.

وهكــذا الأمــر مــع توجيهــات اللــه تعــالى لعبــاده؛ فهي كمــا تدعونا إلى مراعاة التوحيد، وكون اللــه تعــالى هــو المــدبر لكــل شيء، تدعونا كذلك إلى الأخــذ بالأســباب واســتعمالها، من دون الاعتماد عليها، بل الاعتماد على الله تعالى وحده.

ولهذا يرد في القرآن الكريم الجمع بين التوحيد والأسباب، أو بين قدرة الله المطلقة والوسائط التي اســتعملها، ليخــبر أن القدرة لا تتنافى مع الحكمة، والتوحيد لا يتنافى مع الأسباب.

ومن الأمثلة على ذلك ذكره لــترتب الأســباب على بعضــها، فقد جعل المطر سببا لإنبات النبات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ

الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ (البقرة: 164)، وبذلك فإن البحث في أسباب المطر لا ينافي الإيمان بالله.. بل إنه من دواعي الإيمان بالله.. فالله يأمرنا بالنظر في خلقه، للاعتبار والاستثمار.

وهكذا نرى القرآن الكريم يذكر عن ذي القرنين مراعاته للأسباب، وكيف استطاع بها أن يطور تقنيات كثيرة استفادت بها الشعوب التي حكمها، أو خدمها، قال تعالى: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97) [الكهف: 92 - 97]

وبهذا فإن الرؤية الإيمانية التوحيدية لا تستدعي تعطيل البحث في الأسباب احتقارا لها، وتغليبا للقدرة الإلهية، وإنما تؤمن بها، وتبحث فيها، ولكنها لا تقف عندها، وإنما تعبر منها إلى الخالق القادر على كل شيء.

ولهذا ترد الأوامر الكثيرة في النصوص المقدسة بالأخذ بالأسباب، والاحتياط في ذلك، فمع أن الله تعالى هو الحافظ للمؤمنين إلا أنه يأمرهم بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم، قال تعالى: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ الله أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (النساء: 102)

ويأمرهم بأن يعدوا العدة الكافية، ويستعدوا الاستعداد اللازم لمواجهة الظلمة والمستكبرين الذين يريدون استئصالهم، قال تعالى: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (الأنفال:60)

ويأمر أولئك الذين توهموا أن الرحلة للحج تستدعي التجرد والتوكل وعدم الأخذ بالأسباب، وعدم أخذ الزاد، فقال:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة:197)

والعاقـل هـو الـذي يعـبر من الأمـر بأخـذ الـزاد والحيطـة والاستعداد إلى غيرهـا، لأن اللـه تعـالى جعـل كـل ذلـك وسـيلة لتحقق الحاجات المختلفة.. والذي يريد أن يتخلص من ذلك يريد لنفسه قوانين خاصة تنسخ قوانين الكون..

ولذلك كان الأدب مع الله أن لا نخرق سننه، أو نطلب منـه أن يخرقها لنا.. فإن شاء الله أن يخرقها لنا بفضله، فـذلك لـه.. ولهذا عـرج بـالنبي ﷺ إلى السـموات العلا.. ولكنـه اضـطر إلى الهجرة متخفيا يقطع الصحاري.. ولم يلح لـه أن يطلب من اللـه أن يرسل البراق ليضعه في المدينة.

ولهذا ذم الله تعالى أولئك الذين كان بإمكانهم أن يخرجــوا من الحال التي وجدوا أنفسهم عليها، لكنهم قصروا أو أبوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ ظَـالِمِي أَنْفُسِـهِمْ قَـالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَـالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللـه وَاسِعَةً فَتُهَـاجِرُوا فِيهَـا فَأُولَئِكَ مَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَـاءَتْ مَصِـيراً﴾ (النساء:97)

وقـد ورد في الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ بعث سـريّة إلى خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسّـجود فأسـرع فيهم القتـل، فبلـغ ذلك النّبيّ ﷺ فقال: (أنا بـريء من كـلّ مسـلم يقيم بين أظهـر المشركين) [1]

وهكذا لو تتبعت ـ أيها المريد الصادق ـ سير الرسـل عليهم السلام الواردة في القرآن الكريم تجد أنهم مع ما أتاح الله لهم من الكرامـــات والمعجـــزات، إلا أنهم لم يســـتخدموا تلـــك الصلاحيات في مواجهة أعدائهم، أو فيما يتعرضون له من البلاء، بل مارسوا أدوارهم الرسالية بجهودهم البشرية، ولم يدخلوا أي قوة غيبية فيها، حتى يكونوا أسوة لغيرهم.

فرسول الله ﷺ الذي أسرى الله به إلى بيت المقـدس في لحظـات معـدودات، وعـرج بـه إلى السـموات العلا في ليلـة واحدة، لم يستعمل البراق، ولا أي وسيلة غيبية عندما هاجر إلى المدينة المنورة، بل هاجر إليها كسائر الناس، وتلقى من العنـاء ما تلقى حتى يكون أسوة لغيره من الدعاة.

وهكذا كان يقاوم هجمـات أعدائـه بمـا أتيح لـه من سـلاح، ومن عـدد قليـل، وعـدة قليلـة، ولم يسـتعمل الوسـائل الغيبيـة

1() أبو داود حديث (2645) الترمذي (1604)

المتاحة له، إلا إذا أراد الله ذلك، ولذلك حصل نـوع من الهزيمـة يوم أحد، واستشهد عمـه حمـزة، وكـان في الإمكـان ألا يحصـل ذلك كله لـو أن رسـول اللـه ﷺ اسـتخدم مـا أتيح لـه من ولايـة تكوينية، ومن دعـاء مسـتجاب، لكنـه لم يفعـل، لأن اللـه تعـالى جعله أسوة للأمة، بل للبشر جميعا.

ولهذا كله ورد في الحديث عدم استجابة الله تعالى لــدعاء من قدر على أن يخـرج من البلاء، لكنـه لم يفعـل، فعن رسـول الله ﷺ أنه قال: (إن أصنافا من أمتي لا يسـتجاب لهم دعـاؤهم: رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غـريم ذهب لـه بمالـه فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه، ورجل يـدعو على امرأتـه وقـد جعل الله عـزّ وجـلّ تخليـة سـبيلها بيـده، ورجـل يقعـد في بيتـه ويقول: يا رب ارزقني، ولا يخرج ولا يطلب الرزق، فيقـول اللـه عزّ وجلّ له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والتصـرف في الأرض، بجوارح صحيحة، فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري، ولكيلا تكون كلا على أهلك، فإن شـئت رزقتـك، وإن شـئت قـترت عليـك، وأنت معـذور عنـدي، ورجـل رزقه اللـه مـالا كثـيرا فأنفقـه ثم أقبـل يـدعو: يـا رب ارزقـني، فيقول الله عزّ وجلّ: ألم أرزقك رزقا واسعا، فهلا اقتصدت فيـه كما أمرتك، ولم تسرف، وقد نهيتك عن الاسراف؟ ورجل يـدعو في قطيعة رحم) (1)

ولهذا حذر أئمة الهـدى من تلـك الظـاهرة الـتي وقعت في المجتمعات الإسـلامية نتيجـة التـأثر برهبـان النصـارى وغـيرهم، حيث أصبح التدين مرتبطا بـالقعود عن الـرزق، انتظـارا لفضـل الله، فقد روي عن الإمام الصادق أنه سـئل عن رجـل قيـل لـه: أصابته الحاجة، فقال: فما يصـنع اليـوم؟ قيـل: في الـبيت يعبـد ربه، قال: فمن أين قوته؟ قيـل: من عنـد بعض إخوانـه، فقـال: (والله للذي يقوته أشد عبادة منه) (2)

وقال: (لا تَدَع طلب الرزق من حلّـه، فإنّـه عـون لـك على دينك، واعقل راحلتك وتوكّل)(3)

وروي أن بعضهم أنكر على الإمام السجاد حاجتـه وفاقتـه، وعـدم قدرتـه على تسـديد بعض حاجـات المسـلمين الماديـة،

1() الكافي: 5 / 67.

2() التهذيب 6: 324 / 889.

3() بحار الأنوار: 68/138، وأمالي الطوسي 1/196.

وقال: (عجبا لهؤلاء يدّعون مرّة أنّ السماء والأرض وكلّ شـــيء يطيعهم، وأنّ الله لا يردّهم عن شيء من طلباتهم، ثمّ يعترفون أخرى بالعجز عن إصلاح حال خواصّ إخوانهم)، فرد عليه الإمـام السجاد بقوله: (هكذا قالت قريش للنـبي ﷺ: كيـف يمضـي إلى بيت المقدس ويشاهد ما فيه من آثـار الأنبيـاء من مكّـة ويرجـع إليها في ليلة واحدة من لا يقدر أن يبلغ من مكة إلى المدينة إلّا في اثني عشر يوما؟! وذلك حين هاجر منها.. جهلـوا واللـه أمـر الله وأمر أوليائه معه، إنّ المراتب الرفيعة لا تنـال إلّا بالتسـليم لله جلّ ثناؤه، وترك الاقتراح عليه، والرضا بمـا يـدبرهم بـه، إنّ أولياء الله صبروا على المحن والمكاره صـبرا لم يسـاوهم فيـه غيرهم، فجـازاهم اللـه عـزّ وجـلّ عن ذلـك بـأن أوجب لهم نجح جميع طلباتهم، لكنّهم مع ذلك لا يريدون منـه إلّا مـا يريـده لهم)[1]

وعلى هـذه المعـاني اتفـق كـل الحكمـاء، واعتـبروا خلافـه خلافا للسنة، وقـد قـال بعضـهم في ذلـك: (قـد يظن أن معـنى التوكل تـرك الكسـب بالبـدن وتـرك التـدبير بـالقلب والسـقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضـم، وهـذا ظن الجهـال، فـإن ذلـك حـرام في الشـرع، والشـرع قـد أثـنى على المتوكلين، فكيـف ينـال مقـام من مقامـات الـدين بمحظـورات الدين؟)[2]

وقال آخر فيمن تـرك الطلب والسـعى، وتواكـل بحجـة أن الرزق يطلب العبد كما يطلبه أجله: (إن كانوا قعــدوا ينبغى لهم أن يقومــوا وأن يطلبــوا، تحــرزا من الطمــع وفســاد القلب، فلا يضـيع حـق الزوجـة والولـد، بـرغم أن أرزاقهم على اللـه، فهـذا تارك للسبيل والسنة، لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُـودِ لَـهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: 233)[3]

وقال آخر: (من طعن فى الحركـة، فقـد طعن فى السـنة، ومن طعن فى التوكـل فقـد طعن فى الإيمـان، والتوكـل حـال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته)[4]

وقال آخـر: (إن هنـاك أقوامـاً كثـيرة يزعمـون أن السـعي

1() أمالي الصدوق: 367.
2() الإحياء: 4/265.
3() آداب المريدين وبيان الكسب، للحكيم الترمذى، ص168.
4() طبقات الصوفية، ص465.

للرزق يتعارض مع التوكل، وهم في الواقـع إنمـا جهلـوا حقيقـة السنة وسر الأنبياء في كل زمان مما يرويه لنا القرآن)[1]

وقـال آخـر: (التوكـل لا ينـافي السـبب: لأن التوكـل هـو الاعتماد على الله تعـالى وهـو من أعمـال القلب، والسـبب من أعمال الجوارح، فإذا كان الإنسان معتمدا بقلبه على الله تعـالى يرى الأمور كلها من اللـه تعـالى، ويعتقـد أن اللـه تعـالى يخلـق الرزق عند السبب)[2]

وقال آخر: (الأسباب كلها حجب وأسـتار دون وجـه الحـق، وهو الفاعل من خلف أستارها... والشـرائع كلهـا... إنمـا جـاءت باعتبـار الأسـباب العاديـة والشـرعية، إذ هي مقتضـى الحكمـة، ومن أسـمائه تعـالى الحكيم، وتـرك الأسـباب مقتضـى القـدرة، ومن أسمائه تعالى القادر.. والوقوف مع أحد الاسـمين، تعطيـل للآخر والمعطل هالك، والكمال في اعتبار الاسمين على وجه لا يناقض التوحيد)[3]

وقال آخر: (الرسل عليهم السلام والعارفون إنمـا يـأمرون برفع حكم الأسباب لا برفع عينها. بل يـأمرون بإثبـات عينهـا من حين أن الأسباب وضعها وأثبتها الحكيم العليم، بما يجريه ويثبتـه سبحانه؛ فمن طلب رفع العوائد الجارية والأسباب العاديـة فقـد أساء الأدب وجهـل... هـو منـازع وليس بمواصـل ولا صـاحب... فالذي يثبت العادات والأسباب على وجه لا يناقض التوحيـد، هـو العارف بالله، لأنه يشهد الحق تعالى فيها)[4]

وقال آخر: (ولولا مراعاة حكمـة الأسـباب وملاحظتهـا، مـا أرسل رسول ولا نزلت شـريعة، ولا كـان أمـر ولا نهي من اللـه تعالى ورسله عليهم السلام)[5]

وقـــال آخـــر: (الأســـباب الـــتي وضـــعها اللـــه تعـــالى في المخلوقات ليظهر عندها لا بها جميع التأثيرات... والله تعالى مع كل شيء يخلق له مقتضاه على كـل حـال من الأشـياء النافعـة والأشـياء المضـرة ولا تـأثير لشـيء أصـلاً، فلهـذا صـحت نسـبة التأثير إلى الأشـياء نسـبة مجازيـة. وإلى المـؤثر الحـق سـبحانه

1() عبد الحليم محمود، أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، ص 183.

2() حياة القلوب في كيفية الوصـول إلى المحبـوب (هـامش قـوت القلـوب ج 2) ص 144.

3() عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج 1 ص 151.

4() المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج 1 ص 95.

5() المرجع السابق، ج 2 ص 844.

نسبة حقيقية، وهو أمر حق لا شبهة فيه أصلاً سواء كانت الأسباب شرعية، كالطاعات أسباب للخير والمعاصي أسباب للشر أو كانت الأسباب عادية كالسكين للقطع... أو كانت الأسباب عقلية كالفكر والنظر... فالتمسك بالشريعة وحدها هو التمسك مجازاً، والمتمسك بالحقيقة فقط هو المتمسك بالله تعالى وحده بدون أسباب أصلاً من حيث نسبة التأثير إليه سبحانه نسبة حقيقية. لكن الطريق الأول وحده موصل إلى الشرك بالله تعالى، وإلى التجسيم في حقه سبحانه، ونسبة المكان والجهة إليه تعالى، والطريق الثاني وحده موصل إلى الزندقة والإلحاد ونفي الشريعة والدخول في الباطنية المحضة. ويصدق على أهل الطريق الأول وحده، وأهل الطريق الثاني وحده قوله سبحانه: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85] والجمع بين الطريقين بالقيام بالأول في الظاهر، وبالتحقيق بالثاني في الباطن، فيتمسك بالأسباب الشرعية والعادية والعقلية ظاهراً وبالمسبب الحق وحده باطناً)[1]

وقال آخر: (الغنى عن الأسباب من خصائص الحق جل وعلا، ولذا قال: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] وقد نظرنا في افتقارنا الحقيقي فوجدناه إنما هو إلى الأسباب فإذا قلنا: يا ربنا أطعمنا أو اسقنا وعندنا طعام أو شراب، يقول لنا بلسان الشرع: كلوا من ذلك الطعام أو اشربوا من ذلك الماء ويقاس بذلك العري ونحوه، فما استغنينا حينئذ بعين الحق وإنما استغثنا بما هو من الحق فتأمل؛ فإن الاستغناء بالله دسيسة للنفس فهي مثابرة على حصول صفة الغناء لها، فوقعت في منازعة أوصاف الربوبية من حيث لا تشعر مع أنها في أعلى طبقات الفقر والحاجة)[2]

وقال آخر: (لا تتركوا الأسباب لما تجدونه من قوة اليقين، فإن ذلك لا يدوم وربما عاقبكم الله بسبب اليقين، وقد مدح الله تعالى قوماً قاموا في الأسباب ولم تشغلهم أسبابهم عن ذكر الله بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ

1() عبد الغني النابلسي، رسالة رد الجاهل إلى الصواب، ص 1، 3.

2() عبد الوهاب الشعراني، كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، ص 58، 59.

الله﴾ [النور: 37])[1]

وقال آخر: (رفع الأسباب عند الأكابر لا يعول عليه، بـل من شأنهم الوقوف عند الأسباب)[2]

وهكذا؛ فإن جميع الحكماء اعتبروا التجرد الحقيقي لله غير مناف لاستعمال الأسباب، وقد قيل لبعضـهم: أريـد أن أحج على التجريـد، فقـال لـه: (جـرد أولاً قلبـك عن السـهو، ونفسـك عن اللهو، ولسانك عن اللغو، ثم اسلك حيث شئت)[3]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تجمع بين الرؤيتين، فهما غير متناقضتين، بل متكاملتان، بل هما رؤيـة واحـدة.. فاللـه هـو الفاعـل في الجميـع، والأدب مـع اللـه يقتضي منك الأدب مع كل فعل من أفعاله، أو أمر من أوامره.

1() عبد الوهاب الشعراني، لطـائف المنن والأخلاق في بيـان وجـوب التحـدث بنعمـة الله على الإطلاق، ج 2 ص 37.

2() ابن عربي، رسالة لا يعول عليه، ص 4.

3() الرسالة القشيرية، ص 122.

الإبداع والاختراع

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن كيفية إبداع الله تعالى لخلقه، والمراتب التي مرت بها المبدعات، وعن علاقة ذلك بالفيض والصدور، أو بالتجلي والظهور، وعن صحة ما يقوله الفلاسفة الإشراقيون، أو ما يقوله الصوفية المكاشفون.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن حقائق الكون، وكيفية خروجه من العدم إلى الوجود، والمراحل التي مر بها، من الغيب المطلق الذي لا يمكن للعقل مهما كان حادّ الذكاء أن يكتشفه، ولا للروح مهما كانت شفافة أن تدركه.. لذلك كان العارف المتواضع، والحكيم المسلم لربه، والمحترم لقدراته، هو ذلك الذي يخضع لما دلت عليه النصوص المقدسة، ويكتفي بها عن إدخال عقله أو كشفه فيما لا طاقة لهما به.

لذلك أنصحك ـ أيها المريد الصادق ـ ابتداء بأن تترك كل ما ذكروه في هذا الجانب؛ فهو يتعارض مع قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: 51]

فالله تعالى في الآية الكريمة يصرح بأنه لم يشهد البشر كيفية الخلق، ولم يتخذهم أعوانا يستشيرهم في ذلك.. ولذلك بقوا على الجهل المطبق بتلك الحقائق، إلا ما دلت عليه النصوص المقدسة.

ولذلك فإن الذين يذكرون خالقية الله تعالى للأشياء بما يسمونه فيضا أو صدورا أو غيرها، يتوهمون أن ذلك منحصر في هذا العالم الذي نعيشه، أو في هذه النشآت.. وبذلك يحدون قدرة الله المطلقة.. فهذا العالم مجرد واحد من العوالم الكثيرة التي غاب عنا زمانها، كما غاب عنا مكانها.. ولذلك كان الأدب مع الله تعالى هو التعامل مع خالقيته المطلقة التي لا تحدها الحدود، لا مع تلك القيود التي قيده بها الفلاسفة أو الإشراقيون أو الروحانيون أو المتكلمون أو غيرهم.

فالله تعالى متى شاء شيئا خلقه، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: 117]

وهـذا لا يعـني مـا يبحث فيـه العلمـاء من تـواريخ الأرض والسماء، ومجراتها ونجومهـا وكواكبهـا؛ فـذلك بحث مبـني على أسـس علميـة، لا على حـدس عقلي أو روحي قـد يخطئ أو يصيب.

ومع ذلك، فإن الذي يدعون العلم، وبسـبب تـركهم للمنهج العلمي، واستعمالهم للحدس وقعوا فيما وقعوا فيه من الأخطاء الكثيرة، والتي يثبت كل يوم مدى الجهـل الـذي كـانوا ينشـرونه تحت اسم النظريات العلمية.

ولعل أكبر دليل على ذلك [نظرية التطور]، والـتي توهمـوا بسببها أن الله تعالى لم يخلـق كـل شـيء ابتـداء.. وإنمـا خلـق بعضـه من بعض.. من غـير دليـل من علم، ولا حجـة من وحي.. ولذلك رفض المتواضعون من العلم القول بها، بنـاء على كونهـا مجرد حدس عقلي، أو رؤية ذاتية بعيدة عن الحقائق العلمية(1)

وأنصحك ـ أيها المريد الصادق ـ بدل أن تغرق في كل تلـك المتاهات الـتي وقـع فيهـا الفلاسـفة والمتكلمـون والإشـراقيون والصوفية والعلماء أن تقرأ أسماء الله الحسنى الدالة على هذه الجوانب؛ فهي أنفـع لـك، وهي لا تعرفـك بـالكون وحـده، وإنمـا تعرفك بربه قبل ذلك وبعده.

ذلك أن الذي يعنيك ليست كيفية بـدأ الكـون، وإنمـا يعنيـك من أبدعه؛ فالذي أبدعه أول مرة يستطيع أن يبدع ما يشاء؛ فلا تجعـل نفسـك أسـيرا لعلم لا ينفعـك، وجهـل لا يضـرك، واتـرك السؤال إلا عما يفيدك، وقد قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْـدَ لَكُمْ تَسُـؤْكُمْ وَإِنْ تَسْـأَلُوا عَنْهَـا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا الله عَنْهَا وَالله غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَـدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَـا كَـافِرِينَ﴾ [المائـدة: 101، 102]

وأنا لا أقول لك هذا ـ أيها المريد الصادق ـ لـترمي كـل من تحدث في ذلـك بالجهـل أو الغفلـة، فـأنت لا شـأن لـك بغـيرك، وإنما شأنك بنفسك؛ فـدعك من فضـولها، واكتـف بـوحي ربـك، وإن شاء أن يفعل معك مثلمـا فعـل مـع إبـراهيم عليـه السـلام حين أراه كيفية إحياء الموتى.. فله ذلـك.. في الـدنيا والآخـرة.. وإياك حينها أن تفخر بما أراك الله من مشاهد، أو ما علمك من الحقـائق؛ فالوحيـد الـذي يـدل على العقائـد، ويعـرف بحقـائق

(1) رددنا على هذه النظرية بتفصيل في كتاب [الحياة تصميم لا صدفة]

الوجود هو ذلك المعصوم بالوحي، لا ذلك الذي قد يختلط كشفه وشهوده مع وحي الشياطين وإلهاماتها، أو أهواء النفس ورغباتها.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الأسماء الحسنى الدالة على خلقه وإبداعه كثيرة، ولتقريب حقيقتها أذكر لك مثالا ضربه بعض الحكماء لذلك، حيث ذكر أنه لو أراد فنان بارع في التصوير والنحت، رسم صورة زهرة فائقة الجمال، أو نحت تمثال بديع، فإنه يبدأ أول ما يبدأ بتعيين بعض خطوط الشكل العام لهما، وهذا التعيين يتم بتنظيم، ويعمله بتقدير يستند فيه إلى علم الهندسة، فيعيّن الحدود وفقه بعلمٍ وبحكمة، لذا تحكُم معاني العلم والحكمة وراءَ التنظيمَ والتحديد.

ثم إن تلك الاعضاء التي عُيّنت وفق العلم والحكمة أخذت صيغة الصنعة المتقنة والعناية الدقيقة، لذا تحكمُ معاني الصنع والعناية وراء العلم والحكمة.

وقابلية الحسن والزينة في الظهور يدل على أن الذي يحرك الصنعة والعناية هو إرادة التجميل والتحسين وقصد التزيين، فهما إذن يحكمان من وراء الصنعة والعناية.

وعندما يبدأ الفنان بإضفاء حالة التبسم لتمثاله، وشرع بمنح أوضاع حياتية لصورة الزهرة، يكون قد بدأ بفعلَي التزيين والتنوير، ويحركهما معنيا اللطف والكرم.

وهكذا.. يحرك معاني الكرم واللطف، وما وراءهما معاني التودد والتعرف، أي تعريف نفسه بمهارته وفنه، وتحبيبها إلى الآخرين.

وهذا التعريف والتحبيب آتيان من الميل إلى الرحمة وإرادة النعمة.

ومعاني الترحم والتحنن هذه، لا يسوقهما إلى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غير ما في ذاته من جمال معنوي وكمال معنوي يريدان الظهور، فأجمل ما في ذلك الجمال، وهو المحبة، وألذ ما فيه وهو الرحمة، كل منها يريد إراءة نفسه بمرآة الصنعة، ويريد رؤية نفسه بعيون المشتاقين.

فالجمال والكمال محبوب لذاته، (يحب نفسه أكثر من أي شئ آخر، حيث أنه حُسن وعشق في الوقت نفسه، فاتحاد الحسن والعشق آتٍ من هذه النقطة.. ولما كان الجمال يحب

نفسه، فلابد أنه يريد رؤية نفسه في المرايا، فالنعم الموضـوعة على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقـة على الصـورة، تحمـل لمعةً براقـة من ذلـك الجمـال المعنـوي - كـل حسـب قابليتـه - فتُظهر تلك اللمعات الساطعة نفسها إلى صاحب الجمال، والى الآخرين معاً)(1)

ثم علق على هذا المثـال بقولـه:(وعلى غـرار هـذا المثـال الذي ينظم الصانع الحكيم ـ ولله المثـل الاعلى ـــ الجنـة والـدنيا والسموات والارض والنباتات والحيوانات والجن والانس والملك والروحانيات، أي بتعبير موجز ينظم سبحانه جميع الأشياء كليّهـا وجزئيها.. ينظمها جميعاً بتجليات أسمائه الحسـنى ويعطي لكـل منها مقداراً معيناً حتى يجعله يستقرىء اسم: المقـدر، المنظم، المصور) (2)

ففي النظر إلى زهرة واحدة جميلة صحائف كثيرة جداً من صـحائف التعـرف على اللـه: فصـحيفة هيئـة الشـئ الـتي تـبين شكله العام ومقداره، تلهج باسماء: يا مصور يا مقدر يا منظم.. وصحيفة صور الاعضـاء المتباينـة المنكشـفة ضـمن تلـك الهيئـة البسيطة للزهرة، أسماء كثيرة أمثال: العليم، الحكيم.. وصحيفة إضفاء الحسن والزينـة على الأعضـاء المتباينـة بأنمـاط متنوعـة من الحسن والزينة تكتب في تلـك الصـحيفة أسـماء كثـيرة من امثــال: الصــانع، البــارئ.. وصــحيفة الزينــة والحســن البــديع الموهوبان لتلك الزهرة تقرأ اسماء كثيرة امثـال: يـا لطيـف. يـا كريم.. وصحيفة تعليق ثمرات لذيـذة على تلـك الزهـرة يجعلان تلك الصحيفة، تستقرئ اسماء كثيرةً أمثال: يا ودود يـا رحيم يـا منعم.. وصحيفة الإنعام والإحسان تقرأ أسماء أمثـال: يـا رحمن يا حنان.. وصحيفة ظهور لمعات الحسن والجمال الواضـحة في تلك النعم تكتب وتقرأ اسماء: يـا جميـل ذا الكمـال يـا كامـل ذا الجمال.. فهذه زهـرة واحـدة تلهج بجميـع هـذه المعـارف الـتي تحتوي من الأعمـاق مـا لا حـدود لـه، فـإلى أي حـد من السـمو والكليـــة تســـتقرىء جميـــع الازهـــار، وجميـــع ذوي الحيـــاة والموجودات الاسماء الحسنى الإلهية.

إذا عرفت هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ـــ وسـلمت لي فيـه؛ فاعلم أن أصول الأسـماء الحسـنى المرتبطـة بـالخلق والإبـداع

1() الكلمة الثانية والثلاثون، ص72.

2() الكلمة الثانية والثلاثون.

ثلاثـة، وهي [الخـالق البـارئ المصـور]، وهي الـتي وردت بهـذا الترتيب في قوله تعالى: هُوَ الله الْخَـالِقُ الْبَـارِئُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ الْأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: 24]

وهي جميعا تدل على طلاقة القدرة في الإبـداع والاخـتراع بمسـتوياته الثلاثـة: التقـدير وهـو مـا يـدل عليـه اسـم الخـالق، والإيجـاد على وفـق التقـدير وهـو مـا يـدل عليـه اسـم البـارئ، والتصوير بعد الإيجاد، وهو ما يدل عليه اسم المصور.

ذلك أن كل بناء يحتـاج إلى هـذه المسـتويات الثلاثـة، فـأي بناء يحتاج إلى (مقدر يقدر ما لا بد لـه منـه من الخشـب واللبن ومسـاحة الأرض وعـدد الأبنيـة وطولهـا وعرضـها، وهـذا يتـولاه المهندس فيرسمه ويصوره، ثم يحتاج إلى بنـاء يتـولى الأعمـال الـتي عنـدها يحـدث أصـول الأبنيـة، ثم يحتـاج إلى مـزين ينقش ظاهره ويزين صورته)[1]

وهذا في بنـاء الخلـق أمـا بنـاء اللـه، فهـو يرجـع إلى اللـه الواحد الأحـد، فهـو الخـالق البـارئ المصـور، ولـذلك تظهـر في جميع مخترعاته ومخلوقاته صفة الوحدة، وهو ما يعطي للأشـياء جمالها وقوتها وتناسقها.

والقرآن الكريم يخبرنا، بل يربي نفوسنا على أن لله تعالى الإرادة المطلقة في هذه المستويات الثلاثة:

أما مستوى الإرادة المطلقة في الخلق، فالله تعالى يخبرنا بأنه يخلق من شاء ومتى شاء، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَـأْتِ بِخَلْـقٍ جَدِيـدٍ (ابـراهيم:19)، وقـال: إِنْ يَشَـأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَـأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيـدٍ (فاطر:16)، وقال: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَـا النَّاسُ وَيَـأْتِ بِـآخَرِينَ وَكَانَ الله عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً (النساء:133)

وعندما تعجب زكريا عليه السلام من أن يكون له ولـد بعـد أن كبرت سنه، وكانت امرأته عاقرا رده الله إلى مشـيئته، قـال تعالى: قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَـرُ وَامْـرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (آل عمران:40)

وعندما تعجبت مريم عليها السلام ردها الله إلى المشـيئة، قال تعالى: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَـدٌ وَلَمْ يَمْسَسْـنِي بَشَـرٌ قَالَ كَذَلِكِ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُـولُ لَـهُ كُنْ

[1]() المقصد الأسنى:76.

فَيَكُونُ (آل عمران:47)

فخلق الله من خلال هذه النصوص يرجـع إلى مشـيئة اللـه المتفـردة، فليس هنـاك من يفـرض على اللـه ـــ تعـالى اللـه وتقدس ـ أن يخلق شيئا أو أن لا يخلق.

ولـــذلك من الأخطــاء الــتي وقعت فيهــا بعض الطوائــف زعمهم بأن من مقتضيات كون اللـه خالقـا أن يخلـق في الأزل، وهو قول مناف لمشيئة الله المطلقة، فمشيئة الله لا يقال لهـا: افعلي أو لا تفعلي.

وقد غاب عن هـؤلاء أن (السـيف يسـمى قاطعـا وهـو في الغمد، ويسمى قاطعا حالـة حـز الرقبـة، فهـو في الغمـد قـاطع بالقوة وعند الحز قاطع بالفعـل، والمـاء في الكـوز مـرو، ولكن بالقوة وفي المعدة مرو بالفعل، ومعـنى كـون المـاء في الكـوز مرويا أنه بالصفة التي بها يحصل الإرواء عنـد مصـادفة المعـدة، وهي صفة المائيـة، والسـيف في الغمـد قـاطع أي هـو بالصـفة التي بها يحصل القطع إذا لاقى المحل، وهي الحـدة إذ لا يحتـاج إلى أن يستجد وصفا آخر في نفسه)(1)

وكذلك، ولله المثل الأعلى، صفة الخـالق للـه تعـالى، فهـو خالق في الأزل بالمعنى الـذي بـه يقـال المـاء الـذي في الكـوز عذب، وفي السيف أنه قاطع، ومن الخطأ الكبـير أن يقـال لـه ـ تعالى وتقدس ـ:(ما دمت خالقا، فلا بد أن تخلق)

وهذا الحجر للمشـيئة أصـاب مثلـه كثـيرا من صـفات اللـه تعالى، فصفات الله تعالى أزلية لم تحدث بعد أن لم تكن وإنمـا مقتضياتها قد تحدث، فيتصرف الله معها وفق مشيئته.

أما **المستوى الثاني**، وهو مستوى الإيجـاد بعـد التقـدير، وهو ما يدل عليه اسم (البارئ)، فقد ورد في النصوص مـا يـدل على مشيئة الله المطلقة في ذلك، ومنه قوله تعـالي: أَلَمْ تَـرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (الفرقان:45)

ومن هذا البـاب مـا من اللـه تعـالى على عبـاده من جعـل الكون على الصفة الـتي تصـلح لعبـاده مـع أن مشـيئته وقدرتـه مطلقة يمكنها أن تفعل غير ذلك:

ومن ذلـك قولـه تعـالى في نعم الحـواس: قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللـه

(1) المقصد الأسنى: 36.

يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيـاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْـدِفُونَ (الأنعـام: 46)

ومن ذلك قوله تعالى فيما لو شـاء، فجعـل الليـل سـرمدا: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إلى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (القصص:71)

أو لو شاء فجعل النهار سرمدا: قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللـه عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللـه يَـأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (القصص:72)

أو لو شاء فجعل الماء غورا: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْـبَحَ مَـاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (الملك:30)

أو لـو شـاء جعـل الريـاح سـاكنة: إِنْ يَشَـأْ يُسْـكِنِ الـرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (الشورى:33)

وهكــذا يعيش المــؤمن في هــذه المعــاني، وهــو يــرى الاحتمــالات المختلفــة للأشــياء تطــوف بــه ليعيش في كــدرها وضيقها إلى أن يرى يد الله تعالى مبسوطة لـه بـالخير من كـل جهة، فيعيش في رحاب المنة، ولذة الشكر، والفـرح باللـه، أمـا الجاهـل المجـادل، فيظـل يسـأل كيـف، ولمـاذا، ويظـل يفـرض أحكامه على الله إلى أن تفرض أحكام الله عليه.

أما **المستوى الثالث** وهو مستوى التصوير بعـد الإيجـاد، وهو مايعبر عن اسم (المصور)، فقد ورد في النصوص مـا يـدل على مشيئة الله المطلقة في ذلك:

فالله تعـالى يمن على عبـاده أن عـدل صـورهم في نفس الوقت الذي كان قادرا على تشويهها، قال تعالى: الَّذِي خَلَقَـكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (الانفطار:7 ـ 8)

وقـال عن مشـيئته المرتبطـة بتصـوير الجـنين: هُـوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْـفَ يَشَـاءُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (آل عمران:6)

وقـال تعـالى يمن على عبـاده بقـوة أجسـامهم وسـلامتها: نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَـالَهُمْ تَبْـدِيلاً (الانسـان:28)، وقـد ورد عن ابن عبـاس في تفسـيرها:(لغيرنـا محاسنهم إلى أسمج الصور وأقبحها)

ويذكر الله تنوع الكائنات في طريقة مشيها، ويستدل بذلك على طلاقة مشيئته، قال تعالى: وَالله خَلَـقَ كُـلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَـاءٍ

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِــي عَلَى بَطْنِــهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِــي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ الله مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (النور:45)

وينبـه تعـالى إلى النظـر في أطـوار الخلـق الـتي يمـر بهـا الإنسان ليعاين طلاقة المشيئة الإلهية في التصوير، قال تعـالى: الله الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْـدِ ضَـعْفٍ قُـوَّةً ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْـدِ قُـوَّةٍ ضَـعْفاً وَشَـيْبَةً يَخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ وَهُـوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (الروم:54)

ويـذكر اللـه تعـالى الصـور المختلفـة والطاقـات المختلفـة الموهوبـة للملائكـة ــ عليهم السـلام ــ وينبـه بـذلك إلى طلاقـة مشـيئته، قـال تعـالى: الْحَمْـدُ للـه فَـاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَـةِ رُسُـلاً أُولِي أَجْنِحَـةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَـاعَ يَزِيـدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (فاطر:1)

وإدراك المؤمن ـ الذي قد تضايقه صورته الدنيويـة ــ لهـذه المشيئة الإلهيـة المطلقـة في التصـوير تجعلـه يعيش في راحـة تامة، بل في سرور عظيم، فالله ـ أولا ـ هو الـذي صـوره بهـذه الصورة، وهو يرضى ما اختار الله له من صور.

وهـو ــ ثانيـا ــ يعيش آملا في فضـل اللـه أن يبدلـه بتلـك الصورة التي رضيها في الدنيا صورا أجمل في الآخرة، وقد قال ﷺ مخبرا عن نعيم الجنة:(إن في الجنة لسوقا ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنسـاء، فـإذا اشـتهى الرجـل صـورة دخل فيها)[1]

وقال: (إن في الجنة لسوقا يأتونها كـل جمعـة فيهـا كثبـان المسك فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فـيزدادوا حسنا وجمـالا فـيرجعون إلى أهليهم وقـد ازدادوا حسـنا وجمـالا فيقـول لهم أهلـوهم: واللـه لقـد ازددتم بعـدنا حسـنا وجمـالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)[2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تملأ قلبك بهذه المعارف النورانية، لترى إبـداع اللـه متجليـا في كـل شـيء، ولتنعم حينهـا بمشـاهدة الصـانع من خلال صـنعته، والمبدع من خلال إبداعه، والمصور من خلال صوره.. ودع عنـك كل مـا لا يقـدر عقلـك على فهمـه؛ فـأنت لا تـزال في مراحلـك

1() رواه الترمذي.
2() رواه أحمد ومسلم.

الأولى من سـلم الـترقي، إلى أن يـراك اللـه أهلا ليكشـف لـك بعض غيبه في هذه النشأة، أو فيما يستقبلك من نشآت.

السلام والصراع

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الصراع الذي نراه بين الكائنات المختلفة، وهل هو أصل من أصول الكون، أم أنه طارئ عليه، وعن علاقة ذلك بالنفس المطمئنة ورضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الكون في ذاته باعتباره ذا مصدر واحد، وهو الله تعالى الذي خلقه وبرأه وصوره وأبدعه وبث فيه كل شيء، لا محل فيه للصراع، ولا لمقتضياته، بل هو مملوء بالسلام، وكيف لا يكون كذلك ومن أسماء خالقه السلام المؤمن الحافظ، وكلها أسماء تنبئ عن كون السلام هو أصل الكون، وهو نهايته؟

ولذلك؛ فإن أول علامات النفس المطمئنة، هو كونها نفسا مسالمة، لا بسبب المنازل التي نزلتها، ولا الأخلاق التي تحلت بها، وإنما بسبب تلك المعارف الإيمانية التي تنزلت عليها؛ فجعلتها ترى أسماء الله تعالى الحسنى مهيمنة على كل شيء، ولذلك يغمر السلام كل شيء.

فلو تأملت ـ أيها المريد الصادق ـ أسماء الله الحسنى، والتي وصفها الله تعالى بالسعة، وكونها المهيمنة على الكون، لوجدتها جميعا مرتبطة بالسلام، بل بأعظم مراتب السلام، وهو الرحمة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:5)، والتي تشير إلى أن مملكة هذا الكون الواسعة مبنية على أساس الرحمة الإلهية، ومنتهية إليها.

ولذلك اختار الله تعالى ذلك الاسم الجليل الذي يجمع بين الدلالة على منتهى الرحمة وكمالها، والعلمية على الذات، ليدل على هذا المعنى، فإنه إذا قيل: (حكم الملك الشجاع) دل ذلك على ان أكبر منجزات هذا الملك مؤسسة على شجاعته، وإن قيل: (حكم الملك العادل) دل ذلك على أن أبرز ما يظهر في مملكته هو عدله، وهكذا.

وهذا ما نفهمه من الآية الكريمة، فهي لم تقرر معنى الاستواء بقدر ما قررت معنى الرحمة التي على أساسها يحكم الكون، وبناء على هذا نرى القرآن الكريم يقرن كل شيء باسمه الرحمن، ولهذا ورد في البسملة التي هي آية من كل سورة اسم [الرحمن الرحيم]، واعتبار كل شيء بدئ منطلقا

من رحمة الله تعالى ورحيميته.

ومثل ذلك سورة الفاتحة التي جاء فيها ذانك الاسـمان بين ربوبية الله تعالى للعالمين، ومالكيته ليوم الدين، وهي تعـني أن الرحمــة الإلهيــة هي المهيمنــة على المجــالات جميعــا مكانهــا وزمانها وأنواعها.

ولهـذا توصـف الرحمـة الإلهيـة بالسـعة، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ﴾ (الأعـراف: من: 156)، وقـال: ﴿فَـإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقُـلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَـةٍ وَاسِـعَةٍ وَلا يُـرَدُّ بَأْسُـهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام:147)

أما الصراع الموجود بين الكائنات، فهو صراع دخيل عليهـا، وناشئ عن التكاليف التي أنيطت بهـا، وليس ناشـئا عن حقيقـة الكون، أو مصدره، أو تدبيره.

ولـذلك عنـدما أخـبر اللـه تعـالى الملائكـة عن اسـتخلاف الإنسان، ذكروا الصراع المحتمـل لـذلك الاسـتخلاف، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إِنِّي جَاعِـلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَـا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَـا وَيَسْـفِكُ الـدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30]

وقد ذكر الملائكة عليهم السلام ذلك بناء على معرفتهم أن الاستخلاف يعني تمكين الإنسان من خيارات مختلفـة متناقضـة، ليختار ما يتناسب مع طبيعته، كما قال تعالى عن الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَـلْ لَـهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَـانًا وَشَـفَتَيْنِ (9) وَهَـدَيْنَاهُ النَّجْـدَيْنِ ﴾ [البلد: 8 - 10]

ولهذا حصل الصراع بين تلك الكائنات المكلفة المستخلفة، نتيجة بعدها عن ربها، لا نتيجة معرفتها به، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُــلُ فَضَّــلْنَا بَعْضَــهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللــه وَرَفَــعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـاتٍ وَآتَيْنَـا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ الْبَيِّنَـاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِـرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَـاءَ اللـه مَـا اقْتَتَـلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْـدِهِمْ مِنْ بَعْـدِ مَـا جَـاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُـوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَـرَ وَلَوْ شَاءَ الله مَـا اقْتَتَلُـوا وَلَكِنَّ اللـه يَفْعَـلُ مَـا يُرِيـدُ ﴾ [البقـرة: 253]

وإن شئت مثالا يقرب لك هذا المعنى ـ أيها المريد الصادق ـ فتخيل لو أن هناك مدرسة من المدارس أراد القـائمون عليهـا تـدريب الطلبـة على الاسـتقلالية في اتخـاذ القـرارات، فلـذلك تركـوا للتلاميـذ الحريـة في عمـل أي شـيء فيهـا من دون أن

يخبروهم أنهم تحت الاختبار.

وقد جعل هذا بعضهم أو أكـثرهم يتوهمـون أن الأمـر صـار لهم صـيرورة كاملـة، فراحـوا يتصـرفون بحسـب مـا تقتضـيه أهـواؤهم، وهـو مـا أوقعهم في الصـراع، لأن الأهـواء تقـع على محال واحد، كإدارة المدرسة مثلا، والكل يريدها لنفسه، ولـذلك يتصارعون من أجل الحصول عليها.

أما غيرهم من الذين يعلمون أنهم في مرحلة تدريبية، وأن الإدارة الحقيقية للمدرسة باقيـة، وأنهـا تهيمن على كـل شـيء، وأنها ما تركت لهم الفرصة ليتخذوا مـا شـاءوا من القـرارات إلا لتبلو سرائرهم، وتعرف حقائقهم؛ فلن يتحركـوا حركـة إلا وفـق ما يقتضيه السلام والأدب والأخلاق.

وهكذا هـو واقـع الكـون ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فالـذين يؤمنون بهيمنة الله تعـالى على كـل شـيء، ممتلئـون بالسـلام، ويشعرون بـأنهم في ضـيافة رب رحيم كـريم لطيـف، وأنهم مـا خلقوا إلا ليعرفوه ويتقربوا منـه، بخلاف غـيرهم الـذين انشـغلوا بالتنــافس على نيــل مــا اســتطاعوا؛ فلــذلك يتوهمــون أنهم يصارعون كل شيء حتى يحصلوا على مبتغاهم.

ولهـذا كـان أكـثر النـاس صـراعا، أكـثرهم بعـدا عن الـدين والإيمان، أو أكثرهم جهلا بوحدانية الله تعالى، وكونـه مـدبر كـل شـيء، والمهيمن على كـل شـيء، ولهـذا يتـوهم أنـه يمكنـه أن يكون هو الإله الذي يفرض سلطته على غيره، كمـا قـال تعـالى عن فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى (21) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (22) فَحَشَـرَ فَنَـادَى (23) فَقَـالَ أَنَـا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)﴾ [النازعـات: 21 - 24]، وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَـوْنُ يَاأَيُّهَـا الْمَلَأُ مَـا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي فَأَوْقِـدْ لِي يَاهَامَـانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَـلْ لِي صَـرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: 38]

وأخبر عن قارون، واسـتكباره بمالـه، وتوهمـه أنـه صـاحبه الحقيقي، وليس هبة إلهية له، لأجل اختباره، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَـاهُ مِنَ الْكُنُـوزِ مَـا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَـالَ لَـهُ قَوْمُـهُ لَا تَفْـرَحْ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ الله الدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْـكَ وَلَا تَبْـغِ الْفَسَـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللـه لَا يُحِبُّ الْمُفْسِـدِينَ (77) قـالَ إِنَّمـا أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَـكَ مِنْ قَبْلِـهِ مِنَ

الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) [القصص: 76-79]

وأخبر عن صاحب الجنتين الذي توهم أنه المالك الحقيقي لهما، فقال: وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا [الكهف: 35، 36]

وأخبر عن غلبة هذا الصنف من البشر، والذين عزلوا الله تعالى عن كونهم، وتوهموا أن الكون أصبح ملكهم، يتصرفون فيه كما شاءوا، فقال: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [الزمر: 49 - 51]

ونتيجة لكل هذه المواقف السلبية من الكون وخالقه، ظهر الصراع، وظهر معه كل أنواع الفساد، كما قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلهمْ يَرْجِعُونَ [الروم: 41]

والآية الكريمة تخبر أن العقوبات الإلهية التي تعرض لهؤلاء ليس القصد منها الصراع، وإنما القصد منها التنبيه والتأديب، لتبين أن السلام هو المهيمن على كل شيء، حتى ما يبدو صراعا.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ أن تطمئن نفسك إلى هذه المعاني القرآنية، فاذهب إلى الفلسفات المادية البعيدة عن الله، وسترى سر صراعها، وهو ذلك البعد والحجاب عن الله، أو تلك التصورات الخاطئة حوله.

ومن الأمثلة على ذلك تلك النظريات التي أتى بها ذلك المدعو [توماس روبرت مالتوس][1]، والذي دعا إلى عدم الزواج بسبب الفقر أو غيره من الأسباب، وإلى قتل المواليد الجدد بسبب الأمراض، والمجاعات، والحروب.. وراح ينصح

1() انظر: توماس روبرت مالتوس من نظرية السكان إلى لعنة الإبادة، علي سفر، نُشر في 2015/05/09، العدد: 9912، ص(15)

الحكومات بنصائح كثيرة ممتلئة بالإجرام، منها عدم زيادة أجــور العمال، لأن هذا إن حصل فإنه سيدفعهم إلى الـزواج المبكّـر أو إنجاب عدد أكـبر من الأطفـال، كمـا أوصـى بعـدم الإنفـاق على العاطلين عن العمـل لأن هـذا سـيحولهم إلى كسـالى.. وغيرهـا من التعليمات الممتلئة بالإجرام.

وهـو نفس مـا ذكـره اللـه تعـالى عن المشـركين، وقتلهم أولادهم كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللـه مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: 137]

وقد أخبر أن من أسباب ذلك الجهل بكون اللـه تعـالى هـو الرزاق، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151]

وهكذا حصل الصراع بين البشر بسبب تـوهمهم أن الـرزق محدود، وأن عليهم أن يصارع بعضهم بعضا من أجل الظفر بــه، حتى أن الأمر وصل ببعضهم إلى الفرح لكـل زلـزال أو طـاعون أو حرب تقضي على المستضعفين، بـل إنهم راحـوا يسـتعملون كل الوسائل لتحقيق ذلك.

ففي القـرن التاسـع عشـر، وهـو القـرن الـذي طغـا عليـه النفـور من الـدين، وانتشـار الإلحـاد، اجتمـع أعضـاء الطّبقـات الحاكمة في أوروبّا لمناقشة مشكلة السّكّان المكتشـفة حـديثًا، ولابتكار طرق تنفيذ التّفويض المالتوسي، لزيادة معدّل الوفيات للفقراء، وقد كان من التوصيات التي خرجـوا بهـا أنـه (بـدلاً من توصية إزالة الفقر، ينبغي أن نشجّع العادات المتناقضة.. فعلينــا عمل الطرق الضيقة، وحشد أكثر الناس في الـبيوت، وبطريقـة ما يُعاد وباء الطّاعون.. وينبغي على الدولة أن تبني القرى قرب الــبرك الرّاكــدة، وتشــجع بشــدة المســتوطنات في كــلّ المستنقعات والأوضاع الضّارّة)

وكنتيجة لهذه السّياسة القاسـية، تحـول الصـراع من أجـل البقاء إلى سياسات تمارسـها الحكومـات حـتى تخفـف الزّيـادة السّريعة في السكّان..

ومن تلك السياسات ما يسمى بسياسة [اضطهاد الفقـر].. وهو ليس اضطهادا للفقـر، وحربـا لـه، وإنمـا اضـطهاد للفقـراء ومحاربـة لهم.. وقـد نُفـذ فعليـاً في القـرن التاسـع عشـر في بريطانيا، فأنشئ النظام الصـناعيّ الّـذي جعـل أطفـال الثّمانيـة

والتاسعة يعملون 16 ساعة في اليوم، وفي مناجم الفحم، والآلاف منهم ماتوا في ظّروف قاسية.

ولم يقتصر الأمر على السياسيين والاقتصاديين، بل تعداه إلى العلماء والفلاسفة، حيث انتشرت النظريات العلمية التي تجعل الصراع أصلا من أصول الكون.

ولعلك تعرف أن [نظرية التطور] التي هيمنت على الفكر البشري مدة طويلة، نظرية مبنية على أساس الصراع بين الكائنات، كما عبر عن ذلك صاحبها في إحدى مقدماته الأساسية عند تطوير نظريّته، فقد قال: (إن تطور الكائنات الحيّة يعتمد على الصراع من أجل البقاء، والأقوى ينتصر في الصّراع، والأضعف يُحْكَم عليه بالهزيمة والاندثار.. ووفقاً لذلك، كان هناك صراع قاس، ونزاع أبديّ في الطّبيعة من أجل البقاء.. ودائمًا القوي ينتصر على الضّعيف، حتى يتم التطور)

وهكذا اعتبر رواد هذه النظرية الصراع من أجل البقاء منطبقا على البشر، ولهذا ادعوا أن [السلالات المفضلة] هي المنتصرةً في الصّراع، وهم طبعا يقصدون الإنسان الأبيض الأوروبي والأمريكي على وجه الخصوص.. أما السلالات الإفريقيّة أو الآسيويّة فيعتبرونها متخلفة في الصّراع، وأنها ستفقد قريبًا أثناء عملية الصّراع من أجل البقاء، وبالتالي سيختفون.

ولم يكتف المصارعون بكل ذلك، بل راحوا ينشرون النظريات والأفكار الشيطانية التي تدعو إلى ممارسة كل الوسائل التي تزيل المستضعفين من الوجود حتى لا يبقى في العالم إلا الأقوياء.. فالبقاء لهم وحدهم.. ولذلك لهم أن ينتهبوا ثروات الفقراء المستضعفين.. ولهم أن يبيدوهم.. حتى لا يبقى في الأرض إلا الأصلح والأقوى.

وهكذا، وفي ظل هذه التصورات، كتبت المعارف المختلفة على أساس الصراع لا على أساس السلام، وكأن الكون كله شياطين يصارع بعضها بعضا، وليست كائنات لإله واحد، يخدم بعضها بعضا، لتحقيق غايات سامية، قد يكشف لهم على بعضها في هذا العالم، وقد يؤجل الباقي إلى وقته المناسب.

ولهذا ينظر المؤمن إلى الكون كله كما ينظر إلى تلك المائدة التي يقدمها له من يستضيفه، والتي يدعوه كل طبق منها إلى تناوله باحترام ولطف وأدب.. ولهذا نجد القرآن الكريم

يصور النعم التي أفاضها الله تعالى على عباده بصورة الهدايا المقدمة على أطباق، ومعها ختم المهدي، فهو يصور ــ مثلا ـ الأرض بصورة المركب الذلول، المحتوية على كل المنافع، فيقول: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (الملك:15)

فالآية تصف الأرض بكونها ذلولا، وهذا الوصف يطلق عادة على الدابة، ليصور في الأذهان ويغرس في العقول والقلوب (أن هذه الأرض التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هي دابة متحركة.. بل رامحة راكضة مهطعة، وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها على ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول، ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول!)(1)

بينما يصورها الجاحدون في صورة الدابة الرامحة الراكضة التي تحتاج فارسا قويا مثل فرسان رعاة البقر ليقوم بترويض جماحها على نغمات تصفيق المعجبين.

ولهذا نجد في القرآن الكريم روعة التعبير عن الكون المسخر، بخلاف تعبير العلوم الحديثة، والتي كان تقهقرها في فلسفة ما اكتشفته من معارف مساويا لتقدمها في اكتشافاتها واختراعاتها.

وقد عقد بعض الحكماء هذه المقارنة بين التعبير القرآني في وصف الشمس في قوله تعالى: وَجَعَلَ الشمسَ سراجاً (نوح:16)، وبين التعبير العلمي الحديث الجاف، فقال عن التعبير القرآني:(في تعبير السراج تصوير العالم بصورة قصر، وتصوير الأشياء الموجودة فيه في صورة لوازم ذلك القصر، ومزيّناته، ومطعوماته لسكان القصر ومسافريه، واحساسٌ أنه قد أحضَرتها لضيوفه وخدّامه يدُ كريمٍ رحيم، وما الشمسُ إلاّ مأمور مسخَّر وسراج منوَّر. ففي تعبير السراج تنبيه إلى رحمة الخالق في عظمة ربوبيته، وافهامُ إحسانه في سعة رحمته، واحساسُ كرمه في عظمة سلطنته)(2)

أما العلم الحديث فيعرف الشمس بأنها (كتلة عظيمة من المائع الناري تدور حول نفسها في مستقرها، تطايرت منها شرارات وهي أرضنا وسيارات أخرى فتدور هذه الاجرام

1() في ظلال القرآن (6/ 3637)

2() انظر: المكتوب التاسع عشر، النورسي.

العظيمة المختلفة في الجسامة.. ضخامتها كذا.. ماهيتها كذا..)

وعقب على هذه المقارنة بقوله:(فانظر ماذا أفادتـك هـذه المسألة غيرَ الحيرة المدهشة والدهشـة الموحشـة، فلم تُفِـدْك كمالاً علمياً ولا ذوقاً روحياً ولا غاية إنسانية ولا فائدة دينية)

وعلى هذا تقاس جميع التعبيرات القرآنية المتعلقة بـالكون المسالم، ولـذلك من الجهـل العظيم مـا أنكـره بعضـهم من أن القرآن الكريم لا يتكلم عن الكائنات من الزاوية الـتي يسـمونها علما، ويقصرون العلم عليها.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أنك لن تشـعر بالسلام الحقيقي إلا بعد أن تتخلص من كـل تلـك الأوهـام الـتي أفرزهــا الشــيطان، ووكلاؤه الــذين حولــوا من وساوســه إلى نظريات علمية وفلسفية وسياسية واقتصـادية.. واعتـبروا العلم قاصرا عليها.

فاحذر منها، واملأ قلبك بتوحيد ربك؛ فهو وحده من يحميك من الصراع، ويملؤك بالسلام والأمان، وقد قال تعـالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ﴾ (الأنعـام:82)، وفي ذلـك إشـارة إلى أن مصـدر المخـاوف هـو الشرك، واشتغال القلب بغير الله.

وكلما اشتد الشرك وعظم عظمت المخاوف، وكلمـا نقص الشرك أو تلاشـى نقصـت المخـاوف أو تلاشـت، فمعرفـة اللـه والتوجه إليه هي بر الأمان، وهي سفينة نوح الـتي من ركبهـا لم تغرقـه الأمـواج، وهي ظـل اللـه الـذي يحتمي بـه من أحرقتـه شموس الرعب.

ولهذا أخبر الله تعالى أن الشرك هو مصـدر الـرعب، وأنـه عقوبة إلهية تقتضيها طبيعة الكفر، فقال: ﴿ سَـنُلْقِي فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِالله مَـا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ سُـلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمـران:151)، فقـد أخبر تعالى أن مصدر خوفهم هو شركهم بالله.

وفي مقابــل ذلــك ذكــر اللــه تعــالى مواقــف المؤمــنين الصــادقين الــذين ملأوا قلــوبهم باللــه، فــرزقهم الأمن التــام، والسكينة المطلقة، ومنهم إبراهيم عليه السلام الذي قال مجيبا قومه عندما خوفـوه من آلهتهم الـتي دعـا إلى نبـذها: ﴿ وَكَيْـفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُمْ سُـلْطَاناً فَـأَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ أَحَـقُّ بِـالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾

(الأنعام:81)

وقد عقب الله تعالى على قول إبراهيم عليه السلام مقررا هذه الحقيقة المطلقة، ومقننا هذه السنة الإلهية التي لا تتخلف، فقال: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام:82)

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فـانظر إلى الكون باعتباره مربوبا لا ربـا، وأنـه سـخر لـك بتكليـف من اللـه تعالى حتى تتعامل معه وفق ما تقتضيه الخلافة من سلام وعدل ورحمة.. وإياك أن تتوهم أفضليتك أو خيريتك على أي شيء من الأشياء، فتقع فيما وقع فيه الشيطان من صراع.

بل تعامل مع كـل شـيء باعتبـاره زميلا لـك في العبوديـة، وصديقا لك في التوجه إلى الله، والرحلة إليه، حـتى يصـبح كـل شيء أمامك مطيـة للـترقي إلى الملأ الأعلى.. وحـتى لا تحجب بنفسك وصراعك عن ربك والسلام الذي بثه في كونه.

الخلق والأمر

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الخلق والأمر اللذين ورد ذكرهما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، وقوله في حقيقة الروح: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: 85]، وما ورد من تأييد الله تعالى لأنبيائه وأوليائه بروح القدس.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن في كل المخلوقات التي تراها جانبين: جانب مادي محسوس ملموس تتوفر فيه كل خصائص الأجسام والمواد.. وجانب غير مرئي ولا محسوس ولا ملموس، ولا يمكن تقييده بالقيود، ولا حده بالحدود.

أما الجانب الأول؛ فهو الذي يطلق عليه عالم الخلق، وأما الثاني فهو من عالم الأمر.. وكلاهما يمكن أن يطلق عليه خلقا، باعتبار الله تعالى هو الخالق لكل شيء.

وذلك مثل الأجهزة الكثيرة التي نستعملها، والتي تتكون من مكونات مادية محسوسة وملموسة، وتتكون في نفس الوقت من برامج ونظم تتيح لها أداء الوظائف التي كلفت بها، والتي يمكن اعتبارها ـ مجازا ـ أرواحا لها.

ونحن في العادة لا نركز اهتمامنا بالماديات المرتبطة بالأجهزة، بقدر اهتمامنا بالنظم والبرامج والأعمال التي يمكن أن تؤديها، فبقدر الأدوار المتاحة للأجهزة، وبقدر الأوامر التي يمكنها تنفيذها، يكون اهتمامنا بها.

وهكذا عالم الخلق والأمر.. فالعبرة في المخلوقات ليس بضخامة حجمها، ولا بكثافتها أو كتلتها أو لمعانها وبريقها أو ألوانها الزاهية الباهية، وإنما بما تختزنه من قدرات تتيح لها أداء الوظائف المختلفة.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أنه لا يوجد مخلوق في الكون إلا وهو مزود بقدرات روحية تمكنه من أداء الوظائف التي كلف بها.. حتى تلك المخلوقات التي نراها جمادا مجردا من كل أشكال الحياة، فيها من الروح والحياة ما تتمكن به من أداء وظائفها.

وعدم إدراكنا لتلك الأدوار، أو لتلك النظم التي تعمل بها، لا يدل على عدم وجودها، وإنما يدل على عدم قدرتنا على فك

الشيفرة التي تعمل بها.. ولهذا قد يضع بعض الجواسيس أجهزة تنصت خاصة لا يُلتفت لها، ومع ذلك تؤدي أدوارهـا في التنصـت والتجسس.

وهو نفس ما يشير إليه قولـه تعـالى عن أعضـاء الإنسـان، وشهادتها عليه يـوم القيامـة، قـال تعـالى: ﴿ يَـوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور:24)

وأخـبر عن الأرض، وشـهادتها على الإنسـان، فقـال: ﴿إِذَا زُلْـزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَـا (1) وَأَخْـرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَـا (2) وَقَـالَ الْإِنْسَـانُ مَـا لَهَـا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَـا (4) بِـأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: 1 - 5]

وقـد فسـر رسـول اللـه ﷺ حـديث الأرض في ذلـك اليـوم العظيم بقوله بعد أن تلا قولـه تعـالى:﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَـدِّثُ أَخْبَارَهَـا﴾ (الزلزلـة:4):(أتـدرون مـا أخبارهـا؟ قـالوا: اللّـه ورسـوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبـد وأمـة بمـا عمـل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، فهـذه أخبارهـا) (1)

ولهـذا ورد في الحـديث الأمـر بمراعـاة الأرض والتحفـظ منهـا، قـال ﷺ:(تحفظـوا من الأرض فإنهـا أمكم، وإنـه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة)(2)

والنصوص المقدسة تخبر أن الروح المرتبطة بالمخلوقـات المختلفـة ليسـت خاصـة بتلـك القـدرات المرتبطـة بالتنصـت والشهادة، وإنما هي أعظم من ذلك بكثير.

فهي تذكر أن لكل المخلوقات جامدة كانت أو حية قـدرات خاصة بالإدراك؛ فهي تدرك نفسها، وتعرف ربها، وتعرف الكثـير من الأشياء المرتبطة بوظيفتها، وقد أشار إلى هذا قوله تعـالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَـانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً﴾ (الأحزاب:72)

فالآيــة الكريمــة تشــير إلى أن الحيــاة العاقلــة المدركــة للعواقب هي التي منعت هذا الكـون من قبـول أمانـة التكليـف، ولولا ما في الكون من طاقة الإدراك والاختيار مـا عـرض عليـه هذا العرض الخطير، ولولاها ما أجاب هذه الإجابة الواعية.

1() رواه ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.
2() الطبراني في المعجم الكبير.

وهي تـذكر أن لكـل المخلوقـات القـدرة على الإحسـاس والشعور، كما قـال تعـالى في وصـف تـأثير نـزول القـرآن على الجبل: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَـهُ خَاشِـعاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللـه وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلهمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر:21)، والخشوع مجموعة مشـاعر سـامية يختلـط فيهـا الحب بالهيبة والخشية والرجاء.

وكلها قدرات متاحة للجبال كما ذكر القرآن الكريم، وعـدم إدراكنا لها لا يعـني عـدم وجودهـا، لأنـا نـدرك عـالم الخلـق، ولا ندرك عالم الأمر، ولهذا قد نرى شخصا أمامنا كالميت، فنتــوهم أنه مجرد جسد ملقى، لكنا بعد ذلك نكتشف حياته، ثم يحكي لنا ما شاهده من رؤى في تلك اللحظات التي كنا نتوهم فيه أنــه لا يختلف عن الجماد، وقد تكون تلك اللحظات التي شاهدها أسعد أيام حياته.

ويذكر القرآن الكـريم أن الجبـال الـتي يقتصـر نظرنـا إلى خلقها، ليست بتلك القسوة، وإنما هي مزودة بروح عظيمة تتيح لها كل المشاعر النبيلة، قال تعالى مخـبرا عن مشـاعر الجبـال تجاه شرك المشركين: وَقَالُوا اتَّخَـذَ الـرَّحْمَنُ وَلَـدًا (88) لَقَـدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلـرَّحْمَنِ وَلَـدًا (91) وَمَـا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا [مريم: 88 - 92]

وهكذا تذكر النصوص المقدسـة قـدرات التعبـير المرتبطـة بتلك الكائنات، فهي تعبر عن معارفها ومشاعرها ومواقفهـا، ولا تكتفي فقط بإدراكها أو استشعارها، فقد قال تعالى عن الكــون المتشكل من السموات والأرض: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَـائِعِينَ (فصلت:11)

وأخبر أن الكافرين يكتشفون يوم القيامة هذه القدرة التي تتمتع بها الكائنات التي كانوا يحسبونها جامدة، قال تعالى حكاية عن كلام الجلود بعد تعجب الكفار من كلامها: وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَـهِدْتُمْ عَلَيْنَـا قَـالُوا أَنْطَقَنَـا اللـه الَّذِي أَنْطَـقَ كُـلَّ شَـيْءٍ (فصلت: 21)

وفوق ذلك كله تذكر النصوص المقدسـة عبوديـة الكائنـات جميعا لربها، وهو يدل على قدرات كثيرة أتيحت لهـا لتتمكن من تلك العبودية الاختيارية، وأولها معرفة الله، والتي تجعلها تسبحه

وتنزهه وتحمده بالألسنة الخاصة بها.

ولذلك نفى الله تعالى عن أكثر الخلـق إمكانيـة فقـه هـذه التسابيح التي يعج بها الكون، قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّـمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْـدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (الاسراء: 44)

وعدم الفقـه والتصـور لا يعـني في المنهج العلمي السـليم إنكار ما لم يتمكن من فقهـه أو تصـوره، كمـا قـال تعـالى:﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء: 36)، فمن أنكـر مـا لم يقـف على سره وحقيقته كان مقتفيا ما ليس له به علم.

بل إن الله تعالى يذكر أن لهـذه الكائنـات جميعـا سـجودها الخـاص بهـا، قـال تعـالى: ﴿ أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللـه يَسْـجُدُ لَـهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُـومُ وَالْجِبَـالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج:18)

والسجود كما يعـبر القـرآن الكـريم سـجود شـامل يشـمل الشـخوص والظلال، أو الجـواهر والأعـراض، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَلله يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهـاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد:15)

وكـل هـذه المعـاني وغيرهـا، تشـير إلى أن عـالم الخلـق مصحوب بعالم الأمر؛ فليس هنـاك مخلـوق إلا وقـد زود بـالروح الخاصة به، والتي تتيح له كل تلك الوظائف وغيرها.

وقد عـبر عن ذلـك بعض الحكمـاء، فقـال: (الكـونُ بجميـع عوالمـه حيّ ومشـع مضـئ بـذلك التجلي، وإلاّ لأصـبح كـل من العوالم - كما تراه عين الضلالة - جنازة هائلة مخيفة تحت هــذه الدنيا المؤقتة الظاهرة، وعالماً خرباً مظلماً)(1)

وقد أخبر القرآن الكريم أن هذه الحقيقة التي لا يعرفها إلا المؤمنون في الدنيا، والتي ينكرها الجاحدون، ستصـبح معلومـة ضرورية يعرفها الجميع في العالم الآخر، كما قال تعـالى مخـبرا عن الطاقات التي يزود بها الإنسان بعـد موتـه، والـتي تـتيح لـه مشاهدة ما لم يكن قادرا على مشاهدته، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَـاءَكَ فَبَصَـرُكَ الْيَـوْمَ حَدِيـدٌ﴾ (قّ:22)، فمن معاني الغفلة في الآية تعطـل الطاقـات عن أداء

(1) الكلمة العاشرة، ص: 120.

وظيفتها بسبب إهمالها وعدم استعمالها.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن الكائنات جميعا، وإن كانت مزودة بالأرواح الخاصة بها، والتي تتيح لها أداء وظائفها، إلا أنها تختلف في القدرات المتاحة لتلك الأرواح، مثلما نراه في الدنيا من الأجهزة المختلفة، والتي تختلف قيمتها بحسب الأوامر التي يتاح لها تنفيذها.

ولهذا أخبر الله تعالى عن القيمة الخاصة للإنسان، باعتباره زود بروح لها طاقات كثيرة لا تتوفر لدى الكثير من الكائنات، وذلك لضرورة الوظيفة المناطة به، وهي وظيفة الخلافة.

ولهذا أمر الملائكة بالسجود له.. لا لجسده، وإنما لتلك الروح التي زود بها، والتي هي من عالم الأمر الإلهي، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 28، 29]

ومع اشتراك البشر في أصل وجود الروح إلا أنهم يختلفون في القدرات المتاحة لكل روح، ذلك أن منهم من يقوم بما يقوم به الخلق في الدنيا عند التعامل مع أجهزتهم من مسح كل برنامج لا يحتاجون إليه، أو يرون أنه قد يحول بينهم وبين ما يرغبون فيه من برامج.

ولذلك لا يستفيدون من القدرات المتاحة للأوامر الخاصة بتلك البرامج، وكيف يستفيدون منها، وقد عطلوها، ولذلك من يعطل قدرات عقله على التعرف على عوالم الغيب لن يصل إليها أبدا إلا بعد وفاته، وتنصيب برامج خاصة جديدة لذلك.

وفوق ذلك فإن الله تعالى يزود الصالحين الذين استعملوا كل البرامج الخيرة في نفوسهم بما يفيدهم في الترقي.. فالترقي ليس سوى تلك الطاقات التي توهب للإنسان، والتي تتيح له إدراك ما لم يكن يدركه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 87]

أي أن المسيح عليه السلام زود بطاقات خاصة، لضرورة الوظيفة التي كلف بها، وتلك الطاقات هي التي أتاحت له أن ينفخ في الطين، فيتحول طيرا، وغيرها من المعجزات، كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ الله وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران: 49]

وهذا لا يعني انحصار ذلك التأييد في المسيح عليه السلام، وإنما يوهب الروح القدس، والطاقات المرتبطة به بكل نفس تهذبت وتأدبت وترقت..

ويشير إلى هذا ذلك الاختبار الذي قام به سليمان عليه السلام لحاشيته، والذي أراد من خلاله أن يختبر القدرات المتاحة لهم، قال تعالى: قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) [النمل: 38 ـ 40]

وهذا يدل على أن ذلك العلم المرتبط بالكتاب، لم يكن ليعلمه لولا تلك الروح الخاصة التي جعلته يفهم منه ما لا يفهم غيره.

ولهذا كان القرآن الكريم روحا خاصة للصادقين معهم، يتزودون من خلاله بطاقات لم تكن لهم، قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: 52]

وقال عن دوره في تحصيل الحياة الحقيقية بروح القرآن والنبوة: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ [الأنفال: 24]؛ فالحياة المرادة هنا ليست حياة الأجساد، وإنما هي حياة خاصة بتلك الطاقات الجديدة الموهوبة للإنسان بسبب تفعيله للقرآن الكريم.

ولهذا قد يكون الشخص حيا في جسده، لكن كل الطاقات الموهوبة له ميتة، ولعله هو الذي قام بقتلها.. لتوهمها أنها تقف بينه وبين حياته.. مع أنها هي حياته.

ويشير إلى هذا قوله تعالى: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

[الأنعام: 122]؛ فالآية الكريمة تشير إلى أن غير المؤمن يكــون فاقدا للروح التي يتحقق بها الإيمان، ولذلك يكون ميتا من هــذه الجهة؛ فإذا ما آمن عادت إليه الحياة من جديد.

ويشير إلى هذا ما ورد في الحـديث عنـه ﷺ أنـه قـال: (إذا زنا الزاني فارقه روح الإيمان ؟)، ثم قرأ قولـه تعـالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: 22]، ثم قال: (ذلك الذي يفارقه) [1]

وقال الإمام الصادق: (إن للقلب أذنين فإذا هم العبد بذنب قال له روح الإيمان لا تفعل وقال له الشـيطان افعـل وإذا كـان على بطنها نزع منه روح الإيمان) [2]

وقد أشار إلى كل هذه المعاني الإمام الصادق، فقـال: (إن الله خلق الناس ثلاثة أصناف.. فالسـابقون هـو رسـول اللـه ﷺ وخاصة اللـه من خلقـه، جعـل فيهم خمسـة أرواح أيـدهم بـروح القدس، فبه بعثوا أنبياء، وأيدهم بروح الايمان فبـه خـافوا اللـه، وأيدهم بروح القـوة فبـه قـووا على طاعـة اللـه، وأيـدهم بـروح الشهوة فبه اشتهوا طاعـة اللـه وكرهـوا معصـيته، وجهـل فيهم روح المدرج الذي يذهب به الناس ويجيئون) [3]

وهكذا اتفق الحكماء على هذا المعـنى، وقـد قـال بعضـهم مشـيرا إلى الأرواح المختلفــة: (روح بهــا ضــياء أبــدانهم: وهــو سلطان عقولهم.. وروح بهاء ضياء قلوبهم: وهو شفاء علومهم.. وروح بها ضياء أرواحهم: والذي هو للـروح روح، بقـاؤهم باللـه.. ويقال: روح هو روح إلهام، وروح هـو روح إعلام، وروح هـو روح إكرام.. ويقال: روح النبوة، وروح الرسـالة، وروح الولايـة، وروح المعرفة.. ويقال: روح بها بقاء الخلق، وروح بها ضياء الحق)[4]

وقال آخر: (الروح روحان: روح بـه حيـاة الخلـق، وروح بـه ضياء القلب، وهو الروح الـذي قـال اللـه تعـالى فيـه: ﴿وَكَـذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: 52])[5]

وقال آخـر: (الأرواح أربعـة: روح جسـماني، وروح نـوراني،

1() الكافى ج 2 ص 284.
2() أصول الكافي 2: 267.
3() بصائر الدرجات: 132.
4() تفسير لطائف الاشارات، ج 5 ص 300، 301.
5() السراج الطوسي، اللمع في التصوف، ص 222.

وروح سلطاني، وروح قدسي)[1]

وقال آخر: (الأرواح أقسام: أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تتحدث به في السماء عن أحوال الآدميين، وأرواح تحت العرش، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها)[2]

وقال آخر: (الله خلق الأرواح على ثلاث مراتب لا رابع لها: أرواح ليس لهم شغل إلا تعظيم جناب الحق، ليس لهم وجه مصروف إلى العالم ولا إلى نفوسهم، قد هيمهم جلال الله واختطفهم عنهم فهم فيه حيارى سكارى. وأرواح مدبرة أجساماً طبيعية أرضية، وهي أرواح الأناسي. وأرواح الحيوانات)[3]

وذكر بعضهم الغذاء المرتبط بكل الروح، أو المجال الذي تعمل فيه، فقال: (غذاء الأرواح في ثلاثة أشياء: أرواح الأجلة الأنبياء: غذاؤها بلطائف خطابها، تجدهم يسأمون بكل ما يفتخر به الخلق من أنواع الطاعات أو التزين بالعبودية.. وأرواح الصديقين والصالحين: غذاؤها بملاحظاته، تزداد على الأوقات نوراً وتبصرة.. وأرواح العامة: تأخذ غذاءها من كل مأكول ومشروب)[4]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحرص على أن تكمل روحك، وتزودها بالمزيد من الطاقات التي تهيئ لها الترقي إلى العوالم الجميلة التي لا يمكن أن تنال السعادة من دونها.

فالفرق بين روحك وجسدك أن جسدك لا تزيده الأيام إلا تعبا ومرضا وألما.. أما روحك ـ إن زكيتها وهذبتها ـ فإن الأيام لن تزيدها إلا قوة وصلابة وانفتاحا ولذة، وقد قال الشاعر معبرا عن ذلك:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... لتطلب الربح في ما فيه خسران
أقبل على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وفي النشأة الأخرى، والتي تبدأ لحظة الاحتضار لن ترى إلا

1() عبد القادر الكيلاني، سر الأسرار ومظهر الأنوار، ص 56.

2() عمر السهروردي، عوارف المعارف (بهامش إحياء علوم الدين للغزالي) ج 5، ص 216.

3() الفتوحات المكية، ج 3 ص 38.

4() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 742.

ذلك العالم الذي كانت تعيشه روحك؛ كما قال تعالى يصف احتضار المقربين: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: 88، 89]، أي أنهم في تلك اللحظة التي تفصلهم عن الحياة الدنيا، يشمون الروح والريحان، ويرون الجنان.

فلذلك لا عجب أن يخرجوا من الدنيا بكل نشاط.. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وأنفسهم قد صارت مليئة بالطمأنينة والراحة والسعادة، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في خطاب هذا النوع من النفوس الممتلئة بسكينة الإيمان: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ [الفجر: 27 - 30]

المبدأ والمعاد

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن المبدأ والمعاد، والأسرار المرتبطة بهما، وعلاقتها بالنفس المطمئنة وسر رضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن حقائق المبدأ والمعاد، والتي تعود إلى اسم الله [المبدئ المعيد] من أعظم الحقائق جمالا، ولذلك تملأ العارفين بها بسطا وفرحا وسرورا، لأنهم يعلمون أن كل ما فاتهم في المبدأ قد يعوضونه في المعاد.

ومثال ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ مثال شخص قدر له في مرحلة معينة من عمره أن يسكن مضطرا مكرها بلدا من البلدان، بحكم الوظيفة التي وكلت له، والتي قد يكون تولاها غصبا عنه لضرورة الظروف التي يعيشها، وحاجاته المختلفة.

لكنه ـ وفي ظل تلك الأحوال الحزينة التي يمر بها ــ يقال له: نحن نقدر المرارات التي تعانيها في عملك، وفي هذا البلد، وفي الظروف الجديدة التي لا تتناسب مع طبيعتك.. لكننا نعدك إن استطعت أن تنجز ما كلفت به من أعمال بطريقة صحيحة؛ فإننا سننقلك إلى عمل آخر أفضل بكثير، وإلى مكان تكون أنت الذي تختاره، وبأجرة أنت الذي يحددها.

ثم يقال له بعد ذلك: فإن شئت أن تضيف إلى ما كلفت به من أعمال، وفي ظل الفترة الممنوحة لك، ما يزيد في قيمة الإنتاج ومردوديته؛ فإنك حينها ستتحول إلى رئيس أو مدير أو مسؤول في تلك الشركة التي تعمل فيها.. وحينها ستتجول في البلاد كما تشاء، ولن يكون لك مرتب فقط، وإنما ستخصص لك ميزانية تخدم كل مصالحك.

ثم يقال له بعد ذلك كله: فإن رفضت هذا العمل، أو قصرت فيه، أو سببت أي تلف في المعمل الذي تعمل فيه؛ فستحال إلى السجون والزنازن، وستقضي هناك ما بقي من عمرك.

فكيف تتخيل حال هذا الشخص قبل أن تُعرض عليه هذه العروض؟

لا شك أنه في الفترة الأولى التي لم تعرض عليه هذه

العـروض، كـان يعمـل متثـاقلا كئيبـا محبطـا، لأنـه يتـوهم أن الظروف الـتي ألجأتـه إلى ذلـك العمـل قـد قضـت عليـه، وأنـه سيظل يكدح في تلك الحـال إلى أن يقضـى عليـه، وهـو ممتلئ بالآلام.. لكنه بعد أن يتيقن من صدق ما عرض عليه، يتحول إلى إنسان آخر ممتلئا فرحا وجدا ونشاطا، ذلك أنه يعلم أن مـا يمـر به مرحلـة قصـيرة من عمـره، وأن نتائجهـا سـتكون ذات قيمـة كبرى، لا يمكن تصورها.. وهذا ما يدفعه إلى العمـل المضـاعف، وفي نفس الوقت يدفعه إلى الراحة والسعادة.

وهكذا الأمر بالنسبة للمبدأ والمعاد.. فالله تعالى جعل هذه الدنيا مجرد مبدأ يختلط فيه المدنس مع المقدس، والسعيد مـع الشقي، والسعادة مع الكآبـة، والأمـل مـع الإحبـاط، لكنـه وعـد عباده بـدار أخـرى، تتحقـق فيهـا جميـع أمنيـاتهم، ولكن بشـرط واحد هو أن يتحققوا بما تتطلبه تلك الدار من صـفات.. ذلـك أن الدار الآخرة متناسبة مع الطبائع التي ولدت في الدنيا.

وإن شئت تقريبا آخر لهذا المثال، فانظر إلى ذلـك الجـنين المشوه، والذي كان سبب تشويهه تقصير أمـه أثنـاء حملـه بـه؛ ذلك أنها لم تترك دواء مضـرا بجنينهـا إلا واسـتعملته مـع تحـذير الأطباء لها من ذلك.. لكنها لم تبـال بهم.. وهكـذا فـإن الإنسـان هو الذي يختار الولادة الجديدة له.. فـإن أدمن على المحرمـات والمعاصـي، ولـد في ولادتـه الجديـدة في دار المعـاد مشـوها ممتلئـا بـالتحريف عن حقيقتـه الإنسـانية.. وظـل كـذلك فـترات طويلة قد تمتد إلى أبد الآباد.

إذا عرفت هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ فـاعلم أن حقـائق المبـدأ والمعـاد من أهم حقـائق الوجـود، وهي من فضـل اللـه العظيم على عباده، ذلك أنه يـتيح لهم فرصـا جديـدة لم يكونـوا يحلمون بها.

ولتعرف ذلك.. تصور ذلك المريض المسـكين الـذي عـاش حياته مدمنا على الأدويـة، ويتـألم لمـا حـل بـه.. لكن ذلـك الألم سرعان ما يزول عندما يشعر أن مرضـه سـيفارقه في المعـاد، وأن جسده سيتحول إلى جسد سليم معـافى من كـل بلاء، وأن الذين يسخرون منه ومن مرضه قـد يتحولـون إلى أحـوال أشـد من الحال الذي كان عليه..

ومثل ذلك المظلـوم الـذي يتـاح لـه أن يقتص من ظالمـه، والمكروب الذي يتخلص من كربه، والمشتاق لمن فقد من أهله

إن علم أنه سيلاقيهم.. والشيخ الكبير إن علم أنه سـيتحول إلى شبابه، والدميم إن علم أنه سيفاض عليه كل ألوان الجمال..

وهكذا؛ فإن حقائق المعاد تختزن كل أنـواع السـعادة، ومن لا يعرفها يقع في تلك الأوهام التي وقع فيها من تصوروا أن الله تعالى خالق للشر، وأنه لم يرد بخلقه إلا الضـرر والبلاء.. وهم لا يعلمون أن ذلك الضرر يشبه أمطار الشتاء التي لولاهـا لم تنبت أزهار الربيع، ولا ثماره.

إذا عرفت هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ فـاعلم اسـم اللـه تعالى [المبدئ المعيد]، يعني توفير فـرص مختلفـة للعبـد، تبـدأ أولاها بما قـد لا يرتضـونه، لكن الإعـادة تتشـكل وفـق رغبـاتهم وأهوائهم والمباني التي بـنيت عليهـا نفوسـهم، والـتي أسسـوها بمحض رغبتهم وحريتهم طيلة الفترة التي أتيحت لهم فيهـا كـل الفرص.

وهـذا المعـنى هـو الـذي يشـير إليـه قولـه تعـالى: ﴿ إِلَيْـهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ الله حَقًّا إِنَّهُ يَبْـدَأُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ لِيَجْـزِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ بِالْقِسْـطِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَـانُوا يَكْفُـرُونَ﴾ [يـونس: 4]، فالآية الكريمة واضحة في بيـان سـر الإعـادة، وأنـه إعطـاء كـل شيء ما يستحقه مما يتناسب مع طبيعته.

ويشير إليه كذلك ما ورد في سورة البروج، فقد ذكـر اللـه تعالى فيهـا هـذان الاسـمان مرتبطـان بفعـل اللـه تعـالى، قـال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: 13]، وكأنهمـا تعللان سـر تلك الفتنة التي حصلت للمؤمنين، والبطش الشـديد الـذي حـل بهم من طرف أولئك الطغاة المستبدين..

وكأنهـا تـذكر بـأن من مقتضـيات البدايـة أن تكـون بـذلك الشكل لتتميز الأنواع، ويختار كل صنف ما يشتهي، وبعد الإعادة يتحقق التمييز، وينال كل صـنف مـا أسـس عليـه شخصـيته في حياته الأولى.

ولـذلك يمكننـا أن نقـرأ هـذه الآيـات الكريمـة، لـنرى فيهـا العــزاء الإلهي للمؤمــنين، والتحــذير الإلهي للمســتبدين، قــال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُـوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيـقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِـيرُ (11) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْـدِئُ وَيُعِيـدُ (13) وَهُـوَ

الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَـرْشِ الْمَجِيـدُ (15) فَعَّالٌ لِمَـا يُرِيـدُ (16) [البروج: 10 - 16]

ويشـير القـرآن الكـريم إلى السـر الأكـبر للمبـدأ والمعـاد، وعـدم الاكتفـاء بأحـدهما، وهـو ضـرورة التميـيز المبـني على العدالة، وعلى إتاحة الفرص للجميـع، قـال تعـالى: لِيَمِـيزَ اللـه الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـلَ الْخَبِيثَ بَعْضَـهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَـهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (الأنفال:37)

فالبشـر في ذلـك مثـل الشـوائب الـتي تختلـط بالمعـادن النفيسـة، فإنهـا بعـد عرضـها على كـير الامتحـان يُمـيز الـذهب، فيوضع في أعناق الحسان، ويُرمى بالشوائب إلى القمامات.

وبمـا أن ذلـك التميـيز يحتـاج إلى أدوات تميـيز، ومـوازين، ومقـاييس تمـيز بهـا المعـادن النفيسـة ومراتبهـا، والمعـادن الخسيسة ومراتبها، وخبراء يشرفون على كل ذلـك، فقـد وضـع الله تعالى لدار المعاد كـذلك من المـوازين مـا تقتضـيه العدالـة الإلهيـة، ولـو أن اللـه تعـالى قـادر على التميـيز بينهم من دون حاجة لتلك الموازين.. ولكن عدالة الله تـأبى إلا أن تتعامـل مـع العباد وفق السنن، لتقيم الحجج عليهم.

وقد كان من مقتضـيات تلـك العدالـة ذلـك التمـايز العظيم بين الخلق، والقائم على أساس صورة النفس التي تشكلت في الدنيا، ونوع المعدن الذي تمخضت عنه الأنا، كما عـبر عن ذلـك بعض الحكمـاء، فقـال: (النـاس في الآخـرة ينقسـمون أصـنافاً وتتفـاوت درجـاتهم ودركـاتهم في السـعادة والشـقاوة تفاوتـاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سـعادة الـدنيا وشـقاوتها ولا تفارق الآخـرة في هـذا المعـنى أصـلاً البتـة، فـإن مـدبر الملـك والملكوت واحد لا شريك له. وسنته الصادرة عن إرادته الأزليـة مطردة لا تبديل لها) [1]

وقد أشار إلى هذا التمايز الشديد قوله تعالى: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْبَـرُ تَفْضِـيلاً (الاسراء:21) أي (ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من تفـاوتهم في الـــدنيا، فـــإن منهم من يكـــون في الـــدركات في جهنم وسلاســـلها وأغلالهـــا، ومنهم من يكـــون في الـــدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيمـا هم فيـه، كمـا أن أهل الدرجات يتفاوتون)

---

[1] () إحياء علوم الدين، (4/ 24)

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن كـل الثغرات التي تكون في المبدأ، والتي يتوهم الغافلون أنها ناتجـة عن الصـنع الإلهي، ليسـت كـذلك، وإنمـا هي لضـرورة الاختبـار والابتلاء، حتى يُميز الخبيث عن الطيب.. فالله تعالى قــادر على أن يخلق الجسد الذي لا يمـرض أبـدا، لكنـه لم يفعـل لضـرورة الاختبار..

وهكذا كـل مـا نـراه من نقص أو قصـور ليس الهـدف منـه سـوى الاختبـار والابتلاء، قـال تعـالى: ﴿ وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِنَ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْـوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَـرَاتِ وَبَشِّـرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 155 - 157]

ولهذا سـميت دار المبـدأ الحيـاة الـدنيا، باعتبارهـا مملـوءة بالثغرات والنقص، وقد روي أن رسول اللـه ﷺ مـر بشـاة ميتـة شائلة برجلها، فقال: (أترون هـذه هينـة على صـاحبها؟ فوالـذي نفسي بيده للدنيا أهـون على اللـه من هـذه على صـاحبها، ولـو كانت الدنيا تزن عند اللـه جنـاح بعوضـة، مـا سـقى كـافرا منهـا قطرة أبدا)[1]

بل إن الله تعـالى وصـف الـدنيا بـالهوان، وأنهـا مجـرد دار للتمييز، ولذلك يختلط فيها الخبيث بالطيب، كما في قوله تعالى مقارنا بين الحياة الدنيا، أو حياة المبدأ، والحياة الآخرة، أو حيـاة المعـاد: ﴿كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَـوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّوْنَ أُجُـورَكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَـازَ وَمَـا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: 185]

وقال مخاطبا الذين تثـاقلوا إلى الحيـاة الـدنيا، جوابـا على اعتراضهم الذي عبروا عنه بقولهم: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَـالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَـا إلى أَجَـلٍ قَـرِيبٍ﴾ [النسـاء: 77]: ﴿قُـلْ مَتَـاعُ الـدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: 77]

وقال مقارنا بين كلا الحياتين: ﴿وَمَـا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ ﴾ [الأنعـام: 32]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيـلَ لَكُمُ انْفِـرُوا فِي سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إلى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الـدُّنْيَا مِنَ الْآخِـرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38]

1() سنن ابن ماجه 2/1376 ح(4110)

بل إنه اعتبر الحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية، لا هذه الحياة الدنيا، فقال: ﴿وَمَا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا إِلَّا لَهْـوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64]

ولهذا فإن المعاملة في المعاد، ستكون وفق الخصائص التي اكتسبها الإنسان، أو شكل منها طبيعته في المبدأ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 51]

وبناء على هذا، فإن كل المواقف التي ذُكرت في النصوص المقدسة حول المعاد لا يقصد منها سوى تمييز الأصناف بعضها على بعض، بحيث ينزل كل صنف المحل المناسب لطبيعته.

وقد عبر عن هذا المعنى بعض الحكماء بقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48]: (إن لجميع الموجودات الطبيعية حركة جوهرية ذاتية، وتحولاً من صورة إلى صورة حتى يقع لها الرجوع إلى الله بعد صيرورتها غير نفسها، بحسب الصورة السابقة، وتحولها إلى نشأة أخرى، ولو كانت هذه الطبائع ثابتة الجوهرية مستمرة الهوية، لم تنتقل هذه الدار إلى دار الآخرة، ولم تتبدل الأرض غير الأرض، ولا السماوات غير السماوات)[1]

وهذا يعني أن الإنسان في مرحلته الأولى أتيح له أن يرى أنماطا مختلفة من الناس، ومظاهر مختلفة من الحياة، ولكنه ـ بمحض رغبته ـ اختار نمطا معينا، وحياة معينة، ولذلك كان من مقتضيات العدالة والرحمة الإلهية، وقوانين المبدأ والمعاد، أن يوفر له عند إعادته كل ما كان يميل إليه، ويرغب فيه.

ولهذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التكوير:7)، وقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ (الصافات: 22)، وقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ (الفرقان: 13)

فقد ورد في تفسير هذه الآيات أن المراد منه الجمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنفه[2]، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ في تفسير الآية:(يقرن كل رجل مع كل قوم

1() أسرار الآيات، ص86.

2() انظر هذه النصوص في: الدر المنثور:8/429.

كانوا يعملون كعمله)

وقال ابن عباس:(ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة، السابقون زوج - يعني صنفا - وأصحاب اليمين زوج، وأصحاب الشمال زوج)

وعنه أيضا:(قرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار، فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله، والمتوسط إلى مثله، وأهل المعصية إلى مثله)

وقال ابن مسعود:(لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب)

التكليف والجزاء

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن سر ارتباط الجزاء بالتكليف، ولم لم يجاز الله عباده مباشرة من خلال علمه الأزلي بهم، وعن علاقة ذلك بالنفس المطمئنة وسر رضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن كل المعارف المرتبطة بالكون والحياة والإنسان ترجع لمعرفة أسماء الله الحسنى، ذلك أن قوانين الكون ونظامه وسننه ونواميسه كلها تستند إليها.. مثلما تستند الصناعات البشرية لمجموعة من الخبراء، ولا يمكن معرفة سر الصنعة بجميع تفاصيلها إلا للعودة إليهم جميعا.

وبما أن التكليف والجزاء والقوانين المرتبطة بهما من سنن الكون وقوانينه؛ فإنهما يستندان إلى مجموعة من أسماء الله الحسنى، ولا يمكن أن يفقه أحد أسرارهما، قبل أن يعرف تلك الأسماء.

ذلك أن الجزاء ليس مقصودا لذاته، ومثله التكليف؛ فكلاهما وسيلة لغايات أخرى أشرف وأكرم، ولا يمكن الوصول لتلك الغايات من دونهما.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ أن تختصر لنفسك طريق معرفة تلك الأسماء؛ فاقرأ سورة الفاتحة، وتمعن في معانيها؛ فستهتدي لكل القوانين المرتبطة بالتكليف والجزاء.

فهذه السورة الكريمة التي هي أم القرآن تبدأ ببيان أن كل هذا الكون بما فيه من مخلوقات بدئ باسم من أسماء الله الحسنى، وهو اسم [الرحمن]، وهو يعني أن كل ما في الكون من البداية إلى النهاية منطلق ومنطبق مع هذا الاسم.

وبناء على هذا نرى القرآن الكريم يقرن دار الجزاء باسمه الرحمن، كما في قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ (الفرقان:26)، وهذا يعني أن الحاكم في كل قوانين ذلك اليوم هو الرحمة الإلهية المندرجة ضمن اسم [الرحمن]، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: من: 156)، وقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ

عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (الأنعام:147)
والاسم الإلهي الثاني الذي يلي اسم [الرحمن] هو اسم [الرحيم]، وهو أول تجل من تجليات الرحمن، أو هو التنفيذ العملي لما تقتضيه الرحمة الإلهية، والذي قد يظهر بمظاهر مختلفة، قد يكون من بينها القسوة التي تستدعيها الضرورة.
وكمثال تقريبي لذلك أن يأتي مفتش لمدرسة من المدارس؛ فيرى تلاميذها منشغلين عن دراستهم، منحرفين عنها، لا يبالون بها، وعندها تتداركه الرحمة لإنقاذ مستقبلهم المهدد، فيقرر إرسال معلمين ممتلئين بالحزم والشدة ليعيدوهم إلى جادة الصواب، وباستعمال كل الطرق الممكنة.
وقد يذهب إلى مدرسة أخرى، فيجدها ممتلئة نظاما وأدبا، ويجد تلاميذها مستوعبين لدروسهم أحسن استيعاب، حينها يكتفي بالثناء على التلاميذ وعلى الأساتذة، وقد يقرر أن يكافئهم بما يستحقونه من الدرجات والجوائز.
فهذا المفتش، لم يفعل ذلك إلا بناء على صفة راسخة فيه هي الرحمة بهم، والتي اختلف تنفيذها في الواقع بحسب المحل الذي تعامل معه؛ فالمحسنون أحسن إليهم، والمسيئون أرسل إليهم من يقوم بتهذيبهم وإعادتهم إلى جادة الصواب.
لكن الذي لا يفهم دوافع ذلك المفتش قد يتهمه بالجور والقسوة؛ فيزعم أنه اشتد على المدرسة الأولى بناء على قسوته وظلمه وجبروته، وأنه أحسن للمدرسة الثانية بناء على فقدانه للعدل، ولو أنه كان عادلا لتعامل مع الجميع بصفة واحدة.
وبعد أن توضح السورة الكريمة الدوافع التي دفعت لنشأة الكون، توضح الغاية التي يسير إليها، والتي تقوم الرحمة الإلهية بتسيير الخلق نحوها، وهي ما عبر عنه قوله تعالى: الْحَمْدُ للـه رَبِّ الْعَالَمِينَ [الفاتحة: 2]
وهذه الآية الكريمة توضح أصلا مهما جدا، لا يمكن فهم حقائق المبدأ والمعاد من دونه، فأول الآية يدل على الغاية، وآخر الآية يدل على المنهج..
أما أول الآية، فهو [الحمد لله]، وهو غاية الكون، أي التعريف بكمال الله تعالى الذي لا نهاية له، وقد اختار الله من أسمائه للدلالة على هذا اسمه [الله]، وهو الجامع لجميع الأسماء الحسنى.. وبذلك فإن الغرض من الكون هو التعريف

بأسماء الله الحسنى التي لا نهاية لها، والتواصل مع الله عبرها.

وأما الطريق إلى ذلك، أو المنهج المؤدي إليه، فقد تكفل به اسم [رب العالمين]، وهو اسم من أسماء الله الحسنى الدالة على الأفعال، وهو تجل لاسم الرحمن الدال على الذات، وهذا الاسم مشتق من التربية، وهي تعني ترقية الشيء من حال دنيا إلى حال عليا، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من تصدق بعَدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب؛ فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل) (1)

وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257]

والظلمات تشمل كل شيء ابتداء من الجهل وانتهاء بكل السلوكات المنحرفة التي لا تنسجم مع الموازين والنظام الذي يسير به الكون.

ولذلك فإن اسم [رب العالمين]، هو الاسم المتكفل بهداية العباد، ورفعهم من حالتهم البسيطة إلى حالة أرقى، وذلك ما يستدعي وضع برنامج خاص يمر به الإنسان على مجموعة كبيرة من الاختبارات، وعلى أساسها يكون الترقي.

وكمثال تقريبي لهذا ما تقوم به وزارات التربية، والتي تستلم الأولاد الصغار في مرحلة مبكرة من عمرهم، ثم تبدأ في تنفيذ برامجها، وتعقيدها كل حين، حتى يتخرج منها أكبر قدر من الناجحين، وهي عندما تعاقب بعضهم بالطرد لا تفعل ذلك إلا بناء على عدم اهتمامهم، أو تمردهم على النظام الذي تسير عليه تلك المؤسسات، أو خشية على المؤسسات التربوية من أن تصبح مؤسسات للمشاغبين بدل أن تكون مؤسسات لطلبة العلم.

ولهذا ذكر الله تعالى في الآية السابقة أن المؤمنين المسلمين والمستسلمين لله وقوانينه، سوف يخرجون من الظلمات إلى النور، بينما غيرهم، وهم الذين سلموا أنفسهم للمشاغبين والطواغيت، فإنهم سيسيرون سيرا عكسيا، بحيث لا يكتفون بالخروج عن فطرتهم النقية، وإنما قد يقعون في

(1) رواه البخاري رقم: 1410.

الانتكاسة العظمى التي تخـرجهم من إنسـانيتهم، وتـوقعهم في المهالك.

ولكن الله تعـالى برحمتـه الـتي وسـعت كـل شـيء يعطي الفرص الكثيرة التي لا تنتهي لأولئك الذين آثروا الظلمـات على النـور لعلهم يخرجـون منهـا؛ فـإن آثـروا البقـاء فيهـا كـان ذلـك بســببهم، وليس قصــورا من الرحمــة الإلهيــة، ولــذلك؛ فــإن المشـكلة ليسـت في سـعة الرحمـة الإلهيـة، وإنمـا في تـوفر القابلية لها..

وكمثال تقريبي على ذلك، أننا لا نـرمي شخصـا بالبخـل إلا إذا شحت يده عما يتطلبـه الكـرم من الإحسـان، لكنـه إن فعـل ذلك، ووفر الكثير من الخدمات للمحتاجين بكل سهولة ويســر.. لكن بعض المحتاجين لم يتقدم للاسـتفادة من تلـك الخـدمات.. فإن المشكلة هنا لا تكمن في المعطي، وإنما في مـدى قابليـة المتلقي.

وهكذا الرحمة الإلهية.. بل كل المعاني النبيلة في الأسـماء الحسنى، كالهداية واللطف والرزق وغيرها.. فالله تعالى وفرها، وبكثرة.. لكن المشكلة أن البعض لا يتعرض لها، ولذلك يحق له أن يتهم نفسه في عدم توفير القابلية، ولا يحق له أن يتهم اللـه تعالى.. أو بعبارة أخـرى: يحـق لـه أن يتهم أو يلـوم أو يحاسـب نفسه في عدم سعيه إليها، ولا يحق له أن يتهم اللـه تعـالى في حرمانه منها.

وبناء على هذا وضع الله تعالى المـراتب المختلفـة في دار الجزاء، ليتنقل أصحابها من طور إلى طـور بحسـب اسـتعدادهم وقابلياتهم واختياراتهم.

وقد وضحت سـورة الفاتحـة المـراتب الكـبرى للخلـق في هذا المجال، حيث ذكرت أربعة أصناف:

الصـــنف الأول: المنعم عليهم، الممثلـــون للســـراط المسـتقيم، والـذين طـولب الخلـق بالاهتـداء بهم واعتبـارهم النمـوذج المثـالي للإنسـان، كمـا يريـده اللـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ (6) صِـرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6، 7]

وهم يمثلون بحسـب المثـال السـابق، النخبـة من التلاميـذ النـاجحين، والـذي يتـاح لهم في الـدول العادلـة كـل المناصـب الرفيعة، بما فيها الحكم نفسه.

الصنف الثاني: السائرون على منهـاج المنعم عليهم مـع التقصير في الوصول إلى مراتبهم، ويمثلهم في سـورة الفاتحـة الداعون أنفسهم، والذين يطلبون من الله تعالى أن يرقيهم إلى المراتب التي وصل إليها الفائزون، وبذلك هم يطلبـون من اللـه تعـالى المزيـد من التربيـة والإصـلاح والهدايـة، أو المزيـد من الترقي في مراتب الكمال.

الصـــنف الثـــالث: المغضـــوب عليهم، وهم أولئـــك المشاغبون المجرمون الذين لم يكتفوا بالانحراف، وإنمـا راحـوا يدعون الخلق إليه، بكل كبرياء وطغيان، وهم الـذين يعـبر عنهم القرآن الكريم بأنهم أئمة الكفر.

الصنف الرابع: وهم الذين ضلوا، فتركوا الاهتداء بالمنعم عليهم، وراحوا يتبعون المغضوب عليهم.

بناء على هذا التصـنيف انقسـمت الأحكـام في دار الجـزاء الإلهي إلى أربعة مراتب هي:

مرتبة الفائزين: وهم الذين ورد في النصوص المقدسـة اعتبارهم النخبة، والهدف من الخلـق، وأنهم يسـكنون الـدرجات العليا في الجنة، وقد يصيرون أسـاتذة على من دونهم من أهـل الجنـة، ليقومـوا بـترقيتهم وتـربيتهم وهـدايتهم.. لتحقيـق ذلـك الدعاء الذي يدعو فيه المؤمنون بأن يهتدوا بهدي المنعم عليهم.

مرتبـة المهتـدين: وهم الـذين حصـلوا الحـد الأدنى من الهداية، والذي يمكنهم من الدخول إلى الجنة، ولكن في مراتبها الدنيا، ويمكنهم أن يترقوا في درجـاتهم فيهـا بحسـب قابليـاتهم المختلفة.

مرتبة الضـالين: وهم الـذين تركـوا الهدايـة الإلهيـة في الدنيا، أو قصـروا في التعامـل معهـا؛ فهـؤلاء يطهـرون في كـل المحال ابتداء من البرزخ، وانتهاء بدار الجزاء.. ومن تطهر منهم تطهرا تاما، تمكن من دخول الجنة، لتستمر تربيته فيها.

مرتبـة المغضـوب عليهم: وهم الـذين لم يمتنعـوا من قبـول الهدايـة بسـبب الشـبه الـتي وقعـوا فيهـا، وإنمـا بسـبب الكبريـاء الـذي طغـا على قلـوبهم، ولـذلك راحـوا يـؤدون دورا معارضا للهداية الإلهية، وربما يكونون قد جروا معهم الكثـير من الأتباع والضالين.. ولهـذا فـإن عقوبـة هـؤلاء أشـد، وقـد تـؤول ـ مثلما يحكم على كبار المجرمين في الدنيا ـ إلى الحكم المؤبد..

وهـذه الأقسـام جميعـا تتعامـل معهـا الربوبيـة بحسـب مـا

تستحقه؛ فالعقاب الإلهي في الآخرة ليس القصد منه التشــفي، وإنما القصد منه التربيــة والترقيــة وتنقيــة القلــوب من الــدنس، ولــذلك من الخلــق من يســتجيب بســهولة.. ومنهم من قــد لا يستجيب أبدا.. ولذلك كان البقاء في جهنم بحسب تلك القابلية.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن ربوبية الله تعالى لعباده، ورحمته بهم، وعدالته في وضع المراتب المفرقــة بينهم، اقتضت مجموعــة من الســنن والقــوانين هي الــتي يقــوم عليها التكليف والجزاء، وهي قــوانين متوافقــة مــع أســماء اللــه الحسنى؛ ولذلك كانت كلها رحمة ولطف وعدالة..

والعلم بتلــك القــوانين يحمي النفس من تلــك الوســاوس التي تبثها الشياطين، والتي قد توهمها بعدم عدالة الله، أو عدم رحمته، أو تصور لها ذلك بصورة لا تتناسب مع الكمال الإلهي.

ولأختصر لك ذلك[1] ـ أيها المريد الصادق ـ أذكــر لــك ســتة قوانين يقوم عليها التكليف والجزاء، وهي التي تجعلــه منســجما مع العدالة والرحمة والربوبية.

أما أول تلك القوانين؛ فهــو أن اللــه تعــالى جعــل كــل مكلف في أصل خلقته نقيا طاهرا بحيث لا تؤثر الجبلة التي ولد عليها في نوع اختياره، لأنه لو ولــد شــريرا مفســدا، فإنــه قــد لا يفطن حال بلوغه سن التمييز إلى حقيقة الخير الذي أودع فيه.

وذلك يشبه الممتحن في أي امتحــان نزيــه، والــذي يحضــر معه أوراقا بيضاء نقية ليجيب عليها، لأنه لا يمكنه أن يجيب على أوراق مملوءة قد لا يجد مكانا فيها لوضع إجابتــه، أو قــد تختلــط فيها إجابته بما كُتب سابقا في تلك الأوراق.

فكذلك ـ ولله المثل الأعلى ــ خلــق اللــه البشــر في أصــل جبلتهم صفحات بيضاء، مستعدة لكــل أعبــاء التكليــف ومهماتــه، ليملــؤوا بعــد ذلــك هــذه الصــفحات البيضــاء بمــا يختارونــه من إجابات.

وكون البشر على هذه الصورة من القضايا المسلمة عقلا؛ فلا خلاف بين شـــعوب الأرض في بـــراءة الطفولـــة، وفي استعدادها لكل أنواع التلقي، ولذلك اتفقت هــذه الشــعوب على اختيار هذا العمر للتوجيه العلمي والتربوي الذي تبنى عليه جميع حياة الصبي.

وقد دلت النصوص المقدسة على ما دل عليــه العقــل، بــل

1() شرحنا ذلك بتفصيل في كتاب: أسرار الأقدار.

اعتبرت النصوص ذلك من مظـاهر عـدل اللـه ورحمتـه بعبـاده؛ فقد سمى الله تعالى هذه الجبلة الأصلية الطيبة البسيطة الـتي جبل عليها الإنسان باسم الفطرة، وهي تدل على ما جبـل عليـه الإنسان من اسـتعداد للخـير، والـذي قـد يتحـول بـالتحريف إلى الشر، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفـاً فِطْـرَتَ اللـه الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللـه ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الروم:30)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن الفطرة الأصلية مستعدة للخير استعدادا جبليا، وأن التغيير الطارئ عليها ليس ناشـئا من طبيعتهـا الخلقيـة، وإنمـا نشـأ من مـؤثرات خارجيـة اقتضـاها التكليف.

وفطرة الإنسـان في ذلـك تشـبه فطـر الأشـياء المختلفـة، فالله تعالى ـ مثلا ـ خلق المـاء طـاهراً مطهـراً، فلـو تـرك على حالته التى خلقه الله عليها ولم يخالطه ما يزيل طهارته لم يزل طـاهراً، ولكنـه بمخالطـة المـؤثرات الخارجيـة من الأنجـاس والأقذار تتغير أوصافه ويخرج عن الخلقة التى خلق عليها.

وأما القانون الثاني من قوانين التكليف والجزاء، فهو أن الله تعـالى بعدلـه ورحمتـه وربوبيتـه وهب للمكلـف من الأدوات والوسائل ما يستطيع به أن يقاوم العقبات التي تعترض طريق تكليفه، فليس من العدالة أن يرمى بالجندي الأعـزل في ساحات المعارك الهوجاء من دون سلاح.

ويشير إلى هذا قوله تعـالى ــ بعـد ذكـره إرادتـه في جعـل الإنسـان خليفـة على الأرض ـــ: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَـةِ فَقَـالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَـؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة:31)، وهذا يدل على أن الله تعـالى وفـر لآدم عليه السلام من العلم ما يستطيع أن يؤدي به مهمة الخلافة.

وذلك العلم الذي تلقاه آدم عليـه السـلام هـو الـذي ورثتـه ذريته من بعده؛ ولم يكتف الله تعالى بـذلك التـوريث الـذي قـد يدخل فيه من التحريف ما ينحرف به مسـار الإنسـان، بـل زوده بمعلمين دائمين للأسماء والحقائق، ولهذا قال تعـالى لآدم عليـه السلام بعد نزوله إلى الأرض: اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُـدىً فَمَنْ تَبِـعَ هُـدَايَ فَلا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ (البقرة: 38)

ولـذلك أخـبر اللـه تعـالى أنـه لم يخـل القـرى من الأنبيـاء

والرسل المقومين لأقوامهم والمعرفين بالفطرة الأصلية، والمعلمين للأسماء، والهادين إلى الإجابات الصحيحة على اختبارات التكليف، قال تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر:24)، وقال: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (النحل:36)

فهاتان الآيتان الكريمتان تدلان على أن كل الأمم السابقة أرسل الله لها من ينذرها، ويعرفها بوظيفتها، وبمقتضيات هذه الوظيفة، ولذلك نبه من قد يتصور أن الأنبياء مقصورون على ما ورد ذكرهم في القرآن الكريم إلى وجود غيرهم، فقال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (غافر: 78)

ولذلك، كان من الأخطاء الشائعة الكبرى اعتقاد النبوة خاصة بمناطق معينة كالشام والحجاز ونحوها، بل إن النبوة تشمل الأرض جميعا، ولكن القرى لم تلق بالا لهؤلاء الأنبياء، فلذلك نسوا، وأهمل ذكرهم، أو حرفت تعاليمهم.

ولذلك كان من عدل الله ورحمته بخلقه أن لا يحاسبهم إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (الأنعام:131) أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحد إلا بعد إرسال الرسل إليهم.

وأما **القانون الثالث** من قوانين التكليف والجزاء، فهو أن الله تعالى برحمته جعل التكاليف متناسبة مع الطاقات المعطاة، والمؤهلات المختلفة لكل مكلف؛ فليس من العدل أن يكلف المكلف فوق ما تحتمله طبيعته التي طبع عليها أو الظرف الذي وجد فيه، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ (المائدة: 48)

وقال جامعا بين الخلافة والبلاء: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (الأنعام:165)

ولهذا تقترن العبادات بالاستطاعة، بل إن الله تعالى برحمته نوع التكاليف لينال كل امرئ ما يتناسب مع وضعه

وطبيعته وحاله، فلا يميز الإنسان إلا بحسب عمله.

بل إن الله تعالى عـوض من لا يسـتطيع عملا من الأعمـال بأعمال أخرى يمكنه من خلالها أن يتدارك ما فاته، ومما يقـرب هذا المعنى ما روي في الحديث أن ناسا من الفقـراء قـالوا: يـا رسـول اللـه، ذهب أهـل الـدثور بـالأجور، يصـلون كمـا نصـلي، ويصـومون كمـا نصـوم، ويتصـدقون بفضـول أمـوالهم، قـال: أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صـدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة، وأمر بـالمعروف صـدقة، ونهي عن المنكـر صـدقة[1]. فـالنبي ﷺ في هذا الحديث أرشد الفقـراء إلى مـا يمكنهم فعلـه ليعوضـهم عن الصدقات التي لا يملكون إخراجا.

ومما يقربه كذلك قولـه ﷺ:(من صـلى الصـبح في مسـجد جماعة، ثم مكث حتى يسبح سبحة الضحى، كان له كأجر حــاج، ومعتمـر تـام لـه حجتـه وعمرتـه)[2]، ففي هـذا الحـديث أرشـد رسول الله ﷺ من لا يستطيع الحج بشيء سهل يمكنـه أن ينـال من خلاله ثواب الحج.

بل إن الله تعالى برحمتـه يكتب للإنسـان نيـة الخـير الـتي ينويها، وإن لم يفعلها في الواقع، وقد ورد في الحديث القدسـي أن الله تعالى يقول:(الحسنة بعشر والسـيئة بواحـده أو اغفرهـا ومن لقيـني بقـراب الارض خطيئـه لا يشـرك بى لقيتـه بقـراب الارض مغفرة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسـنة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شئ ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا) [3]

بل إن الرسول ﷺ في تقسيمه لأصناف الناس اعتـبر هـذه الناحية، فقال:(مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجـل آتـاه اللـه مالا وعلما، فهو يعمل بعلمه في مالـه، ينفقـه في حقـه، ورجـل آتاه الله علما ولم يؤته مالا، وهـو يقـول: لـو كـان لي مثـل هـذا عملت فيه مثل الذي يعمل فهما في الأجـر سـواء، ورجـل آتـاه الله مالا ولم يؤته علما ولا مالا وهو يقول: لو كان لي مثـل هـذا عملت فيه مثل الذي يعمل، فهما في الوزر سواء) [4]

1() رواه مسلم.

2() رواه الطبراني في الكبير وغيره.

3() رواه الطبراني في الكبير وغيره.

4() رواه أحمد وهناد وابن ماجة والبيهقي والطبراني في الكبير.

وبذلك.. فإن أي شخص حتى ولو كان مقعدا يمكنه أن ينال من الفضل والجزاء ما ينال أي عامل مهما أوتي من قوة، وقد قال النبي ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات:(لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرًا، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه)، فتعجبوا، وقالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال رسول الله ﷺ مبينا أن السير إلى الله قد لا يحتاج أي جارحة من الجوارح: (حبسهم العذر)[5]

وأما **القانون الرابع** من قوانين التكليف والجزاء، فهو قانون المساواة؛ فالله تعالى يعامل عباده معاملة واحدة، ويجازى كل شخص بحسب عمله، وبدقة عالية لا يمكن تصورها.

ولهذا ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة الدالة على أن العدل سار في الموازين التي توزن بها الأعمال، فلا يظلم أحد مثقال ذرة، قال تعالى:﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء:47)

وهذه الموازين تعتمد على الأعمال التي أحصاها الله تعالى على عباده، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى في موعظة لقمان عليه السلام لابنه:﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:16)

وقد أخبر تعالى عن مقالة المكلفين حين يبصرون دقة موازين الله، فقال:﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف:49)

ولذلك فإن الإنسان يرى في القيامة كل ما كسبت يداه ابتداء من مثاقيل الذر، وهذا من العدل الذي يجعل المتهم مبصرا لجرائمه وذنوبه التي يحاكم على أساسها، قال تعالى:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7 ـ 8)

5() رواه أبو داود وغيره.

وقد أخبر تعالى أن ثقل هذه الموازين بالأعمال الطيبة هـو الكفيل بالنجـاة، قـال تعـالى: وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (الأعـراف:8)، وقـال تعـالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المؤمنون:102)

وبخلافــه من خفت موازينــه، قــال تعــالى: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآياتِنَا يَظْلِمُونَ (الأعراف:9)، وقال تعـالى: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (المؤمنون:103)

ومن مظـاهر العـدل الإلهي الـتي لا يمكن وصـفها أن اللـه تعالى لا يزن الأعمـال فقـط، كمـا نفعـل في الـدنيا حين نكتفي بتقييم الأعمال دون نظر إلى ما يحيط بهـا من ملابسـات، فنقـع بذلك في أخطاء كثيرة وجور عظيم، لكن اللـه ــ بعدلـه ــ يـزن العمل، وكل ما يرتبط بالعمل من قريب أو من بعيد، ولهـذا ورد التعبير عن الميزان في القرآن الكريم بلفظ الجمع.

وأما **القانون الخامس** من قوانين التكليف والجزاء، فهو أن الله تعالى لا يجازي عباده إلا بعد محاكمة عادلة تتسـم بكـل ما تتسـم بـه المحاكمـة العادلـة من أوصـاف.. بـل لا يمكن لأي محكمة أن تتسم بما تتسم به محكمة العدل الإلهي.

فمع أن الله تعالى يعلم ما فعله عباده من خير أو شــر، إلا أنه تعالى ـ عدلا منه ـ لا يحاسبهم بمجـرد علمـه، بـل يحاسـبهم كما يحاسب الند نده، وذلك من عدل الله ورحمته بعباده.

وأول ما تستند إليه هذه المحاكمة العادلة هي الكتب الـتي كتبها الملائكة ـ عليهم السلام ـ بتوكيل من الله تعالى..

فالله تعالى بحكمتـه وعدلـه جعـل مـع كـل إنسـان شـهودا على أعماله، وجعل لهم سـجلات خاصـة تتناسـب مـع طـبيعتهم يسجلون فيهـا حركـات الإنسـان، وأعمالـه، ولهـذا سـماهم اللـه تعالى (كراماً كاتبين)، فقال تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (الانفطار:10 ـ12)

وقد سمى الله تعالى هؤلاء الملكـة الكتبـة شـهودا، فقـال: وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (ق:21)

ومع أن الكتابة تحصي كل ما فعله الإنسان من خير أو شر أو لغو، لكن الله تعالى لم يكتف بها في تلك المحاكمة العادلــة، بل ضم إليها أنواع الشهود.

وقد ورد في النصوص الجمع بين الكتب المحصية للأعمال والشهود، أو التهم والدلائل، حتى لا يؤاخذ العبد إلا بعد إقامة الحجة الكاملة عليه، قال تعالى: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (الزمر:69)

فالآية الكريمة ذكرت ثلاثة أركان للعدالة، وهي الكتاب الحاوي للتهم، والشهود المثبتة لها، ثم القضاء بينهم بالحق حتى لا يؤاخذ العبد إلا بمقدار جريمته.

وبعد كل هذا، فإن الله تعالى ـ بعدله ـ يتيح كل الفرص للإنسان للدفاع عن نفسه، حتى أن له الحق في الطعن في الشهود أنفسهم، حتى لو كانوا ذوي مكانة عالية، ففي الحديث يقول رسول الله ﷺ:(يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلّغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً (البقرة: 143) قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم)[1]

وكما أن المحاكمة العادلة تقتضي توفر المحامين الذين يدافعون عن المتهم، فإن الله تعالى بعدله نصب المحامين الكثيرين من عباده، والذين سماهم الشفعاء.

ولكن هؤلاء الشفعاء لا يشفعون إلا فيمن رضي الله أن يشفع فيه، فهناك من الجرائم ما لا يملك معه هؤلاء الشفعاء شيئا، قال تعالى: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (طه: 109)، وقال: وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (سبأ: 23)، وقال: وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف:86)

وأما **القانون السادس** من قوانين التكليف والجزاء، فهو أن الجزاء الإلهي متوافق تماما مع نوع العمل، كما قال تعالى: جَزَاءً وِفَاقاً (النبأ:26)، أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا [2]

1() رواه البخاري والترمذي والنسائي.
2() قاله مجاهد، وقتادة، وغير واحد، ابن كثير:8/307.

بل إن النصوص الكثيرة تدل على أن الجزاء المعد في الآخرة هو الصورة المجسدة للكسب، كما قال تعالى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (الأنعام:31)

وقد ورد في بعض الآثار في تفسير هذه الآية:(يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها أنتنه ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا واللّه، إلاّ أنَّ اللّه قبح وجهك وأنتن ريحك، فيقول: أنا عملك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، فطالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك)[1]

وإلى ذلك أيضا يشير قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (آل عمران:161)

وقد قال ﷺ لرجل استعمله على الصدقة، فجاء فقال:(هذا لكم وهذا أهدي لي)، فقام رسول اللّه ﷺ على المنبر، فقال: (ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، وإن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر؟؟، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً[2]

وأخبر ﷺ أن المتكبرين يحشرون يوم القيامة محتقرين ممتلئين ذلة، قال ﷺ:(يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الانيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)[3]

ولذلك وردت آيات القرآن الكريم تربط بين أصناف الجزاء والأعمال المتعلقة بها، سواء كان ذلك الجزاء في الدنيا أو الآخرة.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن

1() رواه ابن أبي حاتم.
2() رواه الطبراني في الكبير وغيره.
3() رواه أحمد والترمذي.

تملأ نفسك بهذه المعاني؛ فهي وحدها من يملؤها ثقة بالله وعدله ورحمته ولطفه بعباده..

وذلك ما يجعلك تتعامل مع التكاليف الإلهية بحسب الواقع لا بحسب الأماني والأوهام؛ فقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: 123]

فاحذر أن تكون من أولئك الكسالى المقعدين الممتلئين بكل الرذائل، ثم يطالبون بعد ذلك رسول الله ﷺ بأن يشفع لهم، باعتبارهم من أمته، ونسوا أن أمته الحقيقية هم أتباعه الذين تمثلوا القيم التي جاء بها، أما غيرهم، فقد أخبر ﷺ عن مصيرهم، وتبرؤهم منهم، فقال: (ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم: ألا هلم؛ فيقول إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا) (1)

(1) رواه مسلم (367)

الاصطفاء والاجتباء

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الاصطفاء والاجتباء وأسرارهما، وعلاقتهما بالعدالة والرحمة الإلهية، وعلاقتهما بعد ذلك بالنفس المطمئنة ورضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الحكمة الإلهية المستندة إلى علم الله تعالى وخبرته بخلقه اقتضت ألا يكون الخلق جميعا على هيئة واحدة، وفي مرتبة واحدة، لأن ذلك يحول بينهم وبين الرحمة الخاصة بتقريبهم وتربيتهم وتهذيبهم ليصلحوا للترقي في المراتب المهيئة لهم.

ولذلك حصل الاصطفاء لبعضهم، ليؤدوا وظائف خاصة، لا ترتبط بهم فقط، وإنما ترتبط بكل من له علاقة بتلك الوظائف التي وُكلت لهم.

وأول ما يستند إليه ذلك الاصطفاء علم الله تعالى وخبرته بخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ الله وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: 68]، وقد عقب عليها بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: 69]، وذلك يعني أن علم الله تعالى بما في الصدور والطبائع هو الذي على أساسه يكون الاختيار.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّه الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: 124]؛ فالله تعالى يخبر أن علمه بخلقه هو الذي وفر ذلك الاصطفاء لمن يستحقونه.

ويشير إلى ذلك ما ورد في الحديث القدسي: (إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر)[1]

وهذه الحكمة الإلهية ـ كما تستند للعلم والخبرة الإلهية ـ تستند كذلك للعدالة والرحمة الإلهية، ذلك أنه يستحيل أن تتناقض مقتضيات أسماء الله الحسنى، وكيف تتناقض، وهي جميعا من ذات واحدة، أو صفات ذات واحدة.

---

(1) رواه الخطيب..

أما استنادها للرحمة الإلهية؛ فيعود إلى أن الله تعالى ـ رحمة بعباده ــ يختار منهم من يكون أهلا لتربيتهم وتهذيبهم وتزكيتهم، حتى يصلحوا للجزاء العظيم المعد لهم، كما قال تعالى لآدم عليه السلام بعد خروجه من الجنة: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 38ـ 39]، وقال له: ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: 123، 124]

وهكذا قال لذريته من بعده: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف:35)

أما عدم اصطفاء الله تعالى الجميع لهذه الوظائف؛ فيعود لعلم الله تعالى بهم، وبقدراتهم، وكونهم لا يطيقون مثل تلك التكاليف العظيمة التي لا يطيقها إلا المكلفون بها، ولذلك كان عدم تكليفهم رحمة بهم، لأنهم لو كلفوا وسقطوا في الاختبار، لكان ذلك ضارا بهم.

ذلك أن الاصطفاء لا يعني انعدام التكليف، ولا كون المصطفى غير مخير في أفعاله، أو أنه مجبر على عمل الخير.. فالأمر ليس كذلك، بل المصطفى والمجتبى يمر بامتحانات عسيرة لا يطيقها أكثر الناس.

ولذلك أخبر الله تعالى عن الاختبارات العظيمة التي مر بها إبراهيم عليه السلام ليثبت جدارته بالاصطفاء الإلهي، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]

وقد كان من تلك الاختبارات أن يأمره الله تعالى بذبح ابنه الوحيد الذي لم يرزق به إلا بعد أن بلغ من الكبر عتيا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ

يَاإِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ [الصافات: 99 - 102]

وقد اختبر قبل ذلك بأن يرمى بالمنجنيق من دون أن تتدخل الملائكة عليهم السلام ولا غيرهم لإنقاذه، حتى يكون ذلك بيانا لثباته العظيم.

واختبر بعد ذلك بأن يذهب بولده إلى صحراء مكة المكرمة، ليبقى هناك مع أمه مدة من الزمن، قال تعالى مخبرا عن دعائه حينها: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلهمْ يَشْكُرُونَ [إبراهيم: 37]

وهكذا كانت حياته كلها مجموعة كبيرة من الاختبارات المؤلمة القاسية الشديدة التي لا يطيق آحادها آحاد الناس، ولذلك كان من رحمة الله تعالى بهم عدم اصطفائهم لتولي ذلك المنصب العظيم.

ومثل ذلك البلاء الذي تعرض له رسول الله ﷺ في كل حياته، والذي لم يدع له لحظة واحدة من الراحة، حتى أن أول الأوامر الإلهية إليه هو قيام الليل؛ فكان ﷺ يقوم أكثره، ويقضي نهاره داعية إلى الله، لأن الله تعالى أمره بالأمرين: أن يكون ليله لربه، وأن يكون نهاره لدعوة الخلق، قال تعالى: يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا [المزمل: 1، 2]، وقال: يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ [المدثر: 1، 2]

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن من سنن الله تعالى في الاصطفاء الابتلاء، قال تعالى: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئةٌ) [1]

وهذا لا يعني ـ أيها المريد الصادق ـ عدم إعطاء الله تعالى الفرصة لأولئك الذين لم يُوظفوا في تلك الوظائف، وإنما الفرصة ممنوحة للجميع، وبدرجة واحدة، وفي كل العصور والبيئات.

وهذا ما يدل على عدالة الله المطلقة الموافقة لرحمته

(1) الترمذي (2398) وصححه، وابن ماجة (4023)

الواسعة، ذلك أن أي شـخص قـد يعـترض على عـدم تخصيصـه بالاصطفاء، تُذكر لـه الأعمـال الـتي يمكن أن يقـوم بهـا، والـتي تجعله مع المصطفى في درجة واحدة.

ولهـذا يُقـال للـذي يعتب على عـدم اصـطفائه ليعيش في زمن النبوة، بأن هناك من اجتـبي لأن ينـال هـذه الكرامـة لكنـه رفضها، ورفض الإيمان.. ويقال لـه: في إمكانـك وأنت في زمن بعيد عن زمن النبوة، أن تنال كل فضل نالـه من أحسـن صـحبة رسول الله ﷺ، وليس عليك سوى أن تقوم بتلك التكاليف الـتي كـانوا يقومـون بهـا؛ فقـوانين الاجتبـاء الإلهي مـوفرة لكـل من يرغب.

ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: (من أشـد أمـتي لي حبـا ناس يكونون بعدي، يودُّ أحدهم لـو رآني بأهلـه ومالـه)[1]، ففي هذا الحديث يعتـبر رسـول اللـه ﷺ المحبـة من أعظم الوسـائل التي تجعل صاحبها مختارا مجتبى، فالمرء مع من أحب.

وهكذا يذكر رسول الله ﷺ الأعمال التي يمكن أن يصل بها المؤمن إلى تلك المكانة الرفيعة منه، فقـال: (إن أقـربكم مـني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا)[2]

فهـذا الحـديث يرسـم خطـة واضـحة للمعيـة لا علاقـة لهـا بالزمـان، ولا بالمكـان، بـل علاقتهـا فقـط بمـدى التواصـل مـع رسول الله ﷺ، والذي تمثل الصلاة عليه أحد أهم مقوماتها.

وورد في حديث آخر مقـوم آخـر، لا يرتبـط لا بالمكـان، ولا بالزمان، فقال: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مـني مجلسـا يـوم القيامة أحاسـنكم أخلاقـا، وإن من أبغضـكم إلي وأبعـدكم مـني يـوم القيامـة الثرثـارون والمتشـدقون والمتفيهقـون)[3]، فهـذا الحديث يحدد حسن الخلق مقياسا لمكانـة المـؤمن من رسـول الله ﷺ، وهو مما لا علاقة له لا بالمكان، ولا بالزمان.

ومثله قوله ﷺ: (خياركم أحاسنكم أخلاقا)[4] فقـد ربـط ﷺ الخيرية في هذه الأمة، وفي غيرها من الأمم بالأخلاق الحسنة.

وهـذه الأحـاديث وغيرهـا تتناسـب مـع مـا يقتضـيه العقـل السليم، لأنـه من الغـريب أن تصـنف الأمـة في قربهـا من اللـه

1() رواه مسلم.
2() حياة الأنبياء في قبورهم للبيهقي (ص: 93)
3() سنن الترمذي.
4() رواه الترمذي.

تعالى وقربها من رسول الله ﷺ على أساس زماني أو مكاني، لأن أي شخص قد يحتج على الله، فيقول له: يا رب لو أنك جعلتني في الزمن الذي كان فيه ﷺ لرأيت ما أصنع.. ولكن عندما يقرن الأمر بالطاعة والمحبة والولاء حينها لا يبقى عذر لأحد.. لأن كل أحد يمكنه أن يحقق هذه المعاني من غير حاجة لزمان ولا لمكان.

ولهذا استطاع سلمان الفارسي، وهو الذي قدم متأخرا للمدينة المنورة، وأسلم متأخرا، ولم يحضر بدرا ولا أحدا، أن ينال تلك المكانة السامية من رسول الله ﷺ، فيسبق السابقين، وينال من الأوسمة ما عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: (اشتاقت الجنة إلى أربعة: علي والمقداد وعمار وسلمان) [1]

وقال عنه ما هو أعظم من ذلك: (سلمان منا أهل البيت) [2]

وقد كان الإمام الصادق يذكره كثيرا، وحين سأله بعضهم عن ذلك، وقال له: (ما أكثر ما أسمع منك ذكر سلمان الفارسي؟)، أجابه بقوله: (لا تقل سلمان الفارسي، ولكن قل سلمان المحمدي، أتدري ما أكثر ذكري له؟)، فقال الرجل: لا.. فقال الإمام الصادق: (لثلاث خصال: إيثاره هوى أمير المؤمنين الإمام علي على نفسه، والثانية: حبه للفقراء واختياره إياهم على أهل الثروة والعدد، والثالثة: حبه للعلم والعلماء)[3]

وكان الإمام علي يشبهه بلقمان الحكيم، ويقول: (سلمان أمرؤ منا وإلينا أهل البيت، من لكم بمثل لقمان الحكيم، علم العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر، وكان بحراً لا ينزف)[4]

وهكذا يمكنك ويمكن لأي شخص ـ أيها المريد الصادق ـ أن يجعل من نفسه مصطفى ومختارا ومجتبى.. ويمكنه أن ينزل في تلك المنازل العظيمة التي نزلها الأنبياء والأولياء والأصفياء.. فقوانين العدالة والرحمة لن تحرم أحدا يريد ذلك.

بل إن نفس إنسانية الإنسان اصطفاء الله له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 190)
2() رواه الحاكم 3/691 ح(6539) المعجم الكبير للطبراني 6/212 ح6040)
3() رواه الطوسي في أماليه 1: 133.
4() بحار الأنوار 22 / 347..

جَهُولًا [الأحزاب: 72]

فلذلك كان لكل إنسان حظه من الاختبار والابتلاء، كما قال تعالى مخاطبا بني إسرائيل: يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [البقرة: 47]

فالتفضيل هنا لا يعني أنهم معفون من الابتلاءات والتكاليف، وإنما يعني اختيار الله تعالى لهم لتولي وظائف معينة، لكنهم فشلوا فيها، ولذلك نزلت عليهم اللعنات، بدل البركات، قال تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ الله عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ [المائدة: 78 - 80]

ولذلك رد عليهم كل تلك الادعاءات التي توهموها لأنفسهم بسبب ذلك الاصطفاء الذي خصوا به، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [المائدة: 18]

ومثل ذلك رد على الصراع الذي كان بين المسيحيين واليهود وأيهما الأفضل، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [البقرة: 113]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الله تعالى ـ رحمة بعباده ـ جعل لهم نماذج من الصالحين ليكونوا لهم نبراس هداية، وسراطا مستقيما، يحفظهم عن الزيغ والانحراف، ذلك أن الهداية النظرية وحدها لا تكفي.. بل تحتاج إلى مصاديق لها، ليكون لها تأثيرها في التربية.

ولهذا ترى الأستاذ الناجح يشجع تلاميذه الناجحين، ويدعو سائر التلاميذ إلى الاقتداء بهم.. وليس في ذلك أي جور أو ظلم، ذلك أن التلاميذ المميزين لم يميزوا إلا بسبب جهدهم وعملهم من غير أن يرغمهم أحد..

أمــا الصــادقون من التلاميــذ، والواثقــون في أســاتذتهم والمسلّمون لهم، فإنهم يلبـون تلـك الأوامـر، ويعلمـون أنهـا في مصلحتهم، ولذلك يتقربون من أولئك التلاميذ المميزين، ليعرفوا سر ذلك التميز ليكون وسيلة لهم للالتحاق بركب الناجحين.

أما الشاكون من التلاميذ، والذين لا يثقـون في أسـاتذتهم؛ فـإن حسـدهم لا يتوقـف عنـد عـدم الانصـياع لمـا طُلب منهم، والذي هو في مصلحتهم، وإنما يمارسون كل أنواع الأذى بأولئك المميـزين، وهـذا مـا يثـير أسـاتذتهم عليهم، ويزيـد في بعـدهم عنهم.

ولهذا كـان الاصـطفاء والاختبـار الإلهي نوعـا من الامتحـان للسـرائر والقلـوب، ولهـذا شـاء اللـه تعـالى أن يختـبر الملائكـة وإبليس بالسجود لآدم، أما الملائكة فانصاعت لربها، وأما إبليس فتمرد، وتوهم أن الاصـطفاء منـاف للعدالـة، ولـذلك سـقط في كير الامتحان، وبدل أن يعقد صـداقته مـع آدم لينـال من أسـرار اصطفائه، راح يتحول إلى عدو تتنزل عليه اللعنات.

وهذا المثال ـ أيها المريد الصادق ـ هو الـذي يجعلـك تبحث عن كـل عبـد صـالح، لتنـال من بركـات صـلاحه واصـطفائه مـا ينفعك في كل أحوالك.. وأقلها أن تنال حظـك من شـفاعته في حال حاجتك إليها.

هذا جوابي على سؤالك ـ أيها المريد الصـادق ــ فكِـل كـل أمور ربك إليـه، واعلم أنـه لا يريـد لـك إلا الخـير، واعلم أن من رحمة اللـه تعـالى بـك أن جعلـك تابعـا للمصـطفين من عبـاده؛ فتنـال حظـك من الاصـطفاء من غـير أن ينالـك ذلـك الإرهـاق والعنت الذي أصابهم.

ولذلك اعتبر الله تعالى رسوله ﷺ نعمـة منـه على عبـاده، فقـال: ﴿لَقَـدْ مَنَّ اللـه عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]

فالمؤمن هو الذي يفرح بنسبته لرسول الله ﷺ وللصالحين من المؤمنين، لأنه يرى نفسه كـالغريق في الظلمـات، ويـراهم مخلصين منقذين له.. فلذلك يفرح بهم كمـا يفـرح الغريـق بمن ينقذه..

أما المعاندون؛ فإنهم بـدل مـد أيـديهم لحبـل النجـاة الـذي وُضـع لهم، يجـادلون في سـر اختيـار ذلـك المنقـذ المخلص..

وجدلهم وعنادهم هو الذي يحول بينهم وبين توفير الفرصة لمن جاء لإنقاذهم.

ولهذا توبخ الملائكة عليهم السلام أولئك الذين أعرضوا عن المنقذين لهم، استكبار وعنادا، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (الملك:8 ـ 9)

وقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر:71)

فثق في ربك ـ أيها المريد الصادق ـ وفي تلك الجواهر المقدسة التي اختارها لتكون دليلك إليه؛ فهو لم يرسلها لك لتجادلها، أو تعاندها، وإنما أرسلها لك لتسلم لها، وتفوض شؤونك إليها.. فهي عين من عيون رحمته، ونور من أنوار هدايته، وقد قال تعالى عن رسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]

فإن شئت أن تكون من العالمين الذين تصيبهم تلك الرحمة؛ فكن هينا لينا سهلا مطواعا لنبيك، مثلما تفعل تماما مع الطبيب الذي يعالجك؛ فلا يمكنه أن يعالجك وأنت تستعصي عليه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36]

وقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24]

فاستجابتك لرسول الله ﷺ هي عين حياتك.. وهي عين الرحمة التي تتنزل عليك.. والذي يرفض واسطة الرحمة والحياة، يكون كالذي رفضهما.

المنازل والمراتب

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن مراتب المصطفين الذين اجتباهم الله تعالى، وكيفية التعرف عليها، وعن تأثيرها في طمأنينة النفس ورضاها.

وقد ذكرت لي في عقب الرسالة بعض ما ورد في كتب التزكية من تلك المراتب، ومنها ما ذكروه من تفاصيل عن طبقات الأولياء ووظائفهم في الأرض، وأن ترتيب بعض تلك الطبقات يشبه ترتيب السماوات السبع، حيث يحكم البدل الأول: الإقليم الأول للسماء السابعة، وهو على قلب الخليل عليه السلام.. ويحكم البدل الثاني الإقليم الثاني للسماء السادسة وهو على قلب موسى عليه السلام.. ويحكم البدل الثالث الإقليم الثالث للسماء الخامسة وهو على قلب هارون عليه السلام.. ويحكم البدل الرابع الإقليم الرابع للسماء الرابعة وهو على قلب إدريس عليه السلام.. ويحكم البدل الخامس الإقليم الخامس للسماء الثالثة وهو على قلب يوسف عليه السلام.. ويحكم البدل السادس الإقليم السادس للسماء الثانية وهو على قلب عيسى عليه السلام.. ويحكم الإقليم السابع للسماء الأولى وهو على قلب آدم عليه السلام(1)

وذكرت لي قول بعضهم: (إنه تنزل عليهم العلوم لكل يوم علم من رقائق على قلب من هؤلاء، ويلي هؤلاء في المقام النجباء والرجباء والنقباء وأهل الغيب وأهل النجدة، وغيرهم، وكل منهم ينظم عملاً في الحكومة الباطنية ويستهدف رسالة فيها) (2)

وعن آخر قوله: (ثلاثمائة من الأولياء، سبعون هم النجباء، وأربعون هم أوتاد الأرض، وعشرة هم النقباء، وسبعة هم العرفاء، وثلاثة هم المختارون، وواحد منهم هو القطب الغوث الفرد)(3).

وعن آخر أن (الأبدال في الطبقة الخامسة من طبقات الأولياء التي تنحدر من القطب الأعظم، ويتقدم عليهم بعد

1() الفتوحات المكية، ص 370، 376.

2() عبد الوهاب الشعراني، اليواقيت والجواهر، ج2 ص 82.

3() روض الرياحين في حكايات الصالحين، ص 172.

القطب الـذي يـأتي في المرتبـة الأولى الإمامـان ثم الأوتـاد، ثم الأفــراد الســبعة، ويــأتي بعــد الأبــدال الــذين هم في الطبقــة الخامســـة النجبـــاء، ثم النقبـــاء، ثم العصـــائب، فالحكمـــاء أو المفردون، ثم الرجبيون)(1)

وأن (كــل طبقــة من الطبقــات العشــر لهــا إقليم خــاص ومجال عمل خـاص، فـإذا خلا مكـان في طبقـة ملئ بعضـو من أعضاء الطبقة التي هي دونها مباشرة)(2)

ثم ذكرت لي عقب ذلك ما ذكروه حول ختم الأولياء، وأنــه (واحد لا في كل زمان، بل واحد في العالم، يختم الله به الولاية المحمدية، فلا يكون في الأولياء المحمديين أكبر منه)(3)

وأنه سمي كذلك (لأنه يأتي يوم القيامـة وفي يـده اليمـنى محل الملك الأسنى خـاتم مثـالي جسـماني، وفي يـده اليسـرى محل الإمام الأسرى بخاتم نزالي روحاني، وقـد انتشـر بـاليمين في زمرة أهل التعيين، وقـد انتشـر باليسـار مـع أهـل التمكين. خصص بعلمين، وخوطب باسمين)(4)

وأن بعضهم قـال عنـه: (وأمـا ختم الولايـة المحمديـة فهي لرجل من العرب، من أكرمها أصلا ويدا. وهو، في زماننا اليــوم، موجــود عـرفت بـه سـنة خمس وتسـعين وخمس مائـة، ورأيت العلامة التي له قد أخفاها الحق فيه عن عيون عبـاده، وكشـفها لي بمدينة فاس حتى رأيت خاتم الولاية منه، وهـو خـاتم النبـوة المطلقة، لا يعلمه كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهـل الإنكـار عليه فيما يتحقق به من الحق في سره من العلم بـه. وكمـا أن اللــه ختم بمحمـد ﷺ نبـوة الشـرائع، كـذلك ختم اللـه بـالختم المحمـدي الولايـة الـتي تحصـل من الـورث المحمـدي، لا الـتي تحصـل من سـائر الأنبيـاء، فـإن من الأوليـاء من يـرث إبـراهيم وموسى وعيسـى، فهـؤلاء يوجـدون بعـد هـذا الختم المحمـدي، وبعده فلا يوجد ولى على قلب محمد ﷺ هذا معنى خاتم الولاية المحمدية، وأما ختم الولاية العامة الذي لا يوجد بعده ولى، فهـو عيسى عليه السلام ولقينـا جماعـة ممن هـو على قلب عيسـى عليه السلام وغيره من الرسـل عليهم السـلام وقـد جمعت بين

1() دائرة المعارف الإسلامية، العدد 2 ص 142.

2() د. حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، ص 22، 25.

3() الفتوحات المكية، ج 2ص 9.

4() ابن عربي، عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب، ص 19.

صاحبى عبد الله (بـدر الحبشـي) وإسـماعيل بن سـودكين وبين هذا الختم، ودعا لهما وانتفعا به) (1)

ثم ذكـرت لي بعـد ذلـك مـا أوردوه حـول التفاضـل بين الملائكة والبشر، وأن بعض مفضـلة البشـر على الملائكـة قـال: (مــا أزال أتعجب ممن يــرى تفضــيل الملائكــة على الأنبيــاء والأولياء! فإن كان التفضيل بالصور، فصـورة الآدمي أعجب من ذوي أجنحة، وإن تركت صورة الآدمي لأجـل أوسـاخها المنوطـة بها، فالصورة ليست الآدمي، إنمـا هي قـالب، ثم قـد استحسـن منهـا مـا يسـتقبح في العـادة، مثـل: خلـوف فم الصـائم، ودم الشـهداء، والنـوم في الصـلاة، فبقيت صـورة معمـورة، وصـار الحكم للمعنى. ألهم مرتبة يحبهم أو فضيلة يبـاهي بهم.. وكيـف دار الأمر، فقد سجدوا لنا، وهو صريح في تفضـيلنا عليهم.. فـإن كـانت الفضـيلة بـالعلم، فقـد علمت القصـة يـوم: ﴿لا عِلْمَ لَنَـا﴾ [البقرة: 32] ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ﴾ [البقرة:33]، وإن فضلت الملائكة بجوهريــة ذواتهم، فجوهريــة أرواحنــا من ذلــك الجنس، وعلينــا أثقال أعباء الجسم.. واعجبًا، أتفضل الملائكة بكـثرة التعبـد.. أو يتعجب من الماء إذا جرى، أو من منحـدر يسـرع؟! إنمـا العجب من مصاعد يشق الطريق، ويغـالب العقبـات.. بلى، قـد يتصـور منهم الخلاف، ودعوى الإلهية؛ لقدرتهم على دك الصخور وشــق الأرض، لذلك تواعدوا: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَـذَلِكَ نَجْزِيــهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبيــاء: 29]، لكنهم يعلمــون عقوبــة الحــق فيحذرونه) (2)

ثم قال: (ثم أكثرهم في خـدمتنا، بين كتبـة علينـا، ودافعين عنــا، ومســخرين لإرســال الــريح والمطــر، وأكــثر وظــائفهم الاستغفار لنا، فكيف يفضلون علينا بلا علة ظاهرة.. وأما إذا مــا حكت على محك التجارب طائفة منهم مثل ما روي عن هاروت وماروت، خرجوا أقبح من بهـرج، ولا تظنن أني أعتقـد في تعبـد الملائكة نوع تقصـير؛ لأنهم شـديدو الإشـفاق والخـوف، لعلمهم بعظمــة الخــالق، لكن طمأنينــة من لم يخطئ تقــوى نفســه، وانزعاج الغائص في الزلل يرقي روحه إلى التراقي) (3)

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه، ومـا ذكرتـه لي بعـده من

(1) الفتوحات المكية، ج 12، ص: 121.

(2) صيد الخاطر (ص: 88)

(3) صيد الخاطر (ص: 89)

تعقيبات ونصوص، أذكـر لـك أن كـل ذلـك الـذي ذكـروه ممـا لا علاقة له بالتزكية والترقيـة، ولا بالسـلوك التحققي ولا التخلقي، ولا بالنفس المطمئنة ولا الراضية، فالنفس المطمئنة والراضـية تنظر إلى أن كل شيء في محله الصحيح الذي يناسبه، لـذلك لا تتجـرأ على التقـديم ولا التـأخير، ولا الرفـع ولا الخفض من دون إذن إلهي صريح، وبطريقته السليمة الصحيحة.

ولذلك حز في نفسي كثيرا ما ذكرته من تلك الأقوال الـتي تفضل البشر على الملائكة؛ أو عكسها تلك التي تفضل الملائكة على البشر.. فهي لم تزد إلا أن رفعت البشر بالتقليل من شأن الملائكــة، أو خفضــت من شــأن الصــالحين لــترفع من شــأن الملائكة.. وكل ذلك إساءة للجميع.

والنفس المطمئنـة هي الـتي تنظـر إلى الصـالحين نظـرة واحـدة؛ فتحبهم جميعـا، وتكـرمهم جميعـا، ولا تفـرق بينهم في ذلك، ثم تكل أمر التفاضل بينهم لله تعالى، إلا إذا ورد التصــريح بشيء من ذلك، فهي تسـلم لـه من دون أن تبحث في دواعيـه، لأن ذلك قد يسيء إلى المفضل عليهم.

ولهذا يذكر الله تعالى من شروط الإيمان الصحيح بالرسـل عليهم السلام عدم التفريق بينهم، كما قال تعـالى: ﴿قُولُـوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَـى وَعِيسَـى وَمَـا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ﴾ (البقـرة: 136)، وقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْـهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَـالُوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا غُفْرَانَـكَ رَبَّنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ﴾ (البقـرة: 285)، وقال: ﴿قُـلْ آمَنَّا بِاللـه وَمَـا أُنْـزِلَ عَلَيْنَـا وَمَـا أُنْـزِلَ عَلَى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ وَالْأَسْـبَاطِ وَمَـا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:84)

وهكــذا الأمــر في المفاضــلة بينهم وبين الملائكــة عليهم السلام، والتي أدت إلى التهوين من أحـد الطـرفين، وهـو خلاف ما أمرنا به من تقديس واحترام وتكريم الجميع.

ولذلك فـإن النفس المطمئنـة تتجـاوز كـل هـذه الشـؤون، لأنها شؤون إلهيـة، ولا علاقـة لهـا بهـا، بـل هي تحـترم الجميـع، وتقدس الجميع، ولا تتجاوز قدرها في البحث عن أشياء لا طاقة

لها بها، ولا دور لها فيها.

بالإضافة إلى أن عالم الحكمة الإلهية يقتضي عدم الاهتمام بـذلك، لأن كـل شـيء في الكـون موضـوع في محلـه الصـحيح، ولذلك لا فاضل ولا مفضول، ولا مميز ولا محتقـر بهـذا الاعتبـار؛ فـالقلادة الذهبيـة في جيـد الحسـناء أفضـل من طـوق الحديـد الثقيل، ولكن طوق الحديد في الخرسانة المسلحة أفضل بكثير من تلك القلادة الذهبية، بل إن القلادة لا تصلح أصـلا للخرسـانة ولا تنفعها بل تضرها.

وهكـذا يقـال في عـوالم الخلـق، فكـل شـيء في محلـه الصحيح بادئ الرأي، ولكن الاختلاف يحـدث بـالخروج من عـالم الحكمة.. وهكـذا يقـال في الإنسـان، فاللـه خلـق﴿الْإِنْسَـانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: 4]، وأعطـاه من المـواهب في التعـرف على حقائق الأسماء ما لم تحر الملائكة عنـه جوابـا، وهـو بتلـك الحقيقة كالملائكة لا يختلف عنهـا، إن لم يكن يفضـلها في بعض تلـك المـواهب الـتي ليسـت لهـا، كمـا أنهـا تفضـله في بعض المواهب التي ليست له.

لكن الإنسان ـ بما وهبه اللـه تعـالى من طاقـات الاختيـار ـ قد يتردى فينزل عن أفق إنسانيته السـامي إلى درك دون درك الحيوان والجماد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـاهُ أَسْـفَلَ سَـافِلِينَ﴾ [التين: 5]، وهو في تلك الحالة لا يجوز مفاضلته بـالحيوان، بـل بالجماد، فكيف تجوز مفاضلته بالملائكة الكرام؟

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تقع فيمـا وقـع فيـه أولئـك الذين فضلوا البشر على الملائكـة، وتوهمـوا أن اللـه تعـالى مـا عرض تلـك الأسـماء على الملائكـة، إلا ليـبين فضـل آدم عليهـا؛ فـالأمر ليس كـذلك، لأن فيـه إسـاءة للملائكـة، وأنهم اعترضـوا على الله، ولم يقتنعوا إلا بعد أن فشلوا في المسابقة.

والفهم الصحيح لذلك هو أن الله تعالى لم يعرض الأسـماء على الملائكة عليهم السلام ليتحداهم، بل عرضها لهم ليبين لهم أن آدم عليه السلام قـد زُود من العلـوم مـا يؤهلـه للخلافـة في الأرض.

وهم لم يعرفوا تلك الأسماء التي عرضت عليهم قصورا أو نقصـا، وإنمـا لأنـه لا حاجـة لهم لأن يعرفوهـا، ولهـذا قـالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

وهو يشير إلى أنهم وهبوا من العلوم ما يناسب وظـائفهم،

كما وُهب آدم عليه السلام من العلـوم مـا يناسـب وظيفتـه، فلا تفاضل في هذا ولا تزاحم.

ومثـال ذلـك مثـال شـخص أراد أن يـدرس الطب؛ فهـل يمتحن في العلـــوم المرتبطـــة بـــه، أم يمتحن في الفلـــك والجغرافيا؟

فكذلك الأمر مع آدم عليه السلام والملائكة، فلها من العلم مـا ليس لآدم، ولـه من العلم مـا ليس لهـا، ولهـذا أخـبر ﷺ أن الملائكـة الموكلـة بـالجنين لهـا من العلم بالإنسـان مـا ليس للإنسـان نفسـه، قـال ﷺ: (يـدخُلُ الْمَلَـكُ على النطفـة بعـد مـا تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلةٍ فيقول: يا رب، أشـقى أم سـعيد؟ فيكتبـان، فيقـول: يـا رب أذكـر أم أُنـثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه، ثم تطوى الصحف ولا يـزاد فيها ولا ينقص) (1)

وهذا ما يشير إليـه قولـه تعـالى على لسـان موسـى عليـه السـلام: ﴿رَبُّنَـا الَّذِي أَعْطَى كُـلَّ شَـيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدَى﴾ (طـه: 50)، وهو يـدل على أن اللـه تعـالى إذا خلـق خلقـا أعطـاه من العلوم ما يوفر له أسباب الهداية الخاصة به، والـتي قـد يجهلهـا غيره لعدم حاجته إليها.

وذلك ليس خاصا بالإنسان والملائكة، بل بكـل شـيء، كمـا قال تعالى عن عالم النحل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِـذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًـا وَمِنَ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْـرُجُ مِنْ بُطُونِهَـا شَـرَابٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحـل: 68، 69]، وهـو يـدل على أن علم النحـل بكيفية صنعة العسـل، والثمـار المرتبطـة بهـا، من العلـوم الـتي خص بها النحل، ويجهلها غيره.

وهكذا قال عن الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: 22]، ولم يعاتبـه سـليمان عليـه السـلام على قولـه هـذا، لعلمـه أن لكـل شـيء قدراته الخاصة به.

وهكـذا يقـال عن تعلم موسـى على يـدي الخضـر عليهمـا السلام، لا يدل على فضل الخضـر عليـه.. ذلـك أن لكـل منهمـا علومه الخاصة به.

---

(1) رواه مسلم..

ولذلك؛ فإن الأدب مع الله تعالى ترك ما لا طاقة لنا بــه إلا إذا ورد النص بذلك؛ فيذكر من غير تفصـيل في الأسـباب، لأنهـا قد تؤدي إلى استنقاص أي طرف بغية رفع الطرف الآخر.

وقـد رأيت ذلـك في كتب العقائـد والتزكيـة وغيرهـا؛ فهم عندما يفضلون رسول الله ﷺ على سائر الأنبياء يـأتون بالأمثلـة المختلفة على ذلك، والـتي تهـون من شـأن الأنبيـاء وتنقص من قدرهم.. وهو سوء أدب معهم.. ولو أنهم اكتفوا بأفضلية رسـول الله ﷺ من دون تفصيل لكان ذلك أجدى لهم.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن كـل مـا ذكروه مما لم يرد في النصوص المقدسـة من مـراتب الأوليـاء، وفضل بعضهم على بعض، من العلوم التي لا تنفع، والجهـل بهـا لا يضر.

بــل إن العلم بهــا، وانتشــارها بين العــوام ممــا يضــرهم، ويجعلهم عرضة للمبتزين والمتاجرين والمتلاعبين.. حيث يـدعي من شـاء من لصـوص الـدين أنـه البـدل، أو أنـه الغـوث، أو أنـه القطب، ليتلاعب بعد ذلك بأولئك الذين سلموا أنفسهم له.

والأمر لا يقتصـر على المبـتزين والمتـاجرين، بـل إن بعض الصــالحين أو كثــير منهم، قــد يــرى في الــرؤى والأحلام الــتي يختلـط فيهـا الصـدق بالكـذب، وإلهامـات الملائكـة بوسـاوس الشياطين من يذكر له أنه القطب أو البـدل أو الغـوث؛ فيـذهب بتلك البشارات، وينشرها بين النـاس ليسـتعبده الجـاه المرتبـط بالدين، والذي هو أخطر من الجاه المرتبط بالدنيا.

لذلك أنصحك ـ أيها المريد الصادق ـ بأن تغض طرفــك عن كل ذلك.. فإن شئت أن تعرف منازل الأوليـاء ومـراتبهم؛ فـاقرأ تلــك الآيــات الكريمــة الــتي تصــف المخبــتين وعبــاد الــرحمن وغيرهم، فهي أجدى لك وأنفع.

واعلم أن تلك المراتب التي ذكروها، وغيرها كثير، تصرفك عن نبيـك ﷺ وعن أئمـة الهـدى الـذين أوصـى بهم، والـذين هم أولى بعنايتـك.. فهم لم يـدعوا لأنفسـهم شـيئا، بـل اكتفـوا بـأن يعرضــوا الهــدي الــذي كلفــوا بــه نقيــا صــافيا خالصــا من كــل الشوائب؛ فاقبل هديهم، واحرص على القيم التي مثلوها أحسن تمثيل، ولا تخلط دينك بالخرافة والأساطير؛ فهي مما يبعدك عن ربك، وعن الدين القيم الذي دعا إليه، وأمر به.

الملك والملكوت

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الملك والملكوت وحقيقتهما، والفرق بينهما، وعلاقتها بالنفس المطمئنة ورضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن كلا اللفظين وردا في القرآن الكريم، وفي مواضع تكاد تكون متشابهة، فقد قال الله تعالى عن الملك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: 1]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ [الأنعام: 73]، وقال: ﴿يُسَبِّحُ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن: 1]

وهذه الآيات الكريمة تدل على ملكية الله تعالى لكل شيء، سواء كانت ملكية امتلاك، أم ملكية حكم وتدبير.

ومثل ذلك قال عن الملكوت: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ الله مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 185]، وقال: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: 88، 89]، وهي أيضا تدل على ملكية الله تعالى لكل شيء.

وهما في هذا مثل لفظي الإسلام والإيمان؛ فهما قد يعنيان معنى واحدا، كما قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 35، 36]، وقد يفترقان، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 14]

وبناء على القاعدة التي تذكر أن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى؛ فإن هذا يدل على أن لفظ [الملكوت]، وإن كانت لها نفس دلالة لفظة [الملك] في الغالب إلا أن لها دلالة خاصة في حال كونهما في محل واحد، فهما كما يقال: (إذا

اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا)

ولـذلك؛ فـإن الحكمـاء ذكـروا لكلا اللفظين مواضـعهما الخاصة بهما، وتعارفوا على ذلك، بناء على اصطلاح اصـطلحوه، ولا مشاحة في الاصطلاح؛ فلذلك اعتبروا [عالم الملـك] قاصـرا على العـالم المشـاهد المحسـوس الملمـوس، والـذي يمكن إدراكه بحواسـنا، أو بمـا نصـل إليـه من الوسـائط، وأمـا [عـالم الملكوت]؛ فيقصدون به العوالم الخفيـة والغيبيـة الـتي لا يمكن للحواس أن تدركها.

وتبدأ تلك العوالم الغيبية بصلة الملـك باللـه تعـالى، أي أن من تمكن من رؤية الملكوت عرف ارتباط الخلق بالخالق، وأنـه لا يمكن أن يقـوم الخلـق من دون خـالق.. ولـذلك تصـبح رؤيتـه للأشياء الحسية رؤية ملكوتية، كما عبر عن ذلك بعض الحكمـاء، فقال: (ملكوت الشيء: ما هو الشيء به قائم)(1)

وقال آخر: (الملكوت: باطن من الكون، لا تدركه الحـواس الخمس، ولا يقبل القسمة والتجزؤ، لأنه ليس بجسم ولا عرض، بل جوهر قائم بقيّوميّة الحق تعالى)(2)

وقـال آخـر(الملكـوت مـا يـدرك بالبصـيرة والعلم، كمـا أن الملك ما يدرك بالبصر والوهم.. أو تقول: الملكوت مـدرك أهـل الجمع، والملك مدرك أهل الفـرق.. أو تقـول: الملـك مـا ظهـر، والملكوت ما بطن.. فـالملكوت مـدرك أهـل الشـهود والعيـان، والملك مدرك أهل الدليل والبرهان)(3)

وقال: (الملك: ما ظهر من حس الكائنات، والملكـوت: مـا بطن فيها من أسرار المعاني، والجبروت: البحـر المحيـط الـذي تدفق منه الحس والمعنى)(4)

وقـال: (عـالم الملكـوت: هـو محـل اسـتقرار الصـفات، كالقـدرة والإرادة والعلم والحيـاة.. فهـو أشـبه بـالأم في تربيـة الولد قبل الظهور)(5)

وقـال آخـر: (عـالم الملكـوت: عـالم المعـاني والغيب، والارتقاء إليه من عالم الملك)(6)

1() إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 7 ص 442.
2() نجم الدين داية الرازي، منار السائرين ومطار الطائرين، ص 8.
3() أحمد بن عجيبة، شرح تصلية القطب ابن مشيش، ص 31.
4() أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 33.
5() أحمد بن عجيبة، الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، ج 1 ص 110.
6() الفتوحات المكية، ج 2 ص 129.

وقال آخر: (الملكوت: هو حضرة الأرواح، الـتي هي مظهـر صفات الجمال والجلال، فكل ما يدرك بالعقـل النـوراني والفهم فهو من هذه الحضرة)(1)

وقال آخـر: (الملكـوت هـو عـالم الغيب المختص بـالأرواح والنفوس، ويقال له: عالم الأنوار القدسـية، والأسـرار الأنسـية، وعالم الأمر، وحضرة القدس)(2)

ويشـمل هـذا العـالم كـل مـا لا يمكن إدراكـه بـالحواس كالملائكة وغيرهـا من المخلوقـات الـتي تعيش معنـا، ولكنـا مـع ذلك لا نراها لافتقادنا للمدارك الخاصة بها.

وهو ليس خاصا فقط بتلك الغيبيات فقط، بل بكـل شـيء، فالصلاة مثلا لها صورة ملكية، هي تلك الحركات التي نقوم بها، أو الآيـات الـتي نقرؤهـا، ولهـا صـورة ملكوتيـة، وهي حقيقتهـا، والتي تكون خفية عنا، لكنها ظاهرة للملائكـة عليهم السـلام، أو من شفّت أرواحهم، وكانت لهم الفراسة والتوسـم، الـتي أشـار إليها قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِلْمُتَوَسِّـمِينَ﴾ [الحجـر: 75]، وقوله ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله) (3)

ولذلك ورد في القرآن الكـريم الدلالـة على إمكانيـة رؤيـة هذا النوع من العـوالم إذا مـا تـوفر الاسـتعداد لـذلك، كمـا قـال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: 75]

بـل إن القـرآن الكـريم يشـير إلى أن ذلـك ليس خاصـا بالرسـل عليهم السـلام، وإنمـا هـو عـام لكـل من طهـر نفسـه وزكاها، وتخلى عن الغفلة التي تحجبها عن رؤية هـذا النـوع من العوالم، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِـكَ مَـا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: 19]، فهذه الآية الكريمة تـبين أن الإنسـان بعد موته، أو حين موته تنكشف له الحقائق، ويتجلى له مـا كـان غافلا عنه، ذلك أنه لم يكن يرى سوى عـالم الملـك، وغـافلا عن عالم الملكوت، وبعد الموت يظهر له ما كان خافيا عنه من هـذا العالم.

ولهذا؛ فـإن رؤيـة عـالم الملكـوت لا تسـتدعي سـوى رفـع

---

(1) محمـود أبـو الشـامات اليشـرطي، الإلهامـات الإلهيـة على الوظيفـة الشـاذلية اليشرطية، ص 17.

(2) قطب الدين البكري الدمشقي، شرح ورد السَّحَر الكبير، ص 529، 530.

(3) رواه الترمذي (3127)

التعلق عن عالم الملك، لأنـه لا يمكن أن تجتمـع الرؤيتـان معـا، مثلما لا تجتمع الرؤى التي يراها النائم في أحلامـه مـع اليقظـة، ولهـذا كـانت بعض أنـواع الأحلام نوعـا من التطلـع إلى عـالم الملكوت، ولهذا قد نرى المستقبل، أو ما خفي من الأمور.

ولهذا اعتبر القرآن الكريم النوم نوعا من الموت، فقال: ﴿ اللـــه يَتَــوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَـــا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَـــا فَيُمْسِـكُ الَّتِي قَضَـى عَلَيْهَـا الْمَـوْتَ وَيُرْسِـلُ الْأُخْـرَى إلى أَجَـلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 42]

وهكـذا يقـر أكـثر الفلاسـفة والحكمـاء على أن هنـاك من يستطيع أن يدخل في نوع من الموت الاختياري، والذي يستطيع من خلاله أن يرى من الأشياء ما لا يراه غيره، وهو ما يعبر عنـه بالكشف والمشاهدة، أو كما أشار إليه قوله تعـالى: ﴿لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَـاءَكَ فَبَصَـرُكَ الْيَـوْمَ حَدِيـدٌ﴾ [ق: 22]

فالآيـة الكريمـة تشـير إلى أن الحجـاب بين عـالم الملـك والملكوت ليس الجسـد، وإنمـا الغفلـة، ولـذلك يمكن لمن رفـع الغفلة عن قلبه أن يـرى الحقـائق في الـدنيا قبـل الآخـرة، كمـا أشــار إلى ذلــك مــا ورد في الحــديث عن الحــارث بن مالــك الانصـاري، قـال: مـررت بـالنبي ﷺ فقـال: (كيـف أصـبحت يـا حارث؟) قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: (انظر ما تقـول؟ فـإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟) فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، واطمـأن نهـاري، وكـأني أنظـر إلى عرش ربي بـارزا، وكـأني أنظـر إلى أهـل الجنـة يـتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: (يا حارث عرفت فالزم) [1]

وكل هذا يدل على ما أشارت إليه النصـوص المقدسـة من اختلاط الـدنيا بـالآخرة، أو الملـك بـالملكوت، كمـا قـال تعـالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِــرُونَ (85) فَلَـوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْـرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: 83 - 87]

فالآيات الكريمـة تشـير إلى تلـك اللحظـة المفصـلية الـتي يكتشف فيها الإنسان الحقائق التي كان غافلا عنها، وهو ما يـدل

1() مصـنف ابن أبي شـيبة 6/170 ح(30425) المعجم الكبـير للطـبراني 3/266 ح(3367)

على أن عالم الآخـر مختلـط بعـالم الـدنيا، وأنـه ليس من فـرق بينهما سوى في أدوات الإدراك التي يقتضيها التكليف.

وهـو مـا يشـير إليـه قولـه تعـالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 6،ـ 7]، فالآيـة الكريمـة تشـير إلى أن الغفلـة هي الحجاب الذي حـال بين الإنسـان وبين رؤيـة عـالم الآخـرة، وهي التي جعلتـه يكتفي بظـاهر الحيـاة الـدنيا، دون البحث عن باطنها، والذي تتشكل منه الآخرة.

وقد قال بعض الحكماء مبينا دلالة الآيـة الكريمـة على هـذا المعنى: (يمكن الاستنتاج من جعل ظاهر الحياة الدنيا في الآيــة الاولى في مقابل الآخرة أنّ الآخرة هي بـاطن الـدنيا وحقيقتهـا، وأنّ الحياة الدنيا لها ظاهر وباطن، وذلك بقرينة تقابلهمـا وكـون أحدهما قسيماً للآخر)(1)

وهكذا استنتج هذا المعنى من قولـه تعـالى: ﴿اعْلَمُـوا أَنَّمَـا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَـاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَـاثُرٌ فِي الْأَمْـوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْـفَرًّا ثُمَّ يَكُـونُ حُطَامًــا وَفِي الْآخِــرَةِ عَــذَابٌ شَــدِيدٌ وَمَغْفِــرَةٌ مِنَ اللــه وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: 20]، ذلــك أنــه (من الممكن أن تكـون عبـارة [وَفِي الْآخِـرَةِ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله وَرِضْوَانٌ] الواردة في الآية معطوفة على لفظ لعب؛ أي أنّ الحياة الدنيا هي في الآخرة عذاب شـديد ومغفـرة من اللــه ورضــوان؛ فالحيــاة الــدنيا ظاهرهــا تلكم المــراتب الخمس: لهو، ولعب، وزينة، وتفـاخر بينكم، وتكـاثر في الأمـوال والأولاد، وباطنهـا ــ أي الآخـرة ــ عـذاب شـديد وغفـران الـربّ الودود ورضوانه)(2)

ومثله قال آخر مستدلا بقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَـةٌ بِالْكَـافِرِينَ﴾ [العنكبـوت: 54]: (إنّ الحيّـات والعقـارب، بـل والنـيران الـتي تظهـر في القـبر والقيامـة، هي بعينها الأعمال القبيحة والأخلاق الذميمة والعقائـد الباطلـة الـتي ظهرت في هذه النشأة بهـذه الصـورة وتجلببت بهـذه الجلابيب، كمـا أنّ الـروح والريحـان والحـور والثمـار هي الأخلاق الزكيـة والأعمال الصالحة والاعتقادات الحقّة التي برزت في هذا العالم

1() معرفة المعاد، ج1، ص: 40.
2() المرجع السابق، ج1، ص: 40.

بهـذا الـزي وتسـمَّت بهـذا الاسـم، إذ الحقيقـة الواحـدة تختلـف صورها باختلاف الأماكن، فتحلّى في كلّ مـوطن بحليـة، وتـزيّى في كلّ نشأة بزيّ، وقـالوا: إنّ اسـم الفاعـل في قولـه تعـالى: ﴿يَسْـــتَعْجِلُونَكَ بِالْعَـــذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَـــةٌ بِالْكَـــافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 54] ليس بمعنى الاستقبال بـأن يكـون المـراد أنّهـا ستحيط بهم في النشأة الأخرى)(1)

وهكذا اتفق أكثر الحكماء على إمكانية أن يفتح الله بصـائر الأوليـاء لـيريهم حقـائق ذلـك العـالم الـذي لا تـراه أبصـارهم الحسية، وقد عبر بعضهم عن ذلك بقوله: (وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات النـاس وضـمائرهم يخـرج عن الحصر.. والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلـك من نفسـه، ومن أنكر الأصل أنكر التفصـيل والـدليل القـاطع الـذي لا يقـدر أحد على جحده أمران: أحـدهما عجـائب الرؤيـا الصـادقة، فإنـه ينكشف بها الغيب، وإذا جـاز ذلـك في النـوم فلا يسـتحيل أيضـا في اليقظـة، فلم يفـارق النـوم اليقظـة إلا في ركـود الحـواس، وعــدم اشــتغالها بالمحسوســات؛ فكم من مســتيقظ غــائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه، والثـاني إخبـار رسـول اللـه ﷺ عن الغيب وأمور في المستقبل كمـا اشـتمل عليـه القـرآن وإذا جاز ذلك للنبي ﷺ جاز لغيره إذ النبي عبارة عن شخص كوشـف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق، فلا يسـتحيل أن يكـون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا)(2)

وبنــاء على هــذا ذكــر إمكانيــة الاطلاع على كلا العــالمين الظـاهر والبـاطن، فقـال: (فمن آمن بالأنبيـاء وصـدق بالرؤيـا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بـأن القلب لـه بابـان: بـاب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى الملكـوت من داخـل القلب وهـو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فـإذا أقربهمـا جميعـا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفــة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيل إليه فهذا ما ينبه على حقيقة مــا ذكرنــاه من عجيب تـردد القلب بين عـالم الشـهادة وعـالم الملكوت) (3)

1() نقلا عن: بحار الأنوار: 7 / 229.
2() إحياء علوم الدين (3/ 25)
3() المرجع السابق، (3/ 25)

ولعل ما ذكره كل هؤلاء يفسر بدقة ما ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله قال: (كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح منتنة، فقال: (أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين)[4]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن ترحل من الملك إلى الملكوت، لتزداد إيمانا ويقينا، وترى من صنع الله وكماله وجماله ما لا يمكن لهذا العالم المحدود الذي تراه أن يعوضه، وكيف يعوضه، وهو لا يساوي أمامه شيئا.

ذلك أن الرؤية الملكوتية مقارنة بالرؤية الملكية تشبه رؤية الخبراء العلماء في المجالات المختلفة للكون مقارنة برؤية العوام البسطاء..

فهل يمكن للعامي البسيط أن يدرك ضخامة الكون التي يدركها الفلكي.. أو يدرك أسرار الذرة التي يدركها الكيميائي أو الفيزيائي.. فهكذا الأمر في التطلع إلى عوالم الملكوت؛ فهي رؤية أوسع بكثير من رؤى كل أصحاب العلوم الظاهرة.

4() مسند أحمد 23/97 ح(14784 البخاري في الأدب المفرد (732) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (189)

البرازخ والنشآت

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن البرازخ والنشآت التي وردت الإشارة إليها في النصوص المقدسة، وعلاقتها بالأسماء الحسنى، وعلاقتها بعد ذلك بالنفس المطمئنة ورضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن من مقتضيات ربوبية الله تعالى لعباده وتربيته لهم أن يمروا على مراحل مختلفة تُصقل بها نفوسهم، وتهذب، لتصبح مستعدة لما يفاض عليها من الكمالات.

وذلك يشبه الطفل الصغير الذي يبدأ في طعامه بلبن أمه، لأنه لا طاقة له بغيره من الأطعمة، ثم يتدرج إلى أن يصبح قادرا على هضم غيره..

وهكذا في الإدراك أخبر الله تعالى عن تلك القدرات التي وهبت للإنسان حتى يتمكن بها من فهم ما يجري حوله بطريقة تصاعدية، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78]

وبناء على هذا أخبرنا الله تعالى أن خلق الإنسان مر بأطوار ونشآت متعددة، وهو الآن في نشأة منها، وقد بقيت له نشآت غيرها، قال تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لله وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: 13، 14]

وهذه لا تعني ما يذكره أولئك الغافلون الذين توهموا أن الإنسان نشأ من غيره من الكائنات، فذلك يتنافى مع القرآن الكريم، فالله تعالى يذكر أن لكل حيوان عالمه الخاص به، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: 38]

وإنما تقصد الآية الكريمة تلك المراحل التي مر بها الإنسان، والتي كان منها تلك المرحلة التي عبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

الْمُبْطِلُونَ [الأعراف: 172، 173]

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يخبر الله تعالى عن نشأة من نشآت الإنسان، زود فيها بمعارف خاصة، وهي تلك المعارف التي تجعله يوقن بالبديهيات التي تدله على وجود الله ووحدانيته وتجعله مستعدا لمعرفة ربه.

ولهذا يرد في القرآن الكريم لفظ الذكر في التعرف على الله، للدلالة على أن دور الرسل عليهم الصلاة والسلام تذكير العباد بما جرى لهم من تعريف الله تعالى لهم به، وأنه قد أخذ عليهم الميثاق بذلك.

ومن تلك النشآت هذه النشأة، وهي أخطرها، ذلك أن الإنسان زُود فيها بطاقات كثيرة، وبحريّة عظيمة، تجعله يختار ما يتناسب مع رغبته وهواه، وبناء على تلك الاختيارات يكون مصير نشآته التالية.

وبذلك؛ فإن النشآت السابقة للإنسان، قبل هذه الدنيا كان الغرض منها تأهيله لها، وللتكاليف المناطة بها.. وما عدا هذه النشأة نتيجة لها، وثمرة من ثمارها.

ويلي هذه النشأة تلك التي سماها القرآن الكريم برزخا، وبين بدايته ونهايته، فقال ذاكرا بدايته: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [المؤمنون: 99، 100]

فهاتان الآيتان الكريمتان تذكران أن الإنسان عندما يأتيه الموت، أي في اللحظة التي تنزع فيها روحه، يشعر بالمصير الذي سيصير إليه.. ولذلك يطلب الرجوع.

ثم ذكر بعدها النهاية التي ينتهي إليها، فقال: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ [المؤمنون: 101]، وهي النفخ في الصور، الذي يكون بمثابة دق جرس نهاية الدنيا بملكها وملكوتها.

وهكذا ذكر في سورة الواقعة بعض المشاهد التي يراها الإنسان في ساعة احتضاره، وقبل موته، فقال: فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ

الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (92) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96) [الواقعة: 83 ـ 96]

وبناء على كون العدالة الإلهية، وتربية الله لعباده، ترتبط بكل النشآت ابتداء من عالم الذر أو ما قبلها، أو ما بعدها مما حجب عنا علمه، فإن للموتى في البرزخ، سواء قبروا، أو لم يقبروا، مراتب كثيرة، ربما تساوي في عددها عدد البشر أنفسهم، ذلك أنه من المستبعد أن يتساوى اثنان من البشر في جميع ما فعلوه.

وأول ما يكتشفه الإنسان في تلك المرحلة إيمانه، وهل كان إيمانا حقيقيا راسخا، أم كان مجرد ألفاظ يرددها، ولذلك ورد في النصوص المقدسة الكثيرة ما يدل على ذلك الاختبار الإلهي الذي يكشف عن حقيقة الإيمان، بل إن القرآن الكريم أشار إليه في قوله تعالى: يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ [إبراهيم: 27]

وقد ورد في تفسيرها عن رسول الله ﷺ أنه قال: (المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فذلك قوله: يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)[1]

وفي حديث آخر توضيح أكثر تفصيلا، فقد قال ﷺ: (فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره)[2]

وطبعا هذا الحديث ليس عاما لكل المؤمنين، ذلك أن منهم من يعذب، وإن كان مؤمنا بسبب معاصيه، أما الذي لم يكن

1() صحيح البخاري برقم (4699)
2() رواه أحمد (4/287) وسنن أبي داود برقم (4753) وسنن النسائي برقم (4/78) وسنن ابن ماجة برقم (1548)

صادقا في إيمانه، أو كـان إيمانـه مجـرد ألفـاظ يرددهـا دون أن يكون لها أي معنى في نفسه، فإنه يعجــز عن الإجابــة، أو يجيب إجابات خاطئة، كما وضع ذلك قوله ﷺ: (ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هـاه، لا أدري. فيقـولان لـه: مـا هـذا الرجـل الذي بعث فيكم؟ فيقـول: هـاه هـاه، لا أدري. فينـادي منـاد من السماء: أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابـا إلى النـار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيــه أضلاعه) [1]

وهذا لا يعني اقتصار الامتحان على هـذه الأسـئلة، ذلـك أن البرزخ مدرســة تربويــة، والقـائمون فيـه من الملائكـة يقومـون بالدورين جميعا، دور الامتحان لتبلى السرائر، وتكشف الحقائق، ودور التربية والتوجيه من خلال ما يحصل فيــه من أنــواع النعيم أو العذاب، والذي لا يعدو أن يكون صورا مجسمة وحية للأعمال التي قام بها صاحبها..

ومن النصوص التي تدل على أن هنـاك أسـئلة أخـرى غـير تلـك الأسـئلة، مـا نص عليـه قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَـالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَـالُوا كُنَّا مُسْتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَــالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللــه وَاسِــعَةً فَتُهَــاجِرُوا فِيهَــا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى الله أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللـه عَفُـوًّا غَفُـورًا﴾ [النساء: 97 - 99]

ومن الروايات التي تدل على أن هنـاك أسـئلة أخـرى غـير تلك الأسئلة، ما رواه عبد الله بن سلام قال: سألت رسول اللـه ﷺ عن أوّل ملك يدخل في القبر على الميّت قبل منكـر ونكـير، فقال رسول الله ﷺ: ملك يتلألأ وجهه كالشمس اسـمه: رومـان يــدخل على الميّت، ثمّ يقــول لــه: اكتب مــا عملت من حســنة وسيّئة، فيقول: بـأيّ شـيء أكتب؟ أين قلمي ودواتي ومـدادي؟ فيقول: ريقك مـدادك وقلمـك إصـبعك، فيقـول: على أيّ شـيء أكتب وليس معي صحيفة؟ قال: صحيفتك كفنك فاكتب، فيكتب ما عمله في الدنيا خيرا، وإذا بلغ سيّئاته يستحي منه، فيقول لـه

1() رواه أحمد (4/287) وسنن أبي داود برقم (4753) وسنن النسائي برقم (4/78) وسنن ابن ماجة برقم (1548)

الملك: يا خاطئ ما تستحي من خالقك حين عملته في الدنيا فتستحي الآن، فيرفع الملك العمود ليضربه، فيقول: ارفع عنّي حتّى أكتبها، فيكتب فيها جميع حسناته، وسيئاته ثمّ يأمره أن يطوي ويختم، فيقول: بأيّ شيء أختم؟ وليس معي خاتم، فيقول: اختمها بظفرك وعلّقها في عنقك إلى يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [الإسراء: 13])[1]

وهذا الحديث يصور ما يحصل بصورة تقريبية، لأنه لا يمكن لمن في هذا العالم أن يعرف حقيقة ما يجري في ذلك العالم بكل دقة، والغرض الذي سقناه من أجله هو في قول الملك للإنسان: (يا خاطئ ما تستحي من خالقك حين عملته في الدنيا فتستحي الآن)

وهذه الكتابة تشبه ما يطالب به المحققون في المباحث المجرمين من كتابة جرائمهم، وتوضيحها بكل دقة، ليكون الاعتراف مقدمة للجزاء والعقوبة.

ومن الأحاديث الواردة في الاختبارات المرتبطة بعالم البرزخ قوله ﷺ: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء مَلَكٌ شديد الإنتهار فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل)[2]

ولهذا نرى الأحاديث المرتبطة بهذه الاختبارات تذكر ملائكة آخرين غير منكر ونكير.. وهو يدل على أن لكل مرحلة الملائكة المكلفين بها، مثلما يحصل في الدنيا، من توكيل كل علم إلى أساتذته المختصين فيه.

ومن تلك النشآت النشأة التي سماها القرآن الكريم [النشأة الآخرة]، فقال: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ [النجم: 47]، وهي النشأة التي يصل فيها الإنسان إلى قدرات كبيرة لم تكن متاحة له؛ فلذلك يتمكن من التعرف على ما لم يكن يتعرف عليه في النشآت السابقة، وفيها يتأكد من كل أعماله بعد أن تعرض على الموازين والحساب، ليعرف مدى عدالة الله تعالى ورحمته وكماله، وأنه هو الملوم على كل شيء وقع فيه.

وقد أخبر الله تعالى عن التغيرات الكبيرة التي تحصل للعالم في تلك النشأة، فقال: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

1() الشيرازي، رياض السالكين، ج 2، ص 66 - 67..
2() رواه أحمد(3/346)

وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [إبراهيم: 48]

وقد علق عليها بعض الحكماء فقال: (إن لجميع الموجودات الطبيعية حركة جوهرية ذاتية، وتحولاً من صورة إلى صورة حتى يقع لها الرجوع إلى الله بعد صيرورتها غير نفسها، بحسب الصورة السابقة، وتحولها إلى نشأة أخرى، ولو كانت هذه الطبائع ثابتة الجوهرية مستمرة الهوية، لم تنتقل هذه الدار إلى دار الآخرة، ولم تتبدل الأرض غير الأرض، ولا السماوات غير السماوات)[1]

وفي تلك النشأة تكون الحياة الحقيقية، لا الحياة الموهومة التي تكون في الدنيا، كما قال تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [العنكبوت: 64]

وقد أخبر القرآن الكريم أن الحياة في تلك النشأة ـ وقبلها في البرزخ ـ ستتشكل بحسب الأعمال والرغبات التي بنيت عليها نفوس أصحابها، قال تعالى: الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [الأعراف: 51]

وبناء على هذا، فإن كل المواقف التي ذُكرت في النصوص المقدسة حول هذه النشأة لا يقصد منها سوى تمييز الأصناف بعضها على بعض، بحيث ينزل كل صنف المحل المناسب لطبيعته.

أما آخر النشآت، وأعظمها خطرا، فهي تلك التي سماها القرآن الكريم [دار القرار]، كما حكى الله تعالى عن مؤمن آل فرعون قوله: يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [غافر: 39]

وهي الدار التي يستقر فيها الإنسان بعد رحلته الطويلة في النشآت المختلفة.

وتسمى كذلك [يوم الخلود]، كما قال تعالى: ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ [ق: 34]

وذلك لا يعني الاستقرار والتكرار الذي لا يستفيد منه صاحبه شيئا، وإنما تعني أن الإنسان في تلك الدار أصبح أهلا لتلقي كل الدروس، بعد أن توفرت لديه المدارك التي تسمح بذلك.

1() أسرار الآيات، ص86.

وبذلك يمكن تقسيم النشآت إلى ثلاثة أقسام:

أما أولاها؛ فهي بمثابة المرحلة الابتدائية للإنسان، يؤهل فيها، لخوض مرحلة عالم التكليف.

وأما الثانية؛ فهي تلك المرحلة التي يبدأ فيها تكليفه وتبدأ فيها الامتحانات التي عليه أن يجيب عليها، ليحدد المصير الذي سيصير إليه.

وأما الثالثة؛ فهي المرحلة التي يحصد فيها الإنسان ما كان قد حرثه في مرحلة التكليف.

وقد أشارت النصوص المقدسة إلى أن عدالة الله تعالى ورحمته بعباده اقتضت ألا يروا في المرحلة الثالثة إلا ما أنجزوه في مرحلة التكليف، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ الله وَغَرَّكُمْ بِالله الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: 12 - 14]

فهذه الآيات الكريمة تبين أن نور المؤمنين يسعى أمامهم وبين أيديهم، ليضيء لهم الظلمات التي تملأ ذلك الموقف، كما تبين أن مبدأ اكتساب ذلك النور كان في الدنيا، وبالعمل الصالح، ولهذا يطلبون من المنافقين العودة للدنيا لاكتساب ذلك النور.. وهو يدل على أن نفس ذلك العمل تحول إلى ذلك النور.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: 34، 35]، والآية صريحة في أن الذهب والفضة يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباه المكنزين وجلودهم وظهورهم، كما أنها صريحة في أن النار نفس ما اكتنزوه في النشأة الأولى، فكأن للكنز ظهورين: ظهورا بصورة الفلز وآخر بصورة النار المكوية، وهذا يدل على أن لكل عمل من خير وشر ظهورين ووجودين حسب

اختلاف النشآت.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلله مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180]، فهذه الآية الكريمة تبين أن ما كان يبخل به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما يظهر في النشأة الأخرى بهيئة سلسلة من نار تُطوِّق العنق وتلتف حوله، وتقحمه النار.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: 16]، فالآية الكريمة تدل على أن نفس العمل يؤتى به يوم القيامة، فيؤتى بالصلاة والزكاة بثوبهما المناسب للنشأة الأخروية، وهكذا الحال في الأعمال غير الصالحة.

وغيرها من الآيات الكريمة، وما يفسرها من الأحاديث النبوية، والروايات الواردة عن أئمة الهدى، فاحرص ــ أيها المريد الصادق ـ في هذه النشأة على أن تختار لنفسك أجمل المراتب في النشآت الأخرى، حتى لا تصير هذه الأيام المعدودات التي تعيش فيها في هذه الدنيا ثقلا عليك، وألما دائما متواصلا، تظل حسرتك عليه أبد الآباد.

ولا ينجيك من ذلك إلا اتباع رسولك الذي وكل الله تعالى إليه خلاصك، فأمسك بيده، وبيد ورثته الذين كلفك باتباعهم، وإياك وأن تتبع سبل الدجالين والخراصين والكاذبين؛ فتصيح يوم القيامة مع أولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: 27 - 29]

الظلمات والنور

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الظلمات والنور، وحقيقتهما، وسر ذكر النصوص المقدسة الكثير لهما، وعن علاقتهما بالنفس المطمئنة ورضاها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن كل رحلة السالك إلى الله هي رحلة مرتبطة باجتثاث الظلمات، واستبدالها بالأنوار، ولذلك كان الترقي مساويا للتنور، وكان التدني مساويا للانغماس في الظلمات.

ولذلك كانت علامة النفس المطمئنة امتلاؤها بالأنوار، وكان رضاها هو ما أتاحت لها تلك الأنوار من معاينة ما لم تكن تعاينه، وتذوق ما لم تكن تذوقه.

ولهذا اعتبر الله تعالى انشراح الصدر بالإيمان بسبب امتلائه بالأنوار، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الزمر: 22]

وأخبر رسول الله ﷺ عن تأثير الأنوار في القلب، فقال: (إذا دخل النور القلب، انفسح وانشرح)، قالوا فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: (الإنابة إلى دار الخلود، والتجاني عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله) [1]

وإن شئت تقريبا لهذا ـ أيها المريد الصادق ـ فتوهم نفسك قد ذهبت إلى قصر مهيب فيه من كل ألوان الزينة، أو ذهبت إلى جنة فيحاء فيها من كل ألوان الأزهار والثمار.. لكن الظلمة كانت مطبقة، بحيث لا يمكن رؤية شيء.. فهل يمكن التنعم بذلك القصر، أو بتلك الجنان، أم أنها تصبح مشابهة للصحارى والفيافي الخالية من كل زينة، والممتلئة بكل وحشة؟

لكن الأمر يتغير تماما بعد إضاءة القصر والجنان.. وبقدر تلك الإضاءة يبدو جمال الأشياء الذي كان مخبأ في الظلمات، والذي كان حينها أشبه بالعدم منه بالوجود.

ولذلك؛ فإن ذلك النور الحسي البسيط هو الذي مكن المدارك الحسية من رؤية الأشياء، والتمييز بينها، والتمتع بما

1() البيهقي في الأسماء والصفات (1 / 258) الطبري في تفسيره (12 / 101 رقم 13856)

فيها من جمال.. ولو لم يكن ذلك النور، لما كان هناك أي معنى للعين، فواسطة رؤيتها للأشياء هي تلك الأنوار التي أتاحتها لها.

ولو لم تكن تلك الأنوار والعين التي تشاهدها لكان ذلك القصر أو تلك الجنان معدوما في نظرها، أو ميتا لا حياة له.

ولهذا قرن الله تعالى بين النور والظلمات، والرؤية والعمى، والحياة والموت، والظل والحرور، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 19 - 22]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: 16]

وبذلك فإن النور هو الواسطة التي من خلالها يمكن للمدارك التي وهبت للإنسان أن تؤدي وظائفها.. سواء كانت مدارك حسية ظاهرية، أو مدارك وجدانية باطنية.

وكما أن للمدارك الحسية الظاهرية أنوارها الخاصة بها، والتي تهتدي بها إلى الموجودات الغليظة الحسية؛ فكذلك للمدارك الباطنية أنوارها الخاصة بها، والتي تهتدي بها إلى الموجودة اللطيفة المعنوية.

ولهذا كانت رحلة السالك إلى الله هي رحلة إنارة لبصيرته، لتتمكن من رؤية الحقائق رأي العين، لأنه لا يحصل اليقين إلا بذلك.

وبما أن السالك لا يملك إلا مداركه، ولا قدرة له على توفير الأنوار؛ فإن دوره في سلوكه قاصر على توفير القابلية لبصيرته لمشاهدة الأنوار، وآثارها على الكائنات.. وهو يشبه في ذلك من يزيل الغشاوة عن عينيه حتى تتمكن عينه من رؤية الأشياء كما هي، لا كما يتوهمها.

ولهذا أخبر الله تعالى عن رحمته بعباده المتواضعين المخبتين المستعدين للسلوك إليه بأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]

وهذه الآيات الكريمة تعني أن الله تعالى بلطفه بعباده

يوفر لهم الأنوار المناسبة لبصائرهم لترى الحقائق، حتى لا تقع في جحودها، أو تتسرب إليها الأوهام التي تسيء إليها.

ومن تلك الأنوار التي وفرها الله تعالى لعباده، ليخرجهم من ظلمات الأوهام والدجل والجدل أنوار الهداية التي أرسلها إليهم عبر أنبيائه وكتبه، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 5]

وقال عن رسول الله ﷺ وما جاء به من القرآن الكريم: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 15، 16]

وأخبر عن دور القرآن الكريم في توفير الأنوار للمؤمنين ليبصروا الحقائق، فقال:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَإِنَّ الله بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: 9]، وقال: ﴿فَاتَّقُوا الله يَاأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ الله مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ﴾ [الطلاق: 10، 11]

وبذلك فإن فضل الله تعالى على عباده بتوفير ما يحتاجونه من أنوار الهداية شامل لهم جميعا، لكن الظالمين منهم هم الذين راحوا يضعون الغشاوات على بصائرهم حتى لا يبصروا الأنوار، ولذلك كانوا ظالمين لأنفسهم، مستحقين لما حصل لهم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: 39]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]

وأخبر عن المؤمنين الذين لم يستكبروا عن أنوار ربهم، وإنما انفعلوا لها، وأبصروا بها، حتى خرجوا بها من ظلمات الموت إلى أنوار الحياة، قال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ

وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُـهُ فِي الظُّلُمَـاتِ لَيْسَ بِخَـارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 122]

ولهـذا؛ فـإن المؤمـنين الـذين امتلأوا بـالأنوار في الـدنيا، يطلبون من الذين قصروا في التماس الأنوار في الدنيا بـالعودة إليها لشحن أنفسهم منها، قال تعـالى: يَـوْمَ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيـلَ ارْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا [الحديد: 13]

ولهذا يخبر الله تعالى أن نوره متسع لكـل شـيء.. ولكنـه مع اتساعه لا يمكن رؤيته لمن أغلق عينيه، أو وضع الحجب بينه وبين رؤية نور ربه، قال تعـالى: اللـه نُـورُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْـبَاحٌ الْمِصْـبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيْتُونَـةٍ لَا شَـرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُـورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْـدِي اللـه لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ وَيَضْـرِبُ اللـه الْأَمْثَـالَ لِلنَّاسِ وَاللـه بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [النور: 35]

ولـذلك، فـإن كـل مراحـل السـلوك إلى اللـه عبـارة عن اجتثاث للظلمات، واستزادة من الأنوار.. فكلما ازداد النور كلمـا ازدادت المعرفة، وظهرت الأشياء بصورتها الحقيقية التي كـانت محجوبة عنها بسبب الظلمات.. وكلما ازدادت المعرفـة ظهـرت آثارها في النفس عبر القيم الطيبة الـتي تتـنزل عليهـا، وتظهـر بها، وتترقى من خلالها.

وقد أشار إلى ذلك الإمام الصادق، فقال: (الأنوار مختلفـة: أولها نور حفظ القلب، ثم نور الخـوف، ثم نـور الرجـاء، ثم نـور التذكر، ثم نور النظر بنـور العلم، ثم نـور الحيـاء، ثم نـور حلاوة الإيمان، ثم نور الإسلام، ثم نور الإحسان، ثم نور النعمة، ثم نور الفضل، ثم نـور الآلاء، ثم نـور الكـرم، ثم نـور العطـف، ثم نـور القلب، ثم نور الإحاطة، ثم نور الهيبـة، ثم نـور الحـيرة، ثم نـور الحياة، ثم نور الأنس، ثم نور الاسـتقامة، ثم نـور الاسـتكانة، ثم نور الطمأنينة، ثم نور العظمة، ثم نور الجمال، ثم نـور القـدرة، ثم نــور الجلال، ثم نــور الألوهيــة، ثم نــور الوحدانيــة، ثم نــور الفردانية، ثم نور الأبدية، ثم نور السرمدية، ثم نـور الديموميـة، ثم نور الأزلية، ثم نـور البقـاء، ثم نـور الكليـة، ثم نـور الهويـة.. ولكل واحد من هذه الأنوار أهل وله حال ومحل، وكلها من أنوار الحق الـتي ذكـر اللـه تعـالى في قولـه: اللـه نُـورُ السَّـمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ، ولكل عبد من عبيـده مشـرب من نـور هـذه الأنـوار، وربما كان له حظ من نورين أو ثلاثة.. ولن تتم هذه الأنوار لأحد إلا للمصطفى، لأنه القائم مع الله تعالى بشرط تصحيح العبودية والمحبة. فهو نور وهو من ربه على نور)[1]

وقد عبر بعض الحكماء عن حاجة السالك في كـل مراحـل سـيره إلى الأنـوار، وعـدم اسـتطاعته القيـام بـأي حركـة في التزكية والترقية من دونها، فقال: (اهتدى الراحلون إليـه بـأنوار التّوجّه، والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار، وهؤلاء الأنوار لهم لأنهم للّه لا لشي ء دونه)

وهو يقصد بأنوار التوجـه تلـك المجاهـدات الـتي يقـوم بهـا السالك أثناء سيره التحققي والتخلقي.. ويقصد بأنوار المواجهة تلك المكافـآت الإلهيـة للصـادقين من عبـاده، والـتي عـبر عنهـا بقوله: وَالَّذِينَ اهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُـدًى وَآتَـاهُمْ تَقْـوَاهُمْ [محمـد: 17]

وبذلك فإن للسالك نوعان من الأنوار: أنوار كسبية، ممتلئة بالتعب والجهـد، وأنـوار وهبيـة، وهي فضـل إلهي، وهي ممتلئـة بالراحة والسعادة.

وقد وصف بعض الحكماء كلا النورين فقال: (أنوار التوجـه: هــو مــا صــدر منهم إلى اللــه تعــالى من عبــادات ومعــاملات ومكابدات ومجاهدات.. وأنوار المواجهة: هـو مـا صـدر من اللـه لهم من تعـرف وتقـرب وتـودد وتحبب. فـالأولون عبيـد الأنـوار لوجـود حاجـاتهم إليهـا في الوصـول إلى مقصـودهم، والآخـرون الأنوار لهم لوجود غناهم عنها بربهم)[2]

وعبر آخر عن ذلك بتعابير مختلفـة، فقـال: (أنـوار التوجـه: هي أنــوار الإســلام والإيمــان، وأنــوار المواجهــة: هي أنــوار الإحسان) [3]

وبعبـارة أخـرى: (أنـوار التوجـه: أنـوار الطاعـة الظـاهرة والباطنة، وأنوار المواجهة هي أنوار الفكرة والنظرة)

وبعبارة أخرى: (أنـوار التوجـه: أنـوار الشـريعة والطريقـة، وأنوار المواجهة: أنوار الحقيقة)

وبعبارة أخرى: (أنوار التوجه: أنـوار المجاهـدة والمكابـدة،

1() د. علي زيعور، التفسير الصوفي للقرآن عند الصادق، ص 176.
2() ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 124.
3() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 110.

وأنوار المواجهة: هي أنوار المشاهدة والمكالمة)

ثم فسر ذلك بأن (الحق سبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليه أولا بنور حلاوة العمل الظاهر، وهو مقام الإسلام فيهتدي إلى العمل ويفنى فيه ويذوق حلاوته، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس باللّه والتوحش مما سواه، فيهتدي إليه ويفنى فيه ويذوق حلاوته ويتمكن من المراقبة، وهذا النور أعظم من الأول وأكمل، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة المشاهدة، وهو عمل الروح وهو أول نور المواجهة، فتأخذه الدهشة والحيرة والسكرة، فإذا أفاق من سكرته وصحا من جذبته وتمكن من الشهود وعرف الملك المعبود ورجع إلى البقاء، كان للّه وباللّه فاستغنى عن النور بمشاهدة نور النور، لأنه صار عين النور، فصار مالكا للأنوار بعد أن كانت مالكة له لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها، فلما وصل صار عبدا للّه، حرّا مما سواه، ظاهره عبودية وباطنه حرية، والحاصل أن المريد ما دام في السير فهو يهتدي بأنوار التوجه مفتقرا إليها لسيره بها، فإذا وصل إلى مقام المشاهدة حصلت له أنوار المواجهة فلم يفتقر إلى شي ء لأنه للّه لا لشي ء دونه. فالراحلون وهم السائرون للأنوار لافتقارهم إليها وفرحهم بها، وهؤلاء الواصلون الأنوار لهم لاستغنائهم عنها باللّه، فهم للّه وباللّه لا لشي ء دونه) (1)

وذلك يشبه ـ أيها المريد الصادق ـ من يسير في الظلمات صحبة سراج مضيء، لكنه كلما اقترب من الهدف، كلما ازدادت الأنوار تألقا وإشعاعا إلى أن يرى نفسه غير محتاج للسراج الذي كان يسير به، لأنه صار مغمورا بالأنوار.

أو بتعبير آخر ـ ربما يكون أدق ـ يصبح نتيجة صقله لنفسه وتهذيبه لها مرآة عاكسة للأنوار؛ فلذلك يستغني بتلك الأنوار المنعكسة عليها عن غيرها.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ــ بعد هذا أن السالك كلما اكتسب المزيد من الأنوار كلما اقترب من ربه، ذلك أن الله هو النور الأعظم الذي لا يوجد نور إلا منه، ولذلك كان من أسمائه النور، وهو الوحيد الجدير بهذا الاسم، وكل من عداه فقد استعاره منه، مثلما استعار القمر نوره من الشمس.

وقد عبر بعضهم عن هذا المعنى، فقال: يقول: (النور عز

1() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 110.

وجل: هو الحق، ويسمى: نور الأنوار: لأن جميع الأنوار منه، والنور المحيط: لإحاطته جميعها وكمال إشراقه ونفوذه فيها للطفه.. والنور القيوم: لقيام الجميع به.. والنور المقدس: أي المنزه عن جميع صفات النقص.. والنور الأعظم الأعلى: إذ لا أعظم ولا أعلى منه)(1)

وقال آخر: (النور عز وجل: هو الظاهر الذي به كل ظهور، فإن الظاهر بنفسه المظهر لغيره يسمى نورا، ومهما قوبل الوجود بالعدم، كان الظهور لا محالة للوجود، ولا ظلام أظلم من العدم.. فالبريء عن ظلمة العدم، بل عن إمكان العدم، والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود – جدير بأن يسمى: نوراً)(2)

وبين سر كون النور في غير حق الله نوعا من الاستعارة والمجاز، فقال: (إن اسم النور على غير النور الأول مجاز محض، إذ كل ما سواه إذا اعتبر ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له، بل نورانيته مستعارة من غيره ولا قوام لنورانيته المستعارة بنفسها، بل بغيرها. ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض. أفترى أن من استعار ثيابا وفرسا ومركبا وسرجا، وركبه في الوقت الذى أركبه المعير، وعلى الحد الذى رسمه، غنى بالحقيقة أو بالمجاز؟ وأن المعير هو الغنى أو المستعير؟ كلا، بل المستعير فقير في نفسه كما كان، وإنما الغنى هو المعير الذى منه الإعارة والإعطاء، وإليه الاسترداد والانتزاع.. فإذن النور الحق هو الذى بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولا والإدامة ثانيا. فلا شركة لأحد معه في حقيقة هذا الاسم ولا في استحقاقه إلا من حيث يسميه به ويتفضل عليه بتسميته تفضل المالك على عبده إذا أعطاه مالا ثم سماه مالكا، وإذا انكشف للعبد الحقيقة علم أنه وماله لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلا وألبتة) (3)

وهذا المعنى هو الذي يشاهده أصحاب النفوس المطمئنة الذين يكتشفون في رحلتهم إلى الله أن كل كمال وجمال ولطف ورحمة وحسن وبهاء إنما هو لله وحده، وكل ما عداه فهو أثر من آثار جماله، وقد قال بعض الحكماء معبرا عن هذا:

1() د. عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، ص 258.

2() المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ص 129.

3() مشكاة الأنوار (ص 54)

(من هنا ترقي العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقــة، واســتكملوا معــراجهم فــرأوا بالمشــاهدة العيانيــة لكــل شــيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه؛ فهو باعتبـار وجـه نفسـه عدم، وباعتبار وجه الله تعالى موجود.. فـإذن لا موجـود إلا اللـه تعالى ووجهه.. فإذن كـل شـيء هالـك إلا وجهـه أزلا وأبـدا. ولم يفتقر هؤلاء إلى يوم القيامة ليسمعوا نداء البارئ تعـالى ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِـدِ الْقَهَّارِ﴾ [غـافر: 16]، بـل هـذا النـداء لاَ يفارق سمعهم أبدا) [1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تلتمس الأنـوار في الـدنيا قبـل الآخـرة، فلا يمكنـك أن تعـرف الحقــائق، ولا أن تــذوق الإيمــان، ولا أن تــترقى في معــارج المقربين، ولا أن تنزل منازلهم من دون أن تصـقل مـرآة قلبـك لتنعكس فيها الأنوار، وحينها ستكتشف الجمال الذي كان مختبئا وراء حجاب الظلمات.

1() مشكاة الأنوار (ص 56)

الوعد والوعيد

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عما ورد في النصوص المقدسة من الوعد والوعيد، وعلاقتها بأسماء الله الحسنى، وعلاقتها بالنفس المطمئنة ورضاها، وعن أولئك الذين قد يتلفظون بألفاظ يبدو فيها بعض الاحتقار لبعضها، ومدى شرعيته.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن من مقتضيات ربوبية الله تعالى لعباده، أن يستعمل معهم كل الوسائل التي تحبب لهم تزكية أنفسهم وتهذيبها، لتتحقق بالطيبة التي تستدعيها التربية الإلهية، وهو معنى إخراجهم من الظلمات إلى النور.

فلا يمكن أن تخرج شخصا من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ولا من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، ولا من ظلمات الوهم إلى نور الفهم إلا بعد أن تملأ نفسه المملوءة بالحرص والطمع بأنواع المثيرات التي تدعوها لذلك.

فإذا ما جُر بحبال تلك الحوافز والزواجر إلى عالم الأنوار والطهارة والصدق أصبح مستغنيا بها عنها، لأنه سيجد فيها مقصوده الذي كان غافلا عنه.

وذلك مثل التلميذ الذي يفر من الدراسة، ولا يهتم بها، لكن معلمه الحكيم، أو والده الحريص، يظل يشجعه بأنواع الجوائز، والتي قد تختلط ببعض التهديد إلى أن يتعود على الدراسة، وحينها قد تصبح لذته التي لا يحتاج معها إلى أن يُدفع إليها بأي دافع.

وهذا ما يفسر ما قد تسمعه من بعضهم من كونه قد وصل إلى مرحلة لا يحتاج فيها إلى أن يُرغب بجنة أو يُحذر من نار؛ فيكفيه عبوديته لربه؛ فهي جنته العظمى، ويكفيه البعد عن الحجاب فهي النار الأعظم.

وهذا لا يعني عدم الرغبة في الجنة، ولا عدم الحذر من النار؛ فمعاذ الله أن يستهزئ مؤمن بوعد الله أو وعيده، أو يسخر من هدايا الله لعباده، أو من تهديده لهم.. وإنما قد يفعل ذلك بناء على حال نفسية تعتريه، أو مشاعر حالية تتنزل عليه.

أما إذا وجدت من يتجاوز الحد في ذلك؛ فيسخر من الحور

والقصور، أو من الجنـات الـتي تحتهـا الأنهـار، أو من السلاسـل والنيران؛ فاعلم أنه كاذب مسـتدرج، ذلـك أن هـذا الـذي يـدعي مثل هذا قد يبيع كل شيء من أجل كـوخ حقـير، أو مـال قليـل، وقد يتخلى عن كل شيء من أجل تهديد من شرطي، في نفس الـوقت الـذي يـدعي فيـه عـدم خوفـه من تهديـد اللـه تعـالى ووعيده.

لذلك كـان الأدب مـع اللـه يسـتدعي الأدب مـع كـل شـيء يرتبط به.. الأدب مع شـريعته.. والأدب مـع الحـوافز الـتي رغب بها إلى السلوك إليه.. والأدب مع الزواجر التي وضعها للنفـوس الأمارة حتى تقلع عن غيها، وتستقيم لربها.

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن أولئـك الذين يذكرون مثل هذا، وفي محضـر عـوام النـاس وخواصـهم، إنما يمارسون دورا معاكسا للدور الـذي جـاء بـه الرسـل عليهم السلام، بل إنهم يكادون يشبهون أولئـك السـاخرين من الأنبيـاء عليهم السـلام حينمـا كـانوا يسـتعجلون تحقيـق الوعيـد الإلهي بالعـذاب، كمـا قـال تعـالى: ﴿يَسْـتَعْجِلُونَكَ بِالْعَـذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَـذَابُ مِنْ فَـوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُـوا مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ﴾ [العنكبـوت: 54، 55]

ولهـذا؛ فـإن ورثـة الرسـل عليهم السـلام الصـادقين في وراثتهم هم الذين يخلفونهم في التبشـير والإنـذار، ولا يـترفعون عن وعـد اللـه ولا وعيـده، بـل إنهم يسـتعملونه وسـيلة للهدايـة مثلما استعمله ربهم، ومثلما استعمله نبيهم ﷺ.

فلو أنك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ رجعت إلى كتـاب ربـك، لوجدت أنه لا يكاد يذكر عملا صالحا إلا ويمهد له أو يـذكر عقبـه ما يدفع إليه، أو يحذر من التهاون في شأنه.

ومن الأمثلـة على ذلـك قولـه تعـالى تعقيبـا على قـول النصارى المؤمنين، الـذين قـالوا: ﴿وَمَـا لَنَـا لَا نُـؤْمِنُ بِاللـه وَمَـا جَاءَنَا مِنَ الْحَـقِّ وَنَطْمَـعُ أَنْ يُـدْخِلَنَا رَبُّنَـا مَـعَ الْقَـوْمِ الصَّـالِحِينَ﴾ [المائدة: 84]، فقد عقب على قولهم بقوله: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللـه بِمَـا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ الْمُحْسِـنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا أُولَئِكَ أَصْـحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: 85، 86]

ففي الآيتين الكريمـتين اجتمـاع الحـوافز مـع الزواجـر في

محل واحد، حتى تمتلئ النفس هيبة وخوفا، كما تمتلئ حرصا وطمعا في فضل الله تعالى.

ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى في بيان جزاء المحسنين والمسيئين: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ الله مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26، 27]

وهكذا يمتلئ القرآن الكريم بذكر الحوافز والزواجر، ومثله السنة المطهرة؛ حيث لا تكاد تجد طاعة إلا وتقترن بالجزاء الإلهي المرتبط بها، كما أنك لا يمكن أن تجد معصية إلا وترتبط بالعقوبة الإلهية التي وضعها الله تعالى لها.

ولا يغرنك ـ أيها المريد الصادق ـ ما يذكره بعضهم من أن الله تعالى صادق في وعده، وفي الحوافز التي وعد بها، لكنه قد يخلف في وعيده.. فكل ذلك غرور وأماني؛ فالله تعالى صادق في الجميع، في وعده ووعيده، وكيف لا يكون صادقا، وكلماته تامات، لا مبدل لها، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115]

وقد شاء الله أن تعقب هذا الآية الكريمة بقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 116، 117]

وكأنها تنبه أولئك الذين يمنون أنفسهم بالتساهل في حق جرائمهم ومعاصيهم بأن ذلك مجرد ظن كاذب، وغرور قاتل، وأماني نفسية، وأن الواقع الذي ينتظرهم أخطر مما يتصورون.

ولهذا يشيد الله تعالى بالمؤمنين الذين ينفعلون لتلك الزواجر والحوافز؛ فيفرحون، ويحزنون بحسب ما يمر عليهم منها، قال تعالى: ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: 57]

وكيف لا يكون الأمر كذلك، وقد أخبر الله تعالى عن خـيرة خلقه، وأدبهم مع حوافز ربهم وزواجره، وقـد قـال آمـرا رسـول الله ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْـرَفْ عَنْـهُ يَوْمَئِذٍ فَقَـدْ رَحِمَـهُ وَذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعـام: 15، 16]، وقـال: ﴿قُـلْ إِنِّي أَخَـافُ إِنْ عَصَـيْتُ رَبِّي عَـذَابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُـلِ اللـه أَعْبُـدُ مُخْلِصًا لَـهُ دِينِي (14) فَاعْبُـدُوا مَـا شِـئْتُمْ مِنْ دُونِـهِ قُـلْ إِنَّ الْخَاسِـرِينَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: 13 - 16]

وحكى عن إبراهيم عليه السـلام قولـه: ﴿ وَلَا تُخْـزِنِي يَـوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَـوْمَ لَا يَنْفَـعُ مَـالٌ وَلَا بَنُـونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللـه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 87 - 89]

وحكى عن مـؤمن آل فرعـون قولـه: ﴿ يَـاقَوْمِ إِنَّمَـا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِـرَةَ هِيَ دَارُ الْقَـرَارِ (39) مَنْ عَمِـلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُـونَ فِيهَـا بِغَيْـرِ حِسَـابٍ (40) وَيَـاقَوْمِ مَـا لِي أَدْعُـوكُمْ إلى النَّجَـاةِ وَتَـدْعُونَنِي إلى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إلى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إلى الله وَأَنَّ الْمُسْـرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 39 -43]

وهكذا يحكي الله تعالى عن الصالحين وطمعهم في فضـل اللـه، وخشـيتهم من عقوبتـه، ولا يمكن لأحـد من النـاس مهمـا ادعى أن يكون له ما كـان لهم من الإيمـان والتقـوى والصـلاح.. فكيـف يتجـرأ على ادعـاء مـا لم يـدعوه، أو ينسـب لنفسـه من الكمال ما لم ينسبوه لأنفسهم.

وإن شئت ـ أيها المريد الصـادق ـ أن أدلـك على النمـوذج الأكمل في الهداية، ذلك الذي ربـاه رسـول اللـه ﷺ على عينـه، فصار إمامـا للمتقين، ويعسـوبا للمهتـدين.. فاسـمع إلى دعائـه، وهو يقول:

(يا إلهي وسيدي وربي، أتراك معذبي بنارك بعـد توحيـدك، وبعدما انطـوى عليـه قلـبي من معرفتـك، ولهج بـه لسـاني من

ذكرك، واعتقده ضميري من حبك، وبعد صدق اعترافي ودعـائي خاضعا لربوبيتك، هيهات! أنت أكـرم من أن تضـيع من ربيتـه، أو تبعد من أدنيته، أو تشرد من آويته، أو تسلم إلى البلاء من كفيته ورحمته، وليت شعري يـا سـيدي وإلهي ومـولاي! أتسـلط النـار على وجـــوه خـــرت لعظمتـــك ســـاجدة، وعلى ألســـن نطقت بتوحيدك صادقة وبشكرك مادحة، وعلى قلوب اعترفت بإلهيتك محققة، وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتى صـارت خاشـعة، وعلى جـــوارح ســـعت إلى أوطـــان تعبـــدك طائعـــة، وأشـــارت باستغفارك مذعنة؟! ما هكذا الظن بك ولا أخبرنا بفضـلك عنـك يا كريم)

وقـال متضـرعا: (يـا رب وأنت تعلم ضـعفي عن قليـل من بلاء الدنيا وعقوباتها، ومـا يجـري فيهـا من المكـاره على أهلهـا، على أن ذلك بلاءٌ ومكروهٌ قليلٌ مكثه، يسيرٌ بقاؤه قصـيٌر مدتـه، فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها، وهـو بلاءٌ تطول مدته ويدوم مقامه ولا يخفف عن أهلـه، لأنـه لا يكـون إلا عن غضبك وانتقامك وسخطك؟! وهذا ما لا تقوم له السـماوات والأرض، يا سيدي فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الـذليل الحقـير المســكين المســتكين؟! يــا إلهي وربي وســيدي ومــولاي، لأي الأمور إليك أشكو، ولما منها أضج وأبكي، لأليم العذاب وشـدته، أم لطول البلاء ومدته؟! فلئن صـيرتني للعقوبـات مـع أعـدائك، وجمعت بيــني وبين أهــل بلائــك، وفــرقت بيــني وبين أحبائــك وأوليائك؛ فهبـني يـا إلهي وسـيدي ومـولاي وربي، صـبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟ وهبني صبرت على حـر نـارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك؟ أم كيـف أسـكن في النـار ورجائي عفوك؟ فبعزتك يـا سـيدي ومـولاي أقسـم صـادقا، لئن تركتني ناطقا لأضجن إليك بين أهلها ضـجيج الآملين، ولأصـرخن إليــك صــراخ المستصــرخين، ولأبكين عليــك بكــاء الفاقــدين، ولأنادينك أين أنت يا ولي المؤمنين، يا غايـة آمـال العـارفين، يـا غياث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين، ويا إله العالمين)

وقال: (أفتراك سبحانك يا إلهي وبحمدك تسمع فيها صوت عبد مسلم سجن فيهـا بمخالفتـه، وذاق طعم عـذابها بمعصـيته، وحبس بين أطباقهـا بجرمـه وجريرتـه، وهـو يضـج إليـك ضـجيج مؤمل لرحمتك، ويناديـك بلسـان أهـل توحيـدك، ويتوسـل إليـك بربوبيتك، يا مولاي فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما ســلف

من حلمك؟ أم كيف تؤلمه النار وهو يأمل فضـلك ورحمتـك؟ أم كيف يحرقه لهيبهـا وأنت تسـمع صـوته وتـرى مكانـه؟ أم كيـف يشـتمل عليـه زفيرهـا وأنت تعلم ضـعفه؟ أم كيـف يتقلقـل بين أطباقها وأنت تعلم صدقه؟ أم كيف تزجره زبانيتها وهو يناديك يا رباه؟ أم كيف يرجو فضلك في عتقه منها فتتركه فيها؟ هيهـات! مـا ذلـك الظن بـك ولا المعـروف من فضـلك، ولا مشـبهٌ لمـا عاملت به الموحدين من برك وإحسانك! فباليقين أقطع، لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت بـه من إخلاد معانـديك، لجعلت النار كلهـا بـردا وسـلاما، ومـا كـان لأحـد فيهـا مقـرا ولا مقاما، لكنك تقدست أسماؤك أقسمت أن تملأها من الكـافرين من الجنة والناس أجمعين، وأن تخلد فيها المعاندين، وأنت جـل ثناؤك قلت مبتدئا، وتطولت بالإنعام متكرمـا: أفمن كـان مؤمنـا كمن كان فاسقا لا يستوون)

هذا هو أدب العارفين بربهم، السـائرين على خطى نـبيهم، الـذين لم يغـيروا، ولم يبـدلوا، ولم يتجـرؤوا على كلمـات ربهم؛ فيحتقروا أو يهونوا من شأنها.

مع العلم أنه هو نفسه من دعا إلى عبودية الأحـرار، أولئـك الذين يعبدون الله لله، لا طمعـا، ولا خوفـا، وإنمـا يصـدقون في عبادتهم ويخلصون لله تعالى فيها، فقد قال في ذلك: (إن قومـا عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبـدوا اللـه رهبـة فتلك عبـادة العبيـد، وإن قومـا عبـدوا اللـه شـكرا فتلـك عبـادة الاحرار)[1]

لكن فـرق بين تحريـر العبوديـة، وبين تحقـير وعـد اللـه ووعيـده، أو تـوهم تخلفهمـا، أو تخلـف أحـدهما، ولهـذا وصـف الصالحين بقوله: (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم،، فهم والجنّـة كمن قـد رآهـا، فهم فيهـا منعّمـون، وهم والنّار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون) [2]

وقـال في أول خطبـة في خلافتـه: (الفـرائض، الفـرائض! أدّوها إلى اللّه تؤدّكم إلى الجنّة)[3]

ومنها قوله في بعض خطبـه: (عبـاد اللّـه، أوصـيكم بتقـوى اللّـه، فإنّهـا حـقّ اللّـه عليكم، والموجبـة على اللّـه حقّكم، وأن

1() نهج البلاغة ج 2 ص 197.
2() نهج البلاغة: الخطبة رقم (193)
3() نهج البلاغة: الخطبة رقم (167)

تستعينوا عليها باللّه، وتستعينوا بها على اللّـه، فـإنّ التّقـوى في اليوم الحرز والجنّة، وفي غد الطّريق إلى الجنّة)[1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تجمـع بين عبوديـة العـارفين وأدبهم؛ فكلمـا عظمت المعرفـة، كلمـا عظم معهـا الأدب، وكلمـا عظم الأدب، كلمـا تعـاملت مـع الحقائق بحسـب مـا تتطلبـه من الانفعـالات والمشـاعر.. فليس من الأدب أن تسمع اسم الجنـة، ثم لا تهـتز شـوقا إليهـا، ولا أن تسمع اسم النار، ثم لا تتألم خوفا منها.. فالله تعالى ما أورد لك ذلـك إلا لتعبـده بتلـك المشـاعر.. فلكـل لطيفـة من اللطـائف عبوديتها الخاصة بها.

فمثلمـا تكـون عبوديـة سـماعك لأذان الصـلاة مسـارعتك لأدائها، وعبودية رؤيتك لشهر الصيام مسـارعتك للصـيام.. فـإن عبودية سماعك أو تذكرك لوعد الله أن تهتز شوقا إليه، وحرصا عليه.. وعبودية سماعك لوعيـد اللـه أن تمتلئ مخافـة وخشـية، وتمد يـديك بالـدعاء والتضـرع مثلمـا كـان يفعـل الأنبيـاء وأئمـة الهدى.

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم (191)

الفناء والبقاء

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عما يرد في كتب التزكية حول تلك المراحل التي يمر بها السالك، والتي يعــبرون عنها بالفناء والبقاء، وهل هي مراتب ترتبط بأحوال السـالك، أم بالمعارف التي يطلع عليها، ويكتشفها بعد أن كان جاهلا بها..

وجوابا على سؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن الحقـائق واحـدة وثابتة ومصـدرها الـوحي الإلهي المعصـوم، وتـدرج السـالك في المقامـات المختلفـة، لا يعـني نسـخها، وإنمـا يعـني تعمقـه في فهمها، وتذوقها، والتعايش مع معانيها.

فلذلك كان ما يرد من التعبيرات عن الفناء والبقاء وغيرهـا من الأحوال نوعا من التعبير عن الحالة النفسـية الـتي يمـر بهـا السالك، وليس تعبيرا عن حقـائق جديـدة لم تـرد بهـا النصـوص المقدسة.

وإن أردت توضيحا يبسط لك ذلك؛ فاعلم أن حال السـالك في كل سـيره إلى اللـه سـعي إلى التحلي بالمكـارم المرتبطـة بـالأخلاق، أو المرتبطـة بتعرفـه على اللـه وحقـائق الوجـود، وتواصله معها..

وهو لذلك قد يصادف أهواء تعترضه، أو جهلا كان مسيطرا عليـه، ولا يمكنـه أن يسـتمر في سـيره مـا لم يقض على تلـك الأهواء، وذلك الجهل.. وهـذا مـا يسـمى إفنـاء، لأنـه لا يمكن أن تستبدل المثالب بالمكارم، ما لم تفن المثـالب.. ويبقى صـاحبها متحليا بالمكارم.

ويستمر هذا حاله إلى أن يمر بمرحلة يشـعر فيهـا بعظمـة الحقـائق، فيصـيبه الـدهش والبهت والتعظيم إلى الدرجـة الـتي يفنى فيهـا عن نفسـه وعن رؤيتـه؛ فلا يشـعر بوجـوده، لعظمـة سيطرة الوجود الحق عليه، وهذا ما يعـبرون عنـه بالفنـاء.. وهم لا يعنــون فنــاء العين والــذات، وإنمــا يعنــون فنــاء الشــعور والمشاهدة.

لكن ذلك لا يستمر طويلا؛ فالسالك يعود إلى رؤيـة نفسـه، لكن لا باعتبارها قائمة به، وإنما باعتبارها قائمة بربهـا، وهـذا مـا يطلقون عليه لقب البقاء.. فالبـاقي باللـه هـو ذلـك الـذي يـرى الكـون كلـه مسـتندا إلى اللـه في وجـوده.. ولـذلك يجمـع بين

الرؤيتين، بخلاف الفاني الذي يكتفي برؤية واحدة.

وقد عبر عن هذه المعاني كل الحكماء، ونبهوا المريدين أو المنكرين عليهم بـأنهم لا يقصـدون بالفنـاء فنـاء الأعيـان، وإنمـا فناء المشاهدة والاستغراق، وقد قـال بعضـهم معـبرا عن ذلـك: (علم الفناء والبقاء هو ما يـدور على إخلاص الوحدانيـة، وصـحة العبودية، وما كان غير هذا فهي المغاليط والزندقة)[1]

وذكر آخر سر التسمية بذلك، فقال: (الفناء والبقاء يعنيـان المغلوبيـة والغلبـة؛ فـإذا غلب على الإنسـان شـيء من تلـك اللطائف، وصـار مغلوبـاً لهـا وظهـر عليـه أحكامهـا قـالوا: فـنى الرجل في كذا، وبقى في كذا)[2]

وذكـر آخـر علاقـة ذلـك بالسـلوك والسـير، فقـال: (الفنـاء والبقـاء اسـمان وهمـا نعتـان لعبـد موحـد يتعـرض الارتقـاء في توحيده من درجة العموم إلى درجـة الخصـوص، ومعـنى الفنـاء والبقاء في أوائله: فناء الجهل ببقاء العلم، وفناء المعصية ببقـاء الطاعة، وفناء الغفلة ببقاء الذكر، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله تعالى في سابق العلم)[3]

وقـال آخـر: (أشـار القـوم بالفنـاء: إلى سـقوط الأوصـاف المذمومة، وأشاروا بالبقـاء إلى قيـام الأوصـاف المحمـودة بـه، وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هـذين القسـمين، فمن المعلـوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسـم الآخـر لا محالـة؛ فمن فنى عن أوصافه المذمومـة ظهـرت عليـه الصـفات المحمـودة، ومن غلبت عليـه الخصـال المذمومـة اسـتترت عنـه الصـفات المحمودة)[4]

وذكر آخر الفرق بين العـارف الـذي هـو البـاقي، والفـاني، فقـال: (الفـرق بين العـارف والفـاني أن العـارف يثبت الأشـياء بالله، والفاني لا يثبت شيئاً سوى اللـه.. والعـارف يقـرر القـدرة والحكمة، والفاني لا يرى إلا القدرة.. والعـارف يـرى الحـق في الخلق كقول بعضهم: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيـه، والفـاني لا يـرى إلا الحـق يقـول: مـا رأيت شـيئاً إلا رأيت اللـه قبلـه.. والعارف في مقام البقاء، والفـاني مجـذوب في مقـام الفنـاء..

1() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 1159.
2() ولي الله الدهلوي، التفهيمات الإلهية، ج1 ص241.
3() السراج الطوسي، اللمع في التصوف، ص 213.
4() الرسالة القشيرية، ص 61.

والفاني سائر، والعارف واصل)[1]

وبناء على هذا عرف بعضهم الفناء، فقال: (الفناء: هو أن تبدو العظمة، والإجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار، يفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء، لأنه يغرق في التعظيم)[2]

وقال آخر: (الفناء أن تتجلى للسالك عظمة الذات، فتفنيه عن رؤية الأشياء ومن جملتها نفسه فيصير عين العين ويغرق في بحر الأحدية، وقد يطلق الفناء على الفناء في الأفعال، فلا يرى فاعلا إلا الله، وعلى الفناء في الصفات فلا قدير ولا سميع ولا بصير إلا الله يعني أنه يرى الخلق موتى لا قدرة لهم ولا سمع لهم ولا بصر إلا بالله وبعد هذا يقع الفناء في الذات)[3]

واختصر آخر ذلك، فقال: (الفناء هو غياب النفس عن شعورها بذاتها وشعورها بلذاتها) [4]

وقال آخر: (الفناء: هو انجذاب قلوب المؤمنين إلى الحق وعبادته ومحبته إلى درجة لا يشعرون معها بغير ما يعبدون ولا يشهدون غير ما يقصدون)[5]

وقال آخر: (الفناء: هو درجة كمال يبلغها العارفون الذين تحرروا من آلام المجاهدة، وخلصوا من سجن المقامات والأحوال والذين انتهى بهم الطلب إلى الكشف فرأوا كل مرئي، وسمعوا كل مسموع، وأدركوا كل أسرار القلب، والذين اعترفوا بنقص كشفهم فأعرضوا عن كل شيء وفنوا في مقصدهم وفنيت في هذا المقصد كل مقاصدهم)[6]

وقال آخر: (الفناء أن يفنى الإنسان عن نفسه فلا يحس بشيء من ظواهر جوارحه، ولا الأشياء الخارجية عنه، ولا العوارض الباطنة فيه، بل يغيب عن جميع ذلك، ويغيب عنه جميع ذلك ذاهباً إلى ربه أولاً، ثم ذاهباً اليه أخرى، فإن خطر له في أثناء ذلك أنه فني عن نفسه بالكلية فذلك شوب وكدورة والكمال أن يفني عن نفسه وعن الفناء، والفناء عن الفناء غاية

1() إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 2 ص 236.
2() معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 30، 31.
3() معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 31.
4() يوسف ايبش، السهروردي المقتول،ص 24 (بتصرف)
5() سليمان سليم علم الدين، التصوف الإسلامي، ص 183.
6() د. عبد الوهاب عزام، التصوف وفريد الدين العطار، ص 112، 113.

الفناء والفناء أول الطريق، وهو الذهاب إلى الله تعالى وإنما الهدى بعد وأعني بالهدى هدى الله.. وهذا الاستغراق ما يثبت ويدوم، فإن دام صارت عادة راسخة وهيئة ثابتة عرج به إلى العالم الأعلى، وطالع الوجود الحقيقي الأصفى، وانطبع له نقش الملكوت، وتجلى له قدس اللاهوت)[1]

وقال آخر: (ليس المراد بـ الفناء انعدام عين العبد مطلقا، بل المراد منه فناء جهته البشرية في الجهة الربانية)[2]

وقال آخر: (الفناء: عبارة عن الفناء في العرفان لا في الأعيان فإن ذلك غير ممكن)[3]

وقال آخر: (الفناء: هو أن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظواهر جوارحه، ولا من الأشياء الخارجة عنه، ولا من العوارض الباطنة فيه، بل يغيب عن جميع ذلك ذاهباً إلى ربه أولاً ثم ذاهباً فيه آخراً)[4]

وقال آخر: (الفناء: هي شهود الحق بلا خلق، لاندراج حكم الفعل في الصفة من حيث أنه أثرها، وبذلك لا يبقى خبر عن الفعل من حيث هو. والصفة مضافة لموصوفها، فليس إلا هو وحده. وذلك عين الغيبة عن كل شيء به، لرجوع كل شيء إليه)[5]

وقال آخر: (الفناء هو الحال التي تتوارى فيها آثار الإرادة والشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق، فيصبح الصوفي وهو لا يرى في الوجود غير الحق، لا يشعر بشيء في الوجود سوى الحق وفعله وإرادته. فالفناء عن المعاصي يقتضي البقاء بالطاعات، والفناء عن الصفات البشرية يقتضي البقاء بصفات الألوهية، والفناء عما سوى الله يقتضي البقاء بالله. وليس المقصود بالفناء ذلك المعنى الشائع وهو الفناء بالموت، بل المقصود أن يفنى الصوفي عن الأخلاق الذميمة ويبقى بالأخلاق الحميدة، ويفنى عن صفاته من علم وقدرة وإرادة، وأخيرا يفنى عن نفسه وعن العالم حوله ويبقى بالله بمعنى أنه لا يشهد في الوجود إلا الله)[6]

1() ابن عطاء الله السكندري، مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، ص 7، 8.
2() الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 491.
3() الحكيم الترمذي، ختم الأولياء، ص 503.
4() محمد بن أحمد البسطامي، تذكرة المريد الطالب المزيد، ص 80.
5() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 254 0
6() سليمان سليم علم الدين، التصوف الإسلامي، ص 182.

وقد اتفق هؤلاء جميعا على أن حال البقاء أفضل، وأنه هو الحال الدائم، بخلاف الفناء الذي هو حالة مؤقتة سرعان ما تزول، ويعود العبد إلى نفسه وإلى الكون، ولكن بتلك الرؤية الإيمانية الجديدة، وقد قال بعضهم في ذلك: (وقوف العبد في مقام البقاء أفضل، لأن الله تعالى ما أبقى العبد إلا ليفيض عليه من رحمته ونعمته ويشعر العبد بذلك فيحمده ويشكره، ولا هكذا مقام الفناء، فإنه أشبه شيء بالعدم)[1]

وقال آخر: (أهل البقاء: هم الكمل، يشهدون الذات في الصفات، والجمع في الفرق. لا يحجبهم جمعهم عن فرقهم، ولا فرقهم عن جمعهم. يعطون كل ذي حق حقه، ويوفون كل ذي قسط قسطه)[2]

وقال آخر: (صاحب الفناء له التلقي من الله، وصاحب البقاء له الإلقاء عنه.. وصاحب الفناء قد طمست دائرة حسه وانفتحت حضرة قدسه، وصاحب البقاء باق بربه في حضرة قدسه وحسه.. وصاحب الفناء مدعو إلى الله، وصاحب البقاء داع إلى الله، وهو محل الخلافة والنيابة مع الإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، داع إلى الله على بصيرة من الله)[3]

وعلل بعضهم سر ذلك، فقال: (مقام البقاء: هو مقام الملك بالله، وهو مقام خاصة الخاصة. وهو مقام الراحة بعد الشقاء، والربح بعد الخسران. وهو مقام العبودية لله بلا علة، والنظر إليه بلا واسطة. وهو مقام التفريق بعد الاجتماع، والتواضع بعد الارتفاع، والعجز بعد القدرة والأدب لله بالله بعد التمكين في الحضرة الإلهية. صاحب هذا المقام راسخ في العلم والعمل، راتع في شهود الحق في الجلال والجمال لتحقيق المقامات والأحوال)[4]

وقال آخر: (مقام البقاء: هو شهود الحق بالخلق، وشهود الخلق بالحق من غير احتجاب أحدهما عن الآخر، وهو مقام جمع الجمع. والبقاء، وذلك لا يحصل إلا بالتجلي العيني بعد

1() عبد الوهاب الشعراني، كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، ص 43، 44.

2() شرح تصلية القطب ابن مشيش، ص 19.

3() لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي (بهامش لطائف المنن والأخلاق للشعراني) ج2 ص 78، 79

4() الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، ج 2 ص 350.

العلمي)[5]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تتحقق بهذه الأحوال السنية، والتي تخرجك من عبودية الأكــوان إلى عبودية الله؛ فلا يمكن أن تتجلى على قلبك حروف الحقائق المقدســة، مــا لم تفن عنــه كــل الأوهــام المدنســة.. فــالحق والباطل، أو النور والظلمة لا يمكن أن يجتمعا في محل واحد.

5() إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 1 ص 212.

الوصال والقطيعة

كتبت إلي ـــ أيها المريد الصادق ـــ تسألني عن بعض المعاني التي ترد في كتب التزكية، والتي تتحدث عن وصال الله وتتمناه، وتشتاق إليه، وتتحدث في نفس الوقت عن القطيعة، وتخشى منها، وتعتبرها الجحيم الحقيقي.. وعن علاقة ذلك بتنزيه الله تعالى عن الجسمية وكل مقتضياتها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الوصال والقطيعة اللذين يتحدث عنهما علماء السلوك التزكية، قد ورد الحديث عنهما في النصوص المقدسة؛ فقد عُبر عن الوصال بلقاء الله، وعُبر عن القطيعة بالحجاب.

أما لقاء الله؛ فقد ورد الإخبار بتحققه، ولكل الخلق، فقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ﴾ [البقرة: 223]، وقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لَآتٍ﴾ [العنكبوت:5]، وقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: 54]

وأخبر عن اللقاء الخاص، والذي هو لخاصة المؤمنين من الصالحين، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 110]

وفي آيات أخرى ربط بين لقاء الله والمجاهدة، ليبين أن لقاء الله قد يحصل في الدنيا، جزاء على مجاهدة النفس، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 5]، ثم قال بعدها: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: 6]

ومثل ذلك أخبر أن نهاية كل الكدح والتعب في الدنيا هي لقاء الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ﴾[الانشقاق:6]

ومثل ذلك ذكر الله تعالى الحجاب والقطيعة، فقال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15]

وقال مخاطبا الظالمين والمستكبرين الذين طلبوا إخراجهم مما أوقعتهم فيه أعمالهم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا

وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الـرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَـذْتُمُوهُمْ سِـخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَـزَيْتُهُمُ الْيَـوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: 108 - 111]

وهكذا لم يكتف بتلك العقوبات الـتي سـلطها على الأقـوام الظالمين، وإنما أضاف إليها عقوبـة البعـد والحجـاب، كمـا قـال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿ وَقِيـلَ يَـاأَرْضُ ابْلَعِي مَـاءَكِ وَيَاسَــمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَــاءُ وَقُضِــيَ الْأَمْــرُ وَاسْــتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]

وقال عن ثمود: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَـرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْـدًا لِثَمُـودَ﴾ [هود: 68]

وقال عن مدين: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَـوْا فِيهَـا أَلَا بُعْـدًا لِمَـدْيَنَ كَمَـا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: 95]

وقال عنهم وعن غيرهم من الأمم: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَـذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَـا بَعْضَـهُمْ بَعْضًـا وَجَعَلْنَـاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: 44]

وكل هذه المعاني ـ أيها المريد الصادق ـ لا تعني ظواهرهـا الحسية؛ فكما أن الله تعالى هو القدوس المنزه عن كل تشـبيه وتجسيم؛ فكذلك وصاله واللقاء به، أو حجابه وبعـده وقطيعتـه.. كلها من المعاني المنزهة عن كل ما لا يليق بالله.

وقد روي أن الإمـام الرضـا سـئل عن قـول اللـه عزوجـل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15]، فقال: إن الله تبارك وتعالى لا يوصـف بمكـان يحـل فيـه فيحجب عنـه فيه عباده، ولكنه يعني أنهم عن ثواب ربهم محجوبون)[1]

وهـذا معـنى من المعـاني الـتي تفسـر بهـا الآيـة الكريمـة، والإمام الرضا لم يقصد حصره فيه، وإنما قصد تنزيه الله تعـالى عن تلك المقولات التي كانت تنتشر في عصـره بين المحـدثين، وتــوهم أن اللــه تعــالى سيســكن مــع المؤمــنين في الجنــة، وسيجلس إليهم كما يجلس الندماء مع بعضهم.

ومن رواياتهم في ذلك أنه (بينـا أهـل الجنـة في نعيمهم إذْ سطع لهمْ نورٌ فرفعوا رؤوسهم، فـإذا الـربُّ قـد أشـرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال: وذلك قــول الله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 58]،قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم مـا دامـوا

(1) بحار الأنوار (3/ 318)

ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نـورُه وبركتـه عليهم في ديارهم) [1]

وغيرهـا من الروايـات الـتي تجعـل من لقـاء اللـه تعـالى للمؤمنين مشابها لتلك المجالس التي يعقدها الملـوك والأمـراء مـع نـدمائهم، ثم يصـلونهم بـأنواع الصـلات، وهي علاقـة ماديـة صرفة لا مجال فيها للمشاعر السامية، ولا للعواطف الجياشة.

ولذلك قـاوم أئمـة الهـدى وورثـة النبـوة هـذه التحريفـات، وبينوا تنزيه الله تعالى المطلق عن الجسمية والتشبيه وكـل مـا لا يليق به.

وبنـاء على ذلـك؛ فـإن لقـاء اللـه تعـالى أو التواصـل معـه مرتبـط بالمشـاعر، لا بالأجسـاد.. فليس بين اللـه وبين عبـاده مسافة حتى يقطعوها بأجسادهم للقائه.

ولذلك كلما تحقـق حضـور العبـد النفسـي مـع اللـه، كلمـا تحقق له اللقاء به، ولذلك ربط الله تعالى اللقاء بالمجاهدة.

أمـا ارتبـاط اللقـاء بغـير المؤمـنين، أو بـالخلق جميعـا في النشأة الأخرى، فذلك لأنها دار الحقائق، لا دار الاختبـار، واللقـاء حينها ليس بالضـرورة يكـون لقـاء سـعيدا، بـل قـد يكـون ممثلا لقمة العقوبة والعذاب، ذلك أن الله تعالى يتولى حسـاب عبـاده عن جرائمهم؛ فيمتلئـون ألمـا وحزنـا، لا على جـرائمهم وحـدها، وإنما على فوات حظهم من ربهم.. ذلك أنه بـدل أن يتجلى لهم رحيما لطيفا كريما شكورا، تجلى لهم بغضبه وانتقامة وسخطه، وكان في إمكانهم أن يتفادوا ذلك.

وهذه المعـاني هي نفسـها الـتي يقصـدها علمـاء السـلوك والتزكيـة، فهم أورع وأعـرف باللـه من أن يشـبهوه بخلقـه، أو يعتقـدوا أن في وصـاله أي شـائبة حسـية، ولـذلك تُحمـل كـل تعابيرهم على ذلك.

ومن ذلك ما عبر عنه بعضهم في تعريـف الحجـاب بقولـه: (الحجـاب بين العبـد واللـه: هـو ليس السـماء والأرض، وليس العرش والكرسي، وإنما هـو ظنـك وأنانيتـك، فانتزعهمـا لتصـل إلى الله)[2]

وقـال آخـر: (الحجـاب: انطبـاع الصـور الكونيـة في القلب

1() رواه ابن ماجه برقم (184)

2() محمد بن المنور، أسرار التوحيد في مقامات أبو سعيد، ص 323.

المانعة لقبول تجلي الحق)[1]

وقـال آخـر: (الحجـاب هـو جهالـة النفس بنفسـها وغفلتهـا عنها) [2]

وقال آخر: (الحجاب: هو العبد لا غـير. فمـا لم يخـل العبـد من مراد نفسه كلية، لا يكون الرب مراده)[3]

وقال آخر: (الحجب: هي في الحقيقة، عـدم المناسـبة بين الطالب والمطلوب، فتبديل الصفات تقرب المناسبة)[4]

وقال آخر: (لا تعتقد أن الحجب أمـور حسـية، ولا أن البعـد بعـد مسـافة كمـا يفهمـه البعض؛ فإنـه تعـالى منــزه عن البعـد والقرب الحسيين، ومنـزه عن الجهـة والمكـان والزمـان، وغـير ذلك من سمات الحدوث)[5]

وقال آخر: (ما حجبك عن الله موجود معه إذ لا شيء معه، ولكن حجبك عنه توهم وجود معه)[6]

وقال آخر: (حجاب العبد منه وليس يدري، وذلـك أنـه يـرى ربه بقلبه، ولا يعرف أنه هو، ويقول عن كل شيء بـدا لـه: اللـه بخلاف ذلك، وفي الآخرة يعرف أنه هو بلا شك، وإن توالت عليه التجليات أبد الآبدين ودهر الداهرين)[7]

وفصل آخر في ذكر الحجب الحائلة بين العبد وربه، فقـال: (الحجب السـبعة الـتي تحجبـه [العبـد] عن ربـه عـز وجـل: فالحجاب الأول: عقله.. والثاني: علمه.. والثالث: قلبه.. والرابع: خشـيته.. والخـامس: نفسـه.. والسـادس: إرادتـه.. والسـابع: مشـيئته.. فالعقـل باشـتغاله بتـدبير الـدنيا، والعلم بمباهاتـه مـع الأقران، والقلب بالغفلـة، والخشـية بإغفالهـا عن مـوارد الأمـور عليهـا، والنفس لأنهـا مـأوى كـل بليـة. والإرادة إرادة الـدنيا والإعراض عن الآخرة، والمشيئة بملازمة الذنوب)[8]

وقال آخر: (الحجب ثلاثة: حجاب النفس، وحجـاب الخلـق، وحجاب الـدنيا، وهـذه الثلاثـة هي الحجب العامـة، وهنـاك ثلاثـة حجب تسمى: بالحجب الخاصـة وهي: مشـهد الطاعـة، ومشـهد

1() كمال الدين القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص 57 0
2() إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 4 ص 460،461 (بتصرف)
3() أحمد السرهندي، مكتوبات الإمام الرباني، ج 1 ص 33.
4() قاسم الخاني الحلبي، السير والسلوك الى ملك الملوك، ص 38
5() قاسم الخاني الحلبي، السير والسلوك إلى ملك الملوك، ص 20،21.
6() د. بولس نويا، ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 141.
7() عبد الوهاب الشعراني، كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، ص 37.
8() سهل بن عبد الله التستري، تفسير القرآن العظيم، ص 102.

الثواب، ومشهد الكرامة)[1]

وقال آخر: (الحجاب حجابان: حجاب غفلة، وحجاب كفر.. فمن حجب في دنياه بالغفلة حجب في الجنة بالرحمة، ومن حجب في دنياه بالكفر، حجب في النار بالغضب)[2]

وقال آخر: (الخلق حجابك عن نفسك ونفسك حجاب عن ربك.. ما دمت ترى الخلق لا ترى نفسك، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك)[3]

وقال: (الدنيا حجاب عن الآخرة، والآخرة حجاب عن رب الدنيا والآخرة.. كل مخلوق حجاب عن الخالق عز وجل. مهما وقفت معه فهو حجاب)[4]

وقال آخر: (حجاب الخلق عن الحق هي أربع: النفس، والهوى، والشيطان، والدنيا)[5]

وقال آخر: (الحجاب نوعان: ظلماني ونوراني.. فالظلماني: من العبد كالأخلاق الذميمة، والأعمال القبيحة، والاعتقادات الفاسدة، والعلائق الدنياوية، والأشغال الصورية وغيرها.. والحجاب النوراني: من الرب يعني أن الآثار حجاب الأفعال، والأفعال حجاب الصفات، والصفات حجاب الذات) [6]

وهكذا يذكرون أن الاقتصار على بعض أوصاف الله أو أسمائه الحسنى قد يكون حجابا بين العبد وبين ربه، لأن ذلك قد يكون تابعا للمزاج والهوى، لا لحقيقة الواقع.. والأصل أن يُعرف الله كما هو لا كما نريد.

وقد عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (اللطف حجاب عن اللطيف، يعني: نظرك إلى اللطف وتقيدك به حجاب لك عن ذاته تعالى، فإذا كانت صفاته تحجبك عن ذاته وتقيدت بها، فكيف بصفاتك ؟ فافهم الطريق وأزل عن قلبك عقبات التعويق)[7]

ومثل ذلك نزهوا وصال الله تعالى أو لقاءه من كل مقتضيات الحس، وقد قال بعضهم معبرا عن ذلك: (الاتصال:

1() د. قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام، ص 365.
2() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 1529.
3() ظهير الدين القادري، الفتح المبين فيما يتعلق بترياق المحبين، ص 18.
4() عبد القادر الكيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص 97.
5() عز الدين بن عبد السلام، حل الرموز ومفاتيح الكنوز، ص 32.
6() عبد الحميد التبريزي، البوارق النورية، ص 305.
7() بهاء الدين النقشبندي، مقامات قطب دائرة الوجود، ص 65.

هو مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار)[1]

وقال آخر: (الاتصال: هو أن ينفصل بسره عما سوى اللــه، فلا يرى بسره بمعنى التعظيم غيره، ولا يسمع إلا منه)[2]

وقال آخر: (الاتصال: هو أن لا يشهد العبد غير خالقه)[3]

وقال آخر: (إن السالك لا يزال سائراً إلى الله تعالى حــتى يمــوت، فلا ينقطــع ســيره إلا بــالموت، فليس في هــذه الحيــاة وصول يفرغ معه السـير وينتهي، وليس ثمـة اتصـال حسـي بين ذات العبد وذات الرب، فـالأول تعطيـل والحـاد، والثـاني حلـول واتحاد، وإنما حقيقية الأمر تنحيــة النفس والخلــق عن الطريــق، فإن الوقوف معهما هو الانقطاع، وتنحيتهما هو الاتصال)[4]

وقــال آخــر: (معــنى الاتصــال بــالحق: الانقطــاع عمــا دون الحق.. وليس المراد بالاتصال اتصــال الــذات بالــذات، لأن ذلــك إنما يكون بين الجسمين وهذا التوهم في حق الله تعــالى كفــر، بل مقدار انقطاعهم عن غير الحق اتصالهم بالحق)[5]

وبنــاء على هــذا عرفــوا الواصــل بأنــه (الــذي ألقى الســمع للإصغاء، وفتح البصيرة للنظر، فانقلبت حروف الأكوان في ســر اســتماعه نــذيراً وحكمــاً ومواعــظ، فهــو في ريــاض التــدبير بين حــدائق المواعــظ الناطقــة والصــامتة، وأزهــار الحكم الباطنــة والظاهرة)[6]

وقــال آخــر: (الواصــل: هــو من غــاب عن وجــوده واتصــل شهوده)[7]

وقال آخر: (الواصل: هــو من لم تشـغله عن اللــه روضـات الجنات)[8]

وقــال آخــر: (الواصــلون في ثلاثــة أحــرف: همهم اللــه، وشغلهم الله، ورجوعهم إلى الله)[9]

1() عمر السهروردي، عوارف المعارف (ملحق بكتاب احياء علوم الـدين للغـزالي، ج 5) ص 245.

2() أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 108 0

3() محمد بن حسن السمنودي، تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين، ص 87.

4() د. أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، ج 6 ص 145، 146.

5() قطب الدين البكري الدمشقي، الرسالة المكية في الطريقة السنية، ص 3، 4.

6() أحمد أبو كف، أعلام التصوف الإسلامي، ص 119، 120.

7() ابن عربي، رسالة في الحكم الإلهية، ص 20.

8() محمد ماضي أبو العزائم، شراب الأرواح، ص 34 (بتصرف)

9() عبد الله اليافعي، نشر المحاسـن الغاليـة في فضـل المشـايخ الصـوفية أصـحاب المقامات العالية، ص 207.

وقال آخر: (الواصل إلى الله تعالى: هو الذي تخلى عن أوصافه الذميمة وتحلى بالأوصاف الحميدة)[1]

وقال آخر: (إن الواصلين لم يقفوا مع شهود الأنوار، بل نفذوا إلى نور الأنوار، بخلاف السائرين، فإنهم واقفون مع الأنوار مفتقرون إليها مملوكون في يدها)[2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تقطع كل الحجب التي تحول بينك وبين ربك، لتذوق حلاوة الوصال؛ فليس هناك أسعد ممن ظفر بربه، وليس هناك أشقى ممن حجب عنه.. فالوصال هو الجنة الحقيقية التي لا تماثلها جنة في الدنيا ولا في الآخرة.. والحجاب هو النار المطلعة على الأفئدة؛ فاحذر أن تحرقك بلهيبها.

---

(1) محمد بن حسن السمنودي، تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين، ص 21.

(2) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 64.

الشريعة والحقيقة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عما يرد في كتب التزكية والسلوك من التفريق بين الشـريعة والحقيقـة، واعتبـار الحقيقة مرحلة أسمى من الشـريعة، وعن مـدى شـرعية ذلـك، خاصة إذا كـان المـراد بالشـريعة هـو مـا أنزلـه اللـه تعـالى من أحكام، كمـا قـال تعـالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـاكَ عَلَى شَـرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْـرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْـوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ [الجاثيـة: 18]، وقـال: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَـا وَصَّـى بِـهِ نُوحًـا وَالَّذِي أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ﴾ [الشورى: 13]

وجوابا على سؤالك أدعوك إلى ما كنت أدعوك إليـه دائمـا من عدم أخذ المعاني من الألفاظ؛ فتقـع فيمـا وقـع فيـه أولئـك الحرفيـون الـذين راحـوا يحكمـون على النـاس، ويكفـرونهم، ويبـدعونهم، لأجـل كلمـات لم يفهموهـا، وإنمـا اختلطت عليهم بغيرها.

ومثـل ذلـك كلمـات الحقيقـة والشـريعة، ومثلهـا كلمـة الطريقـة الـتي تـرد في كتب التزكيـة، والـتي لا يُـراد منهـا في اصطلاحهم وضع شـريعة جديـدة مخالفـة لشـريعة اللـه تعـالى؛ فمعاذ الله أن يذكروا ذلك، وإنما مرادهم بحسب مـا تـدل عليـه كلمـة أكـثر حكمـائهم تلـك المـراتب الـتي وردت في الشـريعة، والتي تصنف الناس إلى عوام، وخواص، وخواص خـواص.. وهي تصنيفات تشهد لها النصوص المقدسة وتدل عليهـا، كمـا ذكـرت لك ذلك في رسائل سابقة.

ولهذا؛ فإنهم يقصـدون بالشـريعة، أو مرتبـة الإسـلام، تلـك المرحلة التي تشمل المسلمين جميعا، والذين قد يكتفون بالحد الأدنى من الإسلام.. وسر اختيار هذا الاصطلاح بالنسبة لهم هــو الدلالــة على أن هــؤلاء العــوام حــتى لــو قصــروا في فعــل المستحبات إلا أنهم بسـلوكهم لم يخرجـوا عن الشـريعة، وإنمـا هم يطبقونها، ولو في مرتبتها الدنيا.

ويقصدون بالطريقة أو مرتبـة الإيمـان، تلـك المرتبـة الـتي تسير فيها النفس إلى الله تعالى، مثلما شرحته لك بتفصيل في رسائلي إليك حول النفس اللوامة.

ويقصدون بالحقيقة، أو مرتبة الإحسان، تلك المرتبـة الـتي

تتحقـــق فيهـــا النفس بـــالأخلاق العاليـــة، والأذواق الرفيعـــة، والمعارف السامية، لتتحول من عالم النفس اللوامـة إلى عـالم النفس المطمئنة الراضية.

وهذه المراتب جميعا، لا تشـمل الشـرائع الظـاهرة فقـط، وإنما تشمل كل مـا يتعلـق بالـدين من أخلاق وعقائـد.. ولـذلك؛ فإن السلوك الذي يُمارسه المؤمن في مرحلـة الشـريعة، ليس هو نفسه في مرحلـة الطريقـة أو الحقيقـة.. ذلـك أنـه في تلـك المراتب يكون أرقى، ولذلك فإن معاصي المقربين تختلــف عن معاصــي أهــل اليمين وغــيرهم ممن هم دونهم أو فــوقهم، كمـا يقال: (حسنات الأبرار سيئات المقربين)

إذا فهمت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فـاعلم أن الشـريعة تشمل الجميع، وتخصيصها بالمرتبة الـدنيا لا يعـني احتقـارا لهـا، بل يدل على ما ذكرته لك من أن المطبقين لها لا يخرجـون عن الشريعة، ولهذا، فإن الإسلام مـع كونـه الاسـم الـذي يـدل على الشريعة بكل معانيها وتفاصيلها إلا أن الله تعالى قـال: ﴿قَـالَتِ الْأَعْـرَابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُـوا وَلَكِنْ قُولُـوا أَسْـلَمْنَا وَلَمَّا يَـدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]

وهذا يدل على أن مرتبة الإيمان أعظم من مرتبة الإسلام، ولهذا ذكـر أنهـا المرتبـة الـتي تتعمـق فيهـا حقـائق الإيمـان في النفس بخلاف مرتبـة الإسـلام، والـتي قـد يكتفي فيهـا المسـلم بظواهر الشريعة دون بواطنها وحقائقها.

ولهذا أيضا اعتبر رسول الله ﷺ مرتبـة الإحسـان أعلى من مرتبة الإيمان، ووصفها بحال نفسية تعتري المسلم حينهـا، وهـو مراقبة الله ومشاهدته، كما قـال ﷺ في تعريـف الإحسـان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فهو يراك)[1]

وقــد وضــح بعض الحكمــاء أســرار هــذه الأقســام، ووجــه الحاجة إليها، والمصطلحات المرتبطة بها، فقال: (الأعمـال عنـد أهل الفن على ثلاثة أقسام: عمـل الشـريعة، وعمـل الطريقـة، وعمل الحقيقة، أو تقول عمل الاسلام، وعمـل الإيمـان، وعمـل الأحسـان، أو تقــول عمــل العبــادة، وعمــل العبوديــه، وعمــل العبودة، أي الحريـة، أو تقـول عمـل أهـل البدايـة، وعمـل أهـل الوسط، وعمل أهل النهاية) [2]

1() صحيح البخاري (6/ 144)

2() ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 5.

وبعد أن سرد هذه المصطلحات للتعبـير عن مراحـل السـير، ذكر التعريفات المرتبطـة بهـا، والـتي تـدل على المقصـد منهـا، فقال: (فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقـة أن تشهده، أو تقول الشريعة لإصـلاح الظـواهر، والطريقـة لإصـلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر) [1]

ثم فصل الممارسات المرتبطـة بكـل جهـة، فقـال: (واصـلاح الجوارح بثلاثة أمور بالتوبة والتقوى والاستقامة، واصلاح القلوب بثلاثـة أمـور بـالإخلاص والصـدق والطمأنينـة، واصـلاح السـرائر بثلاثـة أمـور بالمراقبـة والمشـاهدة والمعرفـة، أو تقـول إصـلاح الظـواهر باجتنـاب النـواهي وامتثـال الأوامـر، واصـلاح الضـمائر بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل، واصـلاح السـرائر وهي هنا الأرواح بـذلها وانكسـارها حـتى تتهـذب وترتـاض الأدب والتواضع وحسن الخلق) [2]

ثم بين ارتباط هذه المراحل بعضـها ببعض، فقـال: (ولا يصـح الانتقال إلى مقـام حـتى يحقـق مـا قبلـه، فمن أشـرقت بدايتـه أشرقت نهايته، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حـتى يحقـق عمـل الشريعة وترتـاض جوارحـه معهـا بـأن يحقـق التوبـة بشـروطها ويحقق التقوى بأركانها ويحقق الاستقامة بأقسامها وهي متابعـة الرسـول ﷺ في أقوالـه وأفعالـه وأحوالـه، فـإذا تـزكي الظـاهر وتنور بالشريعة انتقـل من عمـل الشـريعة الظـاهرة إلى عمـل الطريقـة الباطنـة، وهي التصـفية من أوصـاف البشـرية.. فـإذا تطهـر من أوصـاف البشـرية تحلى بأوصـاف الروحانيـة، وهي الأدب مع الله في تجلياته التي هي مظاهره) [3]

وبنـاء على هـذا، فـإن الطريقـة هي المرحلـة الوسـطى في السـلوك، والـتي يخـرج بهـا السـالك من عمـوم النـاس إلى خصوصهم، أو هي المرحلة التي ينتقل فيهـا من رعايـة جوارحـه إلى رعايـة قلبـه، أو هي المرحلـة الـتي لا يكتفي فيهـا باسـم الإسلام، وإنما ينتقل إلى اسم الإيمان، كما أشار إلى ذلك قولـه

1() ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 5.
2() ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 5.
3() ابن عجيبة، إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 5.

تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]

وبناء على هذا لا تنافر بين هذه المفردات الثلاثة، بل هي مراحل في التعمق في التحقق بالدين، لا على مستوى الجوارح فقط، بل على مستوى الكيان كله.

وقد سئل بعض الحكماء عن معنى الشريعة، والطريقة، والحقيقة، وهل هناك تنافر بينها، وكان مما أجاب به قوله: (إنّ الشريعة هي عبارة عن الأحكام المنزلة على سيدنا محمد ﷺ المستفادة من قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: 7]، والطريقة عبارة عن تطبيق تلك الأحكام على أعمال المكلّف، ظاهرا وباطنا، تطبيقا محكما، والحقيقة هي ما يحصل للمريد من المعارف والعلوم الناشئة عن أعماله، قال تعالى: ﴿واتَّقوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ [البقرة: 282]، وإذا لا تنافر بهذا الاعتبار، إنّما هي ألفاظ منها ما وضع لتدل على الأحكام المجرّدة باصطلاح، ومنها ما وضع لتدل على العمل بها، ومنها ما وضع لتدلّ على النتائج الحاصلة عن ذلك العمل، وإذا حققت لم تجد هناك إلاّ الشريعة)[1]

وقد عبر على هذا المعنى كل الحكماء، على اختلاف بينهم في بعض المصطلحات، ولا مشاحة في الاصطلاح، وقد قال بعضهم في تعريف التحقق المرتبط بالحقيقة: (التحقق هو شهود الحق في صور أسمائه التي هي الأكوان، فلا يحتجب المحقق بالحق عن الخلق، ولا بالخلق عن الحق)[2]

وقال آخر: (التحقق: هو وقوف القلب بدوام الانتصاب بين يدي من آمن به)[3]

وقال آخر في تعريف التحقيق: (التحقيق: هو مشاهدة الأرواح)[4]

وقال آخر: (التحقيق: تكلف العبد لاستدعاء الحقيقة، جهدة

1() ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص154.

2() كمال الدين القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص 156 0

3() د. عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، ص 43.

4() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 380.

وطاقته)[1]

وقال آخر: (التحقيق: تلخيص مصحوبك من الحق، ثم بالحق، ثم في الحق، وهذه أسماء درجاته الثلاث.. أما درجة تلخيص مصحوبك من الحق: أن لا يخالج علمك علمه.. أما الدرجة الثانية: فأن لا ينازع شهودك شهوده.. وأما الدرجة الثالثة: فأن لا يناسم رسمك سبقه، فتسقط الشهادات، وتبطل العبارات، وتفنى الإشارات)[2]

وقال آخر: (التحقيق: هو الوصول إلى المعرفة بالله التي لا تدركها الحواس بتخليص المشرب من الحق بالحق في الحق، حتى تسقط الشهادات، وتبطل العبارات، وتفنى الإشارات)[3]

وقال آخر: (التحقيقات: هو أن يتحقق بأن العقل الكامل أدناه ترك الدنيا، وأعلاه ترك التفكر في ذات الله تعالى، لأنه لا تحيط به الفكرة، لأنها مخلوقة لله تعالى، والمخلوق لا يعرف حقيقة نفسه فكيف يعرف حقيقة خالقه وكنهه ؟ فيتحقق بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام: 91]، فيطلب معرفة الله من الله بالله، لا من العقل والفكر، ولا بالعقل والفكر)[4]

وقال آخر في التفريق بين التحقق والتخلق: (الفرق بين المتحقق والمتخلق: أن المتخلق هو الذي يكتسب فضائل الأخلاق والأوصاف الحميدة تكلفاً وتعملاً ويجتنب الرذائل والذمائم، فله من الأسماء الإلهية آثارها.. والمتحقق بها: هو الذي جعله الله مظهراً لأسمائه وأوصافه وتجلى فيه، فمحا رسوم أخلاقه وأوصافه)[5]

وقال آخر في بيان حقيقة النسبة إلى الحق تعالى: (عبد الحق: هو الذي تجلى له الحق، فعصمه في أفعاله وأقواله عن الباطل، يرى الحق في كل شيء، لأنه الثابت الواجب القائم بذاته، والمسمى بالسِوَى، باطل زائل ثابت به، بل يراه في صور الحق حقاً، والباطل باطلاً)[6]

1() السراج الطوسي، اللمع في التصوف، ص 336.
2() عبد الله الهروي، منازل السائرين، ص 129، 130.
3() عبيدة بن أنبوجه التيشيتي، ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التيجانية، ص 171.
4() محمد بن الهاشمي التلمساني، شرح شطرنج العارفين، ص 34.
5() كمال الدين القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص 137.
6() اصطلاحات الصوفية، ص 119.

وقال آخر في تعريف الحقيقة: (الحقائق: هي ما يستقر في قلبك، أنه لا ضار ولا نافع ولا معطي ولا مانع إلا الله [1]

وقال: (الحقائق: هي المعاني القائمة بالقلوب، ما اتضح فيها وانكشف من الغيوب، وهي منح من الله وكرامات)[2]

وقال آخر: (الحقيقة: هي الوصول إلى التحقق بنور التجلي فعلياً أو وصفياً أو ذاتياً، وأعلامها شواهد تحققها برفع الشبهات والوساوس)[3]

وقال آخر: (الحقائق: هي ما يقع من نكت الإلهام بالأمور العرفانية بالقلب، ويتمكن منها. ولها صورة في النفس، وعبارة في الخارج)[4]

وقال آخر:(الحقيقة: هي تحلية الظاهر بظاهر الشريعة، وتزيين الباطن بباطنها [5]

وقال آخر: (الحقيقة: وهي شهود الذات في مظاهر الأسماء والصفات) [6]

وقال آخر: (الحقيقة: هي نسبة المخلوقات كلها إلى الله تعالى إيجادا، وإمدادا سواء كانت ذوات أو صفات أو أحوال أو أفعال من كل مخلوق من المخلوقات.. وهذا هو توحيد الأفعال: لا فاعل في الحقيقة إلا الله)[7]

وقال آخر: (الحقيقة: هي أسرار الشريعة ونتيجة الطريقة، فهي علوم ومعارف تحصل لقلوب السالكين بعد صفائها من كدرات الطباع البشرية)[8]

وقال آخر: (الحقائق: هي ما يرد على قلب العارف من تجليات العلوم والحكم والمعارف، فتارة تكون علوماً، وتارة تكون حكماً ومعارفاً، وتارة تكون كشفاً بغيب كان أو سيكون) [9]

وقال آخر: (الحقيقة: هي أن ترى الله هو المتصرف في خلقه: يهدي، ويضل، ويعز، ويذل، ويوفق، ويخذل، ويولي،

1() أحمد الكمشخانوي النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء، ج 1ص 157.
2() أحمد بن محمد بن عباد، الموارد الجلية في أمور الشاذلية، ص 121.
3() فخر الدين العراقي، اللمعات العادلية في برزخ النبوية، ص 51.
4() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 280، 281.
5() أحمد السرهندي، مكتوبات الإمام الرباني، ج 1 ص 69 (بتصرف)
6() عبد الحميد التبريزي، البوارق النورية، ص 53.
7() عبد الغني النابلسي، عذر الأئمة في نصح الأمة، ص 5، 6.
8() أحمد الصاوي، حاشية أحمد الصاوي على شرح الخريدة البهية، ص 116.
9() أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 2 ص 299.

ويعزل، وينصب)[1]

وقال آخر: (الحقيقة: لا تكون إلا بعد الاغتراف من عين الشريعة، فإن الحقيقة نتائج العلوم، وبها يترجم المحقق عن الأسرار التي لا تحيط بها الفهوم)[2]

وقال آخر: (الحقيقة: هي المطلوب من كل شيء، التي لا يراد من الشيء سواها، ولا يقصد إلا علاها)[3]

فهذه كلماتهم ـ أيها المريد الصادق ـ وقد تعمدت ذكرها لك في هذا الموقف، مثل ذكر غيرها في مواقف أخرى، لترد على أولئك الذين لا همّ لهم إلا ثلب أعراض الصالحين والإساءة إليهم من غير تكليف أنفسهم بالبحث في مقولاتهم، أو النظر في كتبهم.

لكن ذلك لا يعني عصمتهم، أو عصمة كل من اتبعهم، أو ادعى النسبة إليهم؛ ففي كل محل يوجد الطيب والخبيث، والصادقون والكاذبون، فذلك ذكر من يفصل بين الشريعة والحقيقة، ويدعي أن الشريعة حجاب عن الحقائق، وأن المتحقق هو الذي يرفضها، وقد قال بعضهم في الرد على هذا، لمن ذكر له أن من الواصلين من يقول هذا: (وصلوا.. ولكن إلى سقر)

وقد أطلق الحكماء على تلك الظواهر التي تسيء إلى الشريعة بدعوى الحقيقة لقب [الشطح والطامات]

ويقصدون بالشطح صنفين من الكلام، أولهما (الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا)[4]

وقد حكموا على هذا الكلام بأنه (عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي، فان هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقف كلمات مخبطة

1() أحمد الكمشخانوي النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 192.

2() عبد المجيد الشرنوبي، شرح تائية السلوك إلى ملك الملوك، ص 7.

3() محمود أبو الشامات اليشرطي، الإلهامات الإلهية على الوظيفة الشاذلية اليشرطية، ص 15.

4() إحياء علوم الدين، 1/61.

مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هـذا إنكـار مصـدره العلم والجـدل، والعلم حجـاب، والجـدل عمـل النفس. وهـذا الحـديث لا يلـوح إلا من البـاطن بمكاشـفة نـور الحق. فهذا ومثله مما قد اسـتطار في البلاد شـرره وعظم في العوام ضرره حتى من نطق بشي ء منه فقتلـه أفضـل في دين الله من إحياء عشرة) [1]

وأما الصنف الثاني؛ فهو (كلمات غير مفهومـة لهـا ظـواهر رائقة، وفيها عبارات هائلـة وليس وراءهـا طائـل، وذلـك إمـا أن تكون غير مفهومة عند قائلهـا بـل يصـدرها عن خبـط في عقلـه وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهــذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمهـا وإيرادها بعبارة تدل على ضـميره، لقلـة ممارسـته للعلم وعـدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفـاظ الرشـيقة، ولا فائـدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقــول، ويحير الأذهان، أو يحمـل على أن يفهم منهـا معـانى مـا أريـدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه) [2]

وأما الطامات؛ فيقصـدون بهـا (صـرف ألفـاظ الشـرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنـة لا يسـبق منهـا إلى الأفهـام فائدة) [3]

وقد حكموا عليهـا أيضـا بـأن هـذا وكـل مـا هـو من جنسـه (حـرام وضـرره عظيم، فـإن الألفـاظ إذا صـرفت عن مقتضـى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صـاحب الشـرع، ومن غـير ضرورة تدعو إليـه من دليـل العقـل، اقتضـى ذلـك بطلان الثقـة بالألفاظ، وسقط بـه منفعـة كلام اللـه تعـالى وكلام رسـوله ﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والبـاطن لا ضـبط لـه، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى، وهــذا أيضا من البدع الشائعة العظيمـة الضـرر، وإنمـا قصـد أصـحابها الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له)[4]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاحــذر أن تكون من الذين يتسرعون في أحكامهم، أو يسارعون إلى رمي

1() إحياء علوم الدين، 1/61.
2() إحياء علوم الدين، 1/61.
3() إحياء علوم الدين، 1/62.
4() إحياء علوم الدين، 1/62.

المسلمين أو غيرهم بما لم يفهموه، أو لم يطيقوا فهمه؛ فلذلك إن وقع الشك في قلبك في أي أمر من الأمور؛ فأمسـك عليـك لسانك، واسأل ربك أن يهديك إلى الحـق وأهلـه، واحـذر من أن تنكر شيئا لم يصل إليه عقلك، قبل أن تتثبت وتتروى وتتحقق.

الربوبية والعبودية

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الربوبية والعبودية، وحقيقتهما، وعلاقتهما بالنفس المطمئنة والراضية، وطلبت مني ذكر الموقف الشرعي مما ورد في بعض كتب التزكية أو نسب إليها من المعاني التي لا تتوافق مع الشريعة، كقول بعضهم:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أنى يكلف

وجوابا على سؤالك الوجيه، والذي أبدأ فيه من ذكر تلك الشبهة التي عرضتها، والتي قد ذكرت لك موقفي منها ومن أمثالها في رسائل سابقة، وهو يتلخص في أمرين:

أولهما: العودة إلى النصوص المقدسة باعتبارها الحكم الأكبر لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهِ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59]

وخاصة مع ما ورد فيها من الإخبار عن التبديل والتغيير والدخن الذي يصيب الأديان بعد موت الأنبياء والهداة، والذي سماه رسول الله ﷺ دخنا.

وثانيهما: حسن الظن بمن وقع منهم الخطأ إن أمكن تأويله، أو إيجاد مخرج صحيح له، بناء على ما ورد في النصوص المقدسة من حسن الظن بالمسلمين المتمسكين بالدين..

وبذلك يجتمع الأمران اللذان دعت إليهما الشريعة، وأولهما الاكتفاء بها، وثانيهما عدم التسرع في الرد على المقولات المختلفة إلا بعد التأكد من كونها مخالفة لها.

ولذلك فإن تلك الأبيات التي ذكرتها، ومما هو من جنسها من الطامات والشطحات التي ينبغي رفضها، والتحذير منها، فلا يحتار أحد في ربوبية الرب، ولا في عبودية العبد، إلا إذا كان في حكم المجنون الذي لا يؤاخذ بقوله، ومثله ذلك المجذوب صاحب الحال المستغرق فيها، والذي لا ينبغي أن يسجل كلامه في الكتب، ولا أن يعتبر علما، فكيف يمكن اعتباره دينا.

ولهذا رد بعضهم على تلك الأبيات بقوله:

العبد عبد بدون شرك ... فكان حقا هو المكافي
وقبل موت قد كان حيا ... حياة روح بها تشرف

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فـاعلم أن الـرب من أسماء الله الحسنى، والتي لها علاقة كبيرة بالكون..

ذلك أن لأسماء الله الحسنى دلالات مختلفة منها ما يتعلـق بالألوهية مجردة عن كل العلاقات، مثل اسـمه القـدوس، الـذي يعني تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليـق بـه.. أو اسـمه الحـق، والذي يـدل على الوجـود والثبـات، أو اسـمه الحي والـذي يـدل على حياته، أو اسمه المريد الذي يدل على إرادته.. وغيرهـا من الأسماء الحسنى الكثيرة.

ومنها ما يرتبط بالكائنات سواء منها ما كان في هذا العالم وفي هذه النشـأة أو في غيرهـا من العـوالم والنشـآت.. كاسـم الـرزاق الـذي يـدل على رزق اللـه تعـالى للكائنـات.. أو اسـم الرحيم الذي يدل على رحمته بها.. أو اسم الجـواد والـذي يـدل على كرمه وجوده المرتبط بها.

وعلى رأس هـذه الأسـماء، والجـامع لهـا جميعـا اسـمه [الرب]، أو [رب العالمين]، فهـو اسـم يقتضـي وجـود مربـوبين يكون ربـا عليهم.. وقـد أطلـق اللـه تعـالى على المربوبيـة لقب [العبودية]، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]

وبذلك فإنه يمكن تقسيم الكون إلى: رب وعبيده، فكل مـا عدا الله تعالى هو عبد له، وكل الأسماء الحسنى المرتبطة بتلك العلاقة هي من ضمن تلك الربوبية..

ولذلك كـان من ضـمن ربوبيـة اللـه تعـالى لعبـاده رزقهم، ورحمتهم، والجـود عليهم، وإغـاثتهم وهـدايتهم.. وغيرهـا ممـا وردت الأسماء الحسنى في الدلالة عليها.

وذلك لا يعني ما يتوهمـه المتوهمـون من الشـرك، باعتبـار أن الخلق يقاسمون الرب الوجود؛ فذلك مستحيل.. فوجود الله وجود حقيقي ثابت أزلي.. ووجـود غـيره تبعي مرتبـط بـه، وهـو في كل لحظة يحتاج مددا منـه، ولـولا مـدده بـالوجود لظـل في طي العدم.

ومن مقتضيات ربوبية اللـه تعـالى لعبـاده، أن يتعامـل مـع

عباده بحسب قابلياتهم واستعداداتهم.. وبذلك فإن الربوبية ـ ولله المثل الأعلى ـ تشبه السراج الذي يضيء على الكائنات؛ فتختلف في استقبالها له بحسب استعداداتها، فمنها ما يظهر باللون الأخضر أو الأصفر أو الأحمر.. ومنها ما يظهر باللون الأسود الذي لا يتلون بأي لون، ويبقى في عالم الظلمات، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى عن الماء الذي ينزل من السماء: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: 4]

وبذلك فإن الذي يؤثر الضلالة.. هو في الحقيقة لم يقبل الهدى الإلهي.. وبذلك صار ضالا بسبب عدم تقبله.. وكان اسم الله تعالى المضل ليس المراد منه في حقه سوى حرمانه من الهداية، لا بالجبر له على الضلالة، وإنما بإتاحة الحرية له ليختارها.

وهكذا في جميع الأسماء الحسنى المرتبطة بالربوبية.. والتي لا يتحلى بكمالها إلا من تحقق بالعبودية.. فكلما تعمقت العبودية في النفس، كلما أصبحت مثل المرآة الصقيلة العاكسة التي تستقبل الأنوار بكل شفافية وقوة، حتى تصبح أنوارا محضة.

ولذلك جمع الله تعالى لرسوله ﷺ كلا الوصفين: العبودية، والسراج.. ليدل على أن تحوله إلى سراج منير يضيء للخلائق، لم يكن إلا بسبب تحققه بالعبودية المحضة لله تعالى.

فقد وصفه الله تعالى بالعبودية في أشرف المقامات، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء:1)، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ (الجن:19)

كما وصفه بالسراج المنير الذي هو نتيجة للعبودية الكاملة، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45، 46]

ووصفه بعد ذلك كله بكونه رحمة للعالمين، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]

وكل هذه الأوصاف نتيجة العبودية الكاملة.. ذلك أنه بقدر اكتمال العبودية بقدر ما تتجلى فيها الربوبية وما تحمله من

رحمة ولطف وكرم..
ولـذلك نسـب اللـه تعـالى المتحققين بالعبوديـة للربوبيـة، فقال: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ الله الْكِتَـابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُـوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُـوا عِبَـادًا لِي مِنْ دُونِ اللـه وَلَكِنْ كُونُـوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]
وورد في الحـديث القدسـي مـا يـدل على مـدى اسـتقبال العبودية لمعاني الربوبية، قال ﷺ: (إن الله قـال: من عـادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقـرب إلي عبـدي بشـيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافـل حـتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصـر به، ويده التي يبطش بها، ورجله الـتي يمشـي بهـا، وإن سـألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تــرددي عن قبض نفس المــؤمن: يكــره المــوت، وأنــا أكــره مساءته) [1]
فانظر ـ أيها المريد الصادق ـ كيف أخبر رسول الله ﷺ عن تحول سمع العبد وبصره وغيرهما إلى سمع ربه وبصره.. وذلـك من غير حلول ولا اتحاد، وإنما هو انعكـاس لربوبيـة اللـه تعـالى على عبده الذي آثره على غيره.. فالعبودية مرآة للربوبية.
وهذا ما اتفق عليه جميع الحكماء الذين نزهـوا اللـه تعـالى عن الحلول والاتحاد، كما ذكـرت لـك ذلـك في رسـائل سـابقة، وهم متفقـون على أن العبوديـة هي الشـرف الأعظم للمـؤمن، لأنه يتعامل فيها مع ربه بتسـلميه المطلـق، ولـذلك ينـال فضـله المطلق.
وقد قال بعضهم معبرا عن ذلك: (رتبة العبوديـة هي أكمـل الرتب وأعلاها، وأقربها من اللـه وأدناهـا وأعظمهـا وسـيلة إليـه وأقواها وليس للخلق سواها)[2]
وقـال آخـر: (العبوديـة بناؤهـا على سـتة: التعظيم: وعنـده الإخلاص.. والحياء: وعنده اضـطراب القلب.. والمحبـة: وعنـدها الشوق.. والخوف: وعنده ترك الذنوب.. والرجاء: وعنده متابعـة الرسول، والتخلق بأخلاقه.. والهيبة: وعندها ترك الاختيار)[3]
وقال آخـر: (أوصـاف العبوديـة أربعـة هي: الفقـر، والـذل،

1() البخاري (8/ 131)
2() أحمد الرفاعي، الحكم الرفاعية، ص 14.
3() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 249.

والعجز، والضعف، والتحقق بها أن تراها لازمة لك، فلا تنفك عن النظر إليها في حال من أحوالك)[1]

وقال آخر: (صفة العبودية: ألا ترى لنفسك ملكاً، وتعلم أنك لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعاً)[2]

وقال آخر: (علامة العبودية خمسة: أولها: أن يقيم بجهده على صحة عزيمته.. والثاني: أن لا يميل بقلبه عن صحة إرادته وحسن نيته.. والثالث: أن يعرف ما في ضميره من عيوبه فيداويها بدوائها.. والرابع: أن يفهم ما عاتبه ربه فيرجع إلى ربه بما عاتب.. والخامس: إذا ابتلاه الله ببلية فطن وكاس وصبر ورجع إلى ربه، لعلمه أنه لا نافع ولا ضار غيره)[3]

وقال آخر: (العبودية مبنية على عشرة خصال: الاعتصام بالله في كل شيء.. والرضا عن الله في كل شيء.. والرجوع إليه في كل شيء.. والفقر إلى الله في كل شيء.. والإنابة إلى الله في كل شيء.. والصبر مع الله في كل شيء.. والانقطاع إلى الله في كل شيء.. والاستقامة بالله في كل شيء.. والتفويض إلى الله في كل شيء.. والتسليم له في كل شيء)[4]

وضرب آخر لذلك مثالا موضحا، فقال: (أحسن ما في تفسير العبودية، أن تقدر أن عبداً اشتريته بمالك، فكما تحب أن يكون عبدك معك، فكن أنت مع مولاك، فالعبد لا يملك مع سيده شيئاً من نفسه ولا ماله، ولا يمكنه مع قهرية سيده تدبير ولا اختيار، ولا يتزيى إلا بزي العبيد أهل الخدمة، ويكون عند أمر سيده ونهيه، وإذا كان حاذقا فاهماً عمل ما يرضي سيده قبل أن يأمره، ويفهم عن سيده بأدنى إشارة، إلى غير ذلك من الآداب المرضية في العبيد المؤدبين)[5]

وقال آخر: (يتحقق العبد بالعبودية إذا عاين أربعة أشياء: يرى الأشياء كلها ملكاً لله، ومن الله ظهورها، وبالله قيامها، وإليه مرجعها)[6]

وقال آخر: (مدار العبودية على ستة أشياء: التعظيم

1() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 206.
2() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 59.
3() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 1345.
4() أحمد الرفاعي، حالة أهل الحقيقة مع الله، ص 196، 197
5() أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 15.
6() أبو عبد الرحمن السلمي، زيادات حقائق التفسير، ص 88.

والحياء والخوف والرجاء والمحبـة والهيبـة.. فمن ذِكْـرالتعظيم: يهيج الإخلاص.. ومن ذِكْر الحياء: يكون العبد على خطرات قلبـه حافظا.. ومن ذِكْر الخوف: يتوب العبـد من الـذنوب.. ومن ذِكْـر الرجـاء: يتسـارع إلى الطاعـات.. ومن ذِكْـر المحبـة: تصـفو لـه الأعمال.

وقـال آخـر: (تصـحيح العبوديـة: بملازمـة الفقـر، والعجـز، والضعف والذل لله تعالى. وأضدادها أوصـاف الربوبيـة، فمالـك ومالها، فلازم أوصافك وتعلق بأوصاف الله تعالى)[1]

وقال آخـر: (العبـادة أصـلها سـتة أشـياء: التعظيم والحيـاء والخـــوف والرجـــاء والمحبـــة والهيبـــة، فمن لم تتم لـــه هـــذه المقامات لم تتم له العبودية)[2]

وقال آخر: (حقيقة العبوديـة: هي ملازمـة الحضـور، وعـدم الغيبة والغفلـة، بالشـهود والمراقبـة مـع اللـه سـبحانه وتعـالى، بحيث يكون العبد موجـوداً باللـه تعـالى، متحركـاً بـه سـاكناً بـه، متكلماً به.. وكل شيء يدركـه بالعقـل أو بـالحس كـذلك عنـده، فجميع العالم عنده قائمون باللـه تعـالى، على مثالـه، بلا شـعور منـه بـالغير من حيث هـو غـيره لا بنفسـه، فـيرى العـوالم كلهم قـائمين باللـه تعـالى، فاللـه يحـركهم، واللـه يسـكنهم، والكـل أفعاله، والحركات له، والسكنات له، لا لنفوسـهم.. فهـو هم من حيث التأثير، وهم ليسوا هو من حيث التصوير والتغيير)[3]

وذكـــر بعضـــهم الفـــرق بين أوصـــاف الربوبيـــة وأوصـــاف العبودية، فقال: (إن العبودية لها أوصـاف أربعـة، والربوبيـة لهـا أوصـاف أربعـة: فأوصـاف العبوديـة: الفقـر والضـعف والعجـز والذلـة.. وأوصـاف الربوبيـة: الغـنى والقـوة والقـدرة والعـزة.. وكلما تحقق السالك بوصف من أوصـاف العبوديـة أمـده الـرب بوصف من أوصاف الربوبية)[4]

هذا جـوابي على أسـئلتك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاسـع لتهـذيب نفسـك وتزكيتهـا لتتحلى بعبوديتهـا لربهـا؛ فلن تتحقـق بكمالها الممكن لها إلا بقدر تحليها بتلك العبودية الشـريفة الـتي تجعلها مستعدة لكل المكارم.

1() أحمد بن محمد بن عباد، مخطوطة الموارد الجلية في أمور الشاذلية، ص 75.
2() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 248.
3() عبد القادر أحمد عطا، التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس، ص 209.
4() إبراهيم بن مصطفى الموصلي، منظومة مع شرحها في التصوف، ص 16.

ولن يعينك على ذلك مثل اقترابك من تلك السرج المنـيرة التي توفرت لها كـل أركـان العبوديـة؛ فصـارت مـرائي صـقيلة للحق، لا يمكن أن يعرف من دونها، ولا أن يسـير إليـه أحـد من غــير أن يتبعهــا، كمــا قــال تعــالى: ﴿قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللــه فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللـه وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَاللـه غَفُـورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 31]

فاسع ـ أيها المريد الصادق ـ لأن تكون من السائرين خلف نبيك ﷺ، ومن دعا إلى الاهتداء بهم من أئمـة الهـدى، واسـع لئلا يسبقك إليهم أحد.. فالقرب منهم قرب من الله، ومحبتهم محبة لله، ورضـاهم رضـا اللـه؛ فكن معهم، وإيـاك أن يغـرك الأغيـار؛ فتحجب عنهم، وبحجابك عنهم تحجب عن الحق.. فالحق جعلهم هداة إليه، ولا يمكن لمن أعرض عن الهداة أن يصل إلى شيء.

فاجعــل كــل جهـدك لأن تشــرب من أحــواض هــديهم في الدنيا، لتسقى من نبع كوثرهم في الآخرة.

هذا الكتاب

يحـاول هـذا الكتـاب البحث عن المعـارف الكـبرى للنفس المطمئنة، والتي تجعلها موصوفة بالرضى، كمـا قـال تعـالى: ﴿ارْجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِـيَةً﴾ [الفجـر: 28]، وقد ركزنا فيه خصوصا على أمرين:

1ـ تطهير تلك المعـارف ممـا علـق بهـا من الـدخن الــذي أصــاب كتب التزكيــة والســلوك، بحيث اختلطت معارفها المستنبطة من المصـادر المقدسـة بغيرهـا من المصـادر الأجنبيـة: إمـا ذات التوجـه العقلي، كالفلسـفة بمدارســـها المختلفـــة، أو ذات التوجـــه الإشـــراقي والغنوصي، والذي قد يظهر في صورة كشـف أو شـهود أو إلهام.

2 ــ بيـان علاقـة تلـك المعـارف بالرضـا والسـكينة والطمأنينة، وهو مما يدخل في أبواب المقاصد العقدية، والــتي لا تكتفي فقــط بتقريــر الحقــائق الإيمانيــة، ولا البرهنة عليها مثلما يفعل المتكلمون، وإنما تضيف إليهـا أبعادهـا وآثارهـا النفسـية، وعلاقتهـا بالسـلوك والتزكيـة والتربية.

ذلــك أن المعــارف الإيمانيــة لا يقتصــر أثرهــا على تعريف المؤمن بحقائق الوجود، وإنما يتعداه إلى تــأثيره في السـلوك، ولـذلك كـان من علامـات صـدق الإيمـان رقي السلوك.